تيسير التفسير

لقطب الأيمـــّة
الشيخ الحاج امحمَّد بن يوسف اطفـيَّش
(ت: ١٣٣٢هـ/١٩١٤م)

(الثالث عشر)

تحقيق وإخراج
الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي
بمساعدة لجنة من الأساتذة

وضع التراجم وتخريج الأحاديث

الأستاذان: كروم أحمد وبازين عمر

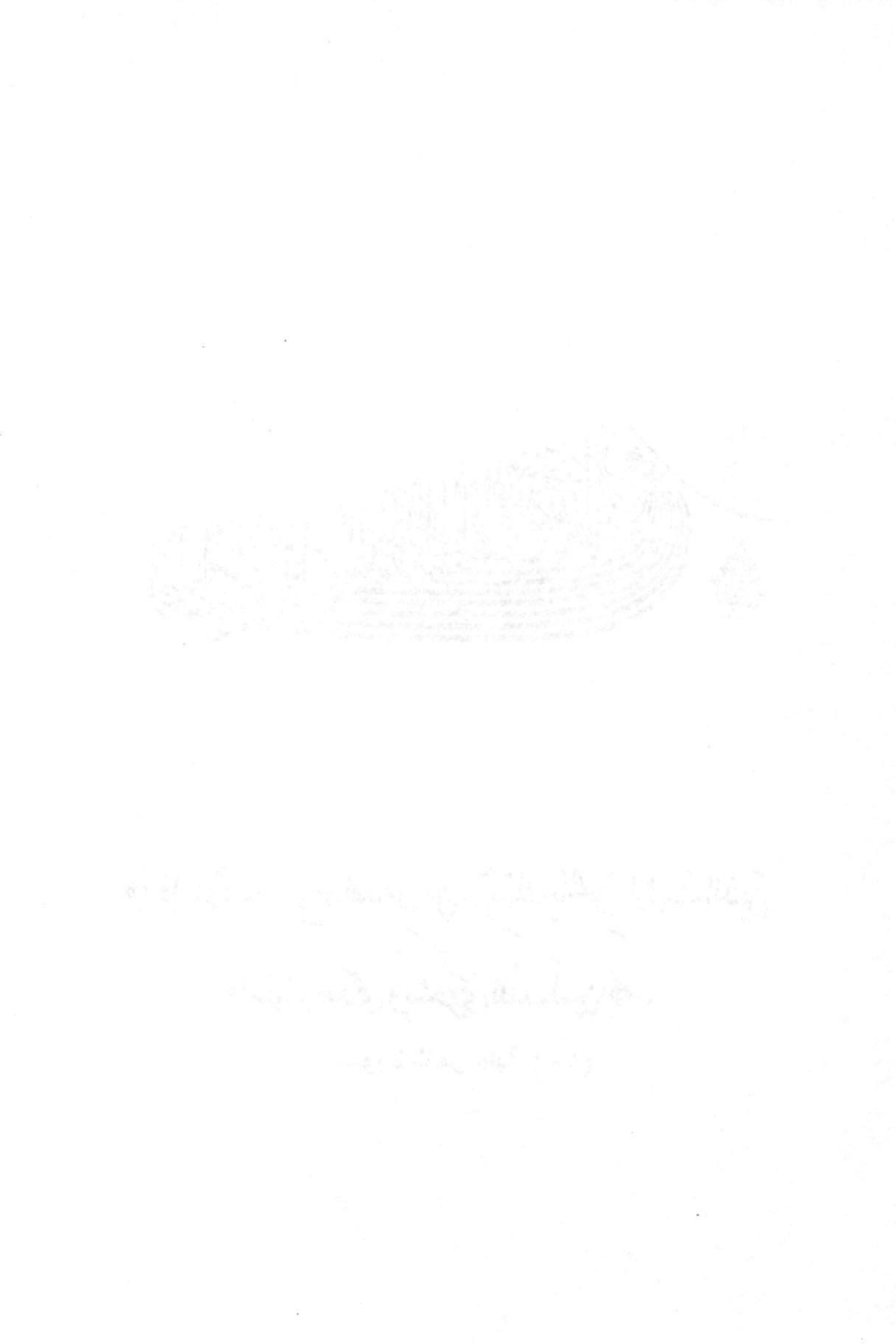
الفهرسة ومتابعة الطبع

الأستاذان: مصطفى الشريفي ومصطفى طلاي



﴿ قل نزّله روح القدس من ربّك بالحقّ ليثبت الذين ءامنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ .

(سورة النحل ءاية ١٠٢)



تفسير سورة الشورى وآياتها ٥٣

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾

إنزال الوحي وعظمة الله ورقابته لأحوال المشركين

﴿حمِ عَسقَ﴾ فصل «حم عسق» ولم يفصل «ألمص» و«ألَر» و«كهيعص» ونحو ذلك لأنّها بين سور أوائلها «حم» فجرت مجرى نظائرها، ولأنَّ بعضا قال: «حم» فعلٌ، أي حمَّ الأمر، أي قضي. وعن ابن عبَّاس رَضِيَ الله عَنْهُ : «ما من نبيء صاحب كتاب إلاّ أوحي إليه حم عسق».

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الذينَ مِن قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الإشارة إلى التوحيد وتوابعه، أو إلى الإيحاء السابق.

(نحو) والمضارع للتجدُّد في زمانه ﷺ ، وزمان من قبله. و«اللَّهُ» فاعل «يُوحِي» أوِ لحكاية الحال الماضية، ومفعول «يُوحِي» محذوف، أي التوحيد وتوابعه، أو يوحي إليك الغيوب، أو مفعوله هو قوله تعالى: ﴿لَهُ, مَا فِي السَّمَاوَات...﴾ إلى آخر السورة، أي يوحي إليك هذه الألفاظ لمعانيها، أو الكاف [من «كَذَلِكَ»] على أنّها اسم مضاف لاسم الإشارة.

﴿لَهُ, مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الاَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ تقرير لعزَّة الله تعالى وحكمته ﴿يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشقَّقن من عظمة شأن الله تعالى، أو من ادِّعاء الشريك والولد، ويدلُّ له ما في سورة مريم: ﴿يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ (سورة مريم: ٩٠) ويناسب قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ﴾.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿أَلآَ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فلا يدلُّ على أنَّ المراد التفطُّر بدعاء الولد والشريك من حيث إنَّه كلام يستوجب العذاب عاجلاً فأُخِّر عنهم لأنَّه غفورٌ رحيمٌ، لأنـــَّا نقول: ذلك صورة تستدعي الاجتراء على ادِّعاء الولد والشريك بلا توبة، لأنَّه لم يذكر التوبة.

ولو قيل لك: فلان يشرك بالله، فقلت: الله غفور رحيم، لم يحسن جوابك، لأنَّك لم تذكر التوبة، ولا ذكرها القائل.

وعلى التفسير بادِّعاء الولد والشريك تكون الآية تنزيهًا بعد إثبات الْمَالكيَّة والعظمة، ويبحث بأنَّ المقام لبيان عظمة الله عَزَّ وَجَلَّ والتنزيه، ولو دلَّ على العظمة ليس مصرَّحًا به، وإنَّما هو في ضمن مُتَعَلَّق «يَتَفَطَّرْنَ».

(صرف) وإنَّما لم يقل: "تتفطَّرن" بتاء التأنيث والغيبة، لأنَّ العرب لا تجمع بين علامتي تأنيث في كلمة، أو ما هو كالكلمة الواحدة، و«يَتَفَطَّرْنَ» كالكلمة الواحدة مثل «يَترَبَّصْنَ» و«يُرْضِعْنَ»، إلاَّ قليلاً، كما قرئ: «تَتَفطَّرْنَ» بتاءيْن، و«تَنْفَطِرْنَ» بالتاء والنون، وأمَّا "قامت الهندات" فليستا فيه داخلتين على كلمة، ولا على ما كالكلمة الواحدة.

﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ من سطحهنَّ الأعلى، لأنَّه المقابل لعظمة العرش والكرسيِّ والملائكة، وهم أعبد من المؤمنين وأبعد عن المعاصي، ولاعتبار ذلك لم يقل:

"من تحتهنَّ"، مع أنَّـهُ سبب التفطُّر من تحت، وهو العصيان، أو للمبالغة بحيث بدأ التشقُّق من فوق، أو المراد: يتشقَّقن من فوقهنَّ فكيف من تحتهنَّ.

و«مِنْ» للابتداء، يبتدئن التفطُّر من أعلاهنَّ، أو من جهة الفوق، فـ«مِنْ» سَبَبِـيَّة، لأنَّ العرش والكرسيَّ سبب، وإذا تفطَّرن من فوقهنَّ بذلك فأولى أن يتفطَّرن من تحتهنَّ لما تحتهنَّ من ادِّعاء الولد والشريك. ويبعد أنَّ الهاء للأرضين المعبَّر عنهنَّ بالأرض، على أن يراد بها الجنس، لأنَّه خلاف الظاهر، ولأنَّ الفوقيَّة على هذه الأرض فوقيَّة على ما تحتها، ولا داعي إلى اعتبارهنَّ هنا.

ويبعد كونها لجماعة الكُفَّار، أي يتفطَّرن لكلامهم الباطل، لأنَّ ذلك خلاف الظاهر، ولأنَّه لم يجر لهم ذكر.

﴿**وَالْمَلآئِكَةُ**﴾ مبتدأ خبره ما بعده، أو معطوف على نون «يَتَفَطَّرْنَ» وما بعده حال، والأوَّل أولى، لأنَّ الثاني يؤول إلى قولك: «يكاد السموات تتفطر الملائكة».

﴿**يُسَبِّحُونَ**﴾ ينزِّهون الله عمَّا لا يليق به، وقيل: يصلُّون ﴿**بِحَمْدِ رَبِّـهِمْ**﴾ كلُّهم، وقيل: المراد هنا حملة العرش ﴿**وَيَسْتَغْفِرُونَ**﴾ يطلبون مغفرة الذنوب، وقيل: يشفعون، ﴿**لِمَن فِي الاَرْضِ**﴾ من المؤمنين، كما قال الله عَزَّلَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ إلى: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ...﴾ (سورة غافر: ٠٧).

وقيل: ﴿لِمَن فِي الاَرْضِ﴾ كلِّهم، بمعنى يدعون لهم بالهداية، ويسعون في أسباب المغفرة، كالإلهام والإعانة في بعض أمور المعاش، وسؤال الرزق لهم، ودفع العوائق، وطلب تأخير العقاب ليؤمن المشرك، ويتوب الفاسق. أو يسْعَوْنَ فيما يدفع الخلل، فيشمل الحيوان.

﴿أَلَآ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لا مكلّفَ إلاّ وَله حظٌّ عظيم من المغفرة والرحمة، فضَيَّعه من ضيَّعه بالإصرار، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ (سورة الرعد: ٠٦) لا يتعاظمه ذنب التائب، فقد استجيب دعاء الملائكة.

﴿وَالذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ﴾ شركاء ﴿اللهُ حَفِيظٌ﴾ رقيب ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على أحوالهم فيجازيهم، هو لا أنت، يعاقبهم على الكفر، ولا تقهرهم على الإيمان كما قال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بموكَّل عليهم. "فعيل" من الثلاثي، بمعنى "مفعول" من الرباعيِّ بالتشديد، أي: لا بموكول إليك أمرهم، بحذف "إلى" وغيرها، وبالإيصال، لأنَّ ذلك خلاف الظاهر، ولأنَّ قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لا يجتمع معه، وإنَّما وظيفتك التبليغ. وليس هذا نهيا عن القتال فضلا عن أن ينسخ بآية القتال.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ⑦ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ⑧ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑨ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ⑩ فَاطِرُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ⑪ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

مقاصد الوحي الإلهي

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أوحينا إليك القرآن مثل ذلك الإيحاء إلى من قبلك، أو أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا كما أوحينا إليك غيره، أو أوحينا إليك هذه السورة العَرَبِيَّة كما أوحينا إليك غيرها.

وَقيلَ: الإشارة إلى معنى قوله: ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ على أنَّ الكاف مفعول به لـ«أَوْحَيْنَا»، و«قُرْآنًا» حال منها، أو إلى لفظ ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ...﴾، والموحى يطلق على المعنى وعلى اللفظ، وهو الأصل، إلاَّ أنَّ بين اللفظ والمعنى مقاربة قويَّة، حتَّى إنَّه ينسب لأحدهما ما للآخر.

(بلاغة) ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ مجاز بالحذف، أي أهل أمِّ القرى، أو تجَوُّزٌ في النسبة الإيقاعية لعلاقة الحلول، وهي مَكَّة، سُمِّيَت لأنَّها دحيت الأرض منها، **أو هي أمٌّ لما حولها من القرى،** لأنَّها حدثت قبلها، لا قرى الدنيا كلِّها.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب، لأنَّ السورة مَكِّيَّة، وهم أقرب إليه محلاًّ ونسبًا، فهم أوَّل من يُنذَر، ولدفع ما يتوهَّم أنَّه يشفع لهم ولو بقوا على الإشراك، لفضل مَكَّة وقربهم محلاًّ ونسبًا، ومن استحقَّ الإنذار مكلَّف.

وقيل: «مَنْ حَوْلَهَا» جميع أهل الأرض، وهي وسطها، ويردُّه تخالف الطول والعرض، وأمَّا من حيث العمران فعمران الشمال أكثر من معمور الجنوب.

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ والإنذار يتعدَّى لاثنين، حذف الثاني من الجملة الأولى، أي لتنذر أمَّ القرى يوم الجمع، وحذف من الجملة الثانية المفعول الأوَّل، أي وتنذر من حولها يوم الجمع، حذف من كُلِّ واحدٍ ما ثبت في الآخر بطريق الاحتباك، وقد يتعدَّى إلى الثاني بالباء.

أو يقدَّر المحذوف عامًّا، فالحذف للعموم، أي لتنذر أمَّ القرى كلَّ مخوف من الدنيا والآخرة، وتنذر كلَّ أحد يوم الجمع.

ومعنى الجمع جمع الخلق، كما قال الله ﷿: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُم لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ (سورة التغابن: ٠٩) وقيل: جمع الأرواح والأشباح أي الأجساد، وقيل: جمع الأعمال والعمال ﴿لاَ رَيْبَ فِيه﴾ حال من «يَوْم»، أو مستأنف، وكأنَّه قيل: فما حالهم بعد جمعهم في الموقف؟ فقال:

﴿فَرِيقٌ﴾ مبتدأ حذف نعته، أي فريق منهم ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾ خبر ﴿وَفَرِيقٌ﴾ منهم ﴿فِي السَّعِيرِ﴾ أو خبر لمحذوف، أي هم فريق في الجنَّة، وفريق في السعير، أو منهم فريق في السعير.

روى أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاصي عن رسول الله ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: **أتدرون ما هذان الكتابان؟** قال: قلنا: لا إلاَّ أن تخبرنا يا رسول الله، قال للذي في يده اليمنى: «**هذا كتاب من رَبِّ العالمين تبارك وتعالى بأسماء أهل الجنَّة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثمَّ أجمل على آخرهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا، ثمَّ قال للذي في يساره: هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا**»، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فلأيٍّ شيء إذن نعمل إن كان هذا أمرا قد فرغ منه؟ قال رسول الله ﷺ : «**سدِّدوا وقاربوا، فإنَّ صاحب الجنَّة يختم له بعمل أهل الجنَّة وإن عمل أيَّ عمل، وإنَّ صاحب النار ليختم له بعمل أهل النار وإن عمل أيَّ عمل، ثم قال بيده فقبضها ثمَّ قال: فرغ ربُّكم ﷿ من العباد، ثُمَّ قال باليمنى**

فنبذ بها فقال: فريق في الجنـــة ونبذ باليسرى فقال: فريق في السعير»[1].

﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ﴾ مشيئة قهر التوفيق بينهم، أو شاء جعلهم أُمَّة واحدة **﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾** من حيث الدين، أي مهتدين كلُّهم أو ضالِّين كلُّهم، كما قال ابن عبَّاس رضي الله عنه : «لجعلهم على دين واحد» ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (سورة الأنعام: ٣٥) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ (سورة السجدة: ١٣).

وقال مقاتل: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على دين الإسلام، وتدلُّ له الآيتان المذكورتان، ويناسب أنَّ المراد أمَّة واحدة أي على الضلال قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (سورة البقرة: ٢١٣) أي على الضلال في أحد الأوجه بأن لا يبعث نبيئا، ولكن هذه الآية ليست على طريقة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (سورة هود: ١١٨).

﴿وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ بأن يختلفوا بالدين فيدخل المهتدين الجنَّة ويدخل الضالِّين النار لضلالهم باختيارهم كما قال:

﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ﴾ بنسب أو صحبة **﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾** مطلقا يدفعان عنهم العذاب. ومقتضى الظاهر: ويدخل من يشاء في عذابه، ولم يقل ذلك لأنَّ الإدخال في العذاب بعملهم الذي اختاروه وهو الظلم، وأمَّا الإدخال في الرحمة فبفضله، لأنَّ الإيمان والوفاء بالدين لا يفيان بالرحمة، وإنَّما هي من فضله.

١- رواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة رقم ٦٥٢٧. ورواه **الترمذي** في كتاب القدر (٨) باب ما جاء أنَّ الله كتب كتابا لأهل الجنَّة وأهل النار رقم ٢١٤١. من حديث عبد الله بن عمرو. وروى **الربيع** ما هو قريب منه في مسنده ج٣ رقم ٧٩٦ و٧٩٩ من حديث ابن عبَّاس.

﴿أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ﴾ تقرير لنفي أن يكون للظالمين وليٌّ أو نصير. و«أم» منقطعة بمعنى بل التي للإضراب الانتقالي، أو الجملة مُتَّصلة بقوله تعالى: ﴿وَالذِينَ اتَّخَذُواْ...﴾ و«أم» للإضراب الإبطالي، أي دع الطمع في إيمانهم، أليسوا الذين اتَّخذوا من دونه أولياء؟.

وإن قلنا «أم» بمعنى بل والهمزة، فالهمزة لإنكار لياقة اتِّخَاذ الأولياء من دونه، واستقباح ذلك الاتِّخاذ الواقع، أو لنفي وقوع الاتِّخاذ بأبلغ وجه، كأنَّه لاستحالة لياقته وظهور قبحه غير واقع، أو كأنَّ اتِّخاذهم ليس من الاتِّخاذ في شيء لظهور امتناعه.

﴿فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ لك يا محمَّد ولمن اتَّبَعَك، تعليل لذلك الإضراب والإنكار، على تقدير نهي: أي لا يتَّخذوها لأنَّ الله...الخ، أو جواب لمحذوف، أي: إن أرادوا وَلِيًّا بحقٍّ فالله هو الوليُّ بحقٍّ، أو إن أرادوا وَلِيًّا فالله هو الوليُّ الذي ينفع فليتركوا غيره، أو يُقَدَّرُ: أخطأوا فالله هو الوليُّ، أي لأنَّ الله وحده هو الوليُّ الحقيق.

﴿وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ من شأنه إحياؤها في الدنيا والآخرة كما أحيى عزيرا[1] وألوفا خرجوا من ديارهم، ومن لا يحييها لا يُتَّخذُ وَلِيًّا معبودا ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكيف يُتَّخذ وَلِيًّا معبودا من يقدر على بعض الأشياء فقط، كالملائكة، وما لا يقدر على شيء مَّا، كالشمس والصنم!.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ﴾ أنتم أيُّهَا النبيء والمؤمنون وَالكُفَّار ﴿فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ كاتِّخاذكم أيُّهَا النبيء والمؤمنون الله وحده وليًّا.

وقيل: الخطاب للمؤمنين فيما تنازعوا فيه من الخصومات، كقوله تعالى:

١- راجع سورة البقرة آية ٢٤٣ وآية ٢٥٩.

﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ...﴾ (سورة النساء: ٥٩) وفي الروح ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنَ اَمْرِ رَبِّي﴾ (سورة الإسراء: ٨٥) فقد حكم الله فيها، ومِنْ تفسيرِ آيةٍ من المتشابه أو غيره، **والظاهر عموم الخطاب للمؤمنين والكافرين**، والسياق للكفرة، ودخل المؤمنون بالاختلاف.

﴿فَحُكْمُهُۥ إِلَى اللَّهِ﴾ راجع إلى الله عز وجل العالم به يحكم فيه فيثيب المحقَّ ويعاقب المبطل **﴿ذَٰلِكُمُ﴾** أي العالي الشأن **﴿اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾** أي قل: «ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي...». ويجوز أن يكون مع ما قبله تسليةً لرسول الله ﷺ. لَمَّا كان التوكُّل دفعة كان بالماضي، والإنابة تتجدَّد بحسب الحوادث كانت بمضارع التجدُّد.

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فاطر خبر رابع إذا جعلنا «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» خبرا، فيكون من الإخبار بالمفرد بعد الجملة، والأولى خلافه، فالجملة معترضة، أو يقدَّر مبتدأ، أي هو فاطر، أو بدلٌ من «رَبِّي».

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنَ انفُسِكُمُ﴾ من جنسكم الآدمي **﴿أَزْوَاجًا﴾** نساء للوطء والولادة وسائر المنافع **﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ﴾** لَكُمْ، عطفٌ على «مِنَ انفُسِكُمْ» **﴿أَزْوَاجًا﴾** عطف على «أَزْوَاجًا» ذكورا وإناثا، لتنتفعوا بالأكل واللباس والحمل وغير ذلك، وذلك من العطف على معمولَي عامل.

وكذا إن قلنا: المعنى جعل من الأنعام أزواجا للتوالد بين ذكورها وإناثها، كما جعل لكم نساء، فالذكر منها مطلقا كالزوج للأنثى، أو أزواجا ذكورا وإناثا، كما في سورة الأنعام [آية ١٤٣و١٤٤]، وهي لا تَتزَوَّجُ كما تَتزَوَّجُ الطيور.

﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يكثِّركم، وقال ابن عبَّاس وغيره: «يجعل لكم معيشة ورزقا». وعن مجاهد: «يخلقكم نسلا بعد نسل». **﴿فِيهِ﴾** أي فيما ذكر من التدبير بجعل

الأزواج منكم ومن الأنعام، وقيل: الضمير للجعل المفهوم من «جَعَلَ»، و«في» للظرفية، أي: في خلال ذلك وأثنائه فهو كالمنبع للكثرة، ويجوز أن تكون للسببيَّة. وقيل: الهاء للبطن المدلول عليه بالمقام، و«في» للظرفية.

والخطاب للعقلاء فقط، فلا تغليب لخطابهم على غيبة الأنعام، ولا للعقلاء عليها، كما يقول من ادَّعَى أنَّ الخطاب لهم ولها.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ مَّا من الأشياء، فلا تزاوج بينه وبين غيره، كما تزاوجتم وتزاوجت الأنعام، ولا مشاركة لغيره في شأن من الشؤون التي منها التدبير البديع السابق، ومثله ذاته التي لا تُكيَّف، لكن عبَّر بما يفيد نفي المماثلة عن مِثْلِ مِثْلِه، لو كان له مثل، فكيَّف عنه بطريق المبالغة، إذ لا مثل له في نفس الأمر.

والعرب تقيم المثل مقام نفس الشيء، كقولهم: «مثلك لا يبخل»، أي أنت لا تبخل، إلاَّ أنَّه عبَّروا بما أفاده انتفاء البخل، وأنَّه من جماعة لا يبخلون، وهو أبلغ من قولك: «أنت لا تبخل».

وقيل: المثل الصفة، وكذا شيء ليس كصفته صفة، وقيل: الكاف زائدة للتأكيد، وهو أولى من القول بزيادة المثل، ولو كانت هي المتقدِّمة، لأنَّ زيادة الحرف أولى من زيادة الاسم، والمماثلة تكون في الذاتيات وفي العوارض، نحو: الفرس مثل الإنسان في الحيوانيَّة، ومثله في الحركة والأكل والشرب.

ويجوز أن يكون المراد نفي المثل عنه تعالى بمعنى أنَّه لو كان له مثل لكان مثل ذلك المثل، كقولك: ليس لأخي زيد أخ، أي لا أخ له إذ لو كان له أخ لكان لذلك الأخ أخ، وهو زيد، وذلك من نفي الشيء بنفي لازمه، لأنَّ نفي اللازم يستلزم نفي الملزوم.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ العليم بالأصوات وغيرها، من الأجسام والألوان والأعراض والأطوال، وغير ذلك مِمَّا يدرك بالبصر، تعالى الله عن الحواسِّ، أو

البصير العالم بالموجودات مطلقا، كما قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ **وهكذا الوجهان كلّما ذكر سمعه تعالى وبصره معا.** وقدَّم نفي المثل على طريق تقديم التخلّي على التحلّي، وهو أهمُّ بنفسه، وبالنظر إلى المقام سبحانه عن كلِّ نقص.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ﴾ مفاتيح **﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** له البسط **﴿وَيَقْدِرُ﴾** يضيِّقه عمَّن يشاء التضييق عنه **﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** فأفعاله كلُّها حكمة، وهذا تعليل لما قبله من البسط والقدر، أي لأنَّه بكلِّ...إلخ وتمهيد لقوله:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

وحدة الأديان في أصولها

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ فإنَّ شرعه ذلك من كمال علمه وحكمته، وخصَّ هؤلاء بالذكر لشهرتهم، لعلَّ الكفَّار يميلون إلى ما جاءوا به من التوحيد وتوابعه، ولأنَّهم أولوا عزم وأصحاب شرائع مشهورة، والأتباع الكثيرة.

(بلاغة) وفي تقديم هذه الأُمَّة وخطابها بخطابها في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ تشريف لها ولنبيئها ﷺ ، وكذا في ذكره ﷺ بالإيحاء بعد

ذكر التوصية، وقبل ذكر إبراهيم وموسى وعيسى بالتوحية، للتصريح برسالته ﷺ ، القامعة لمنكريها.

(بلاغة) وأكّد الإيحاء بنون العظمة تشريفًا له ولكتابه، وناسب ذلك تعبيره بـ«الذي» التي هي أصل الموصولات، وعبَّر في غيره بـ«ما» [سورة النساء آية ١٦٣]. وفي تقديم «لَكُم» إيماء إلى أنّ ما أوحي إلى نوح موحًى به إلى النبيء ﷺ ، لأنّ الرسل قبله نائبون عنه، وهو أوَّل الرسل بهذا الاعتبار.

﴿أنَ اَقِيمُواْ الدِّينَ﴾ إيتوا به قائمًا على الدوام، أو مستقيمًا لا خلل فيه. و«أنْ» حرف تفسير لـ«شَرَعَ»، إذ فيه معنى القول، ومن العجيب أن تجعل مَصدَرِيَّة مخفَّفة أو خفيفة مع أنّ مدخولها إنشاء لاخارج له يراد بالمصدر.

ومعنى إقامة الدين التوحيدُ والعبادةُ والإيمانُ بالكتبِ والرسلِ والبعث، وشمل ذلك الأصول وما أمروا به من الفروع، وَأَمَّا غير ذلك فقد قال الله ﷻ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (سورة المائدة: ٤٨).

والفروع كمكارم الأخلاق، فإنَّها متَّفق عليها في الأمم، وكالصلاة والصوم والتقرُّب بصالح الأعمال، والصدق والوفاء بالوعد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم أخذ الأموال، والزنى والكبر والظلم، والاعتداء على الحيوان، إلاّ أنّ صلاتهم ليست كصلاتنا خمس صلوات، وزكاتهم ربع المال، وصومهم في غير رمضان، أو فيه فبدَّلوه، وزادُوا. وفي المدينة شُرِعَ الصوم والزكاة.

وقد قيل: المراد بإقامة الدين تحليل الحلال وتحريم الحرام بحسَب ما أوحي إليهم، وقيل: لم يبعث الله نبيئًا إلاّ وأمره بالصلاة والزكاة بعد التوحيد وبالأُلْفَةِ والجمَاعَة.

﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ في الدين بأن يأتي به بعض ولا يأتي به بعض، أو يأتي بعض ببعضه فقط، أو يزيد عليه بعض، والخطاب في الموضعين للأنبياء والأمم، فإنَّها معلومة بذكر الأنبياء، والخطاب في نفس الأمر للأمم، لأنَّهم هم الذين يقع منهم عدم الإقامة، ويقع منهم الاختلاف، ويجوز أن يقدَّر بعد قوله: ﴿وَعِيسَىٰٓ﴾ شرع لأممهم أن أقيموا الدين.

وقيل: لم يُشرِّع لآدم إلاَّ التوحيد وذكر الله وتحريم الزنى والظلم، ونحو ذلك، وفي عهد نوح حرِّمت الأمَّهات والبنات، وهذا خطأ فإنَّهما محرَّمتان على عهد آدم عليه السلام، ولم يشرِّع الحجَّ لأمَّة موسى ومن بعده من الأنبياء، إلاَّ نبيئنا ﷺ، ولا للأمم قبل موسى عليه السلام، قال عليٌّ: «لا تتفرَّقوا فالفرقة عذاب والجماعة رحمة».

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمُ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد، ورفض كلٍّ معبودٍ سوى الله تعالى، أو من إقامة الدين وترك مخالفة المسلمين فيه، ولفظ المشركين يدلُّ على الأوَّل، ولكن البعث يدخل في التوحيد، كما قيل لمنكره: ﴿أَكَفَرْتَ بِالذِي خَلَقَكَ﴾ (سورة الكهف٣٧).

وسلَّى الله تعالى رسوله ﷺ بقوله: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَّشَآءُ﴾ إذ تضمَّن أنَّ من قومك من سيؤمن، و﴿يَجْتَبِي﴾: يصطفي، وعدَّاه بـ«إلى» لتضمُّنه معنى الردِّ، أي يَرُدُّه إليه عن الشرك، أو معنى الجمع، يقال: جمعت كذا إلى كذا. والهاء لله عز وجل، ولو لزم عمل عامل في ضميرين لمسمًّى واحد، لأنَّ أحدهما معمول بواسطة حرف الجرِّ، وهو في القرآن كثيرٌ. وكذا الهاء في قوله:

﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُّنِيبُ﴾ عائدة إليه تعالى، ومعمولة بواسطة الجارِّ مع المضمر المستتر العائد إلى الواحد سبحانه وتعالى، ومقتضى الظاهر: «ويهديه»، لأنَّ المجتبى

هو هذا المنيب، ولكن لم يضمر له لبيان أنَّ الاصطفاء متأثِّر بالإنابة إليه، ومن لم ينب.إليه لا يكون مصطفى.

ولا تكرير بين الاجتباء و الهداية، لأنَّ الاجتباء معناه: تمييزه وتشخيصه ليكرم، وبعد ذلك إكرامه بالهدى، وقيل: هما فريقان مصطفون، وهم أفضل، ومنيبون. ويجوز عود الهاء في الموضعين لما في قوله: ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ فيتَّفق مرجع الضمائر وهي الهاءات في «إِلَيْهِ» في المواضع الثلاثة.

(بلاغة) ويجوز عوده إلى «الدِّين» في قوله: ﴿أَنَ اَقِيمُواْ الدِّينَ﴾ فيتَّفق مرجع هاء «فِيه» وهاء «إِلَيْه» في الموضعين الأخيرين، وفيه مناسبة لَفْظِيَّة، وهي اتِّفَاق هاء «فيه» وهاء «إِلَيْه» في الموضعين الأخيرين، وَمَعْنَوِيَّة هي اتِّحَاد المجتمع عليه والمتفرَّق فيه، والكلام هو في عدم التَّفَرُّق في الدين، فناسب الجمع والانتهاء إليه.

وقيل: «مَا» وهاء «إِلَيْه» في قوله: ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْه﴾: الرسالة، أي: ما تدعوهم إلى الإيمان به، وهو الرسالة، وهو خلاف الظاهر بلا دليل ولو صحَّ في المعنى، وهاء «إِلَيْه» في الموضعين الأخيرين لله، ردٌّ عليهم.

﴿وَمَا تَفَرَّقُواْ﴾ أي: أمم الأنبياء بعدهم منذ بعث نوح في أمر دينهم، في وقت من الأوقات، أو حال من الأحوال. ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ الواو لأعْقاب من في سفينة نوح، وقيل: لأهل الكتاب تفرَّقوا حسدًا له ﷺ ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الذينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةَ﴾ (سورة البيِّنة: ٤) و﴿الذين أُورِثُواْ الْكِتَابَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾: مشركو مكَّة، والكتاب القرآن. وقيل: الواو لقريش، وهم المشركون الذين كبر عليهم ما يدعوهم إليه، كانوا يتمنَّون نبيئًا منهم فلمَّا جاءهم كفروا به.

﴿إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ من الله في أمر دينهم على ألسنة أنبيائهم فلا عذر لهم، والمراد كل أمَّة اختلفت فيما بينها، أو بعد العلم كذلك، بأنَّ التفرُّق حرام متوعَّد عليه، والأوَّل أولى. و«جاء» مجازا عن حَصُل، لجامع مطلق الحضور، أو حقيقة، والتجوُّز في العلم إذ عبَّر به عن سببه وهم الأنبياء، أو خلائفهم.

﴿بَغْيًا﴾ على محمَّد ﷺ وعلى غيره ﴿بَيْنَهُمْ﴾ نعت «بَغْيًا» أو متعلِّق به، والبغي: الظلم، أو الطلب للرئاسة، والأوَّل أولى، إذ لا دليل على الرئاسةِ، والبغيُ متضمِّن لها.

﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّـكَ﴾ وعدٌ بأن لا يعاجلهم بالعذاب ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يوم القيامة أو تمام أعمارهم ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بتعذيب من فرقته بمخالفة للحقِّ تعذيبَ استئصال، والمراد: لقضي بينهم كلِّهم، فلا يشكل بمن أهلك كعاد وثمود، أو المراد: لقضي عقب تفرُّقهم، و لم يؤخَّروا أعوامًا.

﴿وَإِنَّ الذِينَ أُورِثُواْ الْكِتَابَ﴾ عَلَّمهم الله التوراة والإنجيل والزبور، فـ«الْ» للجنس، والإيراث: إيراثُ تعليمٍ قبل النبيء ﷺ مع الحياة إلى رسالته، أو في حياته، لا إيرَاثَ وَحْيٍ. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ بعد أسلافهم الأحبار أو بعد الأمم، أو بعد الأنبياء السابقة، وهم أيضًا من أواخرهم، فالمراد الذين على عهد رسول الله ﷺ ، والآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَـيِّـنَةُ﴾ (سورة البينة: ٤).

﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من الكتاب الذي أوتوه، أو من محمَّد ﷺ ﴿مُرِيبٍ﴾ موقعٍ لهم في الاضطراب، فهم ولو آمنوا به غير مؤمنين به حقَّ الإيمان، ويدلُّ لذلك أنَّهم حرَّفوه؛ أو موقعٌ لأعقابهم في الريبة.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

الأمر بالدعوة والاستقامة ودحض حجَّة المجادلين

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ الفاء عاطفة، والإشارة إلى الائتلاف المأمور به من النهي عن التَّفَرُّق، أو إلى ما أوصى به الأنبياء من التوحيد والعمل. واللام بمعنى إلى، متعلِّق بقوله تعالى: **﴿فَادْعُ﴾** وفاؤه صلة، أو في جواب شرط، أي: إذا كان التَّفرُّق موجِبًا للعذاب بالاستئصال لولا أنَّ الله عز وجل يؤخِّر العقاب فادْعُ إلى الائتلاف.

أو اللام للتعليل والإشارة إلى العذاب، متعلِّق بـ«ادْعُ» على وجه الشرط، أو الصلة ومعموله الآخر محذوف، أي: فادْع لأجل ذلك العذاب إلى الائتلاف [قلت:] ولا تقل المعنى: لأجل ذلك التَّفَرُّق وتشعُّب الكفر ادع إلى الائتلاف، إذ لا وجه له إلاَّ على تقدير محذوف، أي: لأجل إزالة ذلك التفرُّق، أو لقصد إزالة التفرُّق.

وتجوز الإشارة إلى الشرع المعلوم من «شَرَعَ» والفاءان على ما سبق، واللام بمعنى إلى، أي: ادع إلى ذلك الشرع، أو للتعليل، أي: ادع لأجل

ذلك الشرع إلى الائتلاف، فحذف إلى الائتلاف. ويجوز أن تكون الفاء الأولى في جواب شرط والثانية تأكيد لها، واللام بمعنى إلى، أي: إذا كان الشرع ما ذكر ووجبت الاستقامة، أو إذا كان العذاب مترتِّبًا على التَّفَرُّق فادع إلى الائتلاف المعلوم.

﴿وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ دُمْ على الاستقامة، وإن اعتبرت أنَّ هذا الأمر متوجِّه إليه كلَّ ساعة لم تحتج إلى التفسير بالدوام، والمأصدق واحد، وكذا إن فسِّر بلزوم المنهاج المستقيم، والمراد استقم في جميع الأمور، وقيل: المراد استقم اثبت على الدعاء إلى الائتلاف لمناسبة ما قبله.

(نحو) و«كَمَا أُمِرْتَ» نعت لمفعول مطلق، أي: استقم استقامة ثابتةً كما أمرت به، وحذف الرابط المجرور في الصلة بالحرف، وقد قيل: يجوز حذفه بلا شرط إذا ظهر المراد.

﴿وَلاَ تَتَّبِعَ اَهْوَآءَهُمْ﴾ لاَ كُلَّهَا ولا بعضَهَا، ولا هوى بعضٍ ولا هوى كلٍّ مهما يكن من شيء هوى لهم في الدين فلا تتَّبعه ﴿وَقُلَ ـ امَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ﴾ أيِّ كتاب من كتب الله، أي: ما يسمَّى كتَابًا من الله فقد آمنت به، بلا فرق بين كتاب وكتاب، ولا بين نبيء ونبيء.

أي: قل لأهل الكتاب، ولو كانت السورة مَكِّيـَّة، أو قل لقومك، لأنَّها كلَّها حقٌّ لا كأهل الكتاب، يؤمنون ببعض الأنبياء والكتب، ويكفرون ببعض، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُومِنُ بِبَعضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعضٍ... أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ (سورة النساء: ١٥٠ ــ ١٥١)، وفي معنى ذلك إعراض الجهال عن قوله تعالى: ﴿يَآ أَيـُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْه وَسَلِّمُواْ تَسْليمًا﴾ (سورة الأحزاب: ٥٦) وقوله تعالى: ﴿يَآ أَيـُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُم حَتَّىٰ تَسْتَانِسُواْ

وَتُسَلِّمُواْ...﴾ (سورة النور: ٢٧).

[قلت:] وفي الآية إثباتٌ أَنَّ كتب الله كلّها حقٌّ والأنبياء كذلك، وفيه تأليف قلوبهم، إذ آمن بكتبهم ورسلهم، وتعريض بهم إذ لم يؤمنوا ببعض.

﴿وَأُمِرْتُ﴾ بما أمرت ﴿لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع لا آمرُ أحدًا منكم وأترك آخرَ، ولا أنهى أحدًا دون أحد، ولا أخبر أحدًا دون أحد، شريفُكم ووضيعُكم سواء، أو في الخصام إذا تخاصمتم إليّ كذلك، أو في ذلك كلّه وفي جميع الأحوال، **وهو أولى.**

(نحو) واللام للتعليل، أو بمعنى الباء على حذف الناصب، أي: بأن أعدل بينكم، وفيه أنّه لم يسمع حذف أن الناصبة للفعل بعد الباء، فكذا اللام النائبة عنها، وقيل: اللام زائد والباء وأن مقدّران، أي: بأن أعدل بينكم، وفيه بعد.

﴿اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فأنتم ونحن مستوون في الأحكام المنزّلة ﴿لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمُ, أَعْمَالُكُمْ﴾ لا تجازون بأعمالنا ولا نجازى بأعمالكم خيرًا أو شرًّا ﴿لاَ حُجَّةَ﴾ لا احتجاج ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لظهور الحقّ، وخصامكم لنا هو مكابرة منكم، أوْ لاَ دليل يحتاج إليه بعد الأَدلّة الموردة عليكم، وقد استدلّ أهل الكتاب على أنّهم أفضل لتقدُّم دينهم وكتبهم وأنبيائهم، وهم مخطئون، وكتبهم تُكَذّبهم.

[قلت:] وما في القرآن من تفضيل بني إسرائيل على العالمين محمول على عالمي زمانهم ما لم يجيء رسول الله ﷺ ، ولزمهم على دعوى العموم أن يكونوا أفضل من إبراهيم وإسحاق، ولا يقولون به، [قلت:] والقرآن نصّ على أنّ هذه الأمّة أفضل الأمم كُلّها، قال الله تعالى: ﴿كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ اخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ (سورة آل عمران: ١١٠) الآية.

﴿اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ مصدر ميميٌّ بمعنى

الصيرورة ليفصل بيننا وبينكم.

(سبب النزول) روي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه همَّت طائفة من بني إسرائيل أن يَرُدُّوا الناس عن الإسلام، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا...﴾ (سورة البقرة: ١٠٩) فقالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبيئنا قبل نبيئكم، فديننا أفضل من دينكم، فنحن أولى بالله تعالى منكم، فنزل قوله تعالى:

﴿وَالذِينَ يُحَآجُّونَ فِي اللهِ﴾ أي: يخاصمون في دين الله إلى قوله: ﴿شَدِيدٌ﴾ أو إلى ﴿الْمِيزَانَ﴾.

وعن عكرمة أنَّه لَمَّا نزل ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ (سورة النصر: ١) قال المشركون: قد أسلم الناس أفواجًا فاخرجوا عنَّا أو اتركوا الإسلام، ووجه المحاجَّة أنَّهم تَهَكَّمُوا بقولهم: «قد أسلم الناس أفواجًا» وإنَّ دعواهم تتضمَّن أنَّ الإسلام مِمَّا يَصِحُّ تركه.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا اَسْتُجِيبَ لَهُ,﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، أي: من بعد استجابة الناس له، أي: لله تعالى، أو لدينه، ويجوز عود الهاء إلى الدعاء المعلوم من قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ فَادْعُ﴾ والاستجابة إنَّما تكون بعد الدعاء، وكأنَّه قيل: من بعد ما دعاهم الله أو نبيئه إلى دينه، واستجابوا له، وإن شئت فقدِّر من بعد ما استجيب لدعوته.

﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: زائلة باطلة، بل لا حجَّة لهم، وإنَّما سماها لهم على زعمهم، وللتهكُّم بهم، والمستجيب له من أسلم في مَكَّة، وقد مرَّ في تفسير هذه السورة، أو التي قبلها أنَّه أسلم جماعة كثيرة بمرَّة واحدة، وأسلم من في دار الصفا ومن تبعهم، حتَّى إنَّ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسلم

وجهر وقال: «لا يعبد الله سرًّا».

وقيل: المستجيب أهل الكتاب لإقرارهم بنعوته في كتابه، واستفتاحهم به، إذا جاء على قتال أعدائهم [سورة البقرة آية ٨٩]، وهم العرب الذين يؤذونهم، وهذا على أنّ الآية مَدَنِيَّة، ولا يضرُّ أنَّها مَكِّيَّة وأنَّه تعالى أخبره عنهم بذلك، أو سمعه ﷺ ، وبلغ ذلك أهل مَكَّة، وذلك صحيح ولو لم يبلغهم، والمحاجُّون أهل مَكَّة.

أو المستجيب الله عَزَّ وَجَلَّ ، والهاء له ﷺ ، وذلك بإظهار المعجزات، كإجابة دعائه عليهم بالقحط سبع سنين، وتخليص المستضعفين من أيديهم، وبيوم بدر، وهذا على أنّ الآية مَدَنِيَّة.

﴿**وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ**﴾ كراهة الله لهم وكونهم مِمَّن لم يرض عنه ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**﴾ في دنياهم وأخراهم، أو الغضب لازمه في الجملة، وهو عذاب الآخرة، والعذاب الشديد في الدنيا.

[قلت:] والآية شاملة بالمعنى لمن يخاصم في السلام عند إرادة الدخول إلى المترل، ويقول لجهله: إنّ المرأة لا تسلِّم لِئَلاَّ يسمع الرجال صوتها، وازداد عنادا أنّه أباح لها أن لا تسلِّم ولو لم يكن هناك رجل أجنبيٌّ يسمع بعد قيام الحجَّة أنّ أحكام القرآن جارية على الرجال والنساء إلاّ ما خصَّه الدليل، ومع قيام الحجَّة أنّ الصحابيات يسلِّمن من خارج الباب مطلقا، ولو حضر الرجال خارجا، أو كانوا داخلا أجانب مع نسائهم، وسلامهنَّ من الفروض التي تؤدَّى مطلقا.

[قلت:] كما يسلِّمن على العالم إذا أردن سؤاله عن فرض، وما دون الفرض، وكما يسألن العالم ولو عن نفل أو مباح، وكما يجبن السائل من وراء حجاب فيسمعهنَّ، وذلك من الجدال الباطل في قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ (سورة النور: ٢٧) . [قلت:]

ومن علم من امرأة أنّها تدخل بلا سلام فليتبرَّأ منها.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ القرآن، و«ال» للعهد، أو جنس الكتب و«ال» للجنس، والمقام قابل للاستغراق بأن يكون المعنى: إنَّ الكتب كلَّها من الله، وأنَّه لا شيء منها على غير حقٍّ، كما قال ﴿بِالْحَقِّ﴾ ملتبسا بالحقِّ أو مصاحبا له ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ العدل الشبيه بالميزان لجامع عدم الزيادة والنقصان، أي: أنزل وجوب العدل في أفعالكم وأقوالكم واعتقادكم في الديانات والخصام.

(بلاغة) أو الميزان: الأحكام الشَّرعيَّة النازلة الشبيهة بالميزان كذلك، وإسناد الإنزال إلى الكتاب بمعنى الألفاظ والشرع وهو معانيه، ووجوب العدل حقيقةٌ شَرعيَّة. وقيل: الإنزال استعارة، وأصله في الأجسام. [قلت:] ويضعف أن يفسَّر الميزان بحقيقته والتجوُّز في الإنزال، لأنَّ المراد بإنزاله العمل به، لِئَلاَّ يتغابن الناس، ولم يترل جسم الميزان.

والتفسير بالميزان حقيقة هو ظاهر قول ابن عبَّاس في الآية: إنَّ الله أمر بالإيفاء ونهى عن البخس.

[قلت:] وأضعف من هذا أن يفسَّر بتمييز الحسنات والسيِّئات ومقتضاهنَّ من الجزاء يوم القيامة. وأشدُّ ضعفا منه تفسيره بميزان حقيق توزن به الحسنات والسيِّئات يوم القيامة، عند البعض المثبتين له. وقيل: أوَّل من أمر بآلة الميزان نوح عليه السلام .

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فيه مناسبة لتمييز الحسنات والسيِّئات يوم القيامة، أي: وما يصيِّرك داريا بشأن الساعة، لعلَّ الساعة قريب فيجازى المكلَّف على جرمه والمطيع على إحسانه، فاجتهد في العدل

والشرع قبل مفاجأتهما.

والساعة يوم القيامة، وهو وما بعد البعث شيء واحد فيه الجزاء بعد البعث، والساعة أمر ثابت نمشي بمضي الليالي والأيام إليها، فلا حاجة إلى تقدير مضاف، أي: إتيان الساعة، وقدَّره بعض المحقِّقين وجعله وجها في تذكير لفظ «قَرِيبٌ»، أو ذكِّر لأنَّه نعت لمذكَّر، أي: أمر قريب، أو وقت قريب، أو لأنَّ الساعة وقت، أو أريد بها البعث، أو لجواز التأنيث في النسب، ويجعل «قَرِيبٌ» للنسب، كامرأة لاَبن وتامر، أي: ذات قرب.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِهَا﴾ استهزاءً، يقولون: ليتها حضرت لنرى أنَّ الحقَّ معنا أو مع محمَّد ﷺ وأصحابه **﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾** خائفون منها مع استعداد لها والخوف، لأنَّهم لا يعلمون ما حالهم عندها، ولا بم يختم لهم، ولا يظهر أن يراد هنا اعتناؤهم بالثواب.

(بلاغة) وقدَّر بعضهم يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ولا يشفقون منها، والذين آمنوا مشفقون منها ولا يستعجلون بها، على الاحتباك، ولا حاجة إليه، **﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾** الحصر إضافي، أي: هي حقٌّ لا باطل.

﴿أَلاَ إِنَّ الذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ يجادلون فيها، استعارة من "مريت الناقة": إذا مسحت ضرعها للحلب، يستعملون جهدهم في نفيها، كما يمسح الضرع في شأن الحلب.

ويجوز أن يكون المعنى: يتردَّدون في أمرها شكًّا، والمفاعلة في الوجهين ليست بين اثنين بل للمبالغة، وتحتمل البقاء على الأصل بمعنى: إنَّ كلاًّ يذكر للآخر قوَّته في نفيها بالأوجه الباطلة.

﴿لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحقِّ، كيف يشكُّ فيها أحد مع أنَّه تعالى أحيى

أمواتا في الدنيا وأحيى الأرض بعد موتها وأحيى الجنين ويخلق الأشياء من عدم؟ فكيف يصعب عليه إحياء ما تلاشى وفني؟ وهو عالم بالغيوب كلِّها، وهو الذي لطف بالغوامض علمه، وعظم عن الجرائم حلمه، أو من ينشر المناقب ويستر المثالب، أو من يعفو عمَّن يهفو، أو يعطي العبد فوق الكفاية ويكلِّف الطاعة دون الطاقة.

﴿اللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ ينعم عليهم من حيث لا يعلمون أنعاما كثيرة، وذلك في البارِّ والفاجر، إذ لم يهلكه بجوع لفجور، إلاَّ أنَّ الكافر لم يشكر نعمة اللطف. ولا مانع من إسناد البرِّ إلى الله في شأن الكافر خلافا لبعض.

وفسَّر بعضهم لطفه بكثرة الإحسان، وبعض بالرفق، ومن قول المتصوِّفة: إنَّه لطف بأوليائه فعرفوه، ولو لطف بأعدائه ما جحدوه، وقيل: اللطف مطلق الإنعام بلا قيد خفاء، والإضافة للعموم، وقيل: المراد المؤمنون، وبرُّه بهم: توفيقهم وإدخالهم الجنَّة، فالإضافة للتشريف.

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ هذا يناسب إرادة المؤمنين بالعبادة، فالرزق رزق الجنَّة، أو المنافع الدِّينيَّة من التوفيق وغيره، والأُخرويَّة، وإدخال الجنَّة، وإلاَّ فرزق الدنيا قد شاءه لكلِّ أهل الدنيا من بارٍّ وفاجر، فهذا كقوله تعالى: ﴿لِيَجزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ... بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة النور: ٣٨).

وفي الحديث القدسي: «**إنَّ من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلاَّ الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلاَّ الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلاَّ الصحَّة ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلاَّ السقم ولو أصححته لأفسده ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين من يسألني بابا من العبادة فأكفُّه لِئَلاَّ يدخله عجب فيفسد ذلك، إنِّي أدبِّر أمر**

عبادي بعلمي بقلوبهم إنِّي عليم خبير»[١].

وإن جعلنا الرزق على العموم للبارِّ والفاجر وكلِّ ذي روح، فالمعنى: يرزق ما يشاء لمن يشاء، فيدخل أرزاق الدنيا للمؤمن والكافر، وأرزاق الدين والآخرة للمؤمن، وهو أنسب بقوله: **﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ القادر على ما يشاء من رزق وغيره ﴿الْعَزِيزُ﴾** لا يُردُّ عمَّا أراد.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

١- أورده **ابن الجوزي** في كتاب العلل المتناهية، ج١، ٢٢. وأبو **الفرج الحنبلي** في جامع العلوم والحكم، ج١، ص١٨٨، من حديث أنس.

بشارة المؤمنين بالجنة وقبول التوبة وبيان ما أعد للظالمين

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ, فِي حَرْثِه وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤته مِنْهَا وَمَا لَهُ, فِي الآخِرَةِ من نَّصِيبٍ﴾ أي: هو غالب غير عاجز عمَّا أراد من التفضيل في رزق الدنيا بعضا على بعض، ومن تخصيص المؤمن بخير الدين والآخرة، فقد عمَّ بِرُّه البارَّ والفاجر، والدنيا والآخرة.

والحرث: إلقاء البذر في الأرض، شبِّه به العمل لجامع التولُّد، كما يتولَّد من البذر الثمار يتولَّد من العمل الصالح خير الدنيا والآخرة، لمن أراد الآخرة حتَّى إنَّ الحسنة بما فوق سبعمائة، فتلك زيادة عظيمة، ويتولَّد من العمل الطالح شرُّ الدنيا والآخرة، وله من الدنيا نصيبه فقط، ولا نصيب له في الآخرة، لأنَّ همَّه مقصور على حرث الدنيا.

وعن أُبيٍّ بن كعب عن رسول الله ﷺ : «**بشِّر هذه الأمة بالسناء والرفعة والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدُّنيا لم يكن له نصيب في الآخرة**»[1]. وقيل: ذلك زيادة توفيق للعمل الصالح.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَاذَنْ به اللهُ﴾ بل أَلَهُم شركاء في الكفر؟ وهم الشياطين، شرعوا لهؤلاء الكفرة من قومك ما لم يأمر الله تعالى به عباده من الدين، فـ«أمْ» منقطعة بمعنى "بل" الانتقالية عمَّا قبل، من قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ...﴾. وهمزة الإنكاريَّة للياقة شرع ما لم ياذن به الله تعالى، أو للتقرير، أي: أقرُّوا بما عندكم في ذلك هل كان؟.

أو الشركاء: الأصنام، وإسناد الشرع إليها لأنَّها سبب ضلالهم، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ (سورة إبراهيم: ٣٦) توصَّلوا

١- رواه أحمد في مسند الأنصار، رقم ٢٠٧١٥، من حديث أُبي بن كعب.

بسبب عبادتها إلى جعل البحيرة والوصيلة والحامي، شرعوا ذلك وغيره مما يجرُّ إليه عبادتُها.

وأمَّا عبادتها فنفس ضلال، لا سبب للضلال، نعم نحتُها أو شراؤُهَا سبب للضلال الذي هو عبادتُها، وغيرها كتقرُّبهم بعبادتها إلى الله عز وجل، نعم أيضًا عبادتها سبب تسميتهم ضالِّين.

﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ الوعد بالتأخير إلى قيام الساعة، أو تمام أعمارهم، أو الفصل البيان، كما هو تفسير في قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ...﴾ (سورة المرسلات: ٣٨) ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين المؤمنين والكفرة في الدنيا، أو حين افترقوا بلا تأخير، وقيل: الضمير للكفرة وشركائهم من الشياطين أو من الأصنام.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ المُحَدَّث عنهم، أظهر لِيُشَنِّعَ عليهم باسم الظلم، والأصْلُ: «وإنَّهم»، أو «الظَّالِمِينَ» عمومًا ويدخل المحدَّث عنهم أوَّلاً ﴿لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ في الآخرة، أو فيها و في الدنيا بالأسر والقتل والسبي.

﴿تَرَى﴾ يا محمَّد، أو يا من يصلح للرؤية، وهذا أشنع عليهم كالصريح بالافتضاح لكلِّ أحد ﴿الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفين خوفًا شديدًا، قال بعض المحقِّقين: الإشفاق عناية مختلطة بخوف، وإنْ عدِّيَ بعلى فمعنى العناية أظهر، والمُرادُ بالظلم هُنا وفيما مرَّ: ظلم النفس بالذنوب، ومنها ظلم الغير، أو الظلم نقص الحقِّ، كذلك حقُّ الله أو مع حقِّ غيره ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ من المعاصي، أن يذكر لهم، أو يحضر في صحيفة، أو من جزاء ما كسبوا بتقدير مضاف، أو ما كسبوا هو الجزاء سُمِّيَ باسم سببه، وهذان أنسب بقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْ﴾. وعلى الأوَّل يكون المعنى أنَّ ذكره أو إحضاره في صحيفة واقعٌ. والباء للإلصاق، أي: لاحق بهم، أو بمعنى على، ولو كان مجازًا لأنَّ لفظ وقع يناسبه.

و«مِنْ» للابتداء، وقال بعض المحقِّقين: للتعليل وهو أدخل في الوعيد. ومعنى

﴿وَاقِعٌ﴾ أنَّه حصل لهم، لتنزيل ما لا بدَّ منه منزلة ما وقع. والجملة حال من المستتر في «مُشْفِقِينَ» مقدَّرة، لأنَّهم لم يقع بهم حال الإشفاق بل بعدُ.

﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أي: مياهها الماكث مع الشجر، وظرفيَّـتُها لهم مجازٌ بالاستعارة، لأنَّهم ليسوا في الماء والشجر، بل عندهما، أو روضاتها كناية عن أطيب البقاع وأنزهها، ومحاسنها وملاذها، وفي الجنَّة مواضع غير الروضات هنَّ لمن دون ذلك في العمل.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ من الملاذِّ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يتعلَّق بـ«لَهُمْ» لنيابته عن ثابت أو ثبت، أو [يتعلَّق] بثابت أو ثبت، ويضعف تعليقه بـ«يَشَاءُ» كأنَّه قيل: ما يشاءونه من عند ربِّهم يحصل لهم، ويجوز أن يكون خبرا ثانيا، أو حالاً من الواو أو من هاء «لَهُمْ».

[قلت:] وكلُّ ما خطر ببال أهل الجنة يحصل لهم في الحين، حتَّى إنَّه لتجتمع الجماعة فتكون عليهم سحابة فتقول: ما تحبُّون أن أمطر عليكم؟ فما سمَّى أحدٌ شيئًا إلاَّ أمطَرته، ويقول القائل: أمطري علينا كواعب أترابًا فتمطرهنَّ.

﴿ذَالِكَ﴾ المذكور أعلى شأنًا للمؤمنين ﴿هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ﴾ غاية الكبر الذي يصغر عنده غاية الصغر كلُّ ما سواه.

﴿ذَالِكَ﴾ الفضل الكبير، أو ذلك الذي عبَّر عنه بالفضل الكبير هو الثواب ﴿الذِي﴾ خبر ﴿يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ به، فحذف الرابطُ والحرف معه دفعةً لظهور المعنى كما هو قول، أو على ما شهر من اشتراط جرِّ الموصول بمثله وتعليقه بمثل متعلَّقه، كقوله: ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ٣٣) يحذف الجار وينتصب مجروره محلاً انتصاب المفعول به الصريح، فيحذف.

(نحو) ويجوز أن تكون الإشارة إلى التبشير، ورابط الموصول

ضمير محذوف هو مفعول مطلق، أي: يبشِّره، كما تقول: القيام قمته، وفيه ضعف، لأنَّه لا دليل على أنَّ لفظ «ذَلِكَ» واقع على التبشير، ولو قلت ذلك الذي ضربته، وأردت ذلك الضرب الذي ضربته لم يفهم عنك، فَلِمَ يقبلُ؟ فلا تغفل. ادَّعَى بعض أنَّ «الذِي» هنا حرف مصدر، وأنَّ المعنى: ذلك تبشير الله، وليس كذلك.

﴿قُل﴾ يا محمَّد لقريش على الصحيح، وقيل: للأنصار، وقيل: للناس كلِّهم، يحبُّ بعض بعضًا لقرابة النسب بينهم ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على القرآن أو على التبليغ والبشارة للمؤمنين ولغيرهم إنْ آمن، والأولى الاقتصار على التبليغ ﴿أَجْرًا﴾ عوضًا من مال أو جاه أو نفعٍ مَّا ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ﴾ أن تودُّوني، أي: تحبُّوني فيُؤثِّر فيكم تبليغي ﴿فِي الْقُرْبَىٰ﴾ لأجل القربى، أو بسببها، وهي قرابة النسب، [والمراد] إن لم تراعوا أُخُوَّة النبوءة فلا أقلَّ من أن تراعوا حقَّ النسب وتحفظوني، ولا يكن غيركم من العرب أولى بنصرتي منكم.

وقيل: إلاَّ محبَّتكم في أهل بيتي، و«فِي» على هذا للظرفيَّة المجازيَّة، و«الْقُرْبَى» بمعنى الأقرباء. والجارُّ والمجرور حال، أي: ثابتة فيهم متمكِّنة، وعلى السَّببيَّة تتعلَّق بـ«مودَّة» وقيل: مثل ما مرَّ.

وقيل: المعنى إلاَّ محبَّةَ بعضكم للقرابة، وقيل: إلاَّ التقرُّب إلى الله تعالى بالعمل الصالح، قال ابن عبَّاس رضي الله: عنهما «إلاَّ رعاية حقوقي لقرابتي» كما روى البخاري ومسلم، قال ابن عبَّاس: لا بطن في قريش إلاَّ وفيهم قرابة لرسول الله ﷺ [1].

(سبب النزول) جمع قريش مالاً ليرشُوهُ ﷺ على ترك ما يأتيهم به من

١- انظر البخاري كتاب التفسير، باب ٣٠٥، قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ رقم٤٥٤١.

دين الله، فترلت الآية، وقيل: أتاه الأنصار بمال ليستعين به على ما ينوبه فترلت الآية. فَرَدَّهُ، على أنَّ الآية مَدَنِيَّة، وأمَّا على أنَّها مكيّة فأرْسَلُوهُ إليه في إحدى العقبات الثلاث.

(سيرة) وفي الأنصار قرابة لرسول الله ﷺ لأنَّهم أخواله، فإنَّ أمَّ عبد المطَّلب سَلمَى بنت زيد النجَّاريَّة منهم، وكذا أخوال أُمِّه آمنة من الأنصار، وقد قيل: قرابته في جميع العرب، لأنَّهم إمَّا عدنانيُّون ومنهم قريش، وإمَّا قحطانيُّون ومنهم الأنصار وقضاعة، وفي الترمذي والنسائي عن زيد بن أرقم أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«أذكِّرُكُم الله تعالى في أهل بيتي»**[1].

[قلت:] والناس مُكَلَّفون بمودَّة أهل البيت إلاَّ من بَانَ شرُّه، فإنَّ الناس في دين الله سواء، وحقُّ الله أعظم، وقد قال لهم: **«لاَ يأتِينِي الناس بأعمَالهم وتأتوني بنسبكم»**[2]. وفي الترمذي والطبراني والحاكم والبيهقي عن ابن عبَّاس عن رسول الله ﷺ: **«أحبُّوا الله لما يغدوكم به من النعم، وأحِبُّوني لحبِّ الله، وأحبُّوا أهل بيتي لحبِّي»**[3].

وروى ابن حبَّان والحاكم عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهلَ البيت رجل إلاَّ أدخله الله تعالى النار»**[4].

١- رواه **مسلم** في كتاب الفضائل، باب فضائل عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم٢٤٠٨، ورواه **أحمد** في مسند الكوفيين، رقم ١٨٧٨٠. من حديث زيد بن أرقم في حديث طويل.

٢- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج١، ص٢٧٣، تفسير الآية ١٣٤ من سورة البقرة.

٣- رواه **الترمذي** في كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبيء ﷺ، رقم ٣٧٨٩، من حديث ابن عبَّاس.

٤- رواه **أحمد** في مسند بني هاشم، رقم ١٧٨٠، من حديث عبد المطَّلب بن ربيعة، ورواه **الحاكم** في كتاب معرفة الصحابة، ج٣، ص١٦٢، رقم٤٧١٧. من حديث أبي سعيد الخدري.

[قلت:] وفيه إشارة إلى الجورة من بني أُميَّة، لأنَّ لَهم طعنًا شديدًا في بني هاشم وظلموهم، حتَّى انتقم الله منهم، فتفرَّقوا وكان لهم الملك في أندلس بعد ذلك أَلْف شهر. وروى أحمد والترمذي والنسائي عن رسول الله ﷺ: «**لا يدخل قلب امرئ مسلم إيمانٌ حتَّى يحبَّكم لله تعالى ولقرابتي**»[1] والخطاب للقرابة، [قلت:] وقيل: وجوب حبِّهم منسوخ ولا يُبغَضُ أحدٌ منهم إلاَّ لموجب.

(**نحو**) والاستثناء منقطع، لأنَّ المحبَّة ضروريَّة ليست ممَّا يكتسب ويجعل أجرةً، وإن اعتبرت مقدِّماتُها الاختياريَّة كان متَّصلاً، وقيل: الاستثناء منقطع مطلقًا، وإنَّ المحبَّة لا يَصِحُّ أن تكون أجرًا.

قيل: وجبت مودَّة **قرابته في مَكَّة بُدِّلت بمحبَّة الأنصار له** ولهم، ونزل ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنَ اَجْرٍ فَهُوَ لَكُمُ, إِنَ اَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ (سورة سبأ: ٤٧) فهذه الآية ناسخة لآية السورة، فألحقه الله تعالى بالأنبياء قبله في عدم الأجرة على الدين، كما قال نوح/ ﴿وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ...﴾ (سورة الشعراء: ١٠٩).

[قلت:] لا يصحُّ أنَّه أجيز له ﷺ أخذ الأجرة فضلاً عن أنْ تنسخَ، والاستثناء منقطع، وعلى الاتِّصال يكون من تأكيد المدح بما يشبه الذمَّ، أي: إن سألت أجرًا فما هو إلاَّ أن تحبُّوا أهل بيتي، وحبُّهم ليس أجرًا بل أمر لازم لكلِّ أحد، كقوله: «وَلاَ عَيْبَ فِيهِم...» وقال: «**أذكِّركم الله في أهل بيتي، أذكِّركم الله في أهل بيتي**» ومن أهل بيته نساؤه.

ولكن المراد آل عليٍّ وآل عقيل وآل جعفر وآل عبَّاس وفاطمة، وقيل: بنو

١- رواه **أحمد** في مسند بني هاشم، رقم ١٧٨٠. وأورده **الهندي** في الكنز، باب فضائل أهل البيت مجملا ومفصلا، ج١٣، ص٦٤٢، رقم٣٧٦٢٣. من حديث العبَّاس بن عبد المطَّلب.

هاشم وبنو المطّلب، **ومن زلّ من آله فهو كغيره في أن يزجر ويعاب، وحقُّ الله عَزَّوَجَلَّ أولى.**

وسئل ﷺ عن القربى في الآية فقال: «**عليٌّ وفاطمة وابناهما**» رواه البخاري، وأحاديث الباب كثيرة، وفي بعض إسنادها بعض الشيعة.

[قلت:] وقد يأمر الإنسان باحترام قوم ويريد ذلك مقيَّدا بعدم الزلّة بعدُ، وكثيرا ما نلقى من هو ذلك النسب من أهل فاس أو سائر المغرب الأقصى وهو مقارف للكبائر مصرٌّ عليها فأيُّ حقٍّ لهذا ؟.

﴿**وَمَنْ يَّقْتَرِفْ**﴾ يكتسب ﴿**حَسَنَةً**﴾ أيَّ حسنة كانت، ولا سيما حبُّ النبيء ﷺ وآله، فإنَّ ذلك لحبِّ التوحيد، وقال ابن عبَّاس: «الحسنة المودَّة في قربى رسول الله ﷺ » وإنَّ الآية نزلت في أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لشدَّة محبَّته لأهل البيت ﴿**نَّزِدْ لَهُ, فِيهَا حُسْنًا**﴾ أي: زينة بمضاعفة الثواب فإنَّها تزدان بمضاعفته ﴿**اِنَّ اللهَ غَفُورٌ**﴾ للذنوب ﴿**شَكُورٌ**﴾ مجاز للمطيع بثواب طاعته والزيادة عليه.

﴿**أَمْ يَقُولُونَ**﴾ بل أيقولون بالإضراب الانتقالي والتوبيخ ﴿**افْتَرَىٰ**﴾ محمَّد ﷺ ﴿**عَلَى اللهِ كَذِبًا**﴾ بأن قال: أرسلني الله و لم يرسله، وأنزل عليَّ القرآن و لم ينزله، وهو ﷺ بعيد عن الكذب مطلقا، ولا سيما على غيره، ولا سيما على الله سبحانه العالم بالصدق والكذب المنتقم من الكاذبين. و«كَذِبًا» مفعول به لـ«افْتَرَى» بمعنى أحدث أو صوَّر كذبا وإن فسِّر بالكذب فـ«كَذِبًا» مفعول مطلقا.

﴿**فَإِنْ يَّشَإِ اللهُ**﴾ الختم على قلبك أو خذلانك أو افتراءك ﴿**يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ**﴾ يغطّ على قلبك لم يخطر ببالك معنى من معاني القرآن، ولا نطق لسانك بحرف من حروفه، فلا يدخله الإيمان، فتكون من المشركين المفترين الكذب،

ففي هذا نفي الافتراء عنه ﷺ ، والتعريض بأنّهم المفترون.

وقيل: الختم إنساء القرآن. وأتى بـ«إنْ» الشرطيَّة مع أنَّ مشيئته للختم مجزوم بانتفائها لأنَّ التوفيق والخذلان فعلان من أفعاله تعالى، ولو كان قضاؤه لا يتخلَّف. وقيل: إرخاءً للعنان، وقيل: إشعارًا بعظمته واستغنائه عن الخلق لا يحتاج إلى رسول الله ﷺ ، ولا إلى غيره ولا إلى إيمان أحد.

﴿وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ﴾ الشرك والمعاصي بلا إرسال نبيء ولا إنزال كتاب. والعطف على «يَخْتِمْ» والجزم بحذف الواو ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ برفع المضارع. والجملة حال من لفظ الجلالة، أو مع مبتدأ يقدَّر، أي: وهو يحقُّ، أو الرفع بالعطف على «إنْ» وما بعدها من جملة الشرط والجواب، أو «يَمْحُ» مرفوع حذفت الواو في الخطِّ كما حذفت في اللفظ للساكن مثل: ﴿وَيَدْعُ الانسَانُ﴾ (سورة الإسراء: ١١) و﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ (سورة العلق: ١٨) فالعطف على «إنْ» وما بعدها.

ويدلُّ على تقدير الواو ورفع الفعل ثبوت الواو في بعض المصاحف، ويناسبه إظهار الجلالة. والمراد: كيف يفتري رسول الله ﷺ الكذب والله سبحانه يمحو الباطل ويحقُّ الحقَّ؟ لو كان مفتريا لم يبق أمره في ازدياد ولأذهبه الله. و«كلماته» القرآن ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ صدرك وصدورهم، فيجازي كلاًّ على حسب ما في صدره.

﴿وَهُوَ الذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ فلا يعاقبهم على ما تابوا عنه، وفي الحديث: «**إنَّ الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[1] كما في

١-رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار... رقم٣٤٣٧. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم ٤٢٥٣، من حديث ابن عمر.

الترمذي عن ابن عمر، وفي حديث: «**ما دام فيه الروح**» وشهر أنَّه لا تقبل إذا عاين.

وفي حديث عبد الله بن مسعود وأنس: «**إنَّ الله تعالى أفرح بتوبة العبد من رجل نزل في أرض مفازة مهلكة، ونام ويقظ وقد ذهب عنه بعيره، عليه طعامه وشرابه، فطلبه حتَّى اشتدَّ الحرُّ والعطش، فرجع لموضعه ووضع رأسه على ساعده ليموت، فإذا هو على رأسه، فأخذ برسنه، أو ذهب إلى شجرة فنام تحتها فلم يوقظه إلاَّ بعيره يأكل منها، فأخذ بخطامه**»[1].

[قلت:] والتوبة: أن يندم عن الذنب خوفا من عذاب الآخرة، أو طمعا في الجنَّة أو لهما معا، أو إجلالا لله ويعزم أن لا يعود إليه، ويقضي ما عليه من حقِّ الله فيه، أو حقِّ المخلوق، أو يعفو صاحب الحقِّ أو وارثه، فإن لم يصل إلى ذلك أعطى الفقراء، وإن لم يصل إلى ذلك لعسره أوصى به. وقيل: التوبة الرجوع والباقي شروط.

دخل أعرابيٌّ مسجد رسول الله ﷺ وقال: «اللهم إنِّي أستغفرك وأتوب إليك» وكبَّر، ولَمَّا فرغ من صلاته قال له عليٌّ: سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذَّابين، وتوبتك تحتاج إلى التوبة، فقال: يا أمير المؤمنين ما التوبة ؟ فقال: **الندم على الذنب، وقضاء الفرائض، وردُّ المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربَّيتها بالمعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كلِّ ضحك ضحكته.**

١-رواه **أبو يعلى** في مسند عبد الله بن مسعود، رقم ٥١٠٠، من حديث ابن مسعود. مع اختلاف طفيف في اللفظ.

قال سهل بن عبد الله التستري[١]: التوبة الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة. وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**والله إنّي لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرّة**»[٢] وفسّر الأكثر في رواية الأغر بن بشار لمسلم: «**يا أيـــّها الناس توبوا إلى الله فإنّي أتوب إليه في اليوم مائة مرّة**».

وروى مسلم عن أبي موسى أنّه قال رسول الله ﷺ : «**إنّ الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتّى تطلع الشمس من مغربها**»[٣].

[قلت:] وإن تاب عن بعض المعاصي وأصرّ على بعض صحّت توبته عن ذلك البعض، فلا يعاقب في الآخرة إلاّ على ما أصرّ عليه، وأكثر المعتزلة على أنّها غير صحيحة. وقبول التوبة غير واجب على الله عز وجل ، ولا واجب على الله عز وجل خلافا للمعتزلة.

﴿**وَيَعْفُواْ عَنِ السَّـــيِّـئَاتِ**﴾ الصغائر باجتناب الكبائر، والكبائر بالتوبة، لقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ﴾ (سورة الفرقان: ٧٠) ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ (سورة طه: ٨٢) والأشاعرة أجازوا العفو عن الكبائر غير الشرك بلا توبة، ومنها الإصرار على الصغائر، وهذا تفسير لما قبله، أو يراد بما قبله الكبائر وبهذا الصغائر ﴿**وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ**﴾ من خير وشرٍّ فيجازيهم عليه، وهذا تحذير وإغراء.

١-تَقَدَّمَت ترجمته، انظر: ج٥، ص٢٢٧.

٢-رواه **البخاري** في كتاب الدعوات، باب استغفار النبيء ﷺ في اليوم والليلة، رقم٥٩٤٨. ورواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم٨٢٨٨. من حديث أبي هريرة.

٣-رواه **مسلم** في كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب، رقم٢٧٥٩. ورواه **أحمد** في مسند الكوفيين، رقم ١٩٠٣٥، من حديث أبي موسى.

﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ الله **﴿الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾** قيل: منصوب على حذف الجارِّ، أي: للذين.

(نحو) وهذا من العجيب، يكثرون القول بنزع الجارِّ في القرآن مع أنَّه سماعيٌّ لا يقال به إلاَّ حيث لم يوجد وجه غيره، فنقول: «استجاب» يتعدَّى بنفسه تارة كما هنا، وباللام أخرى كشكرته وشكرت له، ويتعدَّى إلى الدعاء بنفسه، ولا مفعول له إذا عدِّي باللام مُقَدَّرة، لأنَّ المعنى الإقبال عليهم، وعدم الإعراض عنهم إذا دعوا، وذلك كما يقال: أجابه وأجاب له، فاستجاب وأجاب بمعنى، ويجوز أن يقدَّر: ويستجيب دعاء الذين آمنوا.

وقيل: المعنى يثيب الذين آمنوا على أعمالهم، فإنَّ الطاعة تشبه الدعاء لأنَّها طلب لما يترتب عليها، والإثابة عليها تشبه إجابة الدعاء، كما يسمَّى الثناء دعاء لأنَّه تترتب عليه المكافأة، كما تترتَّب الإجابة على الدعاء، قال ﷺ : «**أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير**»[1].

وإمَّا أن يريد بالدعاء العبادة، أو ظاهره، سَمَّاهَا دعاء لترتُّب الثواب كترتُّب الإجابة على الدعاء، أو لأنَّ المشتغل بالعبادة يعطى أفضل مِمَّا يعطى الداعي، قال الله عَزَّ وَجَلَّ : «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل مما أعطي السائلين**»[2] قال أميَّة بن الصلت لابن جدعان حين أراد معروفه:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ثناؤك إنَّ شيمتك الوفاء

١- رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات، باب دعاء عرفة، رقم٣٥٨٥. من حديث عبد الله بن عمرو.

٢- رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات، باب ما جاء أنَّ دعوة المسلم مستجابة، رقم٣٣٨٣. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم ٣٨٠٠. من حديث جابر.

قال ﷺ : «**أفضل الدعاء الحمد لله**»[١] يعني إنّ الحمد يدلُّ على السؤال بالتعريض، أو شبَّه العبادة بالدعاء. ومن أجاز الجمع بين الحقيقة والمجاز أجاز تفسير الاستجابة بإجابة الدعاءِ والإثابةِ على الطاعة معًا، وكلٌّ منهما إحسانٌ فيجوز حمله على عموم المجاز.

وقيل : «الذينَ» فاعل «يَسْتَجِيبُ»، أي: يستجيبون الله، أي: قبلوا ما أمرهم به وعملوا به، والمضارع على كلِّ حال للتَّجدُّد، والعطف على قوله تعالى: ﴿هُوَ الذِي يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾.

قيل لإبراهيم بن أدهم[٢]: ما لنا ندعو ولا نجاب؟ قال: لأنَّ الله تعالى دعاكم فلم تجيبوه، فقرأ: ﴿واللهُ يَدْعُواْ إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ (سورة يونس: ٢٥) و﴿يَسْتَجِيبُ الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني أنَّ «الذينَ» فاعل «يَسْتَجِيبُ» فمن لا يجب الله لا يجبه.

(سبب النزول) و﴿الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على عمومه لفظًا ونزولاً، وقال سعيد بن جبير: قالت الأنصار: يا رسول الله هذه أموالنا تحكّم فيها لما يعرُوكَ، فنزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ أَجْرًا الاَّ الْمَوَدَّةَ فِي القُرْبَىٰ﴾ **تودُّون قرابتي من بعدي** فخرجوا مسلمين، وقال المنافقون: افترى على الله في حبِّ قرابته بعده، فنزل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى...﴾ فقرأها عليهم فتابوا فنزل: ﴿وَهُوَ الذِي يَقْبَلُ...﴾ فقرأها عليهم وقرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

١- أورده **محمد بن سلامة** في مسند الشهاب، ج٢، ص٣٢٦.

٢- إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي أبو إسحاق، أبوه من أهل الغنى في بلخ. تفقه في بلده ثم رحل في طلب العلم إلى الشام والعراق والحجاز، وكان يعيش بالعمل في الحصاد وحفظ البساتين والحمل والطحن ويشترك مع الغزاة في قتال الروم، وكان كثير الزهد فصيح اللسان. تُوُفِّيَ سنة ١٦١هـ، ودفن في سوفنن ببلاد الروم. الزركلي: الأعلام، ج١، ص٣١.

الصَّالحَات﴾ ﴿ويَزِيدُهُم مِّن فَضْله﴾ على ما سألوا واستحقُّوا، قال بعض المحقِّقين: الظاهر أنَّ هذا الحديث موضوع. ﴿والْكَافِرُون لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ﴾ مقابل لإجابة المؤمنين والتفضُّلِ عليهم.

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

من مظاهر حكمة الله في خلقه، وآياته الدالَّة على قدرته

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لعبَاده لَبَغَوْا في الأرْضِ﴾ تكبَّروا فيها بطرًا وظلموا، فإنَّ الغنى مبطَرَةٌ مأشرة، كما بغى قارون بماله، قال رسول الله ﷺ : «أخوف ما أخاف على أمَّتي زهرة الدنيا وكثرتها»[1]. والبغي: تجاوز الحدِّ في الشرِّ لا في الخير ﴿وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ بتقدير ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ تنزيله بحكمته.

١-أورده الطبري في تفسيره: ج٢٥، ص١٩، والسيوطي في الدر: ج٦، ص٨

.﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ محيط بما علم الخلق وما جهلوا، فيرزقهم متى شاء بما شاء، ويعطي ويمنع كذلك، ولو أغناهم كُلَّهم لبغوا بالمعاصي فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم مطلقًا، كما ترى مبسوطًا عليه يقاتل مبسوطًا عليه ظلمًا، ولا سيما أنّهم يتفاوتون في قُوَّة نفسٍ وبدن وضعفهما، وشدَّة اشتهاء للأمر وضعفه، ولو كانوا كلُّهم فقراء لهلكوا ولا ينجوا من البغي، ولكن البغي مع البسط هو الغالب.

ومن حكمته تعالى في الدنيا أن أغنى بعضًا، فينفع الفقير، ويخاف اجتماع الفقراء عليه بالضرِّ، فَيَنقُص بعضُ البغي أو كلُّه، وأفقر بعضًا ليذعن بذلك للغنيِّ ولا يقاومه، وأما الفقير الكلِّي حتَّى لا يجد عند الآخر كلَّ ما يطلبه فلا يتصوَّر معه البغي.

وقيل: العباد في قوله تعالى: «لعبَاده» المؤمنون الموفُّون، وفي قوله: «بعبَاده» هم أيضًا، مِنْ وَضْعِ الظاهر موضع المَضمر على طريق الاعتناء، والأصل: «إنَّه بهم». وعدم البسط مصلحة لهم، كما قال ﷺ : **«إذا أحبَّ الله عبدًا أحماه الدنيا، كما يظلُّ أحدكم يحمي سقيمه الماء»**[1].

قال رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل : **«من أهان لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة، وإنِّي لأغْضَب لأوليائي كما يغضب الليث الحَرِدُ، وما تقرَّب إِلَيَّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه، وما يزال عبدي المؤمن يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتَّى أُحبَّه، فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيِّدًا، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته»**[2].

١- رواه **الترمذي** في كتاب الطبِّ، باب ما جاء في الحمية، رقم٢٠٣٦، من حديث ابن النعمان.

٢- أورده **الهيثمي** في مجمع الزوائد، ج٢، ص٢٤٨، من حديث أبي أمامة.

(سبب النزول) وكما قال خبَّاب بن الأرتِّ: نظرنا إلى أموال قريظة والنضير وقينقاع فتمنَّيناها فنزل: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ...﴾. وقال عمرو بن حريث: طلب قوم من أهل الصُّفَّة من رسول الله ﷺ أن يبسط الله تعالى لهم، فنزلت الآية.

ولا يلزم من ذلك تفسير الآية بالمؤمنين بل هي على العموم كما هو الظاهر، ولا دليل للخصوص، وهم داخلون في العموم، وأما الردُّ على مدَّعي الخصوص بأنَّ المؤمن الموفي لا يبطره الغنى لأنَّه يرى الدنيا بعين التحقير فلا يتمُّ [أي ذلك الردُّ]، لأنَّ الله تعالى بنى الأمور على ما يشاء، فهو سبحانه بناهم على أن لا يبغوا، ولايبطروا، بعدم البسط، وبنى بعضًا على أن لا يبطر ولا يبغي مع البسط عليه، لأنَّ للسعادة والشقاوة أسبابا.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ المطر النافع الذي يغيث وينجِّي من الجدب، والذي لا ينفع لا يسمَّى غيثًا، فإذا نزل المطر لم تدر أنَّه غيثٌ فَقُلْ: «اللهمَّ اجعلْهُ غيثا». ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ أيِسُوا بقنوط ومن دون قنوط، ولكن خصَّ ما بعد القنوط بالذكر لأنَّ النفس أشدُّ فرحًا به، فكأنَّ ذكره تذكُّرٌ للنعمة فتشكر.

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ رحمة الله، وهو أولى، أو رحمة الغيث، وهي على كلِّ حال منافع الغيث في السهل والجبل، والنبات والحيوان، أو المراد عموم الرحمة على أنَّها تشمل ظهور الشمس لتؤثِّر في الأرض والنبات عقب الماء، ولسخونتها المطلوبة بعد كراهة البرد والبَللِ، وأمَّا أن يراد بها خصوص ظهورها فلا يجوز.

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ يلي عباده بالإحسان ونشر الرحمة ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود على ذلك استحقاقًا ووقوعًا.

﴿وَمِنَ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ العظام جسمًا وثقْلاً بلا تعمُّد على علاقة من فوق أو شيء من تحت، وإن كان فلا بدَّ لتلكَ العلاقة مما تتعلّق به، وللعمدة تحت مما تعتمد عليه فيتسلسل، والتسلسل لا يجوز.

﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ عطف على «السماوات» أي وخلق ما بثّ، أو على «خَلْقُ»، أي: ومن آياته ما بثّ. و«مَا» اسمٌ لا مَصدَرِيَّة، كما يدلُّ له قوله تعالى: ﴿من دَآبَّة﴾ لأنَّ «مِنْ» لبيان المبثوت الذي بثّه فيهما، لا للمصدر الذي هو البثُّ لأنَّ البثَّ غير دابَّة، وإن أوَّلته بالمبثوث أغناك عنه جعل «مَا» اسما واقعا على المبثوث، أي: الذي بثّه فيهما من دَابَّة على التوزيع، فدوابُّ السماوات: الملائكة، ودوابُّ الأرض: الإنس والجنُّ وسائر ما يمشي على الأرض، لأنَّ الملائكة والطير كما تطير تمشي.

ولا مانع من أن تكون دوابٌّ في السماء كدواب الأرضِّ من غير الملائكة لا نعلمها، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل: ٨) وتخصيص الدَّابَّة في سورة البقرة بدوابِّ الأرض لا يوجب تخصيص ما هنا بها كما قيل بذلك، وقيل: الحكم على المجموع كقوله تعالى: ﴿يُخْرَجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (سورة الرحمن: ٢٢) .

وقيل: إطلاق الدَّابَّة على الإنسان والجنِّ بعيد في عرف اللغة فكيف على المَلَك ؟ [قلت:] لا بعد في ذلك، وأصل اللغة يستغربه، وعظمة الله عَزَّوَجَلَّ يهُون كلُّ شيءٍ في مقابلتها، مع أنَّه لا إهانة في الوصف بالدبيب، فَعَمَّ هنا لبيان كمال القدرة، وخصَّ في سورة البقرة قصدًا إلى ما هو معروف عند المعاند والمسترشد، وقد قيل: في السماوات مراكب أهل الجَنـــَّة.

وقيل: السماوات جهات العلوِّ طبقة فوق طبقة، أو جوانب فيها دوابٌّ لا تنزل إلى الأرض، وهو خلاف الظاهر، ولا تفسَّر به الآية لعدم الحاجة إليه ولو صحَّ كما قيل.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ في الموقف للحساب بعد البعث، لا يخفى عنه حتَّى لا يبعثه، ولايفرُّ أحد عن الموقف بعد البعث، وقد دارت على أهل الموقف الملائكة سبعًا.

والهاء للناس المعلومين من مقام الإنذار والاستدلال والردِّ، وقيل: للدوابِّ، وقيل: للسماوات والأرض وما فيهما على التغليب ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ جمعَهم، «إِذَا» للاستقبال، والمضارع له، أي: في الوقت الآتي هو ومشيئته، ودخول «إِذَا» على المضارع جائز ولو لم تخرج عن الشرط، قال الشاعر:

وإذا ما أشاء أبعث منها آخر الليل ناشطًا مذعورًا[1]

﴿قَدِيرٌ﴾ لا يعجز. وجواب «إِذَا» أغنى عنه: هُوَ قَدِيرٌ، أي: على الجمع.

﴿وَمَآ أَصَابَكُم﴾ أيُّها المكلَّفون المؤمنون والكافرون ﴿مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ كمرض وحزن واحتياج ﴿بِمَا كَسَبَتَ أَيْدِيكُمْ﴾ من الذنوب، أو من سوء التدبير لأبدانكم أو أحوالكم.

(نحو) وما موصولة لعدم الفاء في جوابها، ولداع مثل هذا يقال: بموصليتها، لأنَّ الأصل أن لا تحذف الفاء في جواب الشرط، ولو كان الشرط ماضيًا. وليس قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُم لَمُشْرِكُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ١٢١) جوابًا لــ«إِنْ»[2] في سورة الأنعام. ﴿بِمَا كَسَبَتَ أَيْدِيكُمْ﴾ خبر، ويجوز أن تكون شرطيَّة، ويقدَّر الجواب بما يصلح شرطًا فلا يحتاج للفاء، أي: أصابكم بما كسبت أيديكم، ويدلُّ على ذلك قراءة «فَبِمَا» بالفاء التي هي أصل في الشرطيَّة، أي: فإصابتُها إيَّاكم بما كسبت أيديكم.

١- البيت لكعب بن زهير في ديوانه بلفظ:

«وإذا ما تشاء تبعث منها مغرب الشمس ناشطا مذعورا».

٢- «إِنْ» في قوله تعالى: {وَإِنَ اَطَعْتُمُوهُمُ,...}.

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ من ذنوبكم، وسوء تدبيركم، لا يرتَّب عليه سوء، أو عن كثير من الناس، والمتبادر الأوَّل، ويدلُّ له رواية أبي موسى عن رسول الله ﷺ : «**لا يصيب عبدًا نكبةٌ فما فوقها أو دونها إلاَّ بذنب وما يعفو الله عنه أكثر**» وقرأ ﴿مَآ أَصَابَكُم...﴾ الآية رواه الترمذي[1].

وَلَمَّا نزلت قال رسول الله ﷺ : «**والذي نفسي بيده، ما من خدش عود، ولا اختلاج عِرْقٍ، ولا نكبة حجرٍ، ولا عثرة قدم إلاَّ بذنب، وما يعفو الله عز وجل عنه أكثر**» وعن عكرمةً: «**ما من نكبة أصابت عبدًا فما فوقها إلاَّ بذنب لم يكن الله ليغفر له إلاَّ بها، أو درجة لم يكن الله ليرفعه لها إلاَّ بها**».

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ : «**لا يصيب المؤمن شوكة فما فوقها إلاَّ رفعه الله بها درجة وحطَّ عنه بها خطيئة**»[2] وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه تُصْدَعُ فتضع يدها على رأسها وتقول: بذنبي وما يغفر الله تعالى أكثر، وقيل لشريح: بم هذه القرحة في كفِّك؟ فقال: بما كسبت يدي.

[قلت:] وما أصاب الأنبياء ونحوهم ممن لا ذنب له فهو لرفع الدرجات، أو لتأديب عن شيءٍ مَّا، وما أصاب الطفل ونحوه ممن لم يُكلَّف يثاب عليه في الآخرة، ويثاب عليه أبواهُ، ومن يشُقُّ عليه بحسن الصبر.

قال عليٌّ: «ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى؟ حدَّثنا بها رسول الله ﷺ ؟ ﴿وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ بِمَا كَسَبَتَ اَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾،

١-رواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة حم عسق، رقم٣٢٥٢. من حديث أبي موسى الأشعري.

٢-رواه **الترمذي** في كتاب الجنائز، باب ما جاء في ثواب المريض، رقم ٩٦٥. من حديث عائشة.

وسأفسِّرها لك يا علي: «ما أَصابك من مرض أو عقوبة أو بلاءٍ في الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله تعالى أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله سبحانه أكرم من أن يعود بعد عفوه».

(فقه) ولا يخفى أنَّ المراد ما تيبَ عنه، وأمَّا ذنب أصيب و لم يتب عنه فمعاقب عليه في الآخرة، وما أصيب به من جلد وقطع ونحوهما لا يكفِّر عنه ذنبه، إن لم يتب عوقب بذنبه في الآخرة.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الاَرْضِ﴾ أي: بمُصَيِّري الله عاجزًا عن أن يصيبكم بما كسبت أيديكم، ولو استترتم بأقوى سترة، ولو هربتم إلى أقطار الأرض، أو لا تعجزون جنود الله التي في الأرض فكيف بجنوده التي في السماء؟ أو لا تعجزون الله بمصائبكم عن أن يدفعها ؟ هو قادر على دفعها كائنة ما كانت.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ وَّلِيٍّ﴾ يليكم بالرحمة إذا أصابتكم المصائب، أو يحميكم عنها فلا تصيبكم ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ يدفعها بعدَ وُقُوعِهَا.

﴿وَمِنَ ـــ ايَاتِه الْجَوَارِي﴾ السفن الجواري جمع جارية، اسم فاعل تجري ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ متعلِّق بجواري، وهو دليل على تقدير السفن.

(نحو) ولو لم يذكر في البحر لذُكِر الموصُوف وهو السفن، فيقال: ومن آياته السفن الجواري، لأنَّ الصفة غير الخَاصَّة لا يحذف موصوفها، ولو سلَّمنا أنَّه صفة غالبة لجاز حذف الموصوف بلا دليل آخر غير أغلبيتها، لكن أغلبيتها ينافي التعليق فتحتاج إلى ملاحظة الأصل، فلزم الرجوع إلى ما احتجَّ بتركه. ﴿كَالاَعْلاَمِ﴾ حال من المستتر في «الْجَوَارِي» أو في «مِنَ ـــ ايَاتِه» أو في متعلَّقه وهي الجبال، لأنَّها تعتبر علامات على المواضع والمقاصد، وكلُّ ما هو علامة يسمَّى علمًا.

﴿إِنْ يَّشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ﴾ التي تجري بها وذلك الإسكان بتمويجها وسبب التمويج تكاثف الجوِّ الذي قدَّام السفن، وتراكم بعضه على بعض لأنَّه جسم لطيف.

وسبب التكاثف إمَّا انخفاض درجة حرارة الجوِّ فيقل امتداده، ويتكاثف ويترك أكثر المحل الذي كان مشغولا به خاليًا، وإمَّا اجتماع بفجأة يحصل في الأبخرة المنتشرة في الجوِّ، فيخلو مَحلُّها، فإذا وجد الجوُّ أمامه فراغا جرى بقُوَّة ليشغله فتحدث الريح، وتستمرُّ حتَّى تملأ المحلَّ، وذلك أسباب خلقها الله، ولو شاء لفعل بلا سبب.

﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ يصرنَ بالإسكان، أو يَدُمْنَ، وأصله: الفعل في ظلِّ النهار ﴿رَوَاكِدَ﴾ واقفَات عن الجري لا عن الحركة لأنَّهنَّ يتحرَّكن ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ ظهر البحر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إجراء السفن في الماء ﴿لَأيَاتٍ﴾ دلائل عظيمة كثيرة على وجوده لمن لم يعلم وجوده، وعلى كمال قدرته لمن علم وجوده، ولمن لم يعلم إذا علم، وهكذا قل في غير هذه الآية من القرآن بحسب الصلوح.

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن ما لا ينبغي من المعاصي والمكاره، وعن الإكثار من اللذَّات، وعن الجزع بالمصائب، وعلى التفكُّرِ في الآيات، وعلى الطاعات ﴿شَكُورٍ﴾ بالطاعة، ومنها التفكُّر في نعمه، وهو شكر. وخصَّ الصبَّار الشكور لأنَّهم المتفكِّرون في الآيات المنتفعون بالآيات.

[قلت:] والإيمان نصفه صبر، ونصفه شكر، والمؤمن إمَّا في الضرَّاء صابر فيها، وإمَّا في السرَّاء شاكر فيها.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ عطف على «يُسْكِنِ»، أي: يهلكهنَّ بالريح العاصفة، وهو مقابل «يُسْكِنِ»، أي: يسكنها أو يرسلها عاصفة توبق.

(بلاغة) والمراد: إهلاك أهلها بالإغراق، فحذف المضاف، أو من نسبة ما للحالّ للمحلّ، أو ما للمسبَّب للسبب، لأنَّ إهلاكها أي: إغراقها سبب لإغراقهم على المجاز العقلي، أو سمَّى أهلهَا باسمها وهو هُنَّ على المجاز المرسل.

ويجوز إغراقها نفسها بالذات بقطع النظر عمَّن فيها، لأنَّ إغراقها تَخسيرٌ لمالكها ولما فيها من ماله أو مال غيره، وذلك بذنوبهم كما قال: ﴿**بِمَا كَسَبُواْ**﴾ من الذنوب، فهي مفسدة للأموال والأبدان ﴿**وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ**﴾ من الناس لا ركود ولا إيباق، أو من السفن كذلك.

﴿**وَيَعْلَمَ الذِينَ**﴾ فاعل «يَعْلَمُ» ﴿**يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِنَا**﴾ بالباطل. وقوله: ﴿**مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ**﴾ في محلِّ نصب سَدَّتْ مسدَّ مفعولي «يَعْلَمُ»، أو الفاعل ضمير يعود إلى الله تعالى، و«الذينَ» مفعول به، وجملة «مَا لَهُم...» مفعول ثان، أي: مخلص أو مهرب، مصدر ميميٌّ، أو مكان، أو زمان كذلك، وجملة «يَعْلَمُ الذينَ» معطوفة على قوله: ﴿إِنْ يَّشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ﴾ أي: ويعلم الذين يعاندون ولا يعترفون بآياتنا أو على قوله: ﴿وَمِنَ ـ ايَاتِهِ الْجَوَارِي﴾.

﴿**فَمَآ أُوتِيتُم**﴾ أيّها الناس مطلقًا، أو أيُّها المشركون، و«مَا» شرطيَّة مفعول ثان لـ«أُوتِيتُمْ».

[قلت:] ومن الغفلة أن تجعل موصولة مبتدأ، ويقدَّر أُوتِيتُمُوهُ، قُرِنَ خبره بالفاء، لأنَّه إن كان العموم مرادا فالشرطيَّة أولى به، أو غير مراد فلا وجه لتنزيل الموصولة كالشرطيَّة، ولقرن خبرها بالفاء، إلاَّ إن تكلّفوا أنَّ ذلك المخصوص في الصلة لما أجمل وأبهم نزلت به الموصولة منزلة الشرطيَّة.

﴿**مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ**﴾ فهو متاع ﴿**الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا**﴾ أي: شيء منها تتمتعون به، ولا يلزم من كون «مَا» في قوله تعالى: ﴿**وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ اسمًا

موصولاً كون «مَا» في ﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾ موصولة، ولا يترجَّح، لقيام المانع المذكور. والمرادُ: خيرٌ في نفسه لجودته وكثرته ولبقائه زمانًا لا ينقضي فهو دائم.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ متعلّقٌ بـ«أَبْقَىٰ» أو خبر لمحذوف، أي: هُوَ للذين آمنوا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ عطف على «ءَامَنُوا».

(سبب النزول) تصدَّق أبو بكر رضي الله عنه بمال اجتمع له كلِّه فلامَه المسلمون في عدم ترك بعضه لنفسه وأهله، والمشركون بأنَّه تصدَّق بماله كلِّه فيما لا ينفعه فنزلت الآية.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

صفات المؤمنين الكمَّل أهل الجنَّة

﴿وَالَّذِينَ﴾ عطف على «لِلَّذِينَ ءَامَنُوا» أو خبر لمحذوف، أي: هم الذين، أو مفعول، أي: أمدح الذين، كذا يقال. جعَلَنَا الله ممَّن مدحه الله تعالى، آمين آمين آمين.

﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ﴾ ما عليه الوعيد. و«ال» للجنس، وإلاَّ قيل: الآثام ﴿وَالْفَوَٰحِشَ﴾ ما اشتدَّ قبحُه منها، عطف خاصٍّ على عامٍّ، وقيل: الكبائر: البدع واتِّباع الشبهات، والفواحش: ما يتعلَّق بالقُوَّةِ الشهويَّة.

﴿وَإِذَا مَا﴾ صلة ﴿غَضِبُوا﴾ لأمر أصابهم به أحد ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ «هُمْ» توكيد للواو، لا من حيث الغضب بل من حيث مدحهم على طريق الاعتناء، و«يَغْفِرُونَ» جواب «إِذَا»، ولو كان «هُمْ» مبتدأ لقرن بالفاء، أو فاعل لمحذوف على الاشتغال.

(بلاغة) ووجه تأكيد غفرانهم بتكريره، أي: يغفرون يغفرون، فحُذف يغفر الأوَّل وهو جواب «إِذَا» وبقي الواو، وجُعل مكانه ضميرٌ منفصل، أو «إِذَا» خارجة عن الشرط متعلّق بـ«يَغْفِرُونَ»، ولا تحتاج إلى الفاء، أي: يغفرون وقتًا متَّصلاً بغضبهم، لا يؤخِّرون المغفرة.

﴿وَالذِينَ اَسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ﴾ يحتمل العطف على الذين الأوَّل أو الثاني، وأنَّ المراد بهما وبالأوَّل قومٌ واحد تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات، فساغ العطف كأنَّه قيل للجامعين بين الإيمان والتوكُّل على ربِّهم، واجتناب الكبائر والفواحش والغفران إذا غضبوا، والاستجابة لربِّهم وإقامة الصلاة.

وقيل: المراد بـ﴿وَالذِينَ اسْتَجَابُواْ﴾ الأنصار رحمهم الله، مدحهم الله تعالى بسرعة إجابتهم لرسول الله ﷺ، عطف خاصٍّ على عامٍّ، والآية مَدَنيَّة ولا إشكال، أو مكِّية في أصحاب العقبات الثلاث، أو فيمن آمن في المدينة قبل الهجرة.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ عطف اسْمِيَّة على فِعْلِيَّة، و﴿أَمْرُهُمْ﴾ شأنهم كما تقول: شأني الكرم والعفو، وإن أريد المتشاور فيه من القضايا فالإخبار عنه بالشورى مبالغة، فإن الشورى اسم مصدر كالبشرى، أو يقدَّر: ذات شورى، والإضافة للجنس لا للاستغراق ولا لفرد معهود، فهم يتشاورون فيما يستَحقُّ التشاور.

قال رسول الله ﷺ : «**من أراد أمرًا فتشاور فيه، وقضى الله، هُدي لأرْشَدِ الأمور**»[١] رواه البيهقي، وعن الحسن: «ما تشاور قومٌ قطُّ إلاَّ هُدوا وأرشد أمرهم»، وكان النبيء ﷺ والصحابة يتشاورون في أمر الحرب، و في الأحكام التي تنزل، كقتال أهل الرِّدة، وميراث الجدِّ، وعدَدِ حدِّ الخمر، وغير ذلك مِمَّا لا نصَّ فيه من الله تبارك وتعالى.

قال رسول الله ﷺ : «**إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم أسخيائكم، وأمركم شورى بينكم، فظَهْرُ الأرض خيرٌ لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم أشراركم، وأغنياؤكم بخلائكم، وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرضِ خير لكم من ظهرها**»[٢].

[قلت:] ففي الشورى على وجهها صلاح الدنيا والدين، وفي تركها وإيقاعها على غير وجهها فسادهما، كمشاورة النساء وغير العاقل، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ : «**استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا**»[٣] قال علي: يا رسول الله يترل الأمر بعدك لا قرآن فيه ولا حديث عنك؟ قال: «**أجمعوا له العباد واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأي واحد**»[٤] يعني مِمَّا لا يحتاج إلى الاجتهاد بالعلم، بدليل أنَّ عليًّا يقول في ذلك من عنده بلا اجتماع عليه.

١- أورده **البيهقي** في شعب الإيمان، باب الحكم بين الناس، رقم٧٥٣٨، من حديث ابن عمر.

٢- رواه **الترمذي** في كتاب الفتن، باب ما جاء في النهي عن سب الرياح، رقم٢٢٦٦، من حديث أبي هريرة.

٣- أورده **ابن حجر**، وعزاه إلى الخطيب والدارقطني وضعَّفه. ابن حجر: لسان الميزان، ج٣، ص٩٩.

٤- أورده ابن حجر، وقال: «ساقة الخطيب في الرواة» وضعَّفه. انظر: ابن حجر: لسان الميزان، ج٣، ص٧٨.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله ﷻ، كصلة الرحم وإعطاء الضعفاء، وإكرام المؤمنين.

(بلاغة) وفصله عن إقامة الصلاة بالشورى لأنّ الاستجابة وإقامة الصلاة كانا من آثار الشورى، إنّ الاستجابة وإقامة الصلاة متأخِّرتان منهم على الشورى، لأنّه تعالى وصفهم بالاستجابة وإقامة الصلاة والحال أنّهم من شأنهم الشورى ومتّصفون بها، وذلك ظاهر في الأنصار أو فصل بالشورى لوقوعها بعد اجتماعهم للصلاة.

﴿وَالذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ انتقامًا بالقدر الجائز فقط لا يتجاوزون الحدَّ، كما يتجاوزه المشركون والمنافقون، فذلك وصف لهم بأنّهم يغفرون، وأنّهم يقتصرون على القدر الجائز، إذا لم يغفروا، وكلتا الحالتين حسنة أو بأنّهم يغفرون تارة وينتصرون أخرى، أو بأنّهم يغفرون فيما هو حقٌّ لهم وينتصرون فيما لدين الله ﷻ، [قلت:] أو ينتصرون من المُصرِّ القبيح الذي لا يَرعوي فإن الانتصار منه محمودٌ، ولا سيما إذا كان العفو عنه ذُلًّا للإسلام كما قيل:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكتَــــه وإن أنت أكرمت اللَّئيم تمـــــرَّدا
فوضع الندى في موضع السيف بالعلاَ مُضرٌّ كوضع السيف في موضع الندا

قال النابغة:

ولا خير في حلم إذا لم يكــن لــه بوادر تحمي صفوَهُ أن يُكَدَّرا
ولا خير في جهل إذا لم يكــــن له حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصْدَرا

قال النخعي: كانوا يكرهون أن يجترئ عليهم الفسَّاق فينتصرون منهم، والعفو عن السفيه إغراء له على السفه وذلٌّ للعافي. وعن عطاء: الآية في المؤمنين أخرجهم الكُفَّار من مَكّة، ثمَّ مكّنهم الله حتَّى انتصروا، والأعراب مثل ما مرَّ في

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا...﴾، إلاّ أنّه إذا جعلنا «هُمْ» توكيدا لهاء «أَصَابَهُم» لزم الفصل ولا بأس.

﴿وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ مثل أن يقول يا خبيث فيردُّ له: يا خبيث، قيل: أو أنت الخبيث، ولايبهته، إن بهته.

(بلاغة) سُمِّي الجزاء سَيِّئَة مع أنّه جائز باعتبار اللغة، لأنَّه يسوء من جُزي به. واختار هذا اللفظ للمشاكلة لـ«سَيِّئَة» قبله. وقيل: تهجين للمُجازي، واختيار له أن لا ينتقم وذمٌّ له على الانتقام، وأُوردَ عَليه قولهُ تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِه﴾ وأجيب بأنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ...﴾ الولاة، تعليم لهم كيف يلون الحكم، وهو جواب باطل لا دليل عليه، وكذا حمل الآية على التهجين.

(فقه) وإن زاد في العقاب أو عاقب بما لا يجوز كان غير محمود.

﴿فَمَنْ عَفَا﴾ بترك الانتقام أو بانتقام أقلَّ مِمَّا له عن المسيء ﴿وَأَصْلَحَ﴾ شأنه في سائر أعماله، أو أصلح ما بينه وبين المسيء لأنَّه قد يعفو ولا يرجع إلى ماكان عليه قبل الإساءة، من حسن الحال بينهما ﴿فَأَجْرُهُ, عَلَى اللهِ﴾ يُثبْه الله على ذلك إذا عفا لوجه الله، أو لأنَّ الله تعالى أمر بالعفو، لا ذاهلاً ولا لرئاءٍ ولا لغرض دنيويٍّ.

[قلت:] وينفعه ولو ذَاهلاً إن نوى أوَّل ليلته أو أوَّل يومه، أو أوَّل السنة أو أوَّل الشهر، أو أوَّل الأسبوع لتلك المدَّة، أو أقل أو لباقي عمره، أو لوجه الله صَالِح عمله.

﴿إِنَّهُ, لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ مطلقًا، ومنهم من يجاوز الحدَّ في الانتقام أو هو المراد هنا خصوصًا، وتخصيصه أشدُّ في الوعظ والزجر، ودخل في «الظَّالِمِينَ» من ابتدأ بالسيِّئة، ويجوز أن يراد المبتدئ بها، والمجازي بما لا يجوز أو بالزيادة.

﴿وَلَمَنِ﴾ اللام للابتداء، ومن الغفلة أن تجعل للقسم مع أنَّه لا دليل على القسم، وهَبْ أنَّه مُقدَّر فَأَيُّ مانعٍ من أنَّه أجيب بجملة اسْمِيَّة مقرونة بلام الابتداء؟ وأيُّ حجة على أنَّها لام لَتَقُومَنَّ دخلت على الاسْمِيَّة؟ وهب أنَّها ترجّح لكن لا دليل على القسم، كما لا دليل على أنَّ «مَنْ» موصولة.

﴿انتصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ مصدر مضاف للمفعول، أي: بعد ظلم (نحو) أحد له، والمصدر من المبني للفاعل، قيل: أو من المبني للمفعول، فهو الضمير المستتر في «ظُلْم» بالبناء للمفعول، كما في قراءة من قرأ «بَعْدَ مَا ظُلِمَ» بالبناء للمفعول كذا تكلّف بعض المحقّقين.

﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ أي: المنتصرون مراعاة لمعنى «مَنْ» بعد رعاية لفظها بالإفراد ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ لا سبيل لمن يعاقبهم على الانتصار، أو يعاقبهم عليه، أو يعيبهم به، من ولاة الأمر وغيرهم من العَامَّة.

﴿انَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الذينَ يَظْلمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الارْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ابتداءً أو في الانتصار بالزيادة، أو بما لا يجوز، مثل أن يضربك فتفسد ماله، أو يقول فيك سوءً فتضربه. وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ حالٌ مؤكّدة، لأنَّ البغي أبدًا غير حقٍّ ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الباغون بغير الحقِّ، مشركين أو موحِّدين ﴿لَهُمْ﴾ ببغيهم، هو متعلّق بـ«يَبْغُونَ» للتأكيد كذلك ﴿عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ شديد، حتَّى كأنَّه نفسه متألِّم كالذي أصابه، أو ذو ألم فيمن أصيب به، أو مُؤلم، من استعمال الثلاثي المجرَّد بمعنى الرباعي بالزيادة، إذْ ورد ذلك في ألفاظ، أو على حذف مضاف، أي: أليم صاحبُه.

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ للظلم، أو بمعنى أصلح ﴿وَغَفَرَ﴾ للظالم حيث لا ينقص دين الله بذلك ﴿إِنَّ ذَالِكَ﴾ المذكور من الصبر والغفران ﴿لَمِنْ عَزْمِ الامُورِ﴾

أي: الأمور ذات العزم، أي: المعزوم عليها، أي: التي عالج النفس وقهرها عليها، إذ صبر وغفر مع القدرة، أو الأمور العازمة.

(نحو) واللام للابتداء لا للقسم إذ لا دليل عليه، و«مَنْ» موصولة لا شرطيَّة لاحتياجها إلى حذف الجواب، أو تقدير الفاء. واللام في قوله: ﴿لمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ لام التأكيد في خبر «إنّ» لا لام القسم، ورابط المبتدأ محذوف، أي: إن ذلك منه، أو الإشارة إلى ما أضيف إلى ضميره، أي: إنّ ذلك المذكور من صبره أو غفره، أو إنّ فعْلَهُ ذلك.

قالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ : «**كنت بين شرّ جارين بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابي، حتَّى إنَّهما ليأتيان ببعض ما يطرحان فيطرحانه على بابي**»[1].

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ : «**قال موسى بن عمران عليه السلام : يارِبِّ من أعزُّ عبادك عندك؟ قال من إذا قدر غفر**»[2] رواه البيهقي .

قال أنس: إذا أوقف الله العباد للحساب نادى مناد: «ليقم من أجره على الله تعالى فليدخل الجَنـــّة، ثمّ نادى الثانية: ليقم من أجره على الله تعالى، قالوا: من ذا الذي أجره الله على الله تعالى؟ قال: العافون عن الناس، فقام كذا وكذا ألفًا فدخلوا الجَنـــّة بغير حساب»[3] كذا رواه البيهقي.

١- أورده **ابن سعد** في الطبقات، ج١، ص٢٠١. (المكتبة الألفية - قرص مدمج).

٢- أورده **البيهقي** في شعب الإيمان، باب في حسن الخلق، فصل في ترك الغضب وفي كظم الغيظ والعفو عند المقدرة، رقم٨٣٢٧. من حديث أبي هريرة.

٣- رواه **الطبراني** في الأوسط، حديث ١٩٩٨، ج٢، ص٢٨٥. عن أنس بن مالك مرفوعا.

وعن أبي هريرة: شتم أبا بكر رجل فجعل رسول الله ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر ردَّ عليه بعض قوله، فغضب النبيء ﷺ وقام، ولحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله كان يشتمني وأنت جالس، فَلَمَّا رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت؟ قال: «**إنَّه كان معك ملك يردُّ عنك، فَلَمَّا رددت عليه بعض قوله وَقَعَ الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان**» ثُمَّ قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث كلُّهنَّ حقٌّ: ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله تعالى إلاَّ عَزَّهُ الله عَزَّ وَجَلَّ بنصره، وما فتح رجل باب عطيَّة يريد بها صلة إلاَّ زاده الله تعالى بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة إلاَّ زاده بها قلَّة**»[1].

[قلت:] وفي هذه الرواية عتاب الصدِّيق على ترك الأولى لا منافاة للآية، فقد روى ابن ماجه والنسائي أنَّ زينب دخلت على عائشة فجعلت تسبُّها فنهاها النبيء ﷺ ولم تنته فقال ﷺ لعائشة: «سُبِّيهَا» فسبَّتها حتَّى جفَّ ريق زينب، ووجهه يتهلَّل، أي: زاد تهلُّلاً بالإنصاف لها[2]، أو بقي على حاله من التهلُّل لم يتغيَّر، وقيل: الأولى رفع المسيء إلى من يحكم بالحقِّ.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

١- رواه **أحمد** في مسنده، ج٣، ص١٧٧، رقم ٩٣٤١، من حديث أبي هريرة.

٢- راجع القصَّة في ابن كثير إن شئت.

أحوال الكفَّار أمام العذاب

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد ذلك الضلال، أو من بعد الله عَجَلَّ، على حذف مضاف، أي: من بعد خذلانه، وقيل: من بعد الخذلان المفهوم من «يُضْلِل»، أو من بعد ذلك كُلِّه، والمراد بمن يضلل الظالم، أو العموم فيدخل الظالم بالأولى.

﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ﴾ تراهم بعينيك، فجملة القول بعد ذلك حال، لجواز تعليق الرؤية البصريَّة بذات، لاعْتبارِهَا مشاهدة وقوع بها، تقول: رأيته يضرب ورأيته يتكلَّم، أو بمعنى تعلم، فالجملة مفعول ثان، والأوَّل أولى، كأنَّه قيل: تشاهدهم يقولون. **﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾** إذا رأوه، والمضيُّ لتحقُّق الوقوع.

﴿يَقُولُونَ هَلِ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ أي: إلى ردٍّ إلى الدنيا، والمراد بالدنيا في مثل هذا المقام الخروج عن النار إلى موضع يُكَلَّفون فيه، ويحتمل **أن يريدوا نَفْسَ الدُّنيا الفانية،** **﴿مِّن سَبِيلٍ﴾** فنؤمن ونعمل صالحا فقط، والتنكير في الموضعين للعموم، لا للتعظيم، والمراد: رَدٌّ مَّا، أيُّ ردٍّ كان، وسبيلٍ مَّا كَذَلِكَ.

﴿وَتَرَاهُمْ﴾ بعينك **﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾** على النار المدلول عليها بذكر العذاب **﴿خَاشِعِينَ﴾** متغيِّري الأبدان باللَّون والرقَّة **﴿مِنَ الذُّلِّ﴾** لعظم ما لَحِقَهُم، متعلِّق بـ«خَاشِعِينَ» أو بقوله: **﴿يَنظُرُونَ﴾** والأوَّل أوضح، وهو على الأصل، ولا داعي إلى غيره.

﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ الطرف تَحْريكُ أجْفانِ العين. و«مِنْ» للابتداء، أي: يبتدئ نظرهم من تحريك ضعيف خفيٍّ، كالخائف يسارق النظر كما يفعل المحاط به ليقتل، أو يضرب، وكما ينظر الناظر إلى المكروه لا يفتحها كما يفتحها في سائر أحواله، وفي النظر إلى ما يحبُّ. أو «مِنْ» بمعنى الباء، وعن ابن

عبَّاس: ﴿خَفِيٍّ﴾: ذليل، فالطرف على هذا المعنى العين لا مصدر، وقيل: يحشرون عُمْيًا، فالنظر الخفيُّ من قلوبهم، وفيه بُعْدٌ.

﴿وَقَالَ الذِينَ ءامَنُوا﴾ قالوا في الدنيا، فـ«يَوْمَ الْقِيَامَة» متعلّق بـ«خَسِرُوا» أو يقولون في الآخرة إذا رأوهم على تلك الصفة. والمضيُّ لتحقُّق الوقوع، و«يَوْمَ الْقِيَامَة» متعلّق بـ«قَالَ»، قيل: أو تنازع «قَالَ» و«خَسِرَ» في «يَوْمَ» وعمل فيه «خَسِرُواْ» وأضْمَرَ لـ«قَالَ»، وأسند القول للذين آمنوا دلالة على أنَّهم يتهجون برؤية أعدائهم في السوء الدائم، وإلاَّ فكلٌّ من حضر الموقف ويرى يقول ذلك، من الملائكة والأشقياء أنفسهم يقولون لأنفسهم وبعض لبعض.

﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: إنَّهم، أي: الظالمين، فوضع الظاهر للفظ الخسران الكامل، أو المراد العموم فيدخلون. ﴿الذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ أجسادهم ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ أتباعهم من الأولاد المكلّفين، والأزواج، والأصحاب المتَّبعين لهم في الكفر، وأزواجهم من الحور العين، وولدان الجنَّة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ خسروهم حين كفروا وأصرُّوا في الدنيا، أو حين ماتوا، لكن يظهر خسرانهم الظهور الكامل يوم القيامة.

﴿أَلاَ إِنَّ الظَّالمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ دائم، الجملة مستأنفة، أو هي قول الذين آمنوا ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم﴾ برفع العذاب عنهم ﴿مِّن دُونِ اللهِ﴾ كما زعموا من أنَّ آلهتهم تشفع لهم ﴿وَمَنْ يُّضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى الهدى، أو إلى النجاة أو إلى الاحتجاج على صواب ما هو فيه.

﴿ اِسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ اَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا اِنْ عَلَيْكَ إِلَّا

﴿ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

الاستجابة لنداء الله مالك السماوات والأرض واهب النعم

﴿ اسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ إذا دَعاكم لما به النجاة على لسان رسوله ﷺ ، ﴿مِّن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ,﴾ لا رَدَّ له.

(نحو) واسم «لاَ» مُشبَّه بالمضاف لتعلُّقه به، ومع ذلك لم ينصب منوَّنًا بَلْ بُنِيَ كالمفرد، وقيل: معرب لم يُنَوَّن لنية لفظ المضاف إليه، ومثل هذا وارد في مواضع من القرآن مثل: ﴿لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ (سورة التوبة: ١١٨) ، و﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُم﴾ (سورة يوسف: ٩٢) ، وكثير في الحديث، مثل قوله ﷺ : «**لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ**»[١] وقوله: «**لاَ مُعطِيَ لما منعت**» وقوله: «**لا حولَ عن معاصي الله إلاَّ بعصمة من الله ولا قوَّةَ على طاعة الله إلاَّ بعون من الله**»[٢] وفي سائر الكلام. وابن مالك أجاز ذلك في التسهيل والتنوين، والنصب في ذلك أولى، والمانع يقول: تلك الظروف خبر لـ«لاَ»، أي: لاَ مَرَدَّ ثابتٌ له وقد كثر الإخبارُ في القرآن عن المصدر بما ظاهره التعلُّق بذلك المصدر، وهو متعيِّن في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٧، ص١٩٤.

٢- رواه البزار بلفظ: «لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قُوَّة على طاعة الله إلا بعون الله»، البزار: المسند، ج٥، ص٣٧٤، حديث رقم ٢٠٠٤، عن عبد الله بن مسعود.

﴿الْمُنتَهَى﴾ (سورة النجم: ٤٢) لتقدُّم الظرف أو بمحذوف نعت لاسم «لاَ». والخبر قوله: ﴿مِنَ اللهِ﴾ وعلى أنَّ الخبر له يتعلَّق «مِنْ» به أو بمتعلَّقه، وكذا إن جعل «له» نعتًا. ويجوز تعليق «مِنْ» بـــ«يَاتِي».

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ يخلِّصكم من العذاب، وهو اسم مكان أو مصدر أو زمان، أي: مالكم للنجاة وقت بل تخلدون ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ اسم مصدر، أي: إنكار أو مصدر للثلاثي لوروده كقوله تعالى: ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ (سورة هود: ٧٠)، ولا ينافي ذلك إنكارهم بقولهم: ﴿وَاللهِ رَبِّـــنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٣) لأنَّ إنكارهم كلا إنكار لعدم نفعه وتكذيب الجوارح له، أو ينكرون في موقف ولا ينكرون في آخر، وما لهم في قلوبهم من نكير ﴿فَإِنَ اَعْرَضُواْ﴾ عمَّا تقول ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فلا تهتم بهم لأنَّا ما أرسلناك عليهم ﴿حَفِيظًا﴾ رقيبًا تحاسبهم.

﴿اِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ اَلْبَلاَغُ﴾ حصول البلاغ وقد حصل، أو اسم مصدر، أي: التبليغ وقد بَلَّغت.

(نحو) ولا يعطف بعد «إلاَّ» بلا، لا تقول: إلاَّ البلاغ لا الحفظ، ويجوز بعد «إنَّما» مثل: إنَّما عليك البلاغ لا الحفظ.

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الاِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ كَسَعَة رزق وصحَّة وجاه وعافية ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ فَرَحَ بَطَرٍ، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ (سورة القصص: ٧٦) ، أو مطلق فرح، وأمَّا الفرح للطَّاعة بلا عجب بل شُكْرًا فمحمود، ففي الحديث: «**المؤمن إذا أحسن استبشر وإذا أساء حزن**»[1].

١-أورده **السيوطي** في الدر: ج١، ص١٦٩، وابن كثير في تفسيره، ج١، ص٢٩٦. بلفظ: «المؤمن إذا عمل الحسنة سرَّته...».

ومجّرد الفرح للدنيا لا يحسن. وأُفْرِدَ مراعاةً لِلَفظ «الانسَان» ﴿وَإِن تُصبْهُمْ﴾ جُمِعَ مراعاةً لمعناه ﴿سَيِّئَةٌ﴾ ضدّ الرحمة ﴿بِمَا قَدَّمَتَ اَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصي.

وإذا ذمُّوا على ذلك الجزع فأولى أن يذمُّوا لو أصابتهم لا بسبب كسْبِهم، كذا قيل. [قلت:] وفيه أنّ جزعهم بإصابتها لأجل السيِّئة أسهل لبادئ الرأي من جزعهم بها إذا أصابتهم بلا سيِّئة، لأنَّهم يقولون: أصابتنا مع أنَّا لم نعمل سيِّئة توجبها.

﴿فَإِنَّ اَلانسَانَ﴾ المذكور، فـ«ال» للعهد، قيل: أو للجنس استقلالاً لا اعتمادًا على العهد ﴿كَفُورٌ﴾ بليغ الكفر، كقوله تعالى: ﴿ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (سورة إبراهيم: ٣٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الانسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (سورة العاديات: ٦) . والجملة جواب «إِنْ» لإقامة العلّة مقام المعلول، أي: فإنَّه معاقب على جزعه بها وكفره الرحمة التي أصابته، ولا يخلو منها، ينساها ويستحضر السيِّئة يغتاظ بها كأنَّه لم يتأهَّل لها، وكأنَّه ظلم بها.

(بلاغة) وعبَّر بـ«إِنْ» في السيِّئة لقلّتها بالنسبة إلى الرحمة جدًّا حَتَّى كأنَّها مشكوك في وقوعها تعالى الله، وناسب ذلك ذكر تسبُّبهم لها، حتَّى كأنَّها شيء خارج عن الأصل، بخلاف الرحمة فعبَّر فيها بـ«إِذَا» المعبَّر بها في مقامات التحقُّق، وبنون العظمة إيذانًا بأنَّها مرادة بالذات، محقَّقة كثيرة، ألا ترى أنَّها سبقت غضبه؟ سبحان الله الرحمن الرحيم!.

﴿لِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ على اختياره وبلا وجوب عليه، وله الملك يقسم الرحمة والسيِّئة كما شاء، لا كما يهواه أحد، ولامنازع له، لأنَّه يفعل بحكمة، فلا يبقى إلاَّ التسليم والطاعة شكرًا في الرحمة والسيِّئة، فإنّ الرحمة للشكر لا للبطر والسيِّئة للرجوع إليه لا للجزع والكفْرِ، ورحمته هِبَةٌ لا لواجبٍ عليه كما قال:

﴿يَهَبُ لِمَنْ يَّشَآءُ اِنَاثًا﴾ كلوط وشعيب، قدَّمهنَّ وهنَّ من جنس السيِّئات [حسب ظنِّهم] لمناسبة ما اتَّصلَ الكلام به قبل، وللدلالة على أنَّه ليس الأمر تابعًا لأهوائهم وهم يكرهونهنَّ، وللفاصلة، وقيل: قدَّمهنَّ لأنَّهنَّ أكثر لتكثير النسل، وقيل: لتطييب قلوب آبائهنَّ لما في تقديمهنَّ من التشريف بأنَّهنَّ سبب لتكثير مخلوقاته تعالى، وقيل: للإشارة إلى ما في تقدُّم ولادتهنَّ من اليُمن، وعن قتادة: من يمن المرأة تبكيرها بأنثى، وقيل: قدَّمهنَّ توصية برعايتهنَّ لضعفهنَّ، ولا يلزم أن يقدِّم الذكور وهم من جنس الرحمة كما قدَّم الرحمة.

والعرب تعدُّ الإناث بلاء ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ, مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (سورة النحل: ٥٨) قال ﷺ : « **من ابتلي بشيء من هذه البنات فأحسن إليهنَّ، كنَّ له سترا من النار**»[1].

﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَّشَآءُ الذُّكُورَ﴾ كإبراهيم عرَّف اسمهم ونكَّر الإناث، لأنَّ الإناث أبعد خطورًا في قلوبهم، والذكور حاضرة في قلوبهم ومناهم، وأوَّل خاطر في شأن الولادة، وكلَّما ذكر الله الذكر والأنثى لا يذكر الخنثى المشكل لعلَّه لأنَّه عند الله تعالى ذكر أو أنثى لا ثالث.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ كرسول الله ﷺ له أربعة بنين وأربع بنات، والتزويج جعل الشيء زوجًا فذكرانًا حال من الهاء، أي: يزوِّج الأولاد ذكرانًا وإناثًا، أي: يخلق ما يهب لهم زوجًا زوجًا، وعطف بـ«أو» لأنَّه قسم لانفراد المشترك بين الأوَّلين، والواو للمعية لأنَّ حقَّ ما بعدها التأخير عن القسمين سياقًا ووجودًا، أو لأنَّ المراد: يهب لمن يشاء ما لا يهواه ويهب لمن يشاء ما يهواه، أو يهب النوعين. ولتركُّبه منهما لم يذكر المشيئة.

١-رواه **الترمذي** في كتاب البرِّ والصلة، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات، رقم١٩١٣. ورواه **أحمد** في مسند الأنصار، رقم٢٣٥٣٥. من حديث عائشة.

﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَّشَآءُ عَقِيمًا﴾ لا يولد له، كيحيى وعيسى، ذكر المشيئة لأنَّه قسم آخر.

(لغة) قال مجاهد: التزويج أن تلد المرأة غلامًا ثمَّ جارية، وقال محمَّد بن الْحَنَفِيَّة: أن تلد غلامًا وجارية من بطن واحد، وقيل: الآية فيها إشارة للأنبياء، وهب لشعيب ولوط إناثًا، ولإبراهيم ذكورًا، ولرسول الله ﷺ ذكورًا وإناثًا، وجعل عيسى ويحيى عقيمين، ﴿اِنَّهُ, عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه ذلك ولا غيره.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُّكَلِّمَهُ اُللَّهُ إِلَّا وَحْيًا اَوْ مِن وَّرَآءِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ, عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنَ اَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا اُلْكِتَٰبُ وَلَا اُلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ اِللَّهِ اِلَّذِي لَهُ, مَا فِي اِلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي اِلْاَرْضِ أَلَآ إِلَى اَللَّهِ تَصِيرُ اُلْاُمُورُ (٥٣)﴾

الوحي نور وهداية للناس وكيفيَّة نزوله

(سبب النزول) قالت قريش: يا محمَّد، ألا تكلِّم الله وتنظر إليه، كما كلَّمه موسى ونظر إليه، إن كنت نبيئًا صادقًا؟ فقال ﷺ: لم ينظر موسى إلى الله تعالى فنزل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُّكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا...﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: من زعم أنَّ محمَّدًا رأى ربَّه فقد كذب على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثمَّ قرأت ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الاَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الاَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٣) وقرأت: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُّكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا...﴾.

(نحو) و«وَحْيًا» مفعول مطلق على حذف مضاف، أي: إلاّ كلام الوحي، أو مفعول مطلق لحال محذوفة، أي: إلاّ موحيًا وحيًا، أي: إيحاءً. ولا يجعلْ المصدر حالا مبالغة، أو لتأويل الوصف، أو تقدير مضاف، مثل: مصاحب، إلاّ إذا لم يوجد إلاّ ذلك.

وقيل: منصوب على الاستثناء المنقطع، بناء على أنّه غير مفرغ، وأنّ الكلام قبله تام، أي: ماكان لبشرٍ أن يكلّمه الله مشافهةً لكن كلامه وحيٌ، تعالى عن الجوارح وسائر صفات الخَلق.

(لغة) والوحي هنا الإلقاء في القلب في اليقظة أو المنام، والإلقاء أعمُّ من الإلهام، فإنّ الإيحاء إلى أمِّ موسى إلهام، وإلى إبراهيم إلقاء في المنام، وإيحاء الزبور إلقاء في اليقظة، وشهر أنّ غير القرآن من كتب الله عَزَّوَجَلَّ نزل مكتوبًا، ويجوز إطلاق الإلقاء على الكتب المنزّلة مكتوبة، والإلهام لا يستدعي صورة كلام نفسي في قلب السامع، بل يستدعي مطلق فهم، والله منزّه عن الكلام النفسي، والزبور يستدعيه.

وجاء إطلاق الوحي على الإلقاء في قول عبيد بن الأبرص:

وأوحى إليّ الله أن قد تآمروا بإبل أبي أوفى فقمت على رحلي

﴿اوْ مِنْ وَّرَآءِ حِجَابٍ﴾ أي: أو كلاما من وراء حجاب، على المفعوليّة المطلقة، أو موحيا صوتا خلقه الله حيث شاء من وراء حجاب، أو مسمعا من وراء حجاب على الحال، يسمع صوتا خلقه الله في الجوِّ، أو حيث شاء، وذلك تمثيل بسلطان يكلّم بعض خواصِّه محتجبا.

﴿أَوْ يُرْسِلُ رَسُولاً﴾ ملكا ﴿فَيُوحِيَ﴾ الرسول الملَك ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بإذن الله إلى النبيء ﴿مَا يَشَآءُ﴾ الله تعالى، وهو حال نبيئنا محمَّد ﷺ غالبا، وكثير من الأنبياء، وزعم بعض أنّه من خصوصيّات أولي العزم.

(نحو) والعطف في قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلُ﴾ على «وَحْيًا» بالمعنى كعطف التوهُّم، على أنّ الاستثناء منقطع، إذ المعنى: لكن يوحي وحيا، أو على موحيا الناصب لـ«وَحْيًا» أو على مسمعا، أو موحيا العامل في ﴿مِنْ وَّرَآءِ حِجَابٍ﴾ وإن قدَّرنا: «كلام وحي» فالعطف على «كلام» بتأويل مصدر، وتقدير «أن» الناصبة حذفت ورفع الفعل، كما يدلُّ له قراءة النصب، أي: إلاّ كلام وحي، أو أن يرسل رسول، أي: أو كلام إرسال رسول.

(فقه) ومن حلف لا يكلم فلانا فأرسل إليه بكلام حنث إن لم يعن في يمينه كلام مشافهة، لهذه الآية، غير أنّ الاستثناء إن كان منقطعا لم تَدُلّ الآية على ذلك.

وظاهر الآية حصر الوحي في ذلك، لكن روي أنّ من الأنبياء من يكتب له في الأرض، [قلت:] وأقول الذي عندي أنّ الكتب المنزّلة مكتوبة داخلة في إرسال الرسول لأنّه يأتي بها جبريل، فهو الرسول المرسل به، والله الموفّق.

﴿اِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ شأنا، وتنزّه عن صفات الخلق ﴿حَكِيمٌ﴾ يجري وحيه على ما تقتضيه حكمته من أنواع الوحي.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ فعل ذلك الإيحاء البديع المذكور، أو الإيحاء إلى من قبلك، أو أنواع الوحي التي ذكرت في الآية قبل ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا﴾ أمرا عظيما في الدين يشبه روح الإنسان في الحياة، وهو غير القرآن، وقيل: القرآن الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان.

وقد قيل: أوحي إلى النبيء ﷺ في المنام كإبراهيم، وفي اليقظة بلا ملك كزبور داود، وذكر بعض أنّ الله ﷻ أوحى إليه القرآن جملة من غير تفصيل قبل مجيء جبريل، ثمّ كان جبريل يأتي به مفصّلا شيئا فشيئا. وعن ابن عبّاس

رضي الله عنهما: الروح النبوءة، وقيل: الروح جبريل على تضمين «أَوْحَيْنَا» معنى أرسلنا، وقيل: ملك أعظم من جبريل وميكائيل، لا يفارقه ﷺ، والقولان ضعيفان، والأخير أضعف وذلك للاحتياج إلى تضمين فيهما، ولقوله: ﴿مِّنَ اَمْرِنَا﴾ لأنّه أمر من الأمور لا يطلق على الذوات، وكذا لا يناسب قوله تعالى: ﴿مَا﴾ نافية ﴿كُنتَ تَدْرِي مَا اَلْكِتَابُ وَلاَ الاِيمَانُ﴾ بل يناسب المعاني. جملة «مَا اَلْكِتَابُ» سدَّت مسدَّ مفعولي «تَدْرِي» استفهاميَّة.

(أصول الدين) أمَّا الكتاب وهو القرآن أو الجنس فقد كان لا يدريه، وأمَّا الإيمان فلا يتصوَّر أنَّه لا يدريه إذ لا يكفر نبيء ولا يعصي قبل البلوغ، ولا قبل الإيحاء، ولا بعدهما.

فالمراد بالإيمان التوحيد والأعمال الصالحات من نفل وفرض، ومنها ترك المعاصي، ولا شكَّ أنَّ مجموع هذا لا يدريه بل يدري بعضه، وهو التوحيد وما يتبعه، ولا يدري تفاصيل الإيمان، وهو معذور في البعض الآخر حتَّى يأتي الوحي به.

أو المراد: ما كنت تدري بمجموع الإيمان الذي هو التوحيد ورسالة نفسك [أي: وكونك رسولا]، حتَّى أرسل إليك، بل ببعض ذلك، وهو توحيد الله عن الشريك.

أو المراد ما لا يعلم من الشريعة إلاَّ بالوحي من بعد توحيد الله. أو يقدَّر مضاف، أي: ولا دعوة الإيمان، أي: لا تدري كيف تدعو الناس إليه. أو الأعمال، ولكن الأصل أن لا يطلق الإيمان على العمل وحده. أو ما كنت تدري أهل الإيمان، أي: لا تدري من الذي يؤمن.

قيل: أو ما كنت تدري مجموع الكتاب والإيمان، بل الإيمان وحده وهو التوحيد، ويردُّه أنَّه لو أريد ذلك لقيل: والإيمان بدون لا، وقيل: ما كنت تدري

إذ كنت في المهد، وهو ضعيف، وقريب منه: إنَّك كنت لا تدريهما بل دريت الإيمان بالإلقاء في الروع، والكتاب بالوحي.

(سيرة) وكان على دين إبراهيم قبل البعثة إجمالا وببعضه تفصيلا، يوحِّد الله تعالى ويبغض الأصنام ويحجُّ ويعتمر، ولا يأكل ما ذبح على النصب، وفسَّر بعضهم الإيمان بالصلاة كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ (سورة البقرة: ١٤٤)، أي: صلاتكم، ولم تزل العرب تتمسَّك ببقيَّة دين إبراهيم كالحجِّ والختان وإيقاع الطلاق، وغسل الجنابة وتحريم ذوات المحارم بالصهر والنسب والتقرُّب بالذبح.

﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الروح الذي أوحيناه إليك، أو الكتاب، أو الإيمان لقربه، أو الكتاب والإيمان. والإفراد بتأويل ما ذكر، ولأنَّ مقصدهما واحد، نظير الهاء في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ, أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ (سورة التوبة: ٦٢) .

﴿نُورًا﴾ عظيما ﴿نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ هدايته من الضلال هداية توفيق ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ لذلك النور هداية بيان للسعداء والأشقياء، أو هدى توفيق من نشاء هدايته هداية توفيق، وأمَّا الأشقياء فهدايتهم بالبيان كلا هداية، إلاَّ أنَّ لك الثواب عليها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ التوحيد وسائر الشريعة ﴿صِرَٰطِ اللَّهِ الذي لَهُ, مَا فِي السَّمَاوَٰتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلآَ إِلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ في المستقبل يوم القيامة، لارتفاع الوسائط فيه، أو في الدنيا والآخرة بمضارع الحال والاستمرار، وذلك وعيد للكفرة، ووعد للمؤمنين.

والله أعلم، وهو الموفق.
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

تفسير سورة الزخرف وآياتها ٨٩

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا إِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

القرآن كلام الله بلغة العرب، وعقاب المستهزئين بالأنبياء

﴿حم وَالْكِتَابِ﴾ القرآن، ولا داعيَ إلى تفسيره بالجنس الصادق ببعضه وكلِّه، ويجوز أن يراد جنس الكتب المنزلة، أو ما كتب في اللوح المحفوظ، ولا دليل على إرادة المعنى المصدري بمعنى الكتابة لمجرَّد منافع الخطِّ **﴿الْمُبِينِ﴾** الظاهر لمن أُنزل عَلَيْهم، لأنَّه بلغتهم، مِنْ «أَبانَ» اللازم كَبان، أو المظهِر لدين الله، مِنْ «أَبانَ» المتعدِّي.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ جعلنا ذلك الكتاب المبين **﴿قُرءَانًا عَرَبِيًّا﴾** صيَّرنا معانيه مترجمًا عنها بألفاظ عَرَبِيَّة تُقْرأُ.

(أصول الدين) وهذا التصيير خلق، فالقرآن مخلوق، ولا قرآن سوى هذه الألفاظ كما هو ظاهر آيات من القرآن، كما إذا ثبت قيام زيد فصيرت منه قام زيد، وليس مصيَّرا من الكلام النفسيِّ، إذ لم يثبت وصف الله بالكلام النفسيِّ، لأنَّ فيه تشبيهًا بالمخلوق، وسمِّيَ كلام الله لأنَّه خلقه.

وفسَّر ابن عبَّاس ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بكتبناه في اللوح المحفوظ قرآنًا عربيًّا، ولا يَصِحُّ عنه نفي خلقه، فإن صحَّ عنه أنَّه قال لسائله: أهو خلق من خلق الله؟ قال له: بل كلام من كلام الله؟ فالمراد أنَّه رجَّح له تسمية كلام الله، لأنَّها الواردة في القرآن.

(أصول الدين) قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ (سورة التوبة: ٦) ، فإنَّ كلام الله القديم لا يسمع على فرض ثبوته، ودعوى أنَّ هذا ترجمة القرآن عن الكلام القديم النفسي تكلُّفٌ، وخروج عن الظاهر إلى الباطن، لا دليل عليه، وخروج من علم ونور إلى جهل منهم وظلمة.

(فتنة أبي شاكر الديصاني)[١] جاء أبو شاكر الديصاني من فارس فرأى حلق المسلمين كثيرة مع علم كثير وفهم فائق، وأراد إضلالهم فعمد إلى حلقة الحديث لأنَّهم أرَقُّ نفسًا وأضعف بها، وقال لهم: عجميٌّ أسلمت، ورأيت حلقتكم أكثر ذكرًا له ﷺ ، وأولى لنا أن نعتزل عن هؤلاء الحلق لِئَلاَّ نسمع كلامهم، وقالوا: صدقت، وكلَّما ذكر ﷺ شَهِقَ وأظهر الورع، ثمَّ تغيَّب مدَّة، وقالوا: إن مرض عدناه أو احتاج أعطيناه، فوجدوه في قعر بيت يبكي، وقالوا: مالك؟ قال: وقع ما حذرتكم عنه أتيت حلقة حماد بن أبي حنيفة[٢] فقيل له: ما تقول في القرآن؟ فقال: إنَّه مخلوق، عمد إلى كلام الله وضيائه الذي خرج منه وإليه يعود، فجعله مخلوقًا وجعل الله قبل خلق القرآن أخرص عاجزًا محتاجًا، فبكوا وقالوا: وجب علينا جهادُ هؤلاء بأن نخالطهم

١- نسبة إلى الديصانية وهي فرقة مثل المانوية والثنوية من الفرق الغنوصية التي كان لها أثر في بعض الفرق الإسلاَمِيَّة الغالية كالشيعة الغلاة والباطنيَّة عَامَّة.

٢- حماد بن الإمام أبي حنيفة النعمان فقيه عالم ورع له رواية عن أبيه وغيره، حدَّث عنه ولده إسماعيل بن حماد قاضي البصرة، تُوُفِّيَ سنة ١٧٠هـ.

ونأخذ من كلامهم، ونردَّ عليهم، فذهب بعض إلى حلقة علم الكلام، وبعض إلى القَدَرِيَّة، وبعض إلى حلقة حماد.

﴿**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ كي تعقلوا معانيه ﴿**وَإِنَّهُ**﴾ أي: الكتاب ﴿**فِي أُمِّ الْكِتَابِ**﴾ اللوح المحفوظ فإنَّه أمُّ الكتب السَّمَاوِيَّة، أي: أصلُها، وكلُّها منقولة منه، فـ«ال» للجنس شامل للصحف والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فذلك كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (سورة البروج: ٢١) ، أو المراد ما يشمل ذلك، وصحف الأعمال فإنَّها مكتوبة في اللوح ومكتوبة خارجًا أيضًا، وقيل: ﴿أُمِّ الْكِتَابِ﴾: العلم الأزلي ﴿**لَدَيْنَا**﴾ عندنا، خبر ثان، أو حال من «أُمِّ»، أو بدل منه بدل اشتمال بلا ضمير، وذلك أنَّ بينهما ملابسة بغير الجزئيَّة والكليَّة، أو حال من ضمير «عَلِيٌّ»، أو متعلِّق بـ«عَلِيٌّ».

(نحو) ولا صدر للام التأكيد في خبر «إِنَّ»، ولو على أنَّها لام الابتداء لتأخُّرها عن محلِّها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الانسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (سورة العاديات: ٦-٨) ، لا حال من «عَلِيٌّ» وأصله أنَّه نعت، وقدِّم لأنَّ الوصف لا ينعت، و«عَلِيٌّ» خبر لـ«إِنَّ» محذوفة، أي: إنَّه لعَلِيٌّ دلَّ عليه إنَّه واللام، والصحيح أنَّ «عَلِيٌّ» خبر لـ«إِنَّ» المذكورة، فـ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ حال من المستتر في «عَلِيٌّ»، أو متعلِّق بـ«عَلِيٌّ».

﴿**لَعَلِيٌّ**﴾ على الكتب، لأنَّه ينسخها ولاشتماله على أسرار ليست فيها ﴿**حَكِيمٌ**﴾ ذو حكم بالغة، أو محكم لا ينسخ أو شديد الحكم على غيره من الكتب.

﴿**أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ**﴾ نبعده عنكم كما يضرب البعير المريدُ للشرب من حوضٍ لغير صاحبه ليذهب، على الاستعارة التمثيليَّة. و«الذِّكر»: القرآن، أو

الذكر بخير لا تذكرون به حيث يذكر أصحابه، وعلى الأوَّل يقدَّر مضاف، أي: إنزال الذكر، فنتزله على غيركم، والمضروب ما هو الأفضل في الوجهين، بخلاف ضرب البعير عن الحوض. والفاء عاطفة على محذوف، أي: أَنُهْمِلُكم فنضْرِب.

﴿صَفْحًا﴾ أي: إِعْرَاضًا، فهو مفعول مطلق لـ«نَضْرِبُ» لتضمُّن الضرب معنى الإعراض، وأصل الصفح أن تولي الشيء صفحة عنقك. أو ظرف مكان، أي: ننحِّيه عنكم جانبًا.

﴿إِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ إسرافُهم متحقِّق، وجيء بـ«إِنْ» التي لغير التحقُّق باعتبار ما يستقبل من إسرافهم، على القول بأنَّها تقلب كان للاستقبال كغيرها من الأفعال.

.أو المعنى: إن كنتم مصرِّين على الإسراف، أو لجعلهم كأنَّهم شاكُّون في الإسراف قصدًا إلى نسبتهم للجهل بارتكاب الإسراف، لتصويره بصورة ما يفرض لوجوب انتفائه، وعدم صدوره ممَّن يعقل.

وسلَّى الله تعالى سيِّدنا محمَّدًا ﷺ عن تكذيب قومه بقوله: ﴿وَكَمَ اَرْسَلْنَا مِن نَّبِيءٍ﴾ مرسل كما قال: ﴿وَمَا يَاتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ وكما نصَّ عليه بقوله: ﴿وَكَمَ اَرْسَلْنَا﴾. ﴿فِي الاَوَّلِينَ﴾ الأمم السالفة.

﴿وَمَا يَاتِيهِم مِّن نَّبِيءٍ اِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [فكأنَّه قال تعالى:] فلا تكذيبُهم منعنَا من الإرسال، ولا الرسُل لم يصبروا، فاصبر كما صبروا، والمصيبة إذا عمَّت هانت، وإن كانت ما كانت، و﴿فِي الاَوَّلِينَ﴾ متعلِّق بـ«أَرْسَلْنَا» أو نعت لـ«نَبِيءٍ»، بمعنى أنَّه فيهم وأرسلناه، وإلاَّ فليس أوَّل وقت الإرسال منعوتًا بأنَّه نبيء ثابت فيهم، بل بعدُ.

وسلاَّه أيضًا بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَهْلَكْنَآ﴾ بسبب الاستهزاء ﴿أَشَدَّ مِنهُم بَطْشًا﴾ يظهر أنَّ «مِنْ» ليست تفضيلة، بل تعلَّق بمحذوف نعت ثانٍ لما نعت

بـ«أَشَدَّ»، أي: فريقًا أشدَّ ثابتًا من المستهزئين، و«بَطْشًا» تمييز لـ«أَشَدَّ» أو مفعول مطلق لـ«أَهْلَكْنَا»، أي: إهلاكًا، والهاء عائد إلى ما عاد إليه هاء «يَاتيهِمْ»، لا إلى المسرفين في قوله: ﴿إن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الاَوَّلِينَ﴾ لا يمنع من ذلك، أي: سلف فيما نزل قبل هذه الآية قصصهم التي من شأنها أن تسير مسيرَ الأمثالِ.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الاَرْضَ مِهَادًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الاَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالاَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

من مظاهر نعم الله على خلقه واعتراف المشركين بذلك

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالاَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ عطف على ﴿أَفَنضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ...﴾ تارة يقولون: «خلقهنَّ اللهُ»، وتارة يقولون: «خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ»، معتقدين أنَّه عزيز عليم، مستدلِّين بخلقهنَّ، أو يقولون: «خلقهنَّ الله» فعبَّر الله عن نفسه بصفة العلم والعزَّة، لتحقُّقهما له في نفس الأمر، ولو ذهلوا عنهما أو أنكروهما مثل أن يقول لك بكر: بلِّغ السلام زيدا، فتقول: أمرني بكر أن أبلِّغ السلام إلى الشيخ زيد، أو الإمام زيد، أو السلطان زيد، ونحو ذلك ممَّا هو صفة زيد أنكرها آمرك، أو ذهل عنها، أو أقرَّ بها لكن لم يذكرها لك في الأمر، ومن ذلك قول موسى:

﴿لاَ يَضِلُّ رَبِّي... مِن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ (سورة طه: ٥٢-٥٣) .

﴿الذِي جَعَلَ لَكُمُ الاَرْضَ مِهَادًا...﴾ الخ من كلام الله عز وجل وتبارك وتعالى، مستأنف، أي: «هو الذي جعل...»، أو تابع لما قبله إن لم نجعل ما قبله من كلامهم بنصٍّ لفظهم، وإلاَّ فليس تابعا. ومعنى ﴿مِهَادًا﴾: فراشا بسيطا، ولو كانت كريَّة الشكل لعظمها، فالبيضة بسيطة مثلا لنحو نملة **﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾** للمشي في أسفاركم وغيرها **﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** لتهتدوا إلى مصالحكم بسلوكها، وإلى التوحيد بالتفكُّر في شأنها.

﴿وَالذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ﴾ بمقدار تقتضيه الحكمة ولا يعلم مقدار ما يترل من السماء في كلِّ سنة على التحقيق إلاَّ الله عز وجل ، وقيل: المعنى بقضاء أزليٍّ **﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ﴾** بسطنا به [أي أحيينا] **﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾** خالية من النبات، ونموُّها بالنبات كنموٍّ بدن الحيوان.

(بلاغة) ولم تكن بالحقيقة ميِّتة، لأنَّ البلدة بلد وموضع، لكن شبَّه البلد بالحيوان ورمز إليه بذكر لازمه وهو الموت على طريق الاستعارة بالكناية، أو شبَّه تجرُّد الأرض من النبات بتجرُّد الحيوان من الروح والزيادة إذا مات، واستعار لذلك التجرُّد لفظ الموت واشتقَّ منه «مَيْتًا»، على طريق التبعيَّة. والتكلُّم بالنون بعد الغيبة تعظيم لشأن الإحياء.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مفعول مطلق لقوله: **﴿تُخْرَجُونَ﴾** أي: تخرجون من قبوركم إخراجا مثل إخراج النبات، وذلك عند الله هيِّن يقع كما شاهدتم الإنبات، فكيف ينكره من شاهد النبات؟.

﴿وَالذِي خَلَقَ الاَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: الأنواع كالحلو والحامض والأبيض والأسود، والذكر والأنثى، والطويل والقصير، والضعيف والقويِّ، وتحت وفوق، ويمين وشمال، وماض ومستقبل، وجماد ونام، وعاقل وغير عاقل،

والحركة والسكون، والموت والحياة.

(أصول الدين) والممكنات كلُّها مادِّية أو مجرَّدة. ليست كالله تعالى في أنّه لا تركيب فيه عقلا ولا خارجا. وكلٌّ ما سوى الله تعالى زوج، وهو وحده فرد.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: ما تركبونه لا ما تركبون فيه، تغليبا لركوب الأنعام ــ المتعدِّي بنفسه كقوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ (سورة النحل: ٨) ، ــ على ركوب الفلك المتعدِّي بــ«في»، كما قال الله ﷻ : ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الْفُلْكِ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٥) ، لِقُوَّة المتعدِّي بنفسه، أو تغليبا للمخلوق للركوب لكونه صنع الله ﷻ على المصنوع له، أو تغليبا للكثير على القليل، فإنَّ ركوب العرب السفن قليل ولكثرة الحيوان المركوب كثرة ليست في الفلك ﴿لِتَسْتَوُواْ﴾ تستقرُّوا ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ اللام للتعليل، ولا يجوز صرفها مع إمكانه بلا ضعف إلى الصيرورة، [قلت:] وليست لام الأمر لأنَّ المقام للتعليل لا للأمر، ولا يتبادر الأمر، ولأنَّه يلزم عليه أمر المخاطب باللام في ثلاثة مواضع: «تَسْتَوُوا» و«تَذْكُرُوا» و«تَقُولُوا»، مع أنّه قليل الورود، ولغة رديئة لا جيِّدة كما قال الزجَّاج، وشاذٌّ في القرآن مثل ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ (سورة يونس: ٥٨) ، بالتاء في قراءة، وورد في الشعر كقوله: «لتقم أنت يا ابن خير قريش».

(نحو) وأمَّا قوله ﷺ : «لتأخذوا مصافَّكم» فالتحقيق أنَّ رواة الحديث قد لا يحسنون العَرَبيَّة، فلا يحتجُّ بهم، ولو كانوا ثقات في المعنى، فنقول: رووه بالمعنى، ولو رجَّح الاحتجاج بهم الجمهور.

ألا ترى أنَّهم يقولون: «مشى مشى»، ويقرنون خبر «كاد» ولا يكادون

يتركون ذلك، إلى غير ذلك ممَّا لا يقبل في العَرَبِيَّة، وليس ذلك منهم شذوذًا بل يكثرونه ويلتزمونه، فعلمنا أنَّ ذلك خلل منهم.

والهاء في «ظُهُوره» عائدة إلى «مَا» باعتبار اللفظ، والظهور ظهور الفلك، وظهور الأنعام، وهي المَغلَّبة حتَّى نسب الظهور للفلك، والجمع باعتبار معنى «مَا».

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما تركبون مراعاة للفظ «مَا» إذْ أفرد.

وذكرُ النعمة استحضارُ أنَّ الله أنعم علينا بها، والخضوعُ لله لأجلها بالقلوب، أو مع اللسان. وإذا فسَّرنا الذكر بذكر القلب كان معه اللسان، أو لم يكن لم نحتج إلى الجمع بين الحقيقة والمجاز، ولا إلى التأويل بعموم المجاز، [قلت:] وذكر اللسان بلا حضور قلب لايعدُّ ذكرًا، والذكر حقيقة في اللِّسان ولو لم يحضر القلب، لكن لا ثواب إن لم يحضر إلاَّ إن كان عدم حضوره عن غلبة، وكذلك تستغني بما ذكرت عن دعوى استعمال المشترك في معنييه إن قلنا: الذكر حقيقة في القلب وحقيقة في اللسان.

﴿وَتَقُولُواْ﴾ عند إرادة الركوب للسفر أو غيره، كما يركب الإنسان دابَّته كلَّ يوم إلى جنَّته أو مَحْرَثِه قولوا ذلك متعجِّبين تعجُّب استعظام بألسنتكم مع قلوبكم:

﴿سُبْحَانَ الذِي سَخَّرَ لَنَا﴾ ذلَّل لنا ﴿هَذَا﴾ أي: هذا المركوب من سفينة أو دابَّة، وقيل: يقول راكب السفينة ﴿بِسْمِ اللهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة هود: ٤١) ، وعند النزول منها: ﴿رَبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ (سورة المؤمنين: ٢٩) .

(نقد الرواية) وأمَّا قول الحسن بن عليٍّ لقائل عند الركوب:

﴿سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾: إنَّما أمرتم أن تقولوا: «الحمد لله الذي هدانا للإسلام، الحمد لله الذي منَّ علينا بمحمَّد ﷺ ، الحمد لله الذي جعلني في خير أمَّة أخرجت للناس، ﴿سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ, مُقْرِنِينَ﴾»، إن صحَّ عنه ذلك فليس تفسيرًا لاسم الإشارة بل زيادة منه.

والإشارة إنَّما هي للمركوب، وزعم شهر بن حوشب أنَّ الإشارة للإسلام، كما زاد أبوه عليٌّ كرَّم الله وجهه إذ قال حال الركوب واستوائه: «الحمد لله ثلاثا والله أكبر ثلاثًا ﴿سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا... لَمُنقَلِبُونَ﴾، سبحانك لا إله إلاَّ أنت قد ظلمت نفسي، فاغفرلي ذنوبي، إنَّه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت» ثمَّ ضحك فقيل: ممَّ ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل كما فعلت ثمَّ ضحك، فقلت: يا رسول الله ممَّ ضحكت؟ فقال: «**يتعجَّب الربُّ من عبده إذا قال: "ربِّ اغفر لي" ويقول: عَلِمَ عبدي أنَّه لا يغفر الذنوب غيري**»، رواه الترمذي وأبو داود والنسائي، وتعجُّبه تعالى استعظامه لشيء، ويروى أنَّه تعالى يقول: «علم أن له ربًّا يغفر الذنب»[1].

وروى مسلم وأبو داود والترمذي عن ابن عمر أنَّه ﷺ إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر، حمد الله تعالى وسمَّى وكبَّر ثلاثًا، وقال: ﴿سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا... لَمُنقَلِبُونَ﴾[2].

١-رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات (٤٧) باب ما يقول إذا ركب الناقة، رقم٣٤٤٦. ورواه **أبو داود** في كتاب الجهاد، باب ما يقول الرجل إذا ركب، رقم ٢٦٠٢، من حديث عليٍّ بن ربيعة.

٢-رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات (٤٧) باب ما يقول إذا ركب الناقة رقم٣٤٤٧، **وأبو داود** في كتاب الجهاد باب مايقول الرجل إذا سافر رقم ٢٥٩٩. مع ريادة في آخره من حديث ابن عمر.

﴿وَمَا كُنَّا لَهُ, مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين، لولا أنَّ لله سخَّر لنا الدوابَّ والفلك لم ننتفع بهنَّ، وأصله من أَقْرَنْتُهُ: وجدته قريني، أو جعلته قريني. كان قوم مسافرون إذا ركبوا قالوا: ﴿سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا... لَمُنقَلِبُونَ﴾ وقال رجل منهم: أمَّا أنا فمقرن لناقتي هذه فركبها، فصرعته واندقَّ عُنُقُه ودقَّتهُ بأرجلها ومات.

﴿وَإِنَّآ إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ راجعون بالبعث للحساب، وكذا يستشعر الراكب عند الركوب، وفي الركوب أيضًا خطر.

(دعاء السفر) وفي مسلم عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا للسفر يحمد الله ويسبِّحه ويكبِّره ثلاثًا ثمَّ يقول: ﴿سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ, مُقْرِنِينَ، وَإِنَّآ إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ اللهمَّ إِنَّا نسألك في سفرنا هذا البرَّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهمَّ هوِّن سفرنا هذا، واطو لنا الأرض، أو اطو عنَّا بعده، اللهمَّ أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد، وإذا رجع قالهنَّ، وقال: آئبون تائبون لربِّنا عائدون، لربِّنا حامدون»[1].

ووعثاء السفر: شدَّته ومشقَّته، وكآبة المنظر وسوء المنقلب: أن يرى في سفره أو في أهله ما يكره.

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا

١- رواه **مسلم** في كتاب الحج (٧٥) باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره، رقم٤٢٥ (١٣٤٢) من حديث ابن عمر.

وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ الْمَلَٰٓئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

الردُّ على المشركين في دعواهم عن الملائكة

﴿وَجَعَلُواْ لَهُ, مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ الجملة متعلّقة بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ ناقضوا قولهم إنَّه خلق السماوات والأرض، بجعلهم له جزءًا، فإنَّ من له جزءٌ لا يقدر على الخلق، والجزء الملائكة، قالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله علوًّا كبيرًا، والولد جزء من أبيه [والبنوَّة تقتضي المماثلة في الماهية]، وزعم بعض أنَّ الجزء بمعنى الأنثى، لأنَّ حواء جزء من آدم، وليس ذلك في لغة العرب، ولا تفسَّر به الآية.

﴿انَّ الانسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الكفر، أو مظهره من نفسه، أو منشره للناس ليقتدوا به، والمراد كفر النعمة هكذا، أو مع الإشراك، وأشدُّ الكفر جحود الله، وقد رجع إليه من وصف الله بصفة غيره كالولادة والتزوُّج.

﴿ام اتَّخَذَ ممَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ أأتَّخذَ؟ بالإضراب الانتقالي والإنكار **﴿وَأَصْفَاكُم﴾** اختاركم ﴿بِالْبَنِينَ﴾. روي **أنّه ﷺ إذا قرأ الآية قال: «لا ﴿لَمْ**

يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ, كُفُوًا اَحَدٌ﴾». والعطف على «اتَّخَذَ» فهو داخل في الإضراب والإنكار.

ومعنى اختيارهم بالبنين أنَّه أعطاهم البنين، و لم يجعلها لنفسه، بل جعل لنفسه البنات، وإلاَّ فقد أعطاهم أيضًا البنات. ونكِّرت البنات وعرِّف البنين لحقارتهنَّ وفخامتهم [في نظرهم]. وخطابهم بعد اغتيابهم تشديد للإنكار، وذلك من فنون الكلام، تعرض عن الإنسان وتحتقره، أو تيأس منه فتغتابه، وتريد مزيد التغليظ عليه فتخاطبه، كما اغتابهم بعد هذا الخطاب في قوله:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ, مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ إيذانا بأنَّ قبائحهم اقتضت أن يعرض عنهم، كيف يضيفون إلى الله وهو لا جنس له جنسا تسودُّ وجوههم به؟ ويملؤون غيظًا وحزنًا إذا ولد لهم الأنثى، وذلك كالأمر الغريب المضروب مثلاً، وجملة ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ حال من الهاء أو من «وَجْه» أو من المستتر في «مُسْوَدًّا» و «كَظِيمٌ» بمعنى مكظوم، أي: مملوء بالهمِّ كما مرَّ.

روي أنَّ أعرابيًّا اسمه أبو حمزة هاجر بيته ومكث في بيت جاره لَمَّا ولدت زوجه أنثى فقالت:

ما لأبي حمزة لا يأتينـــا يظلُّ في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا ليس لنا من أمرنا ما شئنا
وإنَّما نأخذ ما أعطينا

ولفظ آخر: «وإنَّما نلد ما أعطينا». وأن بفتح الهمزة على تقديم لام التعليل، ويروى: «غضبان أن لم نلد البنينا».

ومثل هذا قول الشيخ درويش[١] رحمه الله تعالى: «إن ولدت زوجك أنثى فارْضَ بها ولا تلمها لأنَّ تدبير النسل ليس لها، وإنَّما هي بمنزلة الوعاء يضمُّ ما يحطُّ فيه، ولا قدرة له على تبديله».

﴿أَوَمَنْ يُنَشَّؤُاْ فِي الْحِلْيَةِ﴾ مفعول لمحذوف، أي: أتَعَامَوْا وجعلوا من ينشأ في الحلية ولدًا لهُ، أو أَاتَّخذ من ينشأ في الحلية ولدًا له تعالى؟ ، أو خبر، أو مبتدأ، أي: أتعاموا وقالوا: من ينشأ في الحلية ولدُه، أو ولدُه من ينشأ في الحلية، أو من ينشأ في الحلية جعلوه ولدَه ؟ .

والحِلْيَةُ: الزينة، والذي ينشأ فيها الأنثى، والنشأة في الزينة والنعومة من شأن ربَّات الحجال، فوجب أن يجتنبها الرجال، وعن عمر رضي الله عنه : «اخشوشنوا في الطعام، واخشوشنوا في اللِّباس، فإنَّ أباكم مَعدًا كان كذلك»، ومن أراد الزينة **فليزيِّن باطنه بالتَّقوى.**

قال رسول الله ﷺ : «**تمعددوا واخشوشنوا، وانتضلوا**[٢]**، وامشوا حفاة**»[٣] رواه الطبراني عن أبي حدرد.

١-درويش بن جمعة المحروقي من علماء إباضية المشرق، ولد في بلدة أدم بعمان، تلقى تعليمه في بلده عن مشائخ عديدة، منهم الشيخ صالح الزاملي، ومسعود بن رمضان النبهاني، كان واليا على بلدة أدم، من قبل الإمام سلطان بن سيف، له مُؤَلَّفات عِدَّة، ممَّا وصلنا واشتهر به: "الدلائل في اللوازم والوسائل". تُوُفِّيَ سنة ١٠٨٦هـ. معجم أعلام الإباضية في المشرق، ج١، ص١٤٠.

٢-الانتضال التسابق في الرمي والمباراة فيه.

٣-رواه **ابن أبي شيبة** في مصنفه باللفظ المذكور، حديث رقم ٢٦٣٢٠، ج٥، ص٣٠٣. ورواه **الطبراني** في الكبير بدون زيادة: «وانتضلوا»، حديث رقم ٨٤، ج١٩، ص٤٠. (المكتبة الألفية – قرص مدمج).

وقيل: من ينشأ في الحلية الأصنام، وكانوا يجعلون عليها الحلي، ويردُّه أنَّ حقيقة النشوء فيما يزداد، ويردُّه أيضًا قوله تعالى: **﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾** فإنَّ الأصنام لا يتصوَّر منها الخصام فضلاً عن أن يقال هي غير مبينة فيه، إلاَّ أن يراد نفي الخصام عنها البتَّة، كقولك: «لا ترى زيدًا في الخصام»، أي: لايدخله، وقوله: «وتَرى الضبَّ فيها لا ينجحر»، أي: لا يكون فضلا عن أن يكون له فيها جحر، وقوله: «على لاَحِبٍ لا يُهتدى بمناره»، أي: لا منار فيه.

وعليه فالمعنى: أعموا واتَّخذوا الأصنام آلهة، أو وقالوا: الأصنام آلهتنا، أو المعنى: لا تظهر خصامًا لمن أصابها بسوء، وفيه أنَّ الكلام قبل وبعد على البنات.

و«مُبِين» على كلٍّ حال من أبان المتعدِّي، أي: لا تظهر حجَّة، قال مقاتل: لا تتكلَّم المرأة إلاَّ وتأتي بالحجَّة عليها لا لها لقلَّة عقلها، وكذا قال قتادة، و«فِي الْخِصَامِ» متعلِّق بـــ«مُبِين»، وفيه تقديم معمول المضاف إليه على المضاف، أجازه بعض في «غَيْر»، والأَوْلى تعليقه بمحذوف، أي: وهو متعطِّل في الخصام غير مْبين لحجَّته.

﴿وَجَعَلُواْ الْمَلآئِكَةَ الذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا﴾ أي: قالوا هم إناث، تقول: جعلت زيدًا عالمًا، أي: قلت إنَّه عالم، أو صَيَّرُوهم في اعتقادهم إناثًا، ولفظ «عِندَ» عبارة عن رفع منزلة الملائكة على الاستعارة، لأنَّ العنديَّة المكانيَّة مستحيلة على الله ﷻ ، وهم قوم شأنهم مناقضة، وصفوا الله تعالى بصفات الخلق، ووصفوا الملائكة الذين من أفضل الخلق بصفة الخسَّة وهي الأنوثة.

﴿أَشْهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ أجعلهم الله شاهدين لخلقه تعالى إيَّاهُم؟ أي: حاضرين مشاهدين، فتبيَّن لهم أنَّهم إناث، قال الله ﷻ : ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلآئِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ (سورة الصافات: ١٥٠) .

﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ ستكتب الملائكة شهادتهم، أي: قولهم: إنّ لله جزءًا، وإنّ الملائكة إناثًا، وإنّهم بنات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، فإنّ قولهم ذلك شهادة، وقيل: إنّهم شهدوا عن آبائهم بذلك وقلّدوهم، وقالوا إنّهم لا يكذبون، فقال الله عَزَّوَجَلَّ : سنكتب شهادتهم لنعاقبهم وآباءهم عليها. والسين للاستقبال على معنى: سنجازيهم عليها يوم القيامة، فيكون عطف «يُسْأَلونَ» عطف متقدِّم على متأخِّر، أو السين للتأكيد.

والكَتْبُ حين الاعتقاد والقول، لا متأخِّرة إلى زمان قولهم ذلك مشافهة للنبيء ﷺ ، إذْ مضت مدّة طويلة من حين قالوا ذلك واعتقدوه إلى أن شافهوا به النبيء ﷺ أكثر من سبع ساعات، فلا يدخلون في حديث: «**إنّ ملك الحسنات أمين على ملك السيِّئات يأمره بتأخير كتبها سبع ساعات لعلّه يتوب**»[1].

وذلك في شأن المؤمن والمشرك، مع أنّه يقرب أن يختص بالمؤمن كيف يراعى التأخير للمشرك ليتوب من معصية؟ وهو باق على الشرك، إلاّ أن تكون المعصية شِرْكا وقوله ذلك شرك، وقد يبحث بأن الشرك لا يؤخَّر كتبه والعلم لله عَزَّوَجَلَّ . ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عنها يوم القيامة، فيفتضحون، فيجازون عليها، أو «يُسْأَلونَ» عبارة عن يجازون.

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرَّحْمَانُ﴾ لعلّهم اختاروا لفظ الرحمان لزعمهم أنّه تعالى عَزَّوَجَلَّ أباح لهم عبادة الملائكة رحمة للملائكة، أو لهم ولهم، أو رحمة بهم ﴿مَا عَبَدْنَاهُم﴾ أي: الملائكة عطف على ﴿وَجَعَلُواْ الْمَلَآئِكَةَ...﴾ أي:

١-أورده ابن كثير في تفسيره، ج٤، ص٢٢٤، وما يشبه هذا أثرا عن الأحنف بن قيس وقال: رواه ابن أبي حاتم.

عبادتنا للملائكة بمشيئة الله تعالى، إذْ لو لم يشأ لم نعبدهم بل يجبرنا على ترك عبادتها، أو يهلكنا إذْ لم يرض عبادتها، فعبادتنا لهم واجبة أو حسنة، أو أحسن، أو جائزة.

(أصول الدين) وذلك باطل لأنّ الله خلق الطاعة والمعصية وشاء المعصية كما شاء الطاعة، فلا يلزم من صدور المعصية منهم أنّه أباحها أو استحسنها أو أوجبها.

﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ الذي قالوه من أنّه ﴿لَوْ شَآءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ أو ذلك وقولهم: إنّ لله جزء، وإنّ الملائكة إناث، وأنّهم بنات الله سبحانه.

أو الإشارة إلى هذا أو إلى ما ذكروه من شأن المشيئة، وإنّما هو تقوية لردّ قولهم: إنّ لله جزءً...، والأوّل أولى. والباء متعلّق بـ«عِلْمٍ»، ولو كان مصدرًا، للتوسُّع في الظروف، ولأنّ هذا المصدر هنا ليس على معنى أَنْ والفعل، والباء للإلصاق، ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ ما تمسّكوا بعلم حقيق في ذلك، بل بجهل مركّب، فإنّ المشيئة لا تقتضي رضًى بشيء، ولا قبحًا ولا نهيًا، بل تقتضي أنّها ليست أمرًا بمعصية ولا نهيًا عن طاعة ﴿إِنْ هُمُ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ يحْزُرون تحزيرًا غير موافق للواقع، كما يقال: خرص العاملُ الثمار على النخل، ويطلق أيضا على الكذب.

﴿امَ ـــ اتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ بل آتيناهم كتابًا، إضراب انتقال وإنكار ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ قبل القرآن، أو قبل الرسول لدليل السياق في الوجهين، ويجوز عوده على العلم المذكور، على طريق الاستخدام، أو المراد من قبل قولهم هذا ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ بما فيه من أنّه لو نَهَى الله عَزَّوَجَلَّ عن عبادة الملائكة لم تصدر منهم، أو من أنّها غير محرَّمة، ما لهم من الله من كتاب في ذلك، بل قلّدوا آبائهم كما قال تعالى:

﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ طريقة تتَّخذ دينًا وتؤَمُّ، أي: تقصد، ولذلك فسِّر بالدين، لأنَّه يقصد، وذلك كقدوة لمن يقتدى به، ورحلة لمن يرحل إليه في المهمَّات.

وفسَّر بعضهم الأمَّة بالجماعة، وهو راجع للأوَّل، لأنَّ الجماعة مقصودة يقتدى بها، ويتبع بعضُها بعضًا، قال شاعر إسلاميٌّ: «وهل يستوي ذو أمَّة وكفور» ، أي: ذو دين، وقال قيس بن الحطيم:

كنَّا على أمَّة آبائنا ويقتدي بالأوَّل الآخر

أي: على دين آبائنا.

(أصول الدين) ولا تقع معصية ولا طاعة ولا غيرهما إلاَّ بمشيئة، والمعصية واقعة بمشيئته كالطاعة، قيل: ولا تقل: بإرادته وبإذنه إلاَّ على معنى قضائه، ويجتنب ما يوهم، والصواب أنَّ الإرادة كالمشيئة، وإلاَّ لزم أنَّه عُصِي مُكْرهًا.

وكفَّرت المعتزلة من قال: المعصية بمشيئة الله، ونقول: هم كفروا بهذا التكفير كفرَ نفاق ونعمة، ولا حجَّة لهم في الآية، لأنَّ المعنى: إنَّ الله عاب عليهم اعتذارهم بمشيئة الله عز وجل ، وهي ليست عذرًا لأنَّه لو لم يشأ لكان معصيًّا قهرًا، ولوقع في الوجود ما لم تجر عليه قدرته. وهذا كقولهم بخلق العبد فعله.

واعلم أنَّ الآية شاملة بالمعنى للفسَّاق الموحِّدين فِسْق خيانة، أو فسق تحليل وتحريم بتأويل، حيث لا يجوز الخلاف، وقد قال ﷺ : «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلُّها هالكة إلاَّ واحدة ناجية، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها هالكة إلاَّ واحدة ناجية، وستفترق أمَّتي على ثلاث**

وسبعين فرقة كلُّها هالكة إلاّ واحدة ناجية»[١]، وهذا هو المشهور، وعليه أبو عبيدة[٢] رحمة الله تعالى عليه.

قال بعض أهل عمان: إنَّه أدرك بعض الصحابة الذين أخذ عنهم جابر بن زيد رحمه الله، وسئل رسول الله ﷺ عن الفرقة الناجية، فقال: هم الذين يعملون بكتاب الله تعالى وسنَّتي، ولفظ أبي يعقوب يوسف[٣]: «**ستفترق أمَّتي على ثلاث وسبعين فرقة كلُّهنَّ إلى النار ما خلا واحدة ناجية، وكلُّهم يدَّعي تلك الواحدة...**» الحديث[٤].

وفي حديث جبير بن نفير: «**ستفترقون على إحدى وَستِّينَ فرقة**»، وفي حديث آخر: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترقون على ثلاث وسبعين فرقة...**»الحديث، وفي حديث آخر: «**افترقت النصارى على إحدى وثمانين، واليهود على اثنين وسبعين فرقة، وأنتم على ثلاث وسبعين فرقة...**» الحديث. والحديث ـ يعني الحديث الأخير ـ من المسندات وليس من المتواترات. انتهى كلام أبي يعقوب.

وفي الأحاديث موافقة لقوله ﷺ : «**كلُّ زمان شرٌّ مِمَّا قبله وخير مِمَّا بعده**» وكون هذه الأمَّة شرًّا من النصارى إنَّما هو باعتبار من تقوم عليهم

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٤، ص٥٣٢.

٢- أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة: تميمي بالولاء، أخذ العلم عن جابر بن زيد، وجعفر السماك، وصحار العبدي، وإليه انتهت رئاسة الإباضية بعد موت جابر، وبإشارته أسَّس الإباضية دولا مستقلة بحضرموت والمغرب، وتخرَّج على يده رجال عرفوا بحملة العلم. تُوُفِّيَ سنة ١٤٥هـ. الجعبيري: البعد الحضاري، ص١٠٤.

٣- تَقَدَّمَ التعريف به في: ج١، ص٢٠٤.

٤- الدليل والبرهان: أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني. ص١-٢ (الطبعة الحجرية).

الساعة، فإنَّهم شرُّ الأممِ على الإطلاق، والكلام بالاعتبار لا بالإطلاق، **لأنَّ هذه الأمَّة أفضل الأمم.**

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءاثَارِهِم﴾ خبر «إنَّ» **﴿مُّهْتَدُونَ﴾** خبر ثانٍ، أو خبرها و«عَلَى» متعلِّق به، قدِّم للفاصلة، ولاهتمامهم بالآثار. والآثار: استعارة من آثار الأقدام لأقوالهم الباطلة، قولهم: لو شاء، أو قولهم هذا، وقولهم في الملائكة: إنَّها إناث بنات الله سبحانه، وعلى الأوَّل فجمع الأثر لأنَّ كلاًّ منهم يقول: لو شاء.

ويجوز أن يريدوا بالآثار أباطيلهم كلَّها، كأنَّهم احتجوا بأنَّهم مقتفون لآبائهم في أقوالهم، وإنَّ منها «لَوْ شَآءَ الرَّحْمَانُ» أو مع مسألة الملائكة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مفعول مطلق لـ«قَالَ»، أو متعلِّق به وقدِّم على «إلاَّ» وعلى حرف النفي للتوسُّع في الظروف، والأَوْلى أنَّه خبر لمحذوف، أي: وكذلك شأن من قبلهم في تقليد آبائهم.

وهذا لكونه تأسيسًا مذيَّلا بقوله: ﴿مَآ أَرْسَلْنَا...﴾ أولى من كون التقدير: الأمر كما ذُكر من العجز عن الحجَّة والتمسُّك بالتقليد، لأنَّه إعادة لما مضى، ولأنَّه بصورة تشبيه الشيء بنفسه، ولكونه تأسيسا، و﴿مَآ أَرْسَلْنَا﴾ تذييلاً لم يقرنْ «أَرْسَلْنَا» بالواو.

﴿مَآ أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ رسول، وكلُّ نبيء نذيرٌ ولو لم يكن رسولاً، لأنَّ الإنذار شأنه مع كلِّ أحدٍ كعلماء هذه الأمَّة، وأتباعهم لا يقرون أحدًا على معصية، والمراد بالقرية ما يشمل المدينة.

﴿إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ منعَّموها، أي: منعمون فيها، أو منعموا أهلها، أي: المنعمون منهم، لأنَّهم يجدون الفراغ لذلك عن الاشتغال بمالهم، واتِّباع الناس لهم، ولحبِّ البطرِ والبطالة.

﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ هم على تقليدٍ لاَ عَلى حجَّة عَقلِيَّة صحيحة، ولا نَقلِيَّة، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ.

﴿قُلَ﴾ أي: قلنا لكلِّ نذير ردَّ عليه قومهُ: «قُلْ»، وفي قراءة «قَالَ»، أي: النذير، أي: جنسه ﴿اَوَ لَوْ﴾ أتقتدون بآبائكم ولو ﴿جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ من ضلالهم؟ لا هداية فيما وَجَدُوا عليه آباءهم من الضلالة.

(بلاغة) واسم التفضيل لا يخرج عن التفضيل مع وجود «مِنْ» التفضيليَّة، فهو في الآية مبقى على التفضيل مجاراةً لهم في زعمهم أنَّ في ذلك الضلال هُدًى، لكن هذا أهدى منه. والخطاب لكلِّ نبيء على سبيل البدلية لا لرسول الله ﷺ فقط، بدليل قراءة: «قَالَ»، ردًّا للضمير إلى «نَذير» المذكور، وللجمع في قوله: ﴿قَالُواْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ إذ لم يقل بما أرسلتَ، ودعوى أنَّ الجمع تعظيم خلاف الأصل.

ولقوله أيضًا: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فإنَّه ظاهر فيمن استؤصل من الأمم، والسورة مكِّية لا مَدَنيَّة، فلا يقال: المراد بالانتقام السبي والقتل والجلاء. والخطاب في «أُرْسِلْتُم» للنذير، أي: قالت كلُّ أمَّة لنذيرها: إنَّا بما أرسلت، كقوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ﴾ (سورة المؤمنون: ٥١)، لأنَّه قال لكلِّ رسول: كُلْ.

[قلت:] واختلف في الآية التي تقرأ بقراءتين فصاعدًا، فقيل: إنَّ الله عز وجل قال بواحدة وأذنَ أن تقرأ باثنتين أو أكثر، وقيل: كلُّهنَّ من الله عز وجل، والمختار أنَّه إن اختلف معنى القراءتين فهما من الله عز وجل جميعًا، فهما بمنزلة آيتين، ومثَّل له بعض المتقدِّمين بقراءة الجمهور: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ (سورة البقرة: ٢٢٢)، وقراءة غيرهم: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ وَيَتَطَهَّرْنَ﴾ وإن اتَّحدَ المعنى فالله

عزّ وجلّ قال بواحدة وأذن بغيرها لكلّ قبيلة ما تعوّد لسانُها، كـ«البيوت» بضمّ الموحَّدة وكسرها، و«المحصنات» بفتح الصاد وكسرها، والتي قال بها ما على لسان قريش لأنّه ﷺ قريشي، ولِمَا رُوي أنّ القرآن نزل بلغة قريش.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

من الخطأ تقليد الآباء على الباطل والجدال في مشيئة الله وحكمته

﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ**﴾ واذكر لقومك لعلّهم يقتدون بأبيهم الذي هو أحقّ بالاقتداء إذ قال إبراهيم ﴿**لِأَبِيهِ**﴾ آزر المكذّب له ﴿**وَقَوْمِهِ**﴾ وهم مكذّبون له ﴿**إِنَّنِي بَرَآءٌ**﴾ مصدر يستعمل بمعنى الوصف كعدل، كما قرأ الأعمش: «بَرِيءٌ» ككريم ﴿**مِّمَّا تَعْبُدُونَ**﴾ تقليد بلا حجّة.

﴿**إِلاَّ الذِي فَطَرَنِي**﴾ ذلك كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ

الذي خَلَقَنِي...﴾ (سورة الشعراء: ٧٧) ، والاستثناء منقطع، و«مَا» واقعة على الأصنام موصولة، أو نكرة موصوفة بـ«تَعْبُدُونَ»، وعلى فرض أنّهم يعبدون الله وغيره، واستُعملتْ «مَا» للعالم وغيره مجازًا، وقيل: حقيقة يكون مُتّصلاً، قيل: أو منقطعًا باعتبار أنّ عبادته غير عبادة لشركهم، فكأنّهم لم يعبّروا عنه وعنهم بـ«مَا»، بل عنهم فقط، ولا يصحُّ.

(نحو) وإن اعتبرنا معنى النفي بـ«بَرَآءٌ» كما يعتبر بأَبَى جاز كون «الذي» بدلاً من «مَا»، كما تقول: أبيت أن أكرمَ أحدًا إلاّ زيدًا، ويجوز كون إلاّ ومدخولها نعتًا لـ«مَا»، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ اِلاَّ اللهُ﴾ (سورة الأنبياء: ٢٢) ، أي: براء من آلهة معبودة لكم غير الله، وأمَّا على أنّ «مَا» موصولة فلا، لأنّ غير الله نكرة، والموصول معرفة، ولو أجزنا نعت المعرفة بإلاّ ومدخولها.

﴿فَإِنَّهُ, سَيَهْدِينِ﴾ بعدُ، بمعنى سيزيدني هداية بعدُ، بما يُوحي إليّ بعد، وبما يوفّقني إليه بعد من العلم والعبادة.

(بلاغة) فالسين على أصلها لزيادة الفائدة على «مَا» في قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿يَهْدِينِ﴾ (سورة الشعراء: ٧٨) ، بلا سين، وزيادة هذه الفائدة أولى من زيادة التأكيد إذا جعلناها للاستقبال بمعنى تأكيد دَوَامه على الهدى، فيكون «يَهْدِينِ» بمعنى يُثبِّتُني على الهدى.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: جعل الله، أو إبراهيم كلمة ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الذي فَطَرَنِي﴾. كيف يُترك هذا ويردُّ الضمير إلى غير مذكور، وهو كلمة «لاَ إله إلاّ الله»؟! هو كلمة: «إِنَّنِي بَرَآءٌ...»إلخ، وهي نفس «لا إله إلاّ الله». ولعلّ من ردَّ الضمير إلى غير مذكور أراد تفسير المعنى لا التفسير الصّناعي.

وردُّ ضمير «جَعَلَ» إلى الله أولى، كما ناسبه الجعل في العقب باقية، لأنَّ الجعل حقيقة لله، وأيضًا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أنسب له تعالى، ولو كان إبراهيم سببا لذلك الجعل، وجاز إطلاق الجعل عليه مجازًا عنه، [قلت:] والحقيقة أولى ولا تُتْرك بلا داع، ولو قال: سنَّها لكان الضمير لإبراهيم أولى، ولا يتكرَّر مع «كَلِمَةً» المعبَّر عنها بالضمير، لأنَّ هذه مقيَّدة بقوله: ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ ذرِّيـــَّته، لا يزال فيهم من يُوَحِّدُ الله ولو في الفترة، ولو في آخر الزمان، حتَّى تقرب الساعة جدًّا، وليس المراد أنَّ عقبه كلَّهم موحِّدون.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لَعَلَّ مُشركيهم يرجعون، على حذف مضاف، أو من إسناد ما للكلِّ للبعض، وعلى كلِّ حال المراد: لعلَّ مشركيهم يرجعون إلى التوحيد ببقاء أهله فيهم، أو بدعائهم إليه، والضمير للْعَقِبِ، لأنَّه بمعنى الذرِّيـــَّة. و«لَعَلَّ» للتعليل، لأنَّ الله لا يوصف بالرجاء بل إبراهيم يوصف به، لكن قد علمت أنَّ ردَّ المستتر في «جَعَلَ» لإبراهيم مرجوح.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ متَّعت أهل مكَّة والذين على عهدك يا محمَّد وآباءهم، أي: مددت أعمارهم والنعم لهم، ولم يشكروا ذلك، بل اشتغلوا بالباطل، واستعملوا ذلك في المعاصي.

(نحو) والإضراب عن قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لم يحصل ما يرجوه راج لَهُم، أو يعلَّل به، أو الإضراب عن قوله: ﴿وَجَعَلَهَا...﴾ أي: لم يرجعوا فلم أعاجلهم بالعقاب، بل أعطيتهم نعمًا لِيُوَحِّدُونِي، ويطيعوني بل زادوا كفرًا، أو ما اكتفيت بهدايتهم بجعل الكلمة فيهم بل متَّعتهم، وأرسلت منهم إليهم رسولاً.

﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْحَقُّ﴾ القرآن، أو معناه، وهو الدعاء إلى التوحيد والشريعة ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهِر الرسالة بالآيات المتلوَّة والمعجِزات، أو مُظْهِرٌ للتوحيد والشرع بالدلائل.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ﴾ المذكور لينبِّههم عن جهلهم ﴿قَالُواْ هَذَا﴾ أي: ما ذَكَر اللهُ أنَّه حقٌّ ﴿سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ زادوا بقولهم هذا كفرا على ما هم عليه من الكفر قبل مجيئه، فهم قبل مجيء الرسول لم يتَّصفُوا بتكذيبه وتحقيره، وقيل: قبل مجيء القرآن لم يتَّصفوا بتكذيبه.

﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ﴾ الإشارة للتحقير، أي: هذا الكلام الذي يدَّعي مُحَمَّد ﷺ أنَّه كلام من الله يقرأ ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ يصدر منهما، فـ«مِنْ» للابتداء، أو من أهلهما فهي للتبعيض، وهما مكَّة والطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ بالجاه والمال، وهما الوليد بن المغيرة المخزومي من مَكَّة، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي من الطائف، عند ابن عبَّاس، والوليد بن المغيرة المذكور، أو عروة بن مسعود الثقفي من الطائف.

وكان الوليد بن المغيرة يُسَمَّى ريحانة قريش، وكان يقول: لو كان ما يقول مُحَمَّد ﷺ حقًّا لنزل عليَّ أو على أبي مسعود، يعني عروة بن مسعود المذكور، وكان يكنَّى أبا مسعود، أو عتبة بن ربيعة من مَكَّة، وكنانة بن عبد ياليل الثقفي من الطائف، **جَهِلُوا أنَّ الرسالة ليست بالمال والجاه بل بصفاء النفس عن الرذائل.**

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ استفهام إنكار وتعجيب، وتنزيل لتحكُّمهم في نزول القرآن وسائر الوحي منزلة التقسيم، لجامع مطلق القصد بشيء إلى شيء. والرحمة: القرآن وسائر الوحي، والنبوءة والرسالة، والجمهور

على أنّها النبوءة، وهو أنسب بقوله: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ...﴾ ومجيء الحقِّ على يد إنسان فرع عن استحقاقه النبوءة.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ أسباب معيشتهم، أي: أسباب عيشهم، أي: حياقم، أو المعيشة الرِّزق.

(أصول الدين) وذلك شامل للحلال والحرام لأنَّ الحرام رزق أيضًا، وداخل في القسمة، إلاَّ أنَّه يؤاخذ على كسبه وحرزه والانتفاع به، والتصرُّف فيه، لأنَّه باختيارهم لا بإجبار.

﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ بحسب الحكمة العاجزين هم عنها ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في المعيشة ﴿دَرَجَاتٍ﴾ ظرف، أي: في درجات متفاوتة ضعفًا، وَقُوَّة وغنى وفقرا، وخادميَّة ومخدوميَّة، وحاكميَّة ومحكوميَّة.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ استخدامًا في المصالح، أي: ذوي استخدام، ذوي طلب خدمة منهم، نسب إلى السخرة بمعنى التذليل والتكليف لا بمعنى الهزء، لأنَّ المقام ليس له، بل لتفاوقم بين خادم ومخدوم، والتعاشر على ذلك، لَوْ وُكِّل إليهم ذلك لم يحسنوه وضاعوا، فكيف يدخلون في أمر النبوءة وما يليها؟ وهم بعداء عنها مكبُّون على جمع حطام الدنيا.

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من ذلك، وهي النبوءة وتوابعُها، من الوحي والشرع والسعادة في الدارين، والهدى والجنَّة، والدنيا بجملتها لا تسوى عند الله جناح بعوضة.

﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَّكُونَ﴾ أي: لولا كراهة أن يكون ﴿النَّاسُ﴾ كلُّهم ﴿أُمَّةً﴾ جماعة ﴿وَاحِدَةً﴾ متَّحدة على الكفر بأنواعه الشرك والفسق بأنواعهما، أي: لولا كون الناس أمَّة واحدة على الكفر يُوجدُ بالبسط كلّ

البسط لِلْكُفَّارِ بالله الذي هو الرحمن للخلق، بأن يكفر بالله كلٌّ من رآهم على ذلك البسط، يظنُّ أنَّ الكفر هو الموجب لذلك البسط لهم، وذلك جريٌ على عادته تعالى في خلق الأسباب، إذ لو شاء لم يكفر من رآهم كذلك، ولو شاء لزادهم ذلك بُعدًا عن الكفر. والمصدر من «يَكُونَ» مبتدأ على حذف مضاف، أي: لولا كراهة كون الناس، خبره «يوجد» المقدَّر.

﴿لَّجَعَلْنَا لِمَنْ يَّكْفُرُ﴾ متعلِّق باستقرار محذوف، مفعول ثان لجعلنا ﴿بِالرَّحْمَانِ﴾ لم يقل: بالله، إشارة إلى أنَّ ترك الجعل رحمة للسعداء، ولِكلٍّ من شاء، إلاَّ من أبى باختياره.

﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ (نحو) بدل اشتمال، من «لِمَنْ» ولا يضرُّ اتِّحاد معنى حرفي جرٍّ واتِّحاد متعلَّقهما لأنَّه بالتبعيَّة، أو متعلِّق بـ«جَعَلْنَا» فقد اختلف المتعلِّقان، لأنَّ أحدهما الاستقرار، ولو جعلنا «جَعَل» متعدِّيًا لواحد لم يجز تعلُّقهما به إلاَّ على البدليَّة، أو على اختلاف معنى اللامين، بأن تجعل الثانية للتعليل كما قيل، وليس ذلك معنى قويًّا هنا، والأولى للملك أو الاختصاص، أو بأنَّ تجعل الأولى للملك والثانية للاختصاص.

﴿سُقُفًا﴾ جمع سقف كَرَهْن ورُهُن، أو جمع سقيفة كسفينة وسُفُن، وهو أوكد في المعنى، لأنَّ السقيفة البيت كلُّه، والسقف بعضه، إلاَّ أنَّه لا يصحُّ إلاَّ على طريق التجريد، بأن تجرَّد من بيوهم بيوت للمبالغة في تحسينها.

أو السقيفة بمعنى السقف، والجمع على التوزيع، كما قرئ بفتح وإسكان القاف، أي: لكلِّ بيت سَقْفٌ، ويجوز أن يراد لكلِّ بيت سقوف، سقف فوق سقف، وذلك غُرَف.

(فقه) وأخطأ من استدلّ بالآية علىأنّ السقف لصاحب البيت الأسْفل، إذ لا دليل فيها على ذلك، بل هو بينهما إلاّ إن كانت بَـيِّـنَة، وعلى الأسفل الخشب وعلى الفوق الطين.

﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ تمثيل، ولو شاء لجعلها من ذهب، والكلّ عند الله هيِّن، وإذا كان السقف من فِضَّة فالبيت من نحاس، أو حجر مُجَوَّد أو من ذهب، كما قال بعدُ: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ ﴿وَمَعَارِجَ﴾ مدارج جمع معرج، أي: من فِضَّة ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلّق بقوله تعالى: ﴿يَظْهَرُونَ﴾ يطلعون، وَسُمِّيَ الطلوع ظهورًا لأنّ الطالع فوق عال يظهر للناظر، أو لأنّ الطالع يظهر على ما خفي، أو معنى «عَلَيْهَا» بسببها أو فيها، فإنّ من على السقف يظهر على ما خفي.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ عطف على «لِبُيوتِهِم» الأولى ﴿أَبْوَابًا﴾ عطف على سقف بالواو عطف معمولين على معمولي عامل واحد ﴿وَسُرُرًا﴾ تكون فيها جمع سرير ونعتهما محذوف، أي: أبوابًا وسررًا من فِضَّة، ونعت سررًا وحدها بقوله: ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ كما هو شأن الملوك والمترفين ﴿وَزُخْرُفًا﴾ ذهبًا أو زينةً أو نقوشًا أو أثاث البيت، والعطف على «سُقُفًا».

ومن الزينة الحمرة، قال رسول الله ﷺ : «**إيّاكم والحمرة فإنّها من أحبّ الزينة إلى الشيطان**»[1] وليست محرّمة بل مباحة على الكراهة، كما روي أنّه ﷺ لبسها دفعًا لتوهُّم التحريم.

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَا مَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ «إنْ» مخفَّفة، واللام فارقة بين النفي والإثبات، و«مَا» صلة والمتاع ما يتمتَّع به، ولا يعتمد عليه لحقارته، وهو

١- رواه **الطبراني** في الكبير: ج١٨، ص١٤٨، رقم٣١٧. و**الهيثمي** في المجمع: ج٥، ص١٣٠. من حديث عمران بن حصين.

خبر المبتدأ، أو «مَا» اسم موصول خبر المبتدأ، و«مَتَاعُ» خبر لمحذوف، والجملة صلة، أي: لما هو متاع الحياة الدنيا، أو نكرة موصوفة، أي: شيء هو متاع الحياة الدنيا، وهذا أشدُّ تحقيرًا، وذاك المتاع نصيب المجرمين ولا نصيب لهم في الآخرة.

﴿**وَالآخِرَةُ**﴾ نعيم الآخرة ﴿**عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ خاصَّة، وهم من اتَّقى الشرك و الإصرار على المعاصي.

قال رسول الله ﷺ : «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء**»[1] رواه الترمذي وابن ماجه وصاحب الضياء المُحَدِّث عن سهل بن سعد، وعن عليٍّ موقوفًا: «الدنيا أحقر من ذراع خترير بال عليه كلب في يد مجذوم».

وقف ﷺ على سخلة في دمنة قوم تجري فيها الدود، وذلك في السفر، فوقف حتَّى لحقه أصحابه فقال: «**ألا ترون هذه؟ هانت على أهلها**» قالوا: نعم، قال: «**الدنيا أهون على الله عَزَّ وَجَلَّ من هذه على أهلها**»[2] قال المستورد بن شدَّاد: كنت في هذا الركب وشهدت ذلك، وقال ﷺ : «**الدنيا كلُّها متاع وخير متاعها المرأة الصالحة**»[3].

وقال ﷺ : «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها**»[4] إلاَّ ماكان منها لله من ذكر

١- رواه **الترمذي** في كتاب الزهد، باب ما في هوان الدنيا على الله، رقم ٢٣٢٠. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، رقم ٤١١٠. من حديث سهل بن سعد.

٢- أورده **البغوي** في كتاب شرح السنة: ج١٤، ص٢٨٨. (م.أ.ح).

٣- رواه **مسلم** في كتاب الرضاع (١٧) باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، رقم١٤٧٦. **والهندي** في الكنز: ج١٦، ص٢٧٨، رقم ٤٤٤٥١. من حديث ابن عمر.

٤- رواه **الترمذي** كتاب الزهد، باب منه، رقم ٢٣٢٢. ورواه **ابن ماجه** كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، رقم ٤١١٢. من حديث أبي هريرة.

وتعليم وتعلُّم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وفي مسلم مرفوعًا عن أبي هريرة «**الدنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر**»[1] وفي الترمذي عن قتادة بن النعمان عن رسول الله ﷺ : «**إذا أحبَّ الله عبدًا حماه الدنيا كما يظلُّ أحدكم يحمي سقيمه من الماء**»[2].

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

حال المعرض عن ذكر الله وتثبيت النبيء ﷺ على دعوته

﴿**وَمَنْ يَّعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَانِ**﴾ يتعامى، أو ينظر نظرًا ضعيفًا كنظر الأعشى وهو ضعيف النظر، وهو أولى، لأنَّ الأعشى ليس بمعنى الأعمى، أو

١- رواه **مسلم** في كتاب الزهد والرقائق -مقدِّمة- رقم٢٩٥٦. **والترمذي** في كتاب الزهد (١٦) باب ما جاء أنَّ الدنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر، رقم٢٣٢٤. من حديث أبي هريرة.

٢- رواه **الترمذي** في كتاب البرِّ والصلة (١) باب ما جاء في الحمية، رقم٢٠٣٦. **والحاكم** في المستدرك كتاب الطب: ج٤، ص٢٣٠، رقم٧٤٦٤. من حديث قتادة بن النعمان.

يعرض عن ذكر الرحمن، أي: كتابه، أو عن أن يذكره.

(صرف) وليس الذكر بمعنى التذكير، لأنَّه مصدر ذكر بالتخفيف، ودعوى أنَّه اسمُ مصدر خلاف الأصل بلاداعٍ إليه ولا دليل، واختار «ذكر الرحمن» لأنَّ نزول القرآن أو التوفيق لذكر الله رحمةٌ من الله تعالى.

﴿نُقَيِّضْ لَهُ, شَيْطَانًا﴾ نقدِّر له شيطانا يستولي عليه استلاء القيض، وهو قشر البيض، على ما تحته فيغويه، وذلك استعارة تابعة لاستعارة التقييض للاستيلاء.

﴿فَهُوَ لَهُ, قَرِينٌ﴾ لا يفارقه ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: الشياطين المدلول عليهم بذكر شيطان في حيِّز اسم الشرط.

(بلاغة) فإنَّ قولك: من يجاهد أعطه سيفا، مثل قولك: كل من يجاهد أعطه سيفا، فهذه سيوف متعدِّدة بتعدُّد من يجاهد، فالنكرة في حيِّز الشرط أو جوابه، تعمُّ عموما بدليًّا في معنى الشمول، وليس كالبدلي الذي ليس في معنى الشمول دفعة، وإنَّما قلت ذلك لأنَّ المعتاد في اسم الشرط قصد واحد واحد، وأطلق بعض المحقِّقين أنَّه شموليٌّ.

وكذا الواو في قوله تعالى: ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ لأنَّها عائدة إليهم أيضا، والهاء تعود إلى «مَنْ» باعتبار عموم معناه لا إلى «قَرِينٌ»، لأنَّ القرين الشيطان، وكذا لفظ «هُوَ» وهاء «لَهُ» لـــ«مَنْ» باعتبار لفظها، بل لو رددنا «هُوَ» إلى «مَنْ» وهاء «لَهُ» للشيطان لجاز. وردُّه إلى «مَنْ» أولى، لأنَّه العمدة المبني عليها الكلام، فإنَّ ردَّ القرين بمعنى الإنسان المذكور فهو أيضا عامٌّ في حيِّز الجواب، فالحقُّ أنَّ النكرة في حيِّز الشرط تعمُّ.

﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ الدين القيِّم ﴿وَيَحْسِبُونَ﴾ أي: الذين عشوا عن ذكر

الرحمن ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ في اعتقادهم وقولهم، وفعلهم التي اتَّبعُوا فيها الشياطين، ولا دراية لهم بأنَّهم اتَّبعُوا الشياطين، ولذا لم يصحَّ عود هاء «أَنَّهُم» للشياطين، اللهمَّ إلاَّ باعتبار ما في نفس الأمر من اتِّــبَاعهم، على حدِّ ما مرَّ في قوله: ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة الزخرف: ٩) ، والعطف على «إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ». والمضارع للاستمرار، بدليل «حَتَّى» في قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ «حَتَّى» ابتدائيَّة، ولا تخلو عن غاية، والألف لــ«مَنْ يَّعْشُ» وقرينه، وضمير «قَالَ» لــ«مَنْ» باعتبار اللفظ، لأنَّ المقام لذكر لفظ واحد، ممَّن عشا عن ذكر الرحمن لقرينه ﴿قَالَ﴾ في الآخرة إذ جاء ﴿يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ في الدنيا حتَّى لا تصل إلى إضلالي وصدِّي عن السبيل، أو في الآخرة لأستريح من مشاهدتك، وقد أوردتني مهلكا عظيما، أو فيهما وما علم أنَّ الشيطان قرنه في الدنيا وأغواه إلاَّ في الآخرة.

﴿بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ بعد طرفي ما بين المشرق والمغرب، أي: بُعد كلٍّ عن الآخر، وغلَّب المشرق لأنَّه مبدأ ظهور الشمس، وقال ابن السائب: لا تغليب بل المراد مشرق الشمس في أطول يوم من السنة، ومشرقها في أقصر يوم منها.

﴿فَبِيسَ الْقَرِينُ﴾ أنت أَيُّــهَا الشيطان، وذلك من كلام من عشا عن ذكر الله، وهو الواضح، بدليل أنَّ الأصل أن يكون التفريع من كلام المتكلِّم لا أن يتكلَّم ويفرِّع غيره على كلامه، كما قيل: فبيس القرين هو، أي: الشيطان، على أنَّ هذا من كلام الله عَزَّ وَجَلَّ .

﴿وَلَنْ يَّنفَعَكُمُ﴾ أي: ويقال: لهم يوم القيامة لن ينفعكم ﴿الْيَوْمَ﴾ يوم القيامة، و«ال» فيه للحضور، وهو وقت واقع تمضي فيه أمورٌ وتحضر أمورٌ وتستقبل أمورٌ فلا ينافي «لَنْ» التي للاستقبال كون «ال» للحضور، فبعد حضوره يستقبل فيه عدم حصول النفع، فالمعنى: يَــتَــبَــيَّنُ لكم التبيين الأشدُّ

قُوَّة انتفاءُ النفع في المستقبل من ذلك اليوم، على حدِّ قوله: «إذا ما انتسَبْنا لم تَلدْنِي لئيمَة»، أي: ظهر أنِّي لم تلدني.

(نحو) ولا ينافي حضورَ اليومِ، ولا استقبالَ تبيُّنِ انتفاءِ النفعِ مضيُّ «إِذْ» من قوله: ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ لأَنَّها بمعنى «إذا»، كما قال ابن مالك، أو حرف تعليل، كما قال سيبويه، ووجه الاستقبال أن يفسَّر ظلمتم بالتبيُّن والظهور، أي: إذا ظهر أنَّكم ظلمتم في الدنيا، أو يقدَّر مضاف وتبقى على المضيِّ، أي: بعد «إِذْ ظَلَمْتُم»، وفاعل «يَنفَع» ضمير تمنِّي بُعد المشرقين، أو ضمير الندم، أو ضمير القول. ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ مقدَّر بلام التعليل، أي: لاشتراككم في العذاب كاشتراككم في المعاصي.

(نحو) وشهر أنَّ هذا المصدر هو فاعل «يَنفَع»، أي: لن ينفعكم اشتراككم في العذاب، ويدلُّ على أنَّ الفاعل مستتر كما مرَّ قراءة ابن عامر بكسر همزة «أنَّ». والآية على كلِّ حال نافيةٌ لأنْ يتروَّحوا بالاشتراك، كما يزول بعضُ الهمِّ إذا عمَّت المصيبة، وعموم البلوى يُسَلِّي القلب في الدنيا، قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حــولي   على إخوانهم لقتلت نفسي
ولا يبكون مثل أخي ولكن   أعزِّي النفس عنه بالتــأسِّي

أو الآية نافية لطمع أن يرفع بعضهم عن بعضهم بعضَ العذاب، لأنَّهم اشتركوه، وذلك لأنَّ لكلٍّ منهم حصَّةٌ منه لا تنقص، لكن هذا الطمع بعيد، لكن المضطر يطمع ولو فيما لا طمع فيه، أو نافية لأن ينتفعوا بالتشفِّي من الشياطين بأنَّكم عذِّبتم كما عذِّبنا، كطمعهم إذ قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ (سورة الأحزاب: ٦٨) ، و﴿ءَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ (سورة الأعراف: ٣٨) .

﴿أَفَأَنتَ﴾ ألك قدرة تامَّة فأنت ﴿تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ تُصيِّره سامعًا ﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ تصيِّره بصيرًا يهتدي ببصره، والصمم والعمى على حقيقتها هنا ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ كما لا تقدر على إسماع الأصمِّ وإبصار الأعمى لا تقدر على هداية هؤلاء المستغرقين في الضلال، الشبيهين بمن اجتمع له الصمم والعمى، والعطف على العمى، فالاستفهام الإنكاري التعجبيي في قوله: ﴿أَفَأَنتَ﴾ منسحب على هداية من رسخ في الضلال، لا يقدر على ذلك إلاَّ الله وهو قد خذلهم.

(نحو) ﴿فَإِمَّا﴾ «إِنْ» الشرطية و«مَا» التوكيدية الشبيهة بلام القسم في التوكيد، حتَّى ساغ التوكيد معها بالنون في قوله تعالى: ﴿نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ الباء للتعدية، أي: فإمَّا نُذهِبُكَ بالموت قبل أن تنتقم منهم في مشاهدتك ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ في الدنيا والآخرة بعد موتك، فحذف المعمول للعموم وزيادة الفائدة، هكذا أولى من حمله على قوله تعالى: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (سورة غافر: ٧٧) ، في أن الانتقام في الآخرة، والقرآن ولو كان يفسِّر بعضه بعضًا لكن إذا وجدنا فائدة فسَّرنا بها.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ عطف بـ«أَوْ» على معمولي عامل، ولذلك أكَّد بالنون، كأنَّه أدخلت عليه «مَا» بعد «إِنْ» الشرطيَّة، وكانت الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ كأنَّه ذكرت أداة الشرط، فـ«نُرِيَنَّ» معطوف على الشرط، ومعنى ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ لا يفلتون منَّا، وقد أراه ما وعدهم في الدنيا يوم بدر إذ قتلت رؤساؤهم.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ إذا كان أحد الأمرين واقعًا ولا بُدَّ فاستمسك بالقرآن، أو مع سائر الوحي، أي: دُم أنت يا محمَّد على الاستمساك به، وليس الخطاب لمن يصلح له لقوله بعد: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ فإنَّه خطاب له

ﷺ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تعليل، **والآيات الثلاث تسلية له ﷺ وتهديد لهم.**

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: ما أوحي إليك، والأولى: إنَّه القرآنُ ﴿لَذِكْرٌ﴾ شرف عظيم ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قريش، قال ابن عبَّاس وعليٌّ: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل في مكَّة، ويَعِدُهم الظهور فيقولون: لمن الملك بعدك؟ إذْ لَم يعلمْ لِمَنْ، و لم يأذن الله بما يقول حتَّى نزلت، فكان يقرأها ويقول: «**الشرف لقريش**» فلم يتَّبعوه، وتبعته الأنصار مع قوله ذلك، وعن عليٍّ عنه ﷺ : «**علم الله ما في قلبي من حبِّي لقريش فبشَّرني فيهم**» وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾.

وقيل: قومه العرب، لأنَّه على لغتهم، فهم في ذلك درجات، فقريش أفضلهم، وبنو هاشم أكثر فضلاً، وقيل: قومك من اتَّبعه من أمَّته والأوَّل أولى، **وفسَّر بعضهم الذكر بالتذكير والوعظ فعَمَّ الأمَّةَ كلَّها حَتَّى المشركين،** لأنَّ التذكير يعُم الكلَّ.

[قلت:] وفي الآية جواز الميل إلى الشرف وحبِّه بلا رياء ولا فخر، إذا كان يستعملُ للدِّين، ويقال: «الذكر الجميل بعد الموت عمر ثانٍ». قال كافر من كُفَّار العجم يسمَّى «هلاكُو» الموجد في المائة السابعة لأصحابه: مَنِ المَلِك؟ قالوا: أنت إذْ ملكت البلاد والملوكَ، وذلك حين سماعه الأذان، فقال: لا إنَّما الملك هذا الذي له أزيد من ستِّمائة قد مات وهو يذكر على المآذن في اليوم والليلة خمس مرَّات، يريد محَمَّدًا رسول الله ﷺ .

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة عن الإيمان به، والقيام بحقِّه، وعن شكر ما جعله الله تعالى لكم من الشرف به.

﴿وَاسْئَلْ﴾ يا محمَّد أو يا أَيـــُّهَا السامع المتفحِّص عن الديانات، وقيل: السؤال سؤال نظر وفحص عن مِلَلِهِم، كسؤال الأطلال، كقولك: سَلِ الأرض من شقَّ أنهارهَا وغرس أشجارها وأكمل ثمارها؟. ﴿مَنَ اَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ أي: أمم من أرسلنا، لأنَّه لم يدرك الرسل، فيخبرون عمَّا جاءت بهم رسلهم من التوحيد فيجيبون بما تقول، وحذف المضاف كما رأيت.

أو نزَّل سؤال الأمم منزلة سؤال أنبيائهم، وقرئ: «وَاسْأَلِ الذينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلَنَا قَبْلَكَ» ونسبت هذه القراءة لابن عبَّاس، وفي لفظ: «وَاسْأَل مَنْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ رُسُلَنَا»، وهما نفس التأويلين، وكذا قال ابن مسعود: «اسأل مؤمني أهل الكتاب» وهو أكثر الروايات عن ابن عبَّاس، رواه عنه مجاهد وقتادة والضحَّاك والسدِّي والحسن ومقاتل.

(سيرة) وعن ابن عبَّاس: لَمَّا أسري بالنبيء ﷺ بعث الله تعالى له آدم وولده من المرسلين فأذَّن جبريل ثمَّ أقام وقال: يا محمَّد تقدَّم فَصَلِّ بهم، فَلَمَّا فرغ من الصلاة، قال له جبريل: سل يا محمَّد ﴿مَنَ اَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا...﴾الآية، فقال النبيء ﷺ : «لا أسأل قد اكتفيتُ». رواه الزهري وسعيد بن جبير، وذلك في السماء، وقيل: في بيت المقدس. وعن ابن عبَّاس: قيل له ﷺ ليلة الإسراء: ﴿وَسْئَلْ...﴾ ولم يسألهم، وقد صلَّى بهم، قال ميكائيل لجبريل: هل سألهم؟ قال: لا هو أعظم يقينًا، وهذا يُقوِّي أنَّ السؤال سؤال نظر، وإلاَّ فكيف يترك السؤال وقد أمر به؟ فيكون أمره به تهييجا، وفيه كفاية إذ تلاها على المشركين ولو أنكروا الإسراء.

﴿أَجَعَلْنَا من دُونِ الرَّحْمَانِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ مفعول لـــ«اسْأَل» معلَّقٌ عنه بالاستفهام، وكلٌّ مسؤول مِمَّن ذكر تحقيقًا أو حكمًا يقول تحقيقًا أو حكمًا: لا.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

العبرة من قصة موسى عليه السلام وفرعون

﴿وَلَقَدَ ارْسَلْنَا مُوسَىٰ بِئَايَاتِنَآ﴾ مع آياتنا أو ملتبسًا بها **﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾** أشرافه، أي: أشراف قومه، أي: وأتباعهم، ولم يذكرهم لأنَّهم أتباع لفرعون وأشرافه **﴿فَقَالَ﴾** لهم **﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** إليكم، وذلك تسلية لرسول الله ﷺ، وإبطالٌ لقولهم: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ...﴾ بأنَّ موسى رسول مع عدم مالٍ مثلك إلى قوم أعظم منهم، وإلى جبَّارٍ عظيم، فنصر عليه، فليست الرسالة بالمال، وهذان موسى وعيسى جاءا بإنكار آلهة غير الله تعالى.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِئَايَاتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ تعجُّبًا منها واستعظامًا لها من غير إيمان بها، فعوقبوا على الاقتصار على الضحك عن الإيمان، وشُهِر أنَّ الضحك استهزاءٌ منهم وتكذيبٌ لها.

(نحو) و«إِذَا» حرف مفاجأة، أي: فاجأهم الضحك منها دون إمهالٍ للتفكُّر، ومن الغريب أن تجعل للمفاجأة وتجعل ظرفًا منصوبًا بفعل من نفسها، أي: فاجأوا وقت ضحكهم، كأنَّها نصبت بنفسها، وإنَّما يصحُّ لو كانت ظرفًا لغير المفاجأة، فقدِّر لها فعل من المفاجأة، لكن إذا كانت لغير المفاجأة فما مفيد المفاجأة ؟ وأغرب من ذلك قبوله!.

﴿وَمَا نُرِيهِم﴾، أي: فرعون وقومَه ﴿مِّنَ ءَايَةٍ اِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنُ اخْتِهَا﴾ قبلها كمًّا في أجزائها، أو كيفًا، أو في الكمِّ والكيف، ومن ذلك أنَّ كلَّ واحدة تضمُّ ما قبلها، فذلك علم إلى علم، فهي أكبر، هكذا يظهر أوَّل وهلة، أو كلُّ آية أكبر من أختها باعتبار وأصغر باعتبار، أو كلُّ واحدة لكمالها وعدم تفاوتهِنَّ إذا اعتبرت تخيِّل أنَّها أفضل، فذلك كناية عن عدم التفاوت، فلا تناقض في الآية، و لا تفضيل شيء على نفسه.

﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ كالسنين والجراد والقمَّل والضفادع والدم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ كي يرجعوا عن تكذيبهم، ولك أن تقوله كلمًّا وردت صيغة الترجِّي من الله تعالى عنها، حمل الكلام على الاستعارة التمثيلية.

﴿وَقَالُواْ يَآ أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾ أي: العالِمُ، يُسمُّون العالم الماهر ساحرًا، لعظم شأن السِّحر عندهم، أو هو من الفعل المستعمل في المغالبة، يقال: خصمه، أي: غلبه في الخصام، وهو ثمرة للمفاعلة، يقال: ساحرني فسحرته، أي: غلبته في السحر، فأنا ساحره، أي: غالبه فيه، فالمعنى: الذي غَلَبَ السحرة، وذلك كلُّه تعظيم.

أو هو على ظاهره يسمونه ساحرًا من السحرة، وقيل: ذمٌّ منهم له ﷺ مُريدين أنَّه ساحر لا نبيء، ومع ذلك قالوا: إنَّنا لمهتدون، لأنَّه وعد منويٌّ إخلافه، مشروط فيه أن يدعو لهم بكشف الضرِّ، وفيه أنَّ مريد الإخلاف لا يُظهره بل يخفيه خداعًا، ولعلَّه قالوا: ﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا...﴾ كما في سورة

الأعراف [آية ١٣٤]، وذكره الله تعالى عنهم بلفظ الساحر كما هو عندهم على حدِّ ما مرَّ في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة غافر: ٩) .

﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ليكشف عنَّا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ من إجابة الدعاء وفعل ما تحبُّ، أو من الإيمان والطاعة، أو من النبوءة التي عُهدتَها منه بإكرامه تعالى بها، وبأنْ يعمل بما جاءت به، أو شبَّهها بالعهد الذي يكتب للولاة.

والباء للآلة أو للسببيَّة، ويجوز أن يكون المعنى: بالدعاء الذي عهد لك الإجابة به، ويجوز أن تكون للقسم الاستعطافي أغنى عن جوابها ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، أو غير الاستعطافي، فيكون جوابُها قوله تعالى: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ فإنَّ الاستعطافي يَخْتَصُّ بالإنشاء، وعلى غير القسم يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّنَا...﴾ تعليلاً، أي: ادع لنا ربَّك بما عهد عندك لأنَّنا نهتدي إلى ما تأمرنا به، لكشف الضُرِّ بدعائك، من الإيمان وإرسال بني إسرائيل.

أو مستأنف، أي: إنَّنا لمهتدون إذا كشفت الضرَّ بالدعاء، وذلك كقوله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُومِنَنَّ لَكَ﴾ (سورة الأعراف: ١٣٤) ، ويحتمل أن يكون مستأنفًا في غيبة موسى بلا شرط، أي: إنـــّنا على الهدى، وليس ما يقول موسى شيئًا. ودعا موسى فكشف الله عنهم العذاب فلم يؤمنوا كما قال الله عزَّ وجلَّ :

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ بدعائه ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ فاجأهم النكث، أي: نقض العهد.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ ليصرف الناس عن اتِّـبَاع موسى إذ كشف الضرُّ بدعائه. عطف على ما قبله عطف قصَّة، أو على المعنى المسمَّى في غير القرآن: "عطف توهُّم"، كأنَّه قد قيل: فاجؤوا النكث، ونادى لاَ عَلى فَاجَأَ مُقَدَّرًا في العبارة، ويجوز العطف على «يَنكُثُونَ».

و«قومه»: أشرافه المعبَّر عنهم بالملإ، جمعهم في محلِّه، أو جميع قومه، لأنَّ النداء في ملئه نداء في القبط كلِّهم، أو أراد بالقوم مَمْلَكَتَهُ كذلك، وكلُّ واحد من ملئه ينشر نداءه في قومه فيعمَّ.

أو أراد أنَّه نادى منادوه في الأسواق والشوارع والمجامع والبلاد، فحذف المضاف، أو أسند إلى نفسه على التجوُّز في الإسناد، والمنادي حقيقة غيره في كلِّ موضع.

(نحو) وعدِّي «نَادَى» بـ«فِي» لأنَّه أراد النداء فيهم، ولا مفعول له صريح، لأنَّ المراد صرخ فيهم، وكأنَّه قيل: ماذا قال في ندائه؟ فقيل:

﴿قَالَ يَاقَوْمِ﴾ القوم هم المذكورون ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾؟ لم يرد القاهرة وحدها بل مصر عبارة عن [موضع] القاهرة وأعمالها، أو أراد الإسكندريَّة خصوصًا، وأعمالها تابعة لها. والملك بمعنى مملوكات، ويجوز أن يكون مصدرًا، أي: التَّصَرُّف فيها وأعمالها.

﴿وَهَذِهِ الاَنْهَارُ﴾ عطف على ﴿لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ كأنَّه قيل: أليس لي هذه الأنهار؟ وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِيَ﴾ حال من «هَذِه» أو قوله: ﴿وَهَذِهِ الاَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيَ﴾ مبتدأ وخبر، والعطف على ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾، أو هي حال من الياء، وليس في هذا الوجه من المبتدأ والخبر التصريح بأنَّها مملوكة له، لكن معلوم ذلك من المقام، إذ ملك مصر وأعمالها، فكيف يتصوَّر أن يملكها دون أنهارها؟ وأيضًا جريانها تحته بِكَيْفِيَّة يشاؤها كالتصريح في أنَّها ملكه، وأيضًا قد يقال: «مِن تَحْتِيَ» بمعنى بأمري وتصرُّفي.

والأنهار: الخلج المفتتحة من النيل، كنهر الملك، ونهر دمياط، ونهر تنيس، ولعلَّ نهر طولون كان على عهده وانْدَرَسَ، وجدَّده أحمد بن طولون في الإسلام. والمشهور أنَّ الأنهار تجري من تحته بمعنى تحت قصره، أي: من تحت

قصري، وقصره مشرف عليها، أو تحت سرير، وكأنَّ له سرير مرتفع تجري من تحته أو تحت أشجاره، وكانت له بساتين وجنان.

﴿أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ أغفلتم فلا تعقلون ذلك؟ أو أذهلتم بأمر موسى فلا تعقلون ذلك؟ أو لا مفعول له بمعنى أليس لكم بصيرة؟.

ادَّعَى الرُّبـُـوبِيَّة مع أنَّه ليس له إلاَّ ملك مصر وهذا عجيب!. ولمَّا قرأ هارون الرشيد هذه الآية قال: لأُوَلِّـيَنَّ مِصْرَ أخَسَّ عبيدي، فولاَّها الخصيب، وكان على وضوئه، روي ذلك.

[قلت:] ومعنى على وضوئه أنَّه لم ينتقض بالكذب إذ لم يكذبْ في أنَّ الخصيب أخسُّ عبيده، أو كان الخصيب عبدًا له ما يلي من أمر الملك هارون إلاَّ إعدادَ الماء للتوضِّي والقيام بشأن الوضوء.

ووليها عبد الله بن طاهر فخرج إليها فلمَّا شارفها ووقع عليها بصره قال: هي القرية التي افتخر بها فرعون، حتَّى قال: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ»؟ والله لَهِي عندي أقلُّ من أن أدخلها، فثنَّى عنانه.

﴿أَمَ اَنَاْ خَيْرٌ﴾ أي: بل، فهي منقطعة للإضراب الانتقالي، أو بمعنى بل وهمزة التقرير، أي: اعترفوا أيُّها القوم بأنِّي خير منه، وهذه حالي فوق حاله من الملك، ويجوز أن تكون متَّصلة على معنى: أفلاَ تُبصرون؟ أمْ تُبصرون؟ وَضَعَ «أَمَ اَنَاْ خَيْرٌ» موضع «أم تبصرون»؟ تنزيلاً للسبب منزلة المسبَّب، فإنَّ حصول الخيريَّة سبب إبصارهم أنَّه خير.

﴿مِّنْ هَذَا﴾ إشارة قرب للتحقير ﴿الذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ حقير ذليل ﴿وَلاَ يَكَادُ يُـبِينُ﴾ الكلامَ، أي: لا يُفصح به، ولا يـبيِّن حجَّته، [قيل:] لاحتراق لسانه بجمرة وضعها على لسانه إذ وضعت له عند فرعون تجريبًا له، وإن قلنا: إنَّ الله قد

أجاب قوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً...﴾ (سورة طه: ٢٧) ، وهو الأظهر، فالمعنى: لا يكاد يبين حجَّته، إذ لا حجَّة له، وهو كاذب، أو ذكره بحاله قبل إصلاح الله تعالى لسانه.

﴿فَلَوْلَآ﴾ للتحضيض ﴿أُلْقِيَ﴾ إن كان رسولاً فهلاَّ ألقي ﴿عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ لولا ألقى الله من السماء عليه أساورة من ذهب، كما قرأ الضحاك بالبناء للفاعل، ونصب «أَسَاوِرَةً» وكما هو شأن المسُود أن يُسَوَّرَ بسوارين، ويُطَوَّق بطوق من ذهب علامة له، يظنُّون أنَّ الرئاسة لا بدَّ منها مع الرسالة، كما قال الكافرون لرسول الله ﷺ : ﴿لولاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْءَانُ عَلَىا رَجُلٍ...﴾ (سورة الزخرف: ٣٣) ، أو ظنَّ فرعون الرئاسة هي الرسالة ومعها التَّصرُّف.

(صرف) والمفرد أسْوارٌ، وأسوار مفردٌ بوزن الجمع، أو جمع لا مفرد له، والتاء عوض عن ألف أسوار، إذ لم تقلب ياء ثابتة هكذا أساوير، أو أساورة جمع سوار على غير قياس.

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلَآئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ قرنهم الله به، فاقترنوا، فالافتعال للمطاوعة، وتفسير بعض له بمقرونين به تفسير باللازم، وقيل: المعنى متقارنين، والافتعال بمعنى التفاعل على إرادة الكثرة، والإعانة له بالتصديق على من خالفه.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ طلب منهم الخفَّة بفعله، أو قوله إلى التكذيب والمعصية، فالاستفعال على أصله كما يدلُّ له قوله ﷻ : ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ في التكذيب والمعصية اللتين دعاهم إليهما. وقيل: الاستفعال هنا بمعنى الوجود على أصل الفعل، أي: وجدهم أخفَّاء، مثل إفعال بذلك المعنى، نحو أحمدته، بمعنى وجدته حميدًا، وقد أطلت الكلام على نحو هذه المعاني في «شرح لامية الأفعال»، ووجه تفريع الإطاعة عليه أنَّهم أطاعوه بطبق ما وجد فيهم من الخفَّة ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ لأنَّهم كانوا قومًا فاسقين.

﴿فَلَمَّآ ءاسَفُونَا﴾ بالغوا في الكفران واستمروا عليه وكانوا بصورة من يشتدُّ في الإساءة إلى من يحلُم ويصبِر حتَّى لم يسع حِلمُه تلكَ الإساءة فأحزنته، فذلك استعارة تمثيليَّة، بأن بالغوا حتَّى ضاقت عليهم رحمة الله، واستحقُّوا غضبه، وهو إرادة العقوبة، أو نفس العقوبة.

والإيساف الإغضاب أو الإحزان، والله سبحانه متزّه عن حقيقتهما، لأنَّه لا يناله مكروه، ولا يوصف بصفة الخلق، فإنَّ الأسف الحزن والغضب معًا، ويطلق أيضا على كلٍّ منهما على انفراد، وهو ثوران دم القلب لإرادة الانتقام، فأن كان على من دونك انتشر غضبا وغيظًا، أو على من فوقك انقبض حزنًا وجزعًا، وكانت الصفرة.

ويجوز حمله على الحقيقة بتقدير مضاف، أي: فلمَّا آسفوا أولياءنا وهم موسى والمؤمنون معه، وحذف إشارة إلى قوله تعالى [في حديث قدسي]: «**من أهان لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة**»[1]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُّطِعِ الرَّسُولَ فَقَدَ اَطَاعَ اللَّهَ﴾ (سورة النساء: ٨٠) ، وعن ابن عبَّاس المعنى: أحزنوا أولياءنا المؤمنين نحو السحرة وبني إسرائيل. ووزن آسف "أفعل" تَعَدَّى " أسف" بالهمزة.

﴿انتَقَمْنَا مِنهُمْ﴾ وفسَّر الانتقام بقوله: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمُ, أَجْمَعِينَ﴾ في البحر، ويجوز أن يريد: أردنا الانتقام فأغرقناهم.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ متقدِّمين إلى النار، كما روي عن ابن عبَّاس وزيد بن أسلم، وهو أنسب بما قبله من الإغراق.

وقالت جماعة: قدوة لمن يتَّبعهم بعدهم على الكفر الذي يستوجبون به الانتقام، لَمَّا اقتدوا بهم في الكفر، جُعِلوا كأنَّهم اقتدوا بهم في الانتقام منهم.

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: تفسير الآية رقم٣٧، من سورة الشورى في هذا الجزء.

والسلف: ما تقدَّم عمَّن بعده، وأصله مصدر، فكان يطلق على الواحد فصاعدًا، وقيل: هو جمع سالف، كحارس وحرس، وخادم وخدم، وهو جمع قليل، فأولى منه أنَّه اسم جمع.

﴿وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ عظة عظيمة تشبه المثل السائر، فيقال: احذروا لئلاَّ تصيروا إلى مثل ما صار إليه فرعون وقومه، ويقال: مثلكم مثل فرعون وقومه، ويجوز أن يراد بالآخرين ما يشمل المؤمنين، لأنَّ الوعظ لهم ولغيرهم.

(نحو) و«لِلآخِرِينَ» نعت لـ«مَثَلاً»، ويقدَّر مثله لـ«سَلَفًا» وليس على التنازع، إذ لا يتبادر التعلُّق بـ«مَثَلاً» و«سَلَفًا»، وإذا علِّق بـ«جَعَل» انسحب عليهما بلا حذف ولا تنازع.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

العبرة من قصَّة عيسى عليه السلام

ومن ذلك [المثل المضروب] عناد قريش المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ مفعول ثانٍ لـ«ضُرِبَ»، أي: صُيِّر، [كما قيل:]

لَمَّا قرأ رسول الله ﷺ : ﴿إِنَّكُم وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ...﴾ (سورة الأنبياء: ٩٨) ، قال عبد الله بن الزبعرى[١] قبل إسلامه: عيسى عبد صالح نبيء عندك؟ وقد عبدته النصارى أيكون في النار معهم؟ واليهود عبدوا عزيرا، وبنو المليح عبدوا الملائكة فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم في النار، لا يكون ذلك. فسكت ونزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ...﴾ (سورة الأنبياء: ١٠١) ، أو هذه الآية. وقيل: قال: ما أجهلك بلغة قومك إنّ ما لمن لا يعقل، وأظنّه [القصَّة] موضعة، لأنّ «ما» في القرآن لغير العاقل وتكون لهما، وإن سكت فإنَّما سكت لظهور الأمر عندهم أنّ الملائكة وعزيرا وعيسى لم يرادوا في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ...﴾.

وَلَمَّا فرغ ابن الزبعري من كلامه فرحت قريش بذلك، ظنًّا منهم أنَّه حجَّةٌ فضحكوا وعلت أصواتهم كما قال الله تعالى: **﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ﴾** يتكلَّمون بكلام مرتفع مختلط فرحًا، كما قرئ بكسر الصَّاد، ومكسور الصاد بمعنى رفع الصوت.

وقيل: المعنى يصدُّون غيرهم عن سبيل الله، أو يعرضون عنه، فالمراد: يدومون على ذلك أو يزيدون عليه بحجَّة داحضة، وهي ما قال ابن الزبعري. و«مِنْ» للتعليل، أو للنسب، أو للابتداء على معنًى: تولّد زيادة الصدِّ أو الثبوت أو ارتفاع الصوت منه. والهاء للمثل، أو لعيسى، أو من ضرب المثل.

١-هو عبد الله بن الزِّبعرى بن قيس السهمي القرشي، أبو سعد، شاعر قريش في الجاهلية، كان شديدا على المسلمين إلى أن فتحت مَكَّة، فهرب إلى نجران، قال فيه حسَّان أبياتا، فَلَمَّا بلغته عاد إلى مَكَّة وأسلم واعتذر، ومدح الرسول عليه السلام ، فأمر له بحلّة، تُوُفِّيَ حوالي سنة ١٥هـ. الزركلي: الأعلام، ج٤، ص٨٧.

(سبب النزول) وروي أنَّه لَمَّا نزل ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ...﴾ (سورة آل عمران: ٥٩) ، قالت المشركون: نحن أهدى من النصارى لأنَّهم عبدوا آدميًّا ونحن عبدنا الملائكة، فنزلت الآية، فالمثل ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ...﴾ . وضارب المثل الله تعالى. وروي أنَّه ﷺ قال: «**لا خير في شيء يعبد من دون الله**» فقال قريش: عيسى عبد فهو كآلهتنا، فنزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾. وقيل: لَمَّا أنكر عليهم قولهم: الملائكة بنات الله، وأنكر عبادتها على من يعبدها، احتمل أنَّهم قالوا: ما قلنا بدعا من القول ولا فعلنا منكرا من الفعل، فإنَّ النصارى جعلوا عيسى ابنا لله وعبدوه، فنحن أحقُّ إذ الملائكة أفضل من عيسى، فنزل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً اذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ﴾ . وقيل: نزل ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ...﴾ فقالوا: ما أراد محمَّد إلاَّ أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى، فنزل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ تهديدا لما مرَّ من باطلهم **﴿ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ اَمْ هُوَ﴾** عندك يا محمَّد؟ لا بدَّ أنَّ عيسى هو خير عندك، فإذا كان من أهل النار فلا بأس أن نكون فيها نحن وآلهتنا. ولفظ «هُوَ» عائد إلى عيسى عليه السلام ، لا إلى سيِّدنا محمَّد ﷺ كما زعم بعض. **﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾** مثلاً، أي: عيسى **﴿إِلاَّ جَدَلاَۢ﴾** جدالا بالباطل وعنادا ولم يريدوا طلب الحقِّ بجدالهم، والنصب على التعليل، أو على المفعوليَّة المطلقة، أي: إلاَّ ضرب جدل **﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾** شديدو الخصام بالباطل.

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ اَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوءة والمعجزات، كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، والتنبئة بما يأكلون وما يدَّخرون، فهو من الذين سبقت لهم منَّا الحسنى لا من حصب جهنَّم، ولا هو أهل لأن يعبد من دون الله، ففي الآية تعريض بالنصارى.

﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً﴾ شيئا عجيبا كالمثل السائر ﴿لِّبَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ إذ كان من غير أب، وكانت له معجزات لم تكن لغيره ولم نجعله ربًّا كإفراط النصارى إذ جعلوه ربًّا، ولا كتفريط اليهود إذ أنكروا رسالته، وجعلوه ابن الزنى.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا﴾ بطريق التوليد لكمال قدرتنا، وافتتان النصارى واليهود بعيسى، لعدم التأمُّل فيها ﴿منكُم﴾ يا أيـُّـهَا الرجال. «مِنْ» للابتداء، أو للتبعيض أو البدل ﴿مَّلآَئكَةً﴾ كما ولّدنا عيسى توليدا من أمِّه بلا أب ﴿فِي الاَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ يخلفونكم في الأرض، كما يخلفكم أولادكم، فمن أين للملائكة استحقاق الأُلوهيَّة، والانتساب إليه بالنبوءة ؟ سبحانه عن ذلك وغيره من صفات النقص! ويجوز أن يكون: ولو نشاء لصيَّرنا بعضكم ملائكة.

﴿وَإِنَّهُ, لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: شيء يعلم به علما قويًّا كأنَّه نفس العلم قيام الناس بالبعث، وذلك إنكار على من أنكر البعث، أي: قدرنا على أن نحييكم بعد الموت، كما قدرنا على خلقه بلا أب، وكما أحيينا الموتى على يديه، وكذلك قرأ ابن عباس وأبو هريرة وأبو مالك الغفاري: «لَعَلَمًا» بفتح العين واللام بعدها، أي: علامة، فإنَّ حاله علامة على قدرة الله على إحياء الموتى، وكذلك نزوله من السماء آخر الزمان علامة على قرب قيام الساعة، وقد فسَّر بعضهم الآية بهذا[1]، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ : «**ليترلنَّ ابن مريم حكما عدلا، فليكسرَنَّ الصليب، وليقتلنَّ الختزير، وليضعن الجزية، وليتركنَّ القلاص فلا يسقى عليها، ويفيض المال، وليذهبنَّ الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعونَّ إلى المال فلا يقبله أحد**».

١-وهو ما حقَّقه العلاَّمة ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، ج٢٥، ص٢٤٣، وقال: «والضمير في «إنَّه» يرجع إلى القرآن، وهذا القول أنسب، أمَّا القول بترول عيسى فهو رأي ابن عبَّاس ومجاهد وقتادة، ويجعلون الضمير يعود إلى عيسى، والأحاديث في ذلك ضعيفة».

ويروى: «فإنَّه نازل فيكم، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنَّه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، ينزل بين ممصرتين، كأنَّ رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل، فليقاتلنَّ الناس على الإسلام، ويهلك الملل والمسيح الدجَّال، ويخرِّب البيع والكنائس». ويروى: «ينزل فيكم وإمامكم منكم». ويروى: «يؤمُّكم بكتاب ربِّكم وسنَّة نبيئكم».

(قصص) والمشهور أنَّه ينزل بدمشق، والناس في صلاة الصبح، فيتأخَّر الإمام وهو المهدي، فيقدِّمه عيسى ويصلِّي خلفه، ويقول: إنَّما أقيمت لك، وقيل: يتقدَّم هو ويصلِّي بالناس، والصحيح الأوَّل، وفي سائر الأوقات بعد هو الذي يؤمُّ الناس لأنَّه أفضل. ويروى أنَّه ينزل على ثنية يقال لها أقيق بوزن أمير، وهو مكان بالقدس، ويمكث في الأرض أربعين عاما، ويصلِّي عليه المؤمنون.

[قلت:] وينزل إن شاء الله تعالى على ما ألهمت وروِّعت على تمام أربعين عاما بعد ألف وثلاثمائة وخمسة وعشرين، إلاَّ أنَّ ابتداء الحساب إن شاء الله يكون من الحادي عشر من ذي الحجَّة من عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف، وعند العشرين الأولى من الأربعين يتغيَّر مضاب، والعلم لله لا لغيره.

ويدلُّ على المراد الردُّ على من أنكر البعث قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ لا تشكُّنَّ فيها، ومثل هذا لا يقال لمن آمن به وأريد جعل العلامة لهم، اللهمَّ إلاَّ على طريق الإدماج ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ من كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، أي: اتَّبعوا هداي، أو شرعي، أو رسولي، أو من كلام رسول الله ﷺ على تقدير القول، أي: وقل لهم: اتَّبعوا ديني، أو قولي، أو صراطي.

﴿هَذَا﴾ أي: ما أمرتكم باتِّباعه أو القرآن ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى الحقِّ والنجاة والفوز.

﴿وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ إبليس عن هذا الصراط، أو عن اتِّباعي **﴿إِنَّهُ, لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾** ظاهر العداوة، من "أَبانَ" اللازم، أو مظهرها حيث أخرج أباكم آدم من الجنَّة، وعرَّضكم لبليَّة التكليف والثواب والعقاب، من "أَبانَ" المتعدِّي. أو الشيطان الجنس، وكثيرا ما يظهر الشياطين عداوتهم وتشاهد في الأخبار زيادة على ما يعقل ويفهم.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المتلوَّة، وهي الإنجيل والشرائع والمعجزات **﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾** هي البَيِّنَات بمعناها المذكور، وفسَّرها بعض بالإنجيل، على أنَّ البيِّنات غيره، أو على أنَّها الإنجيل فإنَّه من حيث البيان بيِّنات، ومن حيث إنَّه صواب لائق نافع هو حكمة. وفسَّر السدِّي الحكمة بالنبوءة، وبعض بأنَّها قضايا يحكم بها العقل، وبعض بالموعظة.

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم﴾ لو أسقطت الواو لتعلَّق بـ«جِئْتُكُمْ» وكان جزاء ممَّا قبله، ولكن ذكرت على طريق الاعتناء بهذا التبيين حتَّى يكون من كلام مستقل، هكذا: وجئتكم لأبيِّن لكم، أو لأعلِّمكم إيَّاهَا ــ أي: الحكمة ــ ولأبيِّن لكم، **﴿بَعْضَ الذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾** هو أمور الديانات التي يخالفون فيها الحقَّ، أو يخالف بعضهم بعضا فيها.

والبعض الآخر لم أرسل به بل فوِّض إلى تجربتكم واصطلاحكم كالحرث، وما يصلح به أو يفسد، وتأبير النخل، كما أمرهم ﷺ بتركه فلم تصلح الثمار، فقال لهم: **«أنتم أعلم بأمر دنياكم»**[1].

١- رواه **مسلم** في كتاب الفضائل (٣٨) باب وجوب امتثال ما قاله شرعا... رقم٤١٤. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الرهون (١٥) باب تلقيح النخيل، رقم ٢٦٠١، مع اختلاف في اللفظ وزيادة. من حديث عائشة.

(فلك) وكالقمر يبدو صغيرا ثمّ ينمو، ففهم الناس أنّه يستمدّ الضوء من الشمس، فلا يزال يزداد أجزاء مقابلة لها بزيادة البعد، واستضاءة حتّى يكمل، ثمّ لا يزال يزداد قربا منها، وعدم مقابلة ونقصا حتّى ينقضي، وبعض الأهلّة يطلع كثير الضوء لكونه بالأمس في آخر منزلته، فازداد بعدا فازداد نورا، وليس ذلك لازما لاحتمال أن يكون وجه منه مضيئا دائما منكوسا، فكلّ ليلة يرتفع منه جزء مضيء، حتّى ينقلب كلّه فيظهر كلّه، فلا يزل ينكس إلى أن يتمّ النكس، ثمّ لا يزال يظهر منه بعضه مضيئا، **فإنّ الرسل لم تبعث لبيان ذلك.**

والبعض الآخر من الدين أيضا بأن لم ينزل، ولكن فوّض إلى القياس إلى نظيره والاجتهاد، وقد تنازعوا فيه على أنّ لغير هذه الأمّة اجتهادا، وقيل: الذي يبيّنه لهم هو تحليل لحم الإبل، وشحوم الحيوانات المحلّلة، وصيد السمك يوم السبت، والبعض الآخر باق عامًّا في التوراة التي لم تحرّف، وقيل: يُبَيِّنُ لهم ما حرّفوا من التوراة، وقيل: يُبَيِّنُ لهم أمر التحزّب في شأنه.

﴿فَاتَّقُواْ اللهَ﴾ احذروا عقابه فإنّه ينزل عليكم بمخالفتي **﴿وَأَطِيعُونِ﴾** في أمري ونهيي لكم **﴿إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾** يلزمكم له ما يلزمني له، على حدّ سواء من التوحيد والتعبّد بالشريعة، المرادين بالإشارة في قوله تعالى: **﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾** تنجون بسلوكه وتفوزون، وهذا آخر كلام عيسى عليه السلام، وقيل: كلام من الله تعالى صدّق به عيسى عليه السلام.

﴿فَاخْتَلَفَ...﴾ إلخ عطف على ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم﴾ **﴿الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾** الفرق المتحزّبة، بمعنى انبعثت الأحزاب وتولّدت، وليسوا قبل ذلك أحزابا في رسالة عيسى قبل كونها، وهم اليهود وغيرهم، وهم أمّة الدعوة، فمن آمن به من اليهود، وغيرهم أمّة الإجابة وهم النصارى.

ولكن النصارى اختلفوا فيما بينهم فلم يبقوا على الحقِّ كلِّهم، بل صاروا اثنتين وسبعين فرقة، وأصلها ثلاث، ملكانيَّة ونسطوريَّة ويعقوبيَّة، فيجوز أن تكون الأحزاب في الآية فرق النصارى، وكلُّهم ظالمون هالكون إلاَّ فرقة آمنت وأخلصت التوحيد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونفت عنه صفات الخلق، ثمَّ لَمَّا جاء رسول الله ﷺ كفرت به إلاَّ قليلا جدًّا.

[قلت:] وما رأيت في الإلهيِّـــين من هو أجهل بطرق الجدال من النصارى، إلاَّ بعض من قرأ علوم الإسلام منهم وتحقَّق فيها، فإنَّه يكاد يسلم.

[قلت:] وفي هذه الأعوام طلب أحد النصارى المقدَّمين فيهم بلا علم في بريش أن يجادلني، فقال له بعض من قرأ علوم الإسلام من أهل بريش وهي باريز: إنَّما نأذن لك لو كنت إذا علاك بالحجَّة تذعن له، وتعترف له، أمَّا إن كنت إذا علاك بالحجَّة انتصرت بنا في الباطل فلا، وكتبت حينئذ إلى النصارى بأن يحضروني أو أحضرهم للجدال فأبوا.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بمخالفة المحقِّين، نعت «وَيْلٌ» **﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ اَلِيمٍ﴾** خبر «وَيْلٌ»، أو الخبر «لِّلَّذِينَ»، و«مِنْ» متعلِّق به أو باستقراره، و«أَلِيمٍ» نعت «عَذَابِ»، أسند التألُّم إليه تجوُّزا لأنَّه سبب التألُّم، أو نعت «يَوْمٍ» كذلك لأنَّه زمانه. **﴿هَلْ﴾** استفهام إنكار **﴿يَنظُرُونَ﴾** ينتظر قريش وهو الواضح، والمراد أنَّها قريب كأنَّهم ينتظرونها، أو المراد يحضرها، وأخَّرهم وذلك تهكُّم على الأوَّل، وقيل: ينتظر الذين ظلموا، وقيل: الناس مطلقا، قيل: يدلُّ له قوله ﷺ من طريق أبي سعيد الخدري: «**تقوم الساعة والرجلان يحلبان النعجة، والرجلان يطويان الثوب**»[1] وفي رواية «**يحلب لقحته**» وفيه: «**والرجل يلوط**

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٥، ص٢٤٨.

حوضه»، وفيه: «**يرفع لقمته إلى فيه**»، ثمَّ قرأ السَّلام: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ...﴾الآية، ولا حجَّة فيه على عموم الواو للناس، لأنَّه يصحُّ أن يقرأ الآية في آخر الحديث ولو كانت الواو للناس أو للذين ظلموا.

﴿**إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَاتِيَهُم**﴾ بدل اشتمال من الساعة ﴿**بَغْتَةً**﴾ فجأة ظرف، أي: وقت بغتة أو مفعول مطلق، أي: إتيان بغتة، والبغتة لا تستلزم عدم الشعور، وهو مراد في الآية فَذَكره بقوله: ﴿**وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾ هم ينفون الساعة أن تأتيهم البتَّة، بشعور وبلا شعور، فلا يَصِحُّ ما قيل: إنَّ المراد: هل يزعمون أنَّها تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون، كلاَّ بل تأتيهم وهم يشعرون.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

ألوان نعيم المتَّقين أهل الجنَّة

﴿**الاَخِلاَّءُ**﴾ المتخالُّون في الدنيا لغير الله على المعاصي ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ يوم إذ أتتهم الساعة، وهي يوم البعث، متعلِّق بـ«عَدُوّ» ولو فصل لظهور المعنى، ويجوز تعليقه بـ«الاَخلاَّء»، أي: المتخالُّون على المعاصي يوم إذ كانوا في الدنيا، فيقدَّر لـ«عَدُوّ» معمول، أي: عدوٌّ اليوم، أي: يوم البعث، كأُبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط، وقيل: نزلت فيهما.

﴿**بَعْضُهُمْ**﴾ مبتدأ ثان ﴿**لِبَعْضٍ**﴾ حال من قوله: ﴿**عَدُوٌّ**﴾ على جواز الحال من الخبر، ولو كان المبتدأ غير إشارة.

(نحو) والعدوُّ يطلق على الواحد فصاعدًا، وفيه اعتبار الجمود فجاء الحال منه، واعتبار الوَصْفيَّة فتعلّق به «يَوْمَئِذ» كأنَّه قيل: الأخلاء في الدنيا بعضهم معادٍ لبعض يوم يبعثون تنقطع محبَّتهم، وتستحيلُ عدواةً لما رأوْا من سوء عاقبتها، ومعنى العداوة المضرَّة على المجاز الارسالي لعلاقة اللُّزوم.

﴿الاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الحاذرين الشرك والمعاصي المتخالِّين في الله سبحانه، فإنَّها لا تنقطع لأنَّهم رأوْا عاقبتها محمودة، والاستثناء منقطع إذا حملنا «الاَخلاَّء» على خصوص من تخالّوْا على المعاصي، وإن حملناه على عموم المتخالِّين **كان متَّصلاً وهو المشهور** ويجوز كون المعنى: إلاَّ المتَّقين الحاذرين التخالَّ في الدنيا على المعاصي.

﴿يَاعبَادي﴾ معنى النداء زيادة السرور وإكمال له، وإغاظة العدوِّ ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلآَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ يقال لهم: ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ...﴾ والقائل ملك عن الله تعالى، أو الله بخلق صوت في الهواء وحيث شاء، وهو أشدُّ إكرامًا، والمراد بالعباد المتَّقون، والمعنى: أقول يا عبادي.

(نحو) ومن أجاز حذف الموصول مطلقًا ولو لم يذكر مثله أجاز أن يقدَّر: إلاَّ المتَّقين الذين يقال لهم: يا عبادي...إلخ.

وإذا نودي بذلك طمع أهل المحشر مؤمنهم وكافرهم، وإذا سمعوا قوله تعالى: ﴿الذِينَ ءَامَنُواْ بِئَايَاتِنَا وَكَانُواْ مُسْلمِينَ﴾ منقادين بالعمل الصالح وترك المعاصي، أيسَ الكفّار، وعلم في الآية أنَّ المراد بالعباد المؤمنون، لقوله: ﴿إلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقوله: ﴿الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ والأوَّل أولى بالدلالة لتقدُّمه وعدم الفصل، ولإضافة العباد إلى نفسه المشعرة بأنَّهم تخالّوْا في الله عز وجل، ولأنَّ التقوى أقوى مفهومًا من الإيمان والإسلام.

و«الذِينَ» نعت لــ«عِبَاد»، «وَكَانُوا...» عطف على «ءَامَنُوا» لا حال، لأنَّ الإيمان غير مقارن للعمل من أوَّل، بل متعقِّب له، فيحتاج إلى جعلها مقدَّرة، أي: آمنوا ناوين كونهم مسلمين ولا شكَّ أنَّ الإسلام بمعنى العمل غير متقدِّم لهم على الإيمان.

﴿**ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ**﴾ أي: المؤمنات ﴿**تُحْبَرُونَ**﴾ حال من واو «ادْخُلُوا»، أي: مسرورين سرورًا يظهر حباره، أي: أثره على وجوهكم، كالتبشير للإفراح الذي يظهر أثره على البشرة، أي: الجلدة، وذلك كقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (سورة المطففين: ٢٢) ، أو تُزيَّنون، من الحبر بكسر الحاء وفتحها، وهو الزينة وحسن الهيئة، وأصل المادَّة مطلق الإكرام، وهو هنا خاصٌّ كما رأيت.

﴿**يُطَافُ**﴾ الغيبة على طريق الالتفات ﴿**عَلَيْهِم**﴾ في الجنَّة بعد دخولها ﴿**بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ**﴾ مملوءة طعامًا بقصاع من ذهب، وقيل: الصحفة أعظم من القَصعة، يقال: على الترقِّي الكيلة ثمَّ القصعة ثمَّ الصحفة ثمَّ الجفنة.

﴿**وَأَكْوَابٍ**﴾ منه أو من ذهب، مملوءة شرابًا بدليل الأوَّل جمع كوب بمعنى كوز لا عروة له، قيل: هو دون الإبريق، ويقال: هو مدوَّر الرأس، وجمع جمع القلَّة، وإناء الطعام جمع الكثرة، لأنَّ أواني الشرب أقلُّ من أواني الأكل.

فعن أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ أسفل أهل الجنَّة أجمعين درجة لمن يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم، بيد كلِّ واحد صحفتان، واحدة من ذهب والأخرى من فضَّة، في كلِّ واحدة لون ليس في الأخرى مثله، يأكل من آخرها مثل ما يأكل من أوَّلها، يجد لآخرها من الطيب ما يجد**

لأوَّلها، ثمَّ يكون ذلك كريح المسك الأذْفَر لا يبولون، ولا يتمخَّطون، إخوانًا على سرر متقابلين»[1] رواه ابن المبارك والطبراني.

وعن عكرمة: «إنَّ آخر أهل الجَنَّة دخولاً وهو أدناهم منزلة يفسح له في بصره مسيرة عام، في قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ، ليس فيها موضع شبر غير معمور، يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحفة، في كلِّ صفحة لون ليس في الأخرى، شهوته في آخرها كشهوته في أوَّلها، لو نزل عليه أهل الدنيا لوسعهم، و لم ينقص ذلك» أسألك اللهمَّ ذلك لنا.

﴿**وَفِيهَا**﴾ في الجَنَّة ﴿**مَا تَشْتَهِيهِ الاَنفُسُ**﴾ من فنون الملاذِّ زيادة على ذلك الذي يطاف عليهم به، وهذا تعميم بعد تخصيص، كما أنَّ قوله تعالى: ﴿**وَتَلَذُّ الاَعْيُنُ**﴾ تخصيص بعد تعميم، فإنَّ ما تلذُّه الأعين بعض ما يدخل فيما تشتهيه الأنفس، بل لا لذَّة للعين بلا واسطة النفس، فلو فتحت عين النائم أو السكران لم تدرك شيئًا، فضلاً عن أن تلذَّه والعين جاسوس للنفس، وهي التي أرسلته، ولو غابت عنها لم تعقل شيئًا ولو كان يقظانًا صاحيا.

قلت: ولا تشتهي النفس فيها ما هو خبيث كنكاح ذوات المحارم واللواط، ولا يخطر في النفس ذلك، ولا ما هو مستحيل كرؤية الباري، ولا يخطر بالبال فضلاً عن أن يشتهى، أو يوسوس به، ولا وسواس في الجنَّة.

وقد قيل: لا أدبار لأهل الجَنَّة لأنَّهم لا يتغوَّطون، ولا ريح في البطن لطعام يخرج منه، [قلت:] ولا أقول بذلك وهو نقص مما هو عليه، والفرض أنَّهم يبعثون فهم باقون على ما هم عليه في الدنيا، إلاَّ أنَّه لا روث ولا بول ولا

١-رواه **الهيثمي** في المجمع: ج١٠، ص٤٠١. **والطبراني** في الأوسط، ج٨، ص٣٣٠، رقم٧٦٧٠. من حديث أنس.

ريح في البطن، وتقدَّم أنَّهم يمطرون كواعب أترابًا يشتهونها، ولهم ما يشتهون من أكل أو شرب، أو لباسٍ، أو مركب كفرس، أو أنعام كإبل.

كما قال رجل: يا رسول الله أحبُّ الخيل، قال: «**لك الخيل من الياقوت الأحمر، تطير بك حيث شئت**» وقال آخر: يارسول الله أحب الإبل قال: «**لك الإبل وما تشاء إن دخلتها**» وفي رواية الترمذي أنَّه ﷺ أجاب صاحب الإبل بقوله: «**إن أدخلك الله الجَنـــَّة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك، ولذَّت عينك**» وأنَّه لم يجبه بما أجاب به صاحب الخيل.

والولد لمن اشتهاه قال ﷺ : «**إنَّ المؤمن إذا اشتهى الولد في الجَنـــَّة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي**» رواه أحمد وابن ماجه والترمذي والبيهقي. وروى الطبراني وابن حبَّان عنه ﷺ : «**تلذُّونهنَّ ويلذذنكم كلذَّاتكم في الدنيا غير أن لا توَالُد**»، أي: لا توالد كتوالد الدنيا بطول وأطوار، وتألُّم ودم، ووسخ ومشيمة، فيكون الولد من نسيم يخرج من الزوج.

وجاء الخبر: «**إنَّه لا منيَّ في الجنـــَّة**» ولعلَّ المراد لا منيَّ مُنْتِنٍ كمنيِّ الدنيا، فقد يكون منه الولد بلا سوء، وليس أهل الجنـــَّة كلُّهم يخطر في قلوبهم الولادة ويشتهونها فضلاً عن أن يقال تضيق بهم الجَنـــَّة، بل لو كانوا كلُّهم يلدون لم تضق.

ولعلَّ قائل ذلك راعى أنَّه لا موت فيها ولا انقطاع لها، فإذا كانت الأولاد تزيد ولا تموت مع دوام فلا شكَّ أنَّها تمتلئ، لكن الله قادر على أن لا تزال تتوسَّع.

(نحو) و«ال» في «الاَنفُسُ» و«الاَعْيُنُ» للعهد، وهي أنفس أهل الجَنـــَّة وأعينهم، أو للجنس، أو للاستغراق، ووجهه أنَّ كلَّ واحد منهم له ما يشتهي وتلذُّه عيناه، لا أنَّهم كلُّهم يجتمعون على حبِّ شيء، أو نائبة عن

المضاف إليه، أي: أنفسهم وأعينهم، و«ما» شاملة لما يلذُّ الأعين، ويحتاج «تَلَذُّ» لرابط لأنَّه عطف على الصلة، أي: وتلذُّه الأعين، واختار جماعة تقدير موصول هكذا: وما تلذُّه الأعين.

﴿**وَأَنتُمْ فِيهَا**﴾ في الجنَّة، وقيل: في الملاذِّ المذكورة ﴿**خَالِدُونَ**﴾ دائمون، عطف على ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الاَنفُسُ﴾ وفيه رجوع إلى الخطاب والجمل بينهما معترضة، وقيل: هذا الخطاب التفات للتشريف، وفي ذكر الخلود تأكيد في المعنى لقوله: ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُم﴾ لأنَّ زوال النعمة ضرر مخوف، وموجب لكلفة التحفُّظ قال:

وإذا نظرت فإن بُؤْسًا زائلاً   للمرء خير من نعيم زائل

﴿**وَتِلْكَ الْجَنَّةُ**﴾ مبتدأ وخبر، أي: هي الجنَّة المعهودة لكم، وما بعد ذلك خبر ثان، أو نعت للجنَّة، أو مبتدأ وتابع وما بعده خبر، وهو قوله تعالى: ﴿**التِي أُورِثْتُمُوهَا**﴾ أعْقَبَتْهَا لكم أعمالُكم، كما يُعقب الميِّت مَالَه لورثته، على الاستعارة المفردة، أو التمثيليَّة أو التخييليَّة، أو استعمل المُقيَّد وهو الإيراثُ في المطلق، وهو الإنالة، تجوُّزًا إرساليًّا أصْليًّا واشتقَّ منه «أورث» تبعيًّا.

[قلت:] ومرَّ غير مَرَّة أنَّ السعداء يرثون منازل الأشقياء وأزواجهم في الجنَّة، وهم يرثون منازل السعداء في النار.

ويجوز أن يكون «التِي» نعت «الْجَنَّةُ»، والخبر هو قوله: ﴿**بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ وما مرَّ أولى، فتعلّق الباء بـ«أُورِثْتُمُوهَا» وهي للسببيَّة، أو المقابلة، وكلاهما معتبر بفضل الله تعالى، قال ﷺ : «**لن يدخل الجنَّة أحدُكم بعمله، بل بفضل الله تعالى ورحمته**»[1] قال ابن مسعود: «تدخلونها برحمة الله وتقسمون منازلها بأعمالكم».

١- تَقدَّمَ تخريجه، انظر: ج٥، ص٦٢.

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ طريَّة عظيمة، والتنكير للتعظيم ﴿كَثِيرَةٌ﴾ نوعًا وأفرادًا ﴿مِّنْهَا تَاكُلُونَ﴾ «مِنْ» للابتداء، أو للتبعيض، بمعنى: إنَّكم لا تستفرغون ثمار شجرة كلِّها، إذا أخذتم ثمرة نبتت أخرى مكانها، ولا شجرة في الجنَّة مجرَّدة عن الثمار.

(بلاغة) وقدَّم «مِنْ» للفاصلة، قيل: وللحصر الإضافي، أي: لا من ثمار قديمة مخزونة. [قلت:] وكثر ذكر الأكل في القرآن لأنَّه ممَّا يعمُّ الناس كلَّهم مقترهم ومترفهم، وكلُّهم يـــبتهجون به، ويخطر ببالهم أكثر مِمَّا يخطر اللباس، ولتعدُّد الأكل وأوقاته أكثر، ولكثرة الفقراء والعامَّة.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

عذاب أهل النار وأسبابه

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكُفَّار ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ مع الجوع والعطش، أو هما من جملة العذاب. وروي أنَّه يلقي عليهم الجوع حتَّى يعادل ما هم فيه من العذاب. و«فِي عَذَابِ» متعلِّق بـــ«خَالِدُونَ» وقدِّم للحصر والفاصلة، ولو جعل خبرا أوَّلا و«خَالِدُونَ» خبرًا ثانيًا لاحتيج إلى تقدير خالدون، فيستغنى عن ذلك بتعليقه بـــ«خَالِدُونَ».

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ مستأنف، أو حال من العذاب، ويضعف جعله خبرًا ثانيًا، لأنَّ الخبر حينئذ جرى على غير ما هو له. ولم يبرز الضمير، إذ لم يقل: لا

يفتر هو، والمعنى: لا يخفَّف عنهم، و[تستعمل] هذه الْمَادَّة للضعف، يقال: فتر عن الكلام: قلّ كلامه، وفَتَر بَدَنُه: خالطه النوم.

﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ الإبلاس الحزن من شدَّة البأس، وتفسيره بالسكوت وانقطاع الحجة تفسيرٌ باللازم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بذلك العذاب ﴿وَلَكِن كَانُواْ هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم باختيار ما يوجبه، من الاعتقاد والقول والفعل.

﴿وَنَادَوْاْ﴾ لما فيهم من شدَّة العذاب، ومنه الجوع والعطش حتَّى قيل: إنَّهم نادوا لأجلهما ﴿يَا مَالِكُ﴾ ملك من الملائكة جعله الله خازن النار رئيس خزنتها ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ليُمِتْنا، طلب لإماتة الله إيَّاهم.

والمراد: سل ربَّك أن يميتنا فنستريح، لأنَّك وليُّ الله يجيب دعاءك ﴿قَالَ﴾ مالك، وهو الصحيح، وقيل: الضمير لله تعالى ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ في النار دائمًا لا خروج ولا موت، يجيبهم بذلك بعد مقدار عمر الدنيا، أو خمسمائة عام، أو ألف عام، أو ثمانين، أو أربعين، أو مائة، روايات.

والعبارة بالمكث تهكُّم بهم، لأنَّه لفظ يفهم الانقطاع[1]، وعلموا أنَّه تهكّم بهم، وأنَّهم خالدون دائمًا، أو لأنَّه يشعر بالاختيار ولا اختيار لهم في المقام، بل هم مضطرُّون يعبَّر به بدل: أنَّكم محبوسون.

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم﴾ في الدنيا بمجيء الكتب والرسل وذلك هو الحقُّ في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ لاَ خَفَاءَ فيه إن كان ضمير «قَالَ» عائدًا إلى الله ﷻ، وإن عاد إلى «مالك» كما ينسب الرسول لنفسه مَا لمن أرسله، والخادمُ ما لمخدُومه يقول:

١- كذا في النسخ لَعَلَّ الصواب: «لا يفهم الانقطاع».

أعلمناكم وفعلنا بكم، والمعلم والفاعل مرسلُه ومخدومُه، وبهذا الاعتبار لا ينافي ضمير الجمع، وكأنَّه قال: قال مُرسلي أو قال مخدومي، وهنا كأنَّه قال: قال الله لقد جئناكم، وليس من تقدير القول.

وقيل: هذا كلام من الله مستأنف بعد تمام كلام أهل النار وخازنها، خاطب به قريشًا، فيكون المعنى: لقد جئناكم في القرآن أو السورة بالحقِّ ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ هذا من كلام الله ﷻ .

وإن قلنا ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم﴾ من كلام مالك فأخَّره «كَارِهُونَ» فيشكل الأمر، لأنَّ مَن في النار كلَّهم كارهون للحقِّ، فيجاب بأنَّ رؤساءهم وأكثر الأتباع كارهون من ذات أنفسهم، وقليل منهم لا كراهة له، ولكن يتبعونهم في الكفر فشملتهم النار، والمراد: كارهون الحقَّ، أيَّ حقٍّ كان، أو التوحيد وتوابعه من الفرائض.

﴿**أَمَ اَبْرَمُواْ أَمْرًا**﴾ إضراب انتقال وتوبيخ وإنكار، والإبرام إتقان الأمر حقيقة، فالمراد إنكار وقوعه، لأنَّه لم يكن فهم في ضلال وخيبة، أو إتقانه صورةً، فالمراد إنكار أن يكون صوابًا بل هو قبيح. وعلى كلِّ حال الأمر الذي يحاولون إبرامه في المكر برسول الله ﷺ لم ينالوه، ولن ينالوه، ولا يفيدهم شيئًا من بطلان دينه، واجتماعهم في دار الندوة على قتله.

(بلاغة) والغيبة في «اَبْرَمُوا» بعد الخطاب في «أَكْثَرَكُمْ» إن كان الخطاب من الله ﷻ لا من مالك إشارة بأنَّ مكرهم أسوء من كراهتهم.

﴿**فَإِنَّا مُبْرِمُونَ**﴾ أمرنا حقيقة، عطف على «اَبْرَمُوا» كقولك: أعَصَيْتَ فأنَا أُؤَدِّبُكَ، أو في جواب شرط مجاراة لهم، أي: إن ابرموا فإنَّا مبرمون، أو إن داموا على الإبرام فإنَّا مبرمون، أي: منتقمون منهم لإبرامهم بالنار خالدين فيها ونَصْره ﷺ ، وسمَّى الانتقام إبرامًا للمشاكلة، كقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالذِينَ كَفَرُواْ هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ (سورة الطور: ٤٢) .

﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ﴾ نعلم ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَاٰهُم﴾ بل أيحسبون أنَّا لا نعلم ما أبرموه سرًّا من قتله ﷺ في أنفسهم، بلا نطق به لأحد، ولاَ مَا تناجوا به فيما بينهم بالنطق على الإخفاء.

ودخل في السرِّ ما تكلَّموا به جهرًا في مكان خالٍ بقصد لا على التناجي، وأمَّا إنكارهم الحقَّ فهم يجهرون به في الخلوة وغيرها.

﴿بَلَىٰ﴾ ليس لا نسمعهما، بل نسمعهما ﴿وَرُسُلُنَا﴾ ملائكتنا المرسلون للكتابة البتَّة، والعطف على الحرف وهو «بَلَىٰ» لأنَّه في معنى الجملة كما فسَّرها، ولا تتوهَّم أنَّ بعدها جملة مقدَّرة، بل هي معنى تلك الجملة، وإنْ ذُكرت بعدها فتأكيد، أو الواو للحال ﴿لَدَيْهِمْ﴾ ثابتون عندهم، لا يفارقونهم فهو الخبر ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ما فعلوا أو نطقوا به، حال من ضمير الاستقرار، أو هو الخبر و«لَدَيْهِمْ» متعلّق به، أو حال من الواو و«يَكْتُبُونَ» خبر ثانٍ.

[قلت:] ولا تكتب الملائكة ما في قلوبهم، لأنَّهم لا يعرفون به، وقيل: يطلعهم الله على ما في قلوبهم فيكتبونه، والصحيح الأوَّل.

﴿قُلِ اِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَٰبِدِينَ ۝٨١ سُبْحَٰنَ رَبِّ السَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٨٢ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ الذِے يُوعَدُونَ ۝٨٣ وَهُوَ الذِے فِي السَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي الَارْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۝٨٤ وَتَبَٰرَكَ الذِے لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٥ وَلَا يَمْلِكُ الذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٨٦ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُوفَكُونَ ۝٨٧ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُومِنُونَ ۝٨٨ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾

تنزيه الله سبحانه عن الولد والشريك وبيان مدى قدرته وعلمه

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد لقومك، تحقيقًا للحقِّ، وجزمًا باستحالة بنوَّة الملائكة لله تعالى ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ لذلك الولد أو لكم، أسبقكم إلى عبادته، مسارعةً إلى رضى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(صرف) «أَوَّلُ» اسم تفضيل من آلَ يؤُول، باقٍ على التفضيل، أي: أسبق منكم، أو خارج عن التفضيل، أي: مسارع إلى عبادته.

وذلك أنَّه ﷺ أعلم الناس بحقوق الله تعالى، وأحرصهم على مراعاتها، فما أنكرت الولادة والبنوَّة إلاَّ لعلمي يقينًا كالشمس بانتفائهما، فهذا نفي لهما بأبلغ طريق، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ الاَّ اللَّهُ...﴾ (سورة الأنبياء: ٢٢).

[قلت:] وأوَّل فهمٍ بدَا في زمان الصبا أنَّه إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أوَّل من يعرض عن زعمكم فأخلص العبادة لله، ولا أفسدها باعتقاد ما تزعمون، ثمَّ رأيته قريبًا من زمان الصبا لمجاهد وهو من كبار المفسِّرين، والله الموفِّق، وما شاء الله كان، ولا قدرة لأحد على شيء إلاَّ بالله.

والملازمة ظاهرة، لأنَّه أعرف بالله من غيره، ولأنَّه صاحب الدعوة إلى الحقِّ، وحاصل أوَّل العابدين أوَّل من يبطل قولكم، وذلك كقوله: إن تهن زيدًا فأنا أوَّل من يكرمه، أي: لا أطاوعك على إهانته، ويرادفه في المأصدق ما قيل من أنَّ «الْعَابدينَ» بمعنى الآنفين، كما روي عن ابن عبَّاس: أنا أوَّل من ينفر عن أن يكون لله ولد، كما قرئ بإسقاط الألف، كما هو وصف من باب فرح، يقال: أَنِفَ بكسر النون يَأْنفُ بفتحها فهو أَنِفٌ بكسرها، وكما قيل: الشديد الغضب، أي: أوَّل من يغضب لقولكم غضبًا شديدًا.

.[قلت:] وأنا أكره تفسير القرآن بمعاني الألفاظ الغريبة، ثمّ إنّ وصف باب فرح " فَعِلَ " بكسر العين بدون ألف قبلها، والآية بالألف في قراءة الجمهور، فنحتاج إلى أن نقول: الألف لقصد الحدوث، فيؤول الأمر إلى أنّ المعنى: إنِّي أغضب، فيوجه بأنّ المراد: إنّ غضبي لا يتأخَّر بل حضر الآن، وإن تقدَّم بأن سمعت هذا أيضا منكم قبل فقد استحضرته، أو بأنّه للنسب، أي: ذو عَبَد، أي: غضب. وعن ابن عبَّاس: «إنْ» نافية، أي: ما كان للرحمن ولد فأنا أوَّل العابدين، أي: الشاهدين له بذلك.

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أعاد لفظ ربِّ مع العرش لتعظيمه، والمعنى: كيف يتصرَّف بالولادة من خلق هذه الأجرام العظام وما سواها؟ مع أنّ الولادة تجزُّؤٌ، والتجزُّؤ ينافي القدم وبقاء الدَّوام، وهو قديم فلا يفنى.

قال أحمد بن قاسم الأندلسي الحجري[1]: جاءني نصرانيٌّ بورقة كتبها، وقال: جاءني إلهام من الله أنَّه أراد أن يجعل في الأرض إلهًا هو خليفتُه فيها وهو عيسى، وكتب ذلك في ورقة مبتهجًا به، فقلت له: فينبغي إذًا لعيسى أن يجعل إلهًا يكون خليفته بعد موته، وكذا بعد، فافتضح النصرانيُّ وبقي بورقته في يده متحيِّرًا.

و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي: عن وصفهم الله تعالى بصفة الخلق، وأجيز أن يقدَّر رابط، وتجعل «مَا» موصولة، أي: عمَّا يصفونه به، ولو لم يوجد فيه الشرط.

١-أحمد بن قاسم الأندلسي الحجري ابن الفقيه شهاب الدين، باحث مترجم عن الإسبانية، أصله من إشبيلية، وانتقل إلى قرية الحجر من قرى غرناطة، وأقام في مراكش مترجما للسلطان زيدان السعدى، له كتاب في مناظرات مع بعض علماء اليهود والنصارى، تُوُفِّيَ سنة ١٠٤٨هـ. الزركلي: ج١، ص١٩٨.

﴿**فَذَرْهُمْ**﴾ اتركهم وما هم عليه إذْ لَم يذعنوا لما تقول ﴿**يَخُوضُواْ**﴾ في جهلهم كالخائض في الماء على غير بصيرة ﴿**وَيَلْعَبُواْ**﴾ يفعلوا ما لا يعني ولا فائدة فيه ﴿**حَتَّىٰ يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذِي يُوعَدُونَ**﴾ من الوعد في السوء، والوعيد كذلك، وهماثلاثيان، أو من الإيعاد المختصّ بالسوء.

والرابط محذوف، أي: يومهم الذي يوعدونه، وهو يوم القيامة عند الجمهور، لأنَّه المعروف في الشرع بهذا الاسم، وعن عكرمة: يوم بدر. وقيل: يوم الموت، وهو أنسب بانقطاع خوضهم فيه، وفيه أنَّ قيام الساعة ويوم الموت سواء، وقد روي: «**إنَّه من مات فقد قامت قيامته**» ثمَّ يوم القيامة يوم يقوم الناس من قبورهم، أو يوم يموت الخلق كلُّهم فيعدُّ هو ويوم موت الشخص وقتًا واحدًا، أو المقصود منه يوم البعث، وهو الذي فيه ملاقاة الحساب.

﴿**وَهُوَ الذِي فِي السَّمَآءِ اِلَهٌ وَفِي الاَرْضِ إِلَهٌ**﴾ «فِي السَّمَآءِ» متعلّق بـ«إِلَهٌ» وكذا «فِي الاَرْضِ»، لأنَّه بمعنى معبود، وحذف صدر صلة «غير»[1]، أي: لطولها، أي: وهو الذي هو معبود في السماء ومعبود في الأرض.

(صرف) وذلك بالاشتقاق، لأنَّه يقال: أله يوله، أي: عبدَ يعبدُ، فهو مألوه. وقيل: هو جامد جمود العَلَم، فيعلّق به كما يعلّق في العَلَم، كحاتم باعتبار ملاحظة معنى التعلّق، نحو: زيد حاتم في العسر واليسر، أي: يجود فيهما، كما قرئ: «وَهُوَ الذِي فِي السَّمَآءِ الله وَفِي الاَرْضِ الله»، و«الله» عَلَم بـ«ال»، أي: مستحقٌّ فيهما أن يعبد، أو المعبود فيهما، أو المتحيَّر إليه، لا بمعنى الاشتقاق بل بمعنى الصفة المشهور بها.

١- كذا في الأصل. تأمل.

أو «فِي السَّمَآءِ» صفة «الذي»، و«اله» خبر لمحذوف، والجملة بيان للصلة، أي: الذي ثبت فِي السَّمَاءِ هو إلهٌ، والذي ثبت فِي الأَرْضِ هو إلهٌ، فحذف الموصول وبقيت صلته، وهي: «فِي الاَرْضِ».

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ فقد استحقَّ الأُلُوهيَّة، ومن لا يتَّصف بالحكمة التَّامَّة والعلم التامِّ لا يستحقُّها. ﴿وَتَبَارَكَ الذِي لَهُ, مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كالجوِّ.

(هيئة) فإنَّ الصحيح أنَّه جسم لطيف، ألا ترى أنَّك تعتمد عليه بيدك في الإسراع؟ وألا ترى أنَّ الواقع من عال له صوت من مصادمته؟ وألا ترى رصاصة البارود كيف تصوت في الجوِّ بمصادمته؟. وكالسحاب وكبحر فيه.

﴿وَعِندَهُ,﴾ لا عند غيره ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ساعة موت الناس والحيوانات كلِّها دفعة، وقيل: متتابعين أهل أرض فأهل أرض في وقت واحد، يصل صوت النفخ على الترتيب. عَلِمَ عَيْنَها من بين سائر الأزمنة، كما تقول: عرفت زيدًا وميزته من سائر الناس، وهي يوم القيامة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء والخطاب للتهديد.

﴿وَلاَ يَمْلِكُ الذِينَ يَدْعُونَ﴾ لا تملك الآلهة الذين يعبدهم المشركون، ويرجون الشفاعة منها ﴿مِن دُونِهِ﴾ من دون الله سبحانه وتعالى ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ لهم ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ التوحيد، فإنَّه يشفع، لكن لا لهم بل لسائر المؤمنين، وهم الملائكة وعيسى وعزير، فإنَّهم يشهدون لسائر المؤمنين.

(نحو) والاستثناء منقطع، لأنَّ من شهد بالحقِّ ولو دخلوا بحسب الظاهر في الذين يدعون، إلاَّ أنَّ اللفظ لا يشملهم، مع أنَّ المراد: لا يملكون الشفاعة لهم، فإنَّ من شهد بالحقِّ لا يشفع لهم، كقولك: أكرمُ الناس زيدُ

لله إلاَّ عمرًا للقرابة، فالاستثناء يمنع من اتِّصاله بما قبله تارة كالآية، وما بعده أخرى كالمثال، ولم يعتبر بعضهم ذلك مانعًا من الاتِّصال، واكتفى فيه بعموم المستثنى منه للمستثنى، واعتبره بعض منقطعًا بقصد غير من شهد، وهذا يطَّرد في كلِّ استثناء مُتـصِل، فلا يجد صورة تتمحَّض للاتِّصال، والاستثناء في ذلك كلِّه من «الذينَ».

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الحقَّ، والشهادة بلا علْم كلاَ شَهَادَةَ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: العابدين لا المعبودين، لقوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُوفَكُونَ﴾ إذ لا يقال للملائكة وعزير: ﴿فَأَنَّىٰ يُوفكُونَ﴾ ولئن جعلت «هَاءَ» «سَأَلْتَهُم» للمعبودين وواو ﴿يُوفكُونَ﴾ للعابدين لزم تفكيك الضمائر، ثمَّ إنَّه كيف يقال لنحو الملائكة من خلقهم؟ وإنَّما يقال مثل هذا للمشركين، كما هو ظاهر، وكما في سائر القرآن، اللَّهمَّ إلاَّ أن يقال لهم فيسمع عابدوهم إقرارَهُم فيُؤمنوا.

﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ أي: خلقنا الله، أو الله خلقنا، أو خلقهم الله، أو الله خلقهم، يذكر الله عنهم بالغيبة ﴿فَأَنَّىٰ يُوفكُونَ﴾؟ يصرفون عن عبادة الله الذي خلقهم إلى عبادة من لم يخلقهم.

﴿وَقِيلَهُ, يَارَبِّ﴾ أي: وقَوْله: ياربِّ، والنصب على التحذير، أي: احذروا قوله: ﴿يَا رَبِّ...﴾ لعلَّه تنزل عليكم نقمة به، فإنَّه شكوى، أو بالعطف على محلِّ الساعة فإنَّه مفعول به للمصدر الذي أضيف إليه، أو بالعطف على المفعول به المقدَّر لــ«يَكْتُبُونَ»، أي: يكتبون أقوالهم وقِيلَهُ، أو على «سِرَّهُمْ» أو على «نَجْوَاهُمْ» وهو وجه قويُّ المعنى، إلاَّ أنَّ فيه فصلاً كثيرًا، أي: أم يحسبون أنَّا لا نسمع سرَّهم ونجواهم وأنَّا لا نعلم قيله يا ربِّ ؟ .

﴿إِنَّ هَؤُلَآءِ قَوْمٌ لاَّ يُومِنُونَ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ ولِّهم صفحة عنقك، أي: أعرض عنهم بقلبك ولو قابلتهم بوجهك، ولا ترج إيمانهم

﴿وَقُلْ سَلاَمٌ﴾ أمري مسالمةٌ لكم، أي: متاركة لكم. ولو قدَّرنا: «سلام عليكم» كان المعنى ذلك أيضًا لا حقيقة التسليم عليهم. [قلت:] فلا دليل في الآية لعلي بن عبد الله البارقي[1] وعمر بن عبد العزيز على جواز ابتداءِ أهل الذمَّة بالسلام عليهم، وجاء عنه ﷺ النهي عن ابتدائهم بالسلام[2] ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يحلُّ بكم، وفي هذا وعيد لهم وتسلية لرسول الله ﷺ .

والله الموفق المستعان.
وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

١-أبو عبد الله علي بن أبي الوليد عبد الله البارقي الأزدي، تابعي راو للحديث صدوق وربما أخطأ، من الطبقة الثالثة، له روايات في كتب السنن الأربعة، وكانت وفاته بعد المائة. ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج٢، ص٤٦.

٢-عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطرُّوه إلى أضيقه». رواه **مسلم** في كتاب السلام (٤) باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يردُّ عليهم، رقم ١٣(٢١٦٧). **والترمذي** في كتاب السير (٤١) باب ما جاء في التسليم على أهل الكتاب، رقم١٦٠٢. من حديث أبي هريرة.

تفسير سورة الدخان وآياتها ٥٩

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حمٓ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑤ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑥ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⑦ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ⑧ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ⑨﴾

إنزال القرآن في ليلة القدر المباركة وصفات منزِّله تعالى

ومن العجيب تسمية هذه السورة «الدخان» فيقولون: «الدخان»، وذلك لا يحسن، ولو أريد تقدير مضاف، أي سورة الدخان، والصواب أن يقال: «سورة الدخان»، ويشبه من يسميها «الدخان» قول كاهن لرسول الله ﷺ لما قرأ غليه القرآن: «إنَّه الدُّخ» أي الدخان.

﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ مرَّ مثلُه، وحمٍّ اسم للسورة، أو للقرآن، أي هذه سورة، أو هو قسم، والكتاب مقسم به، أيضًا عطف على «حمٍّ» على تقدير حرف القسم، أو هو قسم مستأنف، ومدار العطف المغايرة في العنوان، ولو اتَّحد المأصدق، فإنَّ مفهوم السورة أو القرآن ومفهوم الكتاب متغايران، والمأصدق واحد، ويلزم على أنَّ «حمٍّ» قسم حذف حرف الجرِّ، وسهَّله عدمُ ظهور الجرِّ، كما ظهر في قوله:

إذا قيل أيُّ الناس شرُّ قبيلة   أشارت كليب بالأكفِّ الأصابع[1]

١- البيت للفرزدق في ديوانه، وهو من الشواهد.

بجر كليب، أي أشارت الأصابع إلى كليب. وتكرير القسم لتأكيد الإنزال. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: الواضح أو الموضِّح، وهو القرآن.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ﴾ أي أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه وأقسمنا به، وهو القرآن، والقسم بالشيء على نفسه جائز، كقولك: والله إنّ الله هو الحقُّ ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ أكثر الله فيها الخير وأثبته، وهي ليلة القدر عند الجمهور، وهو الصحيح، وليلة القدر في رمضان.

(فضل ليلة النصف من شعبان) وقيل: الليلة المباركة ليلة النصف من شعبان، وتسمَّى الليلة المباركة، وليلة الرحمة، وعن ابن عبَّاس: «إنّ الله تعالى يقضي الأقضية ليلة النصف من شعبان، ويسلِّمها إلى أربابها ليلة القدر». وتسمَّى أيضًا ليلة الصكِّ، وليلة البراءة، لأنّ قابض الخراج إذا استوفاه كتب لهم براءات كبراءات الديون المقضيَّة، وبراءة الجاني إذا تخلَّص، وقولهم: براوات خطأ. قيل: سأل ﷺ ليلة الثالث عشر من شعبان فأعطي ثلث أمَّته، وليلة الرابع عشر فأعطي ثلثيها، وليلة الخامس عشر فأعطي الجميع، إلاّ من شرد على الله شراد البعير.

قال عليُّ بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ : «**إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقُومُوها، وصُومُوا نهارها، فإنّ الله تعالى يترل فيه لغروب الشمس إلى السماء الدنيا، فيقول: ألا مستغفر فأغفر له؟ ألا مسترزق فأرزقه، ألا مبتلى فأعافيه؟ ألا كذ ألا كذا، حتَّى يطلع الفجر**»[1].

[قلت:] ومعنى نزول الله سبحانه وتعالى نزول ملك يقول عن الله تعالى، روى ذلك الحديث ابن ماجه والبيهقي.

١-رواه **التبريزي** في المشكاة، كتاب الصلاة (٣٧) باب قيام شهر رمضان، ج١، ص١٣٠٧، من حديث علي.

قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ الله عز وجل يترل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا، فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كالب**» رواه الترمذي والبيهقي وابن ماجه وابن أبي شيبة، ومعنى نزوله نزول رحمته.

(نزول القرآن) ومعنى إنزال القرآن في الليلة المذكورة في الآية إنزاله جملة إلى البيت المعمور في السماء الدنيا، وهو مسامت الكعبة، وكان يترل به جبريل شيئًا فشيئًا، فقيل: كان ابتداء الوحي مناما في ربيع الأوَّل، وبعد ذلك نزل أوَّل القرآن نزولاً وهو: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ ﴾ في يوم الاثنين لسبع عشرة مضت من رمضان، أو لسبع منه، أو لأربع وعشرين منه، ومضت ثلاث سنين بعد نزول ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ... ﴾ فترل: ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾.

[قلت:] وفضل الأزمنة والأمكنة لذاتها، أو لما يقع فيها من الأعمال، أو يحلُّ فيها، قولان، ثالثهما: أنَّه يجوز بعضها لذاته، وبعضها لخارج، ومن ذلك قبره ﷺ ، فإنَّه أفضل من الكعبة والعرش والكرسيِّ، أو غيرهما، أو في زمان، ويدلُّ على أنَّ الفضل بالذات في حكم الله تعالى أنَّ الله سبحانه وتعالى اختار أزمنة وأمكنة للعمل أو الحلول قبل أن يكون العمل أو الحلول، وهو حكيم لا يهمل أمرًا ولا يعبث.

﴿**انَّا كُنَّا مُنذِرِينَ**﴾ من شأننا وحكمتنا الإنذار تخويفًا بالعقاب لا الإهمال، ولذلك كان إنزال الكتاب فهذا عائد للإنذار.

وقوله: ﴿**فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**﴾ عائد لـ«لَيْلَة»، سواء جعناه نعتًا ثانيا لـ«لَيْلَة» أو مستأنفا، أو جواب القسم، و﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ...﴾ معترضًا، أو جوابًا ثانيًا للقسم كما يتعدَّد الخبر، بلا عطف ولا إبدال ولا تأكيد، فيكون الإقسام على المجموع، وعليه فيجوز أن يكون ﴿انَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ جواب القسم، فيحصل له ثلاثة أجوبة، وكما كان الله منذرًا كذلك كان مبشِّرًا، إلاَّ

أنّ المقام للإنذار لشدَّة كفرهم وإصرارهم.

ومعنى ﴿يُفْرَقُ﴾: يلخَّص ويفصل للملائكة خارجًا، بعد أن كان في اللوح مستورًا مخلوطًا بغيره، ومعنى ﴿حَكِيمٍ﴾: محكم، لا يــبدَّل أو يغيَّر بعد إبرازه للملائكة، وأمَّا قبله ففي اللوح يمحو منه ما يشاء ويثبت، كذا قيل، وفيه أنَّه يقع النسخ بعد الإبراز والنزول.

أو ﴿حَكِيمٍ﴾: بمعنى محكوم به، أو ملتبِّس صاحبه بالحكمة، أو ذو حكمة، كـ"تَامِر" و"لاَبِن".

يكتب في ليلة القدر ــ عند الحسن وغيره، وفي ليلة النصف من شعبان عند عكرمة وغيره ــ لكلِّ سنة ما يقع فيها من رزق، أو حياة أو موت أو مطر، أو حاجٌّ ومعتمر، وأجل وتزوُّج وطلاق، وصلح وفتنة، وحرب ومرض وصحَّة، وآفة وعافية، وغير ذلك، ولا يزاد على ذلك ولا ينقص، وأنَّ الرجل لينكح ويولد له، وقد خرج اسمه في الموتى، [وقد قيل:] وتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب والزلازل والصواعق والخسْف إلى جبريل، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب السماء الدنيا، وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت.

وعن ابن عبَّاس: تقضى الأقضية كلُّها ليلة النصف من شعبان، وتسلَّم إلى أصحابها ليلة السابع والعشرين من رمضان، والصحيح أنَّ الليلة ليلة القدر، نعم قيل: ليلة القدر ليلة النصف من شعبان، ولا نقول به.

﴿**أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ**﴾ منصوب على الاختصاص، والظرف نعته، أو على الحالية من المستتر في «حَكِيم»، ولو جامد لنعته بمشتقٍّ، أي أمرًا ثابتًا من عندنا، كقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، و«عَرَبِيًّا» بمنزلة المشتقِّ، وهو واحد الأمور، وإن

جعلناه ضدَّ النهي فمفعول مطلق لمحذوف، أي أمَرْنا أمرًا من عندنَا، أو لــ«يُفْرَقُ»، لأنَّه فيه معنى الأمر ضدَّ النهي، كأنَّه قيل: يفرقُ فيها فَرْقًا من عندنا.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ الرسل قبل محمَّد ﷺ، فإنَّا أرسلناه كما أرسلناهم ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مقتضى الظاهر: رحمة منَّا، لكن جيء بلفظ «ربِّ» تشريفًا له ﷺ، بإضافته إليه، مع أنَّه ربُّ كلِّ أحد، ولأنَّ المربوبيَّة تقتضي الرَّحمة على المربوبين.

(نحو) والجملة تعليل لــ«يُفْرَقُ»، أو لــ«أَمْرًا» بمعنى ضدَّ النهي، و«رَحْمَةً» مفعول به لــ«مُرْسِلِينَ»، ونُكِّر تفخيمًا، وهي مطلقة عامَّة، وقيل: المراد بها النبيء ﷺ، ويأباه كون الجملة تعليلاً، ويجوز كون الجملة بدلاً من «أنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ» فتكون تعليلاً لإنزال الكتاب، إذا جعلنا «أنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ» تعليلاً له فينصب «رَحْمَةً» على التعليل، فالمعنى: أنزلنا القرآن، لأنَّ عادتنا إرسال الرسل والكتب إلى العباد، لأجل الرحمة عليهم.

والنصب على المفعوليَّة أولى، وذلك في المعنى كقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا...﴾ (سورة فاطر: ٢)، **والحاصل**: إنَّ من عادتنا أن نرسل الرحمة ومنها فصل كلِّ أمر حكيم من قسمة الأرزاق، والمقصود بالذات في ذلك الفصْل الرحمةُ، وقيل: إنَّا أنزلناه في ليلة مباركة رحمة من ربِّك.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لا يخفى أنَّ التأسيس أولى من التأكيد، فالسمع بمعنى العلم بالمسموعات، و«الْعَلِيمُ» تعميم بعد تخصيص، وكذا إذا قال: إنَّه سميع بصير، تقول: «بصير»: بمعنى عالم بما ترى العيون، ولا يفسَّران بمعنى العلم المطلق العامِّ، وذلك متضمِّن لوعيد الكُفَّار، ووعد المؤمنين.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ خبرٌ آخر لــ«إِنَّا»، فالحصر منسحب عليه، كأنَّه قيل: إنَّه لا غيره ربُّ السماوات والأرض، ولا داعي إلى جعله خبرًا لمحذوف ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بالله ربِّ السماوات والأرض وما بينهما، أو موقنين بقوله، وهو اسم فاعل، فهو دالٌّ على إيقان قويٍّ لا على شيءٍ مَّا من الإيقان، أي إن كنتم موقنين في إقراركم إذا سئلتم عَمَّن خلق السماوات والأرض وما بينهما، فقلتم: خلقهنَّ الله.

أو يجعل: المراد الإيقان، هكذا بلا متعلَّق، أي إن كنتم من أهل الإيقان، والجواب محذوف، أي: علمتم أنَّ من خلقهنَّ قادرٌ على البعث، أو أنَّه يجازيكم على ما سمع منكم وما علم منكم، وأنَّه لا يهملكم، أو تحقَّق عندكم أنَّه سميع عليم، وهم جازمون بأنَّه خلقهنَّ، ولكن نزَّل جزمَهُم بخلقِهِنَّ منزلة العدم إذ لم يعملوا بمقتضاه من التوحيد والعبادة، ولا يقال: نُزِّل منزلة الشكِّ، لأنَّهم إذا كان هذا كان قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إضراباً عن الشيء بنفسه، وقيل: يجوز ذلك، لأنَّه بصورة الشكِّ، و«بَلْ» هو جزم.

.﴿لآَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ مستأنف، أو خبر آخر لتقرير ما قبله، ومن الغريب جعله خبراً لمحذوف، أي: هو لا إله إلاَّ هو ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ مستأنف، أو خبر آخر، والفاعل ضمير الربِّ ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الاَوَّلِينَ﴾ مستأنف، أو خبر آخر، أو تنازع فيه «يُحْيِي» و«يُمِيتُ»، أو بدل من «رَبُّ السَّمَاوَاتِ».

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ عظيم، إبطال لجزمهم بأنَّه ربُّهم وبأنَّه خلق السماء والأرض ومابينهما، إذ قرنوه بما ينافيه. والغيبة بعد الخطاب إعراض عنهم لفرط عنادهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يستهزئون بالقرآن ويلهون عنه، خبر ثانٍ، أو هو الخبر و«فِي» متعلِّق به مقدَّم للحصر والفاصلة.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

تهديد المشركين بعذاب وموقفهم منه

﴿فَارْتَقِبْ﴾ انتظر، وهو تهديد لهم، إذ لم ينتفعوا بما نزل، نزل هذا بعد الدعاء بسبع كسني يوسف، وقبل كونهم كناظر للدخان لشدَّة الجوع **﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾** عند قرب الساعة جدًّا يملأ ما بين المشرق والمغرب أربعين يومًا، كهيئة الزكام للمؤمن، وكالسُّكر للكافر، يخرج من منخريه وأذنيه وفمه ودبره، ويكون رأسه كالرأس الحنيذ، ويصيب المؤمن مثل الزكام منه، والأرض كلُّها كبيت أُوقد فيه، وخطَّأ ابن مسعود من قال ذلك، وقال: «**من سئل عمَّا لا يعلم فليقل الله أعلم، فإنَّه من العلم**» وقال: المراد إنَّهم رأوا جهة السماء كالدخان للجوع.

وفي البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود: خمس قد مضين: اللِّزامُ والروم والبطشة والقمر والدخان. قيل: أصابهم من الجوع مثل الظلمة في أبصارهم، لتيبُّس الأرض لانقطاع المطر، وارتفاع الغبار، وظلمة الهواء والجوِّ، وذلك يشبه الدخان.

(علامات الساعة) وأوَّل الآيات الدجَّال، ونزول عيسى عليه السلام، ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى المحشر تبيت إذا باتوا، وتقيل إذا قالوا، والدخان يملأ ما بين السماء والأرض... إلى آخر ما مرَّ، رواه الطبراني عن

حذيفة. وروي عن حذيفة بن اليمان: «أوَّل الآيات الدخان، ونزول عيسى بن مريم، ونار تخرج...» إلى آخر ما مرَّ بلفظه. قيل: فيبعث الله عَزَّوَجَلَّ ريح الجنوب فتقبض روح كلِّ مومن.

وقيل: ﴿يَوْمَ تَاتِي السَّمَآءُ﴾ يوم القيامة، والدخان على حقيقته، أو الشدَّة والشرُّ، على الاستعارة التمثيليَّة، ولا سَمَاءَ يومئذٍ أو هي جهة العلوِّ، أو الدخان قبل انشقاقها حين يبعثون.

أو هو الدخان تستحيل إليه وترجع إلى أصلها، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىآ إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ وأنكر ابن مسعود ذلك على رجل يعظ به الناس في باب كندة، وقال: «إنَّ من العلم أن يقال فيما لا يعلم: الله تعالى أعلم» كما مرَّ.

(سيرة) وقال: دعا ﷺ لقريش بسبع، حتَّى يروا كهيئة الدخان لضعف البصر من الجوع، وأكلوا الجلود والعظام والدَّم المخلوط في صوف أو شعر أو وبر، وفي رواية: «**اللهمَّ اشدد وطأتَكَ على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف**». وفي لفظ: «**اللَّهُمَّ سبعًا كسبع يوسف**». وفي لفظ: «**اللهمَّ أعنِّي عليهم بسبعٍ كسبع يوسف**».

فطلب منه أبو سفيان وناس من أهل مَكَّة قبل الهجرة، أو بعدها، أو مرَّتين الاستسقاء، وقالوا: إنَّك تأمر بصلة الرحمِ ومكارم الأخلاق[1] فدعا الله تعالى فسقوا من سحابة انحدرت من فوق رأسه، وقال: اللهمَّ حوالينا لا علينا، ويدلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿ اِنَّا كَاشِفُواْ الْعَذَابِ...﴾ إذ لا يناسب أنَّه دخان الموت، أو

١- انظر: **البخاري** كتاب الاستسقاء (٢) باب دعاء النبيء ﷺ : «اللَّهُمَّ اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، رقم ٩٦٢.

دخان بعد الموت، أو عند قرب الساعة، فنزل ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ الْعَذَابِ...﴾.
وقيل: الدخان غبار الأرض ليبسها من عدم الماء، ويطلق الدخان على الشرِّ، ومنه الجدب، لأنَّ الدخان ممَّا يتأذَّى منه، وأسند الإتيان بالدخان إلى السماء لأنَّه في جهتها، ولسبب عدم إمطارها، والعلاقة الحلول أو السببيَّة.

﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يُغَطِّيهم، والجملة نعت ثان، وقوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ اَلِيمٌ رَّبَّنَا اَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُومِنُونَ﴾ مفعولٌ به لقول محذوف، والقول حال من الناس، أي: قائلين، أو يقولون: هذا الأمر الفخيم عذاب أليم ربَّنا اكشف عَنَّا العذاب المذكور إنَّا مؤمنون لكشفه إن كشف.

أجيز أن يكون ﴿هَذَا عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ من كلام الله سبحانه وتعالى، ويقدَّر القول بعد، أي: يقولون، أو قائلين ربَّنا اكشف عنا العذاب إنَّا مؤمنون، فيكون ﴿هَذَا عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ معترضًا، ومعناه كمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَآءُ الْمُبِينُ﴾ (سورة الصافات: ١٠٦).

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ استفهام نفي، أي: كيف؟ أو من أين يتذكَّرون بكشف ذلك القحط؟ على ما مرَّ، ويوفون بالإيمان الذي وعدوه ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ الواو للحال، والمعنى: والحال أنَّه قد جاءهم رسول واضح المعجزات، أو موضِّح للرِّسالة بدلائل أعظم من كشف ذلك العذاب، شاهدوها منه.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ أعرضوا عن تصديقه، والعطف على ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، ولا داعي إلى العطف على قائلين أو مقولين المقدَّر قبل قوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ اَلِيمٌ...﴾ أو قبل قوله: ﴿رَّبَّنَا اَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾. و«ثُمَّ» لتراخي الرتبة لا الزماني لأنَّهم يعاجلونه بالإنكار، لا يؤخِّرون الإنكار مدَّةً.

﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ﴾ هو معلّم. قالوا: علّمه علم الإنجيل والتوراة غلامٌ روميٌّ لبعض ثقيف يسمَّى: عَدَّاس. ﴿مَّجْنُونٌ﴾ مختلطُ العقل، فهو يقول على غير رشاد، أو تُلقي إليه الجنُّ ما يقول، وذلك على التوزيع، أي: بعض يقول: معلّم، وبعض: مجنون، أو تارةً يقولون: معلّم، وتارةً يقولون: مجنون.

وفي هذه الأعوام قال نصرانيٌّ لعنه الله: إنّ يهوديا كان يعلّم محَمَّدًا في حِرَاء، ونصرانيًّا في جبل آخر، قلت: هذا كذب وحجَّة عليهم، لأنَّه تضمَّن تصديقه فيما يقول، [وكفروا بدعوى تعليم اليهوديِّ والنصرانيِّ، حاشاه][1].

﴿انَّا كَاشِفُواْ الْعَذَابِ قَلِيلاً﴾ كشفًا قليلاً، أو زمانًا قليلاً، وعد بالكشف، وهذا حجَّة على أنَّ الدخان ما يناسب تلك الأقوال المبنيَّة على القحط، ويبعد ما يقال: إنَّ الكشف لدخان ما بعد البعثِ هوَ مثل قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُوا﴾ (سورة الأنعام: ٢٨) ، وليس مناسبًا.

ويبعد أيضًا الكشف عند قرب الساعة، لأنَّه لا يبقى بعده انتظار الإيمان منهم، ولا أهل ذلك الزمان أهل للخطاب، والشرط عليهم، والعهد منهم، فالحقُّ أقوال القحط.

﴿انَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلى الكفر، وإنَّما قيل هذا مع أنَّهم لم ينقطعوا عن الكفر قطُّ اعتبارا لوقفة بعد الكشف مفروضة معتبرة يؤمنون فيها، كأنَّه توقفوا عن الكفر تفكُّرًا لا جزمًا بالإيمان، ثمَّ صَمَّمُوا على ما هم عليه، أو وَعْدُهُم بالإيمان إنْ كُشفَ كالإيمان، فقال: ﴿انَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ أو العود إلى التصريح باللسان بعد الإمْساكَ تحقيقًا أو حكمًا، أو عائدون إلى زيادة الكفر.

١- ما بـين معقوفين زيادة من الطبعة العمانية.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ اذكر يوم نبطش، أو ذَكِّرهم يوم نبطش، أو ننتقم منهم يوم نبطش، دلَّ عليه قوله: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ من المصرِّين، أو يعلّق بـ«عَائِدُونَ»، أي: صائرون إلى العذاب يومَ...إلخ، أو بدل من «يَوْمَ تَاتِي»، كأنَّه قيل: فارتقب يوم نبطش البطشة الكبرى، وهي قتلهم يوم بدر عند ابن مسعود، وأُبيٍّ بن كعب ومجاهد والحسن وأبي العالية وسعيد بن جبير ومحمَّد بن سيرين وقتادة، وهو رواية عن ابن عبَّاس.

وعنه: لا أقول يوم بدر كما قال ابن مسعود، بل أقول: يوم القيامة، وهو رواية عن الحسن وقتادة. والبطش: الأخذ بعنف وشدَّة.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنَ اَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ اَللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ اَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى اَللَّهِ إِنِّيَ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُومِنُواْ لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا اِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ اِلْبَحْرَ رَهْوًا اِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ـاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ اُلسَّمَآءُ وَالَارْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ مِنَ اَلْعَذَابِ اِلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ اَلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اِخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى اَلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ اَلَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

العبرة من هلاك فرعون وقومه ونجاة بني إسرائيل

﴿وَلَقَدْ فَتَـنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ عاملناهم معاملة المختبِر بإرسال موسى إليهم ليظهر حالهم لغيرهم، كما تعرض الفضَّة على النار لتظهر جودتها أو خستّها، أو أوقعناهم فيما يفتنون به، أي: يصرفون به عمَّا به صلاحهم، من مال

وعزٍّ وولد وإمهال، يغترُّون عن الإنابة إلى الله ﷻ بها، قال الله ﷻ : ﴿إِنَّمَآ أَمْوَالُكُم وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (سورة التغابن: ١٥) .

﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ موسى عليه السلام ، وكرمه عند الله وعند المؤمنين وفي ذاته بالصفات والأفعال المحمودة، والحسب والنسب، قيل: **ولا يوصف الإنسان بالكرم حتَّى ينتشر منه الأخلاق الحميدة في الناس من سائر المنافع.** روى يحيى بن أبي كثير[1] عن رسول الله ﷺ : «**الكرم التقوى، والشرف التواضع، واليقين الغنى**»[2]. قال أبو هريرة قال ﷺ : «**من كَرُم أصلُه وطاب مولده حسن محضره**»[3].

﴿انَ ادُّواْ إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ﴾ «أَنْ» حرف تفسير لتقدُّم المجيء الذي فيه معنى القول. و«أَدُّوا»: بمعنى ردُّوا وأوصلوا إليَّ عباد الله بني إسرائيل، كان فرعون يستعبدهم ويستخدمهم. و«عِبَادَ اللَّهِ» مفعول به على ما رأيت، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآئِيل وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ﴾ (سورة طه: ٤٧) ، ذكرهم باسم عباد الله تقبيحًا لأمر فرعون من استعباد أحرار ليسوا عبيدًا إلاَّ لله ﷻ .

(نحو) ويجوز أن يكون منادى، والمفعول محذوف، أي: أدُّوا إليَّ دين

١-يحيى بن أبي كثير الإمام الحافظ أبو نصر الطائي مولاهم اليماني، روى عن أبي أمامة الباهلي وأنس بن مالك، وروى عنه جابر بن زيد حديث رقم ١٧، وحديث رقم ٧٣٩، في مسند الربيع، ودينار وعكرمة كان طالبا للعلم، تُوُفِّيَ سنة ١٢٩هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج١، ص٢١٢.

٢-أورده **المناوي**، بلا زيادة: «واليقين الغنى»، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا، كتاب اليقين، عن يحيى ابن أبي كثير مرسلا. **المناوي:** فيض القدير، ٦٤/٥. (برنامج المكتبة الألفية – قرص مدمج).

٣-أورده **ابن عديٍّ** في الكامل: ج٢، ص٥٧٦. **والهندي** في الكنز: ج١١، ص٩٤، رقم ٣٠٧٥٨. من حديث أبي هريرة.

الله ﷻ ياعباد الله، بلا تقدير القول.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ اَمِينٌ﴾ اللاّم بمعنى إلى، أو للنفع، والجملة حال من ياء «إليّ»، أو معترضة، والمعنى: ما طلبت ردَّ بني إسرائيل لأمْر دُنيوي من جهة نفسي، بل اللهُ أمرني بالأمر بردِّهم، ولا خيانة لي في ذلك، ولا في ما أمرتُكُم بأدائه إليّ.

﴿وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى اللهِ﴾ العطف على ﴿أَنَ اَدُّواْ﴾. و«أَنْ» مفسِّرة، ولا خارج للأمر والنهي، فلا يصحُّ أن تكون مَصدَريَّة. والعلوُّ على الله عدم الإيمان به، وتكذيب رسوله، وتحقيره. و«لاَ» ناهية، وعلَّل هذا النهي بقوله:

﴿إِنِّيَ ءَاتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ حجَّة واضحة، أو موضِّحة لدعواي، لا يحوم حولها إنكار إلاَّ عنادًا محضًا، وهذا السلطان مانع من الاستعلاء على الله، شبَّه بني إسرائيل بمال مؤتَمن يُوَدَّى، فَرَمز إلى ذلك بـــ«أَدُّوا»، أو شبَّه ردَّهم بتأدية الأمانة على الاستعارة الأَصلِيَّة، واشتقَّ منه «أدَّى» على التبعيَّة، و«عِبَادَ» قرينة.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ﴾ اعتصمت وامتنعت ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمُ﴾ بالواحد الذي هو ربٌّ لي ولكم، وهذا يشبه الاستعطاف والملاينة، مداراةً وجلبًا، أو تعاظم بأنَّه مالكي لا يهملني وقد أطعته، ودعوت إليه، وبأنَّه مالككم لا تخرجون عن حكمه وقد عصيتموه، فينجيني ويهلككم.

﴿أَن تَرْجُمُونِي﴾ من أن ترجموني، أو عن أن ترجموني، أي: تطردوني عن الخير، بضرب أو حبس أو شتم، أو قتل، قيل: توعَّدوه بالقتل، وقيل: بالرَّجم بالحجارة لَمَّا قال: ﴿وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى اللهِ﴾ فقال ذلك، وهو قبل أن يخبره الله ﷻ بأنَّهم لاَ ﴿يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِئَايَاتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (سورة

القصص: ٣٧) ، ولا مانع من أن يكون بعده، لأنَّه ليس فيه إلاَّ أنَّه ملتجئ إلى الله بمنعه منهم، فهو مخبر لهم بأنَّه معصوم منهم، وذلك تذكير للنعمة لا بطريق الدعاء، أو بطريقه لجواز أن يكون ذلك الوعد من الله بالتنجية على شرطٍ، فخاف أن لا يجيء بالشرط، فدعا بإتمامه.

﴿وَإِن لَّمْ تُومِنُواْ لِي﴾ تذعنوا إلى قولي ﴿فَاعْتَزِلُونِي﴾ اتركوني لا تشتغلوا بمضرَّتي، أو اقطعوا أسباب الوَصْلَةِ بيني وبينكم، والوجهان صالحان مع الفرقة بالأبدان ودونها، وحَاصِلُهُما أنَّه ليس جَزَاءُ مَن يدعوكم إلى ما هو صلاحكم أن تضرُّوهُ.

وأصرُّوا على ما هم عليه من الشِّرك وقصد الضرِّ، وتناهى كفرهم بحيث لا يرجى إيمانهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُ, أَنَّ هَؤُلَآءِ﴾ بأنَّ هؤلاء الكفرة فرعون وقومه ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ مبالغون في الكفر وأنت أعلم بهم، فعجِّل لهم ما يستحقُّونَ بإجرامهم، أو قال: ﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ...﴾ إلى قوله: ﴿...حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الاَلِيمَ﴾ (سورة يونس: ٨٥ إلى ٨٨) ، والآية تتضمَّن الدعاء والإجابة لذكر دعائه، وما يوجب الهلاك.

﴿فَاسْرِ بِعِبَادِي﴾ عطف لقول محذوف على «دَعَا»، أي: فقال الله: اسْرِ بعبادي بني إسرائيل ومن آمن من القبط أو غيرهم ﴿لَيْلاً﴾ ذُكر لتأكيد السُّرى سرًّا، أو لأنَّه قد يستعمل السُّرى في غير الليل، أو لأنَّ المراد بطائفة من الليل كما قال: ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ (سورة هود: ٨١) .

﴿اِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ لأنَّه يتبعكم فرعون وقومه للسوء من قتالٍ أوْ ردٍّ، إذا علموا بخروجكم، فلا تؤخِّروا لئلاَّ يلحقوكم لحوقًا يتمكَّنونَ به من ذلك ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ عطف على محذوف معلوم من الآيِ الأُخَر، أي:

واضرب البحر ينفلق لك طُرُقًا واتركه منفتحًا على تلك الطرق.

جمع الله تعالى ما قال له أوَّلاً وآخرًا في القول الواحد المحذوف، لأنَّ أمره بضرب البحر بعد وصُولِهِ إليه لا حين قال له: «اسْرِ»، وأمرهُ بتركه رَهْوًا بعد ضَرْبِهِ وانفتاحه، أو معه.

(لغة) والرَّهوُ: المتَّسع المنفسح، ولزم من ذلك أنَّه يابس لضرب الشمس له والريح، إن انفصل إلى جهة السماء، أو الريح إن تسقف، ولزم أنَّه ساكن لا متموِّج، لأنَّه فتح ليسلكوا فيه، ويسهل لهم. والرَّهو: وصف كالرحب والسهل، والظاهر أنَّه مصدر، لأنَّه المعروف، فيقدَّر مضاف، أي: مصاحب رهو، أي: انفساح، أو بمعنى الوصف، أي: راهيًا، كعدل بمعنى عادل.

أمره اللهُ تعالى إرشادًا أن يضربه فينفتح طرقا يدخلها المؤمنون فينجوا، وفرعون وقومه ليغرقوا، كما قال: ﴿**اِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ**﴾ لا كما قيل: أراد موسى عليه السلام ضربه لينطبق بعد انفتاحه، لأنَّ موسى لا يريد إغلاقه قبل الدخول فيه، ولا يريد غلقه بدون أن يأمره الله تعالى، ولا يريد إغلاقه بعد الدخول فيه لئلاَّ يغرق بنو إسرائيل، مع من دخله من فرعون وقومه، لأنَّهم مجتمعون في البحر، فَبخُرُوج آخر المؤمنين ودخول آخر قوم فرعون رجع البحر كما كان، فغرقوا وحدهم دون بني إسرائيل.

وإنَّما يريد موسى إغلاقه بعد خروج بني إسرائيل وخاف أن يخرجوا كما خرج بنو إسرائيل، فقال له الله عزَّ وجلَّ: أنا أغرقهم فيه، فلا تخف أن يلحقوكم. وتوَهَّم بعضٌ أنَّ انطباقه ليكون فاصلاً بينه وبين فرعون، وإنَّما يكون ذلك لو كان الدخول من خلف البحر. ويجوز أن يكون «اتْرُكْ» بمعنى صيِّر.

﴿**كَمْ**﴾ مفعول مقدَّم لقوله: ﴿**تَرَكُواْ**﴾ في مصر، وبيَّن «كَمْ» بنعته بقوله:

﴿مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ شريف في جنس متاع الدنيا، وهو المجالس والمساكن الحسان وغيرها من الأبنية الحسان، كالمنابر والأسرة، ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ تنعُّمٍ عظيمٍ (بفتح النون)، وهو بصيغة الوحدة، وليست الوحدة مرادةً، وكما يطلق الترك على ما يُتـنعَّم به يطلق على نفس التنعُّم، إلاَّ أنَّ الأصل هو الأوَّل، فيجوز أن يراد بالنَّعمة ما يتنعَّم به، وهو قيل هنا أولى[1].

﴿كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ كانوا فاكهين في النعمة، أي: التنعُّم أو ما يتنعَّم به، والمعنى: طيِّـبُو النفسِ، أو ذوي فاكهة، كـ"لابن" و"تامر"، بمعنى ذوي لبن وتمر، أو متلذِّذين فيها باللَّهو واللعب بالنعم غير شاكرين لها، بل بطروا وأشروا ومرحوا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر كذلك، والجملة تأكيد، والتأسيس أولى، بأن نقدِّر: الأمر كذلك في غيرهم، أو عادتنا كذلك، أو نفعل فعلاً مثل ذلك بمن أردنا إهلاكه، أو بمن عصانا. والإشارة إلى الإخراج المذكور بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم﴾ (سورة الشعراء: ٥٧) ، أوْ إلى الترك المذكور بقوله: ﴿كَمْ تَرَكُواْ﴾. ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ العطف على «أَخْرَجْنَاهُم»، أو على «تَرَكُواْ». والإيرَاث: الإعطاء، استعمالاً للمقيَّد في المطلق، على التجوُّز الإرساليِّ التبعيِّ، لعلاقة الإطلاق والتقييد، أو شبَّه الإعطاء بالإيراث على الاستعارة الأَصليَّة، واشتقَّ منه «أورث» على التبعيَّة.

﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ بني إسرائيل، والمغايرة المعبَّرُ عنها في «آخَرِينَ» حصلت بتخالفهم مع القبط في الدين والنسب، ولا ولاء بينهم، ويدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ (سورة الشعراء: ٥٩) ، ومن كان فيهم من

١- راجع ما ذكره الشيخ لكلمة «نَعمة» بالفتح في سورة المزَّمِّل آية ١١.

مؤمني القبط لم يُعتدَّ به لقلّته، ولأنَّ الأصل في شأن القِصَّة بنو إسرائيل إذ كان بواسطة نبيئهم عليه السلام .

وإن شئت فالمغايرة في «آخَرِينَ» بالدين، فشمل بني إسرائيل والقبط، وذلك دليل على رجوع بني إسرائيل إلى مصر بعد إغراق فرعون وقومه، وذلك قول الحسن. وقال قتادة: القوم الآخرون غير بني إسرائيل مِمَّن ملك مصر بعد بني إسرائيل، ويردُّه قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ (سورة الشعراء: ٥٩) .

[قلت:] ولا تترك الآية لتاريخ مَّا، ولا سيما تاريخ جاء على يد اليهود المعروفين بالتحريف أنَّ بني إسرائيل لم يرجعوا إلى مصر.

وأوَّلَ قتادةُ قولَه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ بتقدير مضاف، أي: وأورثنا مثلها بني إسرائيل، أو بالاستخدام كقولك أعطيته درهمًا ونصفه، فيكون المراد: غير عين ما تركوه، بل نوعه الشبيه به، **وهو تأويل لا داعي إليه صحيح،** فهو باطل إذ لا دليل عليه. نعم لا مانع من تفسير الإيراث بالتمليك والتصرُّف، وهو وجه حسن لا ينافي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ لأنَّ التمليك وَالتَّصَرُّف فيها صالحان ولو بلا رجوع إلى سكناها.

(بلاغة) **﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ﴾** لم يكترث بوجودهم ولا هلاكهم، فذلك استعارة تمثيليَّة تخييليَّة، بأن شبَّه شأنهم وعِظَمه المفروض بما وُجِدَ وعَظُمَ بحيث يفرح به الموجودات، حتَّى إنَّه لو فقد لأثَّر فقدُه فيها، فنفى ذلك بأنَّه لم تبك عليهم.

(بلاغة) وإنَّما يتصوَّر نفي الشيء على تصوُّر حصوله فَرضًا أو تحقيقًا

أو ابتعارة مكنيَّة بأن شبَّههما بإنسان، فجعلهما مِمَّن يبكي توسُّعًا، ثمَّ نفى وقوع بكائهما بالفعل، وفي ذلك تخييل.

وقيل: لا استعارة في الآية تمثيليَّة ولا مكنيَّة ولا تخيـيليَّة، لِمَا روى الترمذيُّ وغيره عن أنس عن رسول الله ﷺ : «**ما من عبد إلاَّ وله في السماء بابان: باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فالمؤمن إذا مات فقداه وبكيا عليه**»، فتلاَ ﴿فَمَا بَكَتْ...﴾[1].

وذكر الله ﷻ أنَّهم لم يعملوا الصالحات على الأرض فتبكي لفقدهم، ولم يصعد لهم عمل صالح إلى السماء، فتبكي عليهم، وعن ابن عبَّاس: «إنَّ الأرض تبكي على المؤمن أربعين صباحًا» وقرأ الآية. وعن عليٍّ: «إنَّ المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاَّهُ من الأرض، ومصعد عمله من السماء» وتلا الآية.

وبكاء ذلك إمَّا حقيق بخلق الله تعالى، وهو قادرٌ، وإمَّا حزنٌ بخلق الله تعالى، وهو قادر، وإمَّا تمثيل. وزعم قومٌ أنَّ للجمادات شعورا لائقًا بحالها، ومنهم الصوفيَّة، ولا يصحُّ عن الحسن وسفيان الثوري وعطاء ما قيل عنهم: إنَّ حمرة السماء بكاء على المؤمن.

وقيل: المعنى **ما بكت عليهم سكَّان السماء وهم الملائكة، ولا سكَّان الأرض من المؤمنين، وهم المعتبرون**، بل هم مسروررون بهلاكهم، وهو مرويٌّ عن الحسن، وعن مجاهد: «ما مات مؤمن إلاَّ بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحًا» فقيل له: أتبكي الأرض؟ فقال: ما لها لا تبكي وكان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي وكان تسبيحه وتكبيره فيها كدويِّ النحل؟ وكان

١-رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (٤٦) باب: ومن سورة الدخان، رقم ٢٢٥٥. كما أورده **الهيثمي** في المجمع: ج٤، ص١٠٥. **والبغوي** في السنَّة: ج٦، ص١٤٦. من حديث أنس.

يصعد عمله إليها. ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ مؤخَّرين عن الإهلاك إذا جاء أجله.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ بإغراق فرعون وقومه ﴿مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ هو استعباد فرعون وقومه لهم، واستخدامهم، وقتل أبنائهم، وذلك عذابٌ مع إهانة ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل على حذف مضاف، أي: من عذاب فرعون، أو لاَ حذفَ مبالغةً، كأنَّه نفس العذاب. ولم يذكر قومه لأنَّ تعذيبهم بأمره، حتَّى كأنَّه يليه بنفسه، فأضافه إليه، أو متعلِّق بمحذوف معرف نعت، أي: من العذاب الصادر من فرعون، أو بمحذوف نكرة حال، أي: من العذاب صادرًا من فرعون. وَادَّعَى بعضٌ أنَّه خبر لمحذوف، أي: ذلك من فرعون.

﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا﴾ على بني إسرائيل وقومه بالتكبُّر ﴿مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ في الشرِّ، خبر ثان لـ«كَانَ»، أو حال من المستتر في «عَالِيًا» ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال من «نَا»، والمعنى: عَالمين بأنَّهم أهْلٌ لذلك، وذلك دفع لما يتوهَّم أنَّه اختارهم وليسوا أهلاً للاختيار، كالعبث والذهول والترجيح بلا مرجِّح.

وفي معنى ذلك أن يقال: على علم بما يصدر منهم من العدل والإحسان، والعلم والإيمان، وقيل: على التعليل، متعلِّق بـ«اخْتَرْنَا»، وقيل: بمعنى «مَعَ» متعلِّق به، أو بمحذوف حال، أي: **مع علم منَّا بما يفرط منهم في بعض الأحوال.**

﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عالمي زمانهم، أو مطلقًا إلاَّ سَيِّدنا محمَّدًا ﷺ وأمَّته، لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ اخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (سورة آل عمران: ١١٠)، فـ«ال» للعهد أو للاستغراق العرفيِّ، أو مطلقًا باعتبار كثرة الأنبياء، أي: لهم مزية من حيث كثرة أنبيائهم، لا من كلِّ وجه.

[قلت:] فهم لهم فضلٌ على هذه الأمَّة بكثرة الأنبياء، ولهذه الأمَّة عليهم فضل بأفضل الأنبياء ﷺ، وبأنَّه رسول إلى أنبيائهم، ومأخوذ عليهم الميثاق أن يؤمنوا به، وفضِّل بأفضل الكتب وهو القرآن. وقيل: خصَّصناهم بالإيحاء الواقع عليهم دون سائر العالمين، **وضعِّف.**

(نحو) و﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ متعلِّق بـ«اخترْنا»، و«عَلَى عِلْمٍ» متعلِّق بمحذوف حال، فلم يتَّحد متعلَّقهما. أو الأولى بمعنى مع، أو التعليل، فلم يتَّحد معناهما، أو الثانية بمعنى من، فلم يتَّحد، فلم يتعلَّق حرفَا جرٍّ لمعنى واحد [بمتعلَّق واحد][1] دون تبعيَّة.

﴿**وَءَاتَيْنَاهُم مِّنَ الاَيَاتِ**﴾ للابتداء متعلِّق بـ«ءَاتَيْنَا»، أو للتبعيض، أو للبيان حال من «مَا» في قوله: ﴿**مَا فِيهِ بَلآَؤٌا مُّبِينٌ**﴾ نعمة ظاهرة، لأنَّها للابتداء، أتشكَر أم لا ؟ وسبب للعقاب إن لم تشكر، أو اختبار ظاهر كيف يعملون، والله لا يخفى عنه شيء، كَفَلَق البحر، وتَظْلِيلِ الغَمَامِ، وإنزال المنِّ والسلوى، وغير ذلك ممَّا لم يعط غيرُهم، وما خصَّ به موسى دونهم فهو لهم أيضًا، لأنَّ ما للنبيء [هو] فضل لأمَّته، وهناك أمور أخرى كالمعجزات.

﴿إِنَّ هَؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْاُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَاتُوا بِـَٔابَآئِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ اَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالَارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩)﴾

١- ما بين معقوفين زيادة من الطبعة العمانية. تأمَّل.

إثبات البعث وإنكار المشركين له

﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ﴾ قومك الكافرين يا محمَّد كما كفر قوم موسى: فرعونُ وقومه، ﴿لَيَقُولُونَ﴾ إنكارًا للبعث وكفرًا به، فهلاَّ خافوا أن يترل عليهم ما نَزَلَ بفرعون وقومه؟ ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: الموتة التي تعقبها حياة ﴿إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ﴾ هي انتفاء الحياة عنهم حين كانوا نطفًا في بطون أُمَّهَاتهم، حتَّى ينفخ فيهم الروح، وَأَمَّا الموتة بعدها فلا يعقبهاحياة، فلا بعث ولا ثواب ولا عقاب كما قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بمبعوثين.

وردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ (سورة البقرة: ٢٨) ، فسمَّى الله ما قبل نفخ الروح في الجنين موتة، والمعهود الموتة التي تعقبها، فهي المراد في كلامهم، ولا يعارض ذلك بقوله تعالى: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ﴾ (سورة الدخان: ٥٦) ، لأنَّ الأولى في هذه الآية الموت بعد الحياة الدنيا، بدليل «يَذُوقُونَ» وموت ما في البطن قبل النَّفخ لا يسمَّى ذوقًا، إذ لاَ ضرَّ فيه على الجنين.

وإنَّما سمِّيت الأولى باعتبار تصوُّر موتة ثالثة، فإنَّ الشيء الثاني أَوَّلٌ باعتبار الثالث، والثالث أَوَّل باعتبار الرابع، ولا يخفى أنَّ الأولى تُشعر بالثانية، والأَوَّل يُشعِرُ بالثاني، فإن وجد ذلك تحقيقًا فهو الأصل، وإلاَّ اعتُبِر حكمًا وفرضًا.

وَلَنَا تأويل آخر: هو أَنَّهم يحيون في القبور ويعذَّبون، ويموتون أربعين عامًا إذا قامت القيامة، ثمَّ يحيون بالبعث، سمعوا هذا فأنكروا أن يموتوا موتة البرزخ، وإن يحيوا قبلها في القبور ويبعثوا، فقالوا: الأولى ثابتة والثانية التي تدَّعونها بعدها حياة باطلة.

وإذا قال: "هَذَا أَوَّل مال اكتسبته"، ولم يكسب ثانيا حين قال ذَلِكَ أَوَّلاً بعد ذَلِكَ أَيضًا، فَإِنَّمَا قال ذَلِكَ باعتبار قصده إِلَىٰ أن يكسب ثانيا، أَو فرض

كسبه، ولولا ذَلكَ لم يسمِّه أَوَّلاً. ولا يقال: "حجَّ عمرو الحَجَّة الأولى ومات" مطلقا، بل يقيَّد أن يقصد الثانية، أو تعتبر له ولو بالنفي، مثل أن يقال: ثانيته لم تكن، كقولك: "حجَّ حجَّة لم تكن بعدها أخرى" أيضًا، ولو باعتبار غيره ممَّن له ثانية، فإن قال: "إن كان أَوَّل ولد تلدينه ذكرًا فعبدي حرٌّ"، عُتقَ عبدُهُ بولادة ذَكَر، ولا ينتظر به أن تلد ولدا آخر ذكرا أو أنثى، وما ذَلكَ إلاَّ باعتبار صورة أخرى، هي: أن تلد أنثى أَوَّلاً، ثُمَّ ذكرًا بعدُ. وبهذا المثال توهَّم الفارسيُّ أَنَّهُ لا يشترط للأَوَّل ثان، حَتَّى ادَّعَى الاتِّفَاق عَلَيْه، وَأَنَّ الموتة الأولى في الآية الموت في الدنيا، مع أَنَّهُ لا ثانية بعدها، وليس كما قال، مع أَنَّ هَذَا المثال لا يُقبل حَتَّى يَصِحَّ ورودُ مثْله في كلام العرب. وَأَمَّا الحكم الشرعيُّ فالسؤال عن قصد المتكلِّم به، فإن قَصَدَ ولادةَ الذكر بلا سبق أنثى حُكمَ بالعتق، وَإلاَّ فلا عتْقَ حَتَّى تلد آخر، وَإلاَّ لزم أَنَّ كُلَّ فعلٍ مخصوصٍ يُسَمَّى أَوَّلاً، ولو بدون اعتبار سَبْق منْ فاعله، وَهَذَا كالعبث، مثل أن يقرأ سورة الإخلاص مَرَّةً، فتقول: "هَذه أَوَّلٌ" مطلقا، بلا قصد منكَ لاَ منهُ ثَانيه، ولا قصور في هَذَا. وأسهل من ذَلكَ أَنَّ المراد بالأولى مطلق التَّقَدُّم، وأطلَقَ المقيَّدَ، وهو مَا لَهُ ثانٍ، وأراد المطلقَ، وهو الْمُتَقَدِّمُ.

﴿**فَأْتُواْ**﴾ يا محمد وأصحابه ﴿**بِئَابَآئِنَا**﴾ أو غيرهم ممَّن مات، كما قيل: إنَّهم سألوا رسول الله ﷺ أن يدعوا الله تعالى أن يحيي قصي بن كلاب، فإن أحياه آمنوا، وقيل: إن أحياه شاوَرُوهُ في أمر النبوءة والبعث فإن قال بهما آمنوا، وكان مستشارهم، وقيل: آتوا بآبائنا فيشهدوا بالبعث فنتَّبعهم ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ في دعوى النبوءة والبعث.

﴿**أَهُمْ خَيْرٌ**﴾ في القُوَّة والمنعة ﴿**أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ**﴾؟ تبَّع الأكبر، قال ابن عبَّاس: تبَّع الأخير أبو كرب أسعد بن مليك. وقوم تبَّع أشدُّ قُوَّة ومنعة أهلكناهم حين كفروا ولم تعجزنا قوَّتهم ومنعتهم.

(قصص) واسمه: أسعد، أو سعْد، قولان، وكنيته: أبوكرب، وهو من أهل اليمن، سمِّي تُبَّعًا لكثرة أتباعه، وهو اسم لِمُلُوكِ اليمن، كالخليفة في الإسلام. رُويَ عن ابن عبَّاس وعن عائشة ﵃ : إنَّه رجل صالح، ألا ترى أنَّه تعالى ذمَّ قومه ولم يذمَّه؟ قال سهل بن سعد الساعدي عن رسول الله ﷺ : «**لاَ تَسبُّوا تُبَعًا فإِنَّه أسلم**»[1] كما في مسند أحمد.

(قصص) وكذلك روي عن عائشة، إلاَّ أنَّها روت: «فإنَّه كان رجلاً صالحًا»، ويروى: «لا أدري أنبيء هو»؟. ويُروى: «لا أدري أهو ذو القرنين»؟ أي: ثمَّ درى أنَّه غير نبيء وغير ذي القرنين، وصلَّى رسول الله ﷺ عليه صلاة الجنازة في المدينة، كما صلَّى على البراء بن معرور حين قدم إليها بعد موته بشهر.

(قصص) والصحيح قيل: إنَّه غير نبيء، سار إلى المشرق وبنى الحيرة وسمرقند، ورجع من المشرق فدخل المدينة، وخلَّف ابنه فيها، فوجده مقتولاً غيلة، فعزم على تخريبها، وكانوا يقاتلونه نهارًا ويطعمونه ليلاً، فقال: إنَّهم كرام، فقال له اليهود: لا تقاتلهم فإنَّها مهاجر نبيء آخر الزمان من قريش، اسمه محمَّد ﷺ ، ليس بالطويل ولا بالقصير، في عينه حمرة يلبس الشملة، ويركب البعير، سيفه على عاتقه، لا يبالي بمن لاقى، حتَّى يظْهَرَ أمْرُهُ، يولد بمكَّة.

وقيل: قال له ذلك حبران من قريظة، هما ابنا عمَّين، أحدهما: كعب، والآخر: أسد، وقالا: إنَّه يأتي من مَكَّة ويقاتله قومه هنا، فآمن به وبنى له دارًا، وكتب كتابًا: «إنِّي آمنت بك وبما جئت به، وإنَّا على ملَّتك، ملَّة أبيك إبراهيم، فاشفع لي يوم القيامة»، وجعل الدار والكتاب في يد عظيم الأوس والخزرج،

١- رواه **أحمد** في مسنده، وأورده **الطبراني** في الأوسط: ج٤، ص١٧٦، رقم ٣٣١٣. **والهيثمي** في المجمع، ج٨، ص٧٦. من حديث سهل بن سعد الساعدي.

حتَّى وصلا أبا أَيـُّـوب الأنصاري من ذرِّيـّـة عظيم الأوس والخزرج، وَلَمَّا هاجر ﷺ دفعهما له، فقد نزل في دار نفسه، وفي الكتاب:

شهدت على أحمـــد أنَّـــه رسول من الله باري النسم
ولـــو مُدَّ عمـــري إلى عمره لكنت وزيرًا له وابن عـــمٍّ

(قصص) أي كابن عمٍّ، وقبل إسلامه أراد هدم الكعبة، فقال له أحبار أَسرَهُم من الشام: لا تفعل فإنَّها بيت الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى ، فإنَّك تهلك ولن تسلط عليه، وإنَّه بناء أبينا إبراهيم خليل الله، قال: فلم لا تأتونه؟ قال: لأنَّهم يعبدون الأصنام وينجِّسونه بالدَّمِ من الذبائح، فأحرم ودخل مكَّة وطاف بالكعبة ونحر وحلق رأسه، وأقام ستَّة أيـّـام، وقيل: سنة يطعم الناس ويسقيهم العسل. ويروى: ذبح ستَّة آلاف بدنة، وهو أوَّل من كساها، وأوصى بها وُلاَته من جرهم، وأن لا يقربها حائض ولا ميتة ولا دمٌ، وجعل لها بابًا ومفتاحًا، وقال له رجال من هذيل: تحت الكعبة كنز من ذهب وَفِضَّة ولؤلؤ وزبرجد، يريدون أن يهدمها ليهلك، فكذَّبهم الأحبار، ودَلُّوه على فضله، وقتل هؤلاء الهذليِّـين.

(قصص) وَلَمَّا دنا من اليمن حالت حمير بينه وبين دخول اليمن، لأنَّه خالف دينهم، وقال :ديني خير من دينكم، فحاكموه إلى نار تخرج من أسفل جبل تأكل المبطل، فخرجت فأكلت أصنامهم التي أحضروها، وما قرَّبوا معها وإيَّاهم، وما أصاب الحبرين، وقد أخذهما معه فأسلموا.

آمن بالنبيء ﷺ قبل بعثه بسبعمائة سنة، وقيل: بألف، وعن ابن عبَّاس: إنَّه حجَّ وآمن بعيسى وما جاء به، وقد يجمع بأنَّه آمن به قبل وجوده. وقيل: أسعد المذكور هو تبَّع الأوسط. وعنه: عاش ثلاثمائة وعشرين سنة، فقد يجمع بين تقدُّم إيمانه بسبعمائة، وتقدُّم ولادته بألف عام بأنَّه آمن آخر عمره.

وتبَّع اسم لمن ملك اليمن مطلقًا، وقيل: بشرط أن تكون له حمير وحضرموت، وقيل: هما وسبأ، وَسُمِّيَ تبَّعًا لأنَّه متبوع، أو لأنَّ ملوك اليمن بعضها يتبع بعضًا، كما قيل للظلِّ: تُبَّع لأنَّه يتبع الشمس، وعليه فأوَّلهم لا يُسَمَّى تبَّعًا، وَأَمَّا بمعنى متبوع بالجنود، فيُسَمَّى أوَّلاً، أو بالملوك، فحتَّى يملك بعده اثنان أو ثلاث. وهم ستَّة وعشرون في ألفين وعشرين سنة، وقيل: في ثلاثة آلاف عام واثنين وثمانين عامًا.

﴿وَالذينَ مِن قَبْلِهِمُ﴾ قبل قومِ تُبَّع، أو قبل أهل مَكَّة، فهو أعمُّ من الكُفَّار، كعاد وثمود. عطف على «قَوْمُ تُـبَّـعٍ» ﴿أَهْلَكْنَاهُمُ﴾ مستأنف لبيان عاقبة أمرهم، وفيه تهديد لكفَّار قريش. وعلَّل إهلاكهم بقوله تعالى :﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ كافرين أنكروا البعث.

﴿وَمَا خَلَقْنَا اَلسَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ما بين النوعين: أحدهما السماوات والآخر الأرض، ولا يشمل قوله: ﴿مَا بَيْنَهُمَا﴾ ما بين طبقات السماوات وطبقات الأرضين، لأنَّ الضمير للنوعين كما رأيت لا لأجزائهما، فلا تهم، وما بين الطبقات يعلم من خارج ﴿لاَعِبِينَ﴾ عابثين بل لحكمٍ، كالاستدلال بها على الله عَزَّوَجَلَّ، وقدرته، وللتكليف، والدلالة على البعث والحساب والعقاب، ولذلك قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (سورة آل عمران: ١٩١) .

﴿مَا خَلَقْنَاهُمَآ﴾ وما بينهما، فحذف لدلالة ما قبله، أو الهاء لشيئين: الأوَّل للسماوات والأرض، والثاني ما بينهما ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ حال من «نَا»، أو من الهاء. والباء للملابسة، والمعنى: بشيء من الأشياء، إلاَّ ملتبسين، أو للسببيَّة، أي: بسبب شيء إلاَّ بسبب الحقِّ، وهو الإيمان والطاعة، والبعث للثواب والعقاب، والملابسة أولى.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ إنكارهم يؤدي إلى إبطال الكائنات كلِّها، يحسبونه هيِّنًا وهو عند الله عظيم، والقليل يعلم ويعاند، أو الضمير لكفَّار قريش مرادًا به ما يشمل مؤمنيهم على طريق الاستخدام.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠)﴾

أهوال يوم القيامة وما يتعرَّض له الكفَّار والعصاة

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ تمييز الحقِّ من الباطل، والمحقِّ من المبطل، والفرق بين الأحبَّة والأصحاب، والقرابة والأزواج، والجيران والمتعاشرين، إلاَّ اجتماعُ أحدٍ مع آخر للخصام، وكلٌّ مشغول بنفسه، ولو جمعهم موضع واحد، وهذا فرق أيضًا، ثمَّ قد تجمعهم دار واحدة وقد لا تجمعهم، وهي الجنَّة أو النار ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾ آلة وقتهم، أي: ضبطهم، فعْلُه: "وقَتَهُ" بفتح القاف مخفَّفًا، فهو موقوت، أو اسم زمان ميميٌّ على خلاف القياس، أو اسم بمعنى وقت وعدهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لا يُتركُ أحدٌ ولا يبقى في التراب.

﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي﴾ بدل من ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾، أو عطف نكرة على معرفة عطف بيان، بناء على جواز التخالف. [قلت:] ومن الغفلة العامَّة للمفسِّرين إجازة تقدير: «أعني يوم لا يغني»، بلا دليل ولاحاجة إليه، وإجازة تعليقه بالفصل، ولو كان مصدرًا ضعيفًا في العمل مفصولاً بأجنبيٍّ، وتكلُّف الجواب بالتوسُّع في الظروف، والمعنى: يوم لا يجزي ﴿مَوْلًى﴾ صاحبُ، مَن شأنُهُ أن

يتولّى مُعونة صاحبه على أموره، فشمل ابن العمّ والحليف، والعتيق والمعتق، ونحوهم، وكلّ من يتصرّفُ في آخر لقرابة أو صداقة، لأنّ الولاية بمعنى التصرُّف من جملة أنّ أحدا يلي آخر، وذلك من استعمال العامّ في أفراده، لا المشترك في معانيه المختلف في جوازه، وأجازه بعض في النفي فقط، نحو: لا عين عنده، أي: لا باصرة ولا ذهب ولا نهر.

﴿عَن مَّوْلًى﴾ آخر بذلك المعنى ﴿شَيْئًا﴾ مفعول مطلق لـ«يُغْنِي»، ومعناه: إغناء، ويجوز أن يكون مفعولاً به على أنّ معنى «يُغْنِي» يدفع، وبالأولى أن لا يُغني غيرُ المولى.

﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لا ينصر أحدُ الكفّار المولَى ولا غيرَ المولى، وهذا أعمُّ فائدة من رجوع الضمير للمولى الأوّل، وفيه السلامة من استعمال النكرة في سياق النفي، بمعنى الكلّ المجموع، مع أنّ الأصل استعمالها بمراعاة الأفراد، تقول: ما من رجل يقوم، ولا رجل يقوم، ولا تقول: يقومون، على الرّاجح، لكنّه يجوز مراعاة للكلّ المجموع، ومنه ﴿مَا مِنكُم مِّنَ اَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (سورة الحاقة: ٤٧).

ويجوز حمل الآية عليه، فيعود الضمير إلى «مَوْلًى» الأوّل فكيف ينصر هو الأوّلَ وهو ضعيف؟ ونفي نصره الأوّل معلوم من نفي نصر الأوّل له، وأيضًا العمدة في الكلام هو الأوّل، إذ هو الفاعل، فعود الضمير إليه أولى، ويجوز عوده للثاني، أي: ولا هم منصورون بالأوّل، والمعنى على كلّ حال: لا يمنعون [بعضهم بعضا] من العذاب.

﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللهُ﴾ بالعفو وقبول الشفاعة فيه، فإنّه ينصر من العذاب، أي: يمنع عنه، والاستثناء من واو «يُنصَرُونَ» أولى من الاستثناء من «مَوْلًى» الأوّل لفظًا لقربه، ومعنًى للتصريح بالنصر وهو متّصل، إلاّ إن رجّعنا الضمير لِلْكُفَّارِ فمنقطع، أي: لكن من رحم الله لا يحتاج إلى مولى ينصره.

﴿إِنَّهُ, هُوَ اَلْعَزِيزُ﴾ لا قدرة لأحد على نصر من لم ينصره الله عَزَّوَجَلَّ ﴿الرَّحِيمُ﴾ بنصر من أراد نصره.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ أي: الشجرة المسماة بالزَّقُّومِ، أو النابتة بمائع في جهنَّم، لو قطرت منه قطرة في الدنيا لأفسدت طعامها وشرابها، وأنتنتها، شجرة صغيرة الأوراق، كريهة الرائحة، ذات لبن يتورَّم به ما أصاب من الجسد.

﴿طَعَامُ﴾ أصله مصدر، ولذلك أخبر به عن المؤنَّث، أو أخبر به لأنَّ «شَجَرَةَ» كالزائد، وكأنَّه قيل: إنَّ الزَّقوم طعام الأثيم، كما قال الشاعر:

«إنارة العقل مكسوف بطوع هوى»[1]

أي: إنَّ العقل مكسوف، وأولى من ذلك أن يقال: إنَّ الجوامد لا تُغَيَّر غيْرَ الإشارة والموصول، تقول: بغيتي العلم والعلم بغيتي، بلا تأويل.

﴿الاَثِيمِ﴾ عظيم الإثم وكثيره، وهو المشرك، لأنَّ الكلام في المشركين قبل، ولقوله بعد: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [قلت:] وليس المراد بالأثيم خصوص أبي جهل كما قيل عن سعيد بن جبير، ولا خصوص الوليد كما قيل، فضلاً عن أن يقال: إنَّ غيرهما يؤخذ من خارج، بل الآية نفسها تعمُّهما وتعمُّ غيرهما.

ولا يقدح في العموم ما قال سعيد بن منصور عن أبي مالك: إنَّ أبا جهل كان يأتي بالتَّمر والزبد فيقول تزقَّموا، فهذا الزقُّوم الذي يعدكم به محمَّد ﷺ، فنزلت: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الاَثِيمِ﴾، لأنَّ المعتبر عموم اللَّفظ لا خصوص سبب النزول.

١- وتمام البيت: «وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا». البيت من البسيط وهو لبعض المولدين بلا نسبة. انظر المعجم المفصل في شواهد اللغة، ج٣، ص١٧٠.

وكان ابن مسعود يقرئ رجلاً: ﴿طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ ولم يطاوعه لسانه، إلاّ أن يقول اليتيم، بدلاً الأثيم، فقال له ابن مسعود: أتستطيع أن تقول طعام الفاجر؟ قال نعم، قال: فقل طعام الفاجر، رواه عوف بن عبد الله، وروى الحاكم عن أبي الدرداء مثله. وابن مردويه عن أبي أنّه كان يقرئ فارسيًّا، فأبي لسانه إلاّ اليثيم، فمرَّ به النبيء ﷺ فقال له: قل طعام الظلام[1].

وعن أبي بكرة[2] عنه ﷺ : **«القرآن كلُّه شافٍ، ما لم تختم آية رحمة بعذاب، أو آية عذاب برحمة»**[3].

قلت: أمَّا خبر ابن مسعود وأبي الدرداء وأُبيٍّ فلعلَّ المراد قراءة معنًى لا قراءة الكتاب المنزَّل، كما كثر في ألسن بعض الصحابة قراءة القرآن بالتفسير للمعنى لا للتلاوة، أو أرادوا أن يقرأ اللفظ بالبدل تفسيرًا ليتدرَّج منه إلى قراءها بلفظ الترول، إذا فهم المعنى.

(قصّة الشيخ مع تلامذته) ويشبه هذا ما وقع لي مرارًا، يقرأ التلميذ لفظًا بالعَرَبِيَّة، فلا أسمعه لضعف السمع، أو للكنة في لسانه، أو لعجمة منه، أو إخفاء فيعيده لي هو أو واحد بلغتي، أو بلفظ عربيٍّ، فيخطر في نفسي نفس اللفظ الذي قرأه.

١- رواه **الحاكم** في المستدرك، كتاب التفسير (٤٤) تفسير سورة الدخان: ج٢ ص٣٦٤٨، من حديث أبي الدرداء، بلفظ «الفاجر» بدل «الظلام».

٢- تقدَّم التعريف به في ج٨، ص٤٢٩.

٣- جزء من حديث أورده **الهيثمي**، وَأَوَّلُه: «أن جبريل عليه السلام قال يا محمَّد اقرأ القرآن على حرف...»، وقال: «رواه أحمد والطبراني بنحوه»، عن أبي بكرة. الهيثمي: مجمع الزوائد، ١٥١/٧. (برنامج المكتبة الألفية - قرص مدمج).

(فقه) وأمَّا حديث أبي بكرة فلعلَّه في الصلاة مثلاً أو غيرها بلا عمد، فيريد أنَّه لا فساد لصلاته بذلك، ولا إثم بل ثواب كما يشاهد ممَّن لا يحفظ القرآن يقرأ: «غفورًا رحيمًا» بدل «عليمًا حكيمًا»، أو نحو ذلك، أو كانت الإباحة حين قَلَّ الكتَّابُ والضبَّاطُ ثمَّ نسخ.

قال أبو عمرو يوسف بن عبد البرِّ والباقلاني وغيرهما: إن فعَلَ ذلك صحابيٌّ أو أباحه بعده ﷺ فلعلَّه لم يصله النسخ، وإذا لم يجز إبدال كلمة عَرَبِيَّة بكلمة عَرَبِيَّة فأولى أن لا يجوز بكلمة عجميَّة، وشهر عن أبي حنيفة إجازته، وصحَّح عنه بعضُ محقِّقي مذهبه خلافَ الجواز.

﴿**كَالْمُهْلِ**﴾ خبر ثان. قال عبد الله بن عمر هو: عكر الزيت، ورواه الحاكم وغيره عن أبي سعيد الخدري حديثًا عن رسول الله ﷺ ، وفيه: «**وإذا قرِّبَ إلى وجهه سقطت فروة وجهه**» كما في الترمذي عن أبي سعيد الخدري، وفيه عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ : «**لو أنَّ قطرة من الزَّقُّوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معائشهم، فيكف بمن يكون طعامهم**»[1]. ويناسبه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ﴾ (سورة المعارج: ٨) ، مع قوله ﷻ : ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (سورة الرحمن: ٣٧) .

وقيل: المهل عكر القطران، وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: الصديد، قال أبو بكر رضي الله عنه : «ادفنوني في ثوبي هذين فإنَّهما للمهلِ والتراب». وعن ابن عبَّاس وابن مسعود: ما أذيب من ذهب أو فِضَّة أو حديد أو رصاص سمِّي بذلك، لأنَّه يمهل في نار الدنيا حتَّى يذوب.

١- رواه **الحاكم** في المستدرك، كتاب التفسير (٤٤) تفسير سورة الدخان: ج٢، ص٤٩٠، رقم٣٦٨٦. من حديث ابن عبَّاس.

﴿تَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ خبر ثالث كغلي الماء في القدر، كما قال سبحانه: ﴿كَغَلْيِ﴾ يتعلّق بـ«تَغْلِي»، لأنّ الصحيح تعليق الكاف، لأنّها توصل معنى الحدث إلى معنى مدخولها، أو مفعول مطلق، أي: غليًا ثابتًا كغلي، أو غليًا مثل غلي ﴿الْحَمِيمِ﴾ المائع الشديد الحرارة في النار.

﴿خُذُوهُ﴾ مقول لمحذوف مستأنف، أي: يقال: خذوا الأثيم ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ جرُّوهُ بعنف، وعن مجاهد والأعمش: اكسِرُوهُ كالحطب، ولا يتمّ إلاّ بتضمين ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ﴾ وسط، سُمِّيَ الوسط سواء لاستواء الأطراف إليه ﴿الْجَحِيمِ﴾ النار المتأجِّجة.

﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ المصبوب فوق رأسه الحميم، وهو المائع الذي اشتَدَّت حرارته بالنار، لكن بولغ في حرارته حتَّى جعل نفس العذاب، فأضيف إليه إضافة بيان، وكأنَّه قيل: من عذاب هو الحميم. يثقب الزبانيُّ رأسه ويصبُّ في الثقب إلى دماغه ماء حميمًا. و«من» للابتداء أو للتبعيض.

﴿ذُقْ﴾ أي: العذَابَ، وهو مستعار لأَدْرِكْ، مقول لقول مستأنف، أو حال من الهاء لأنَّه جزء ما أضيف إليه، أي: يقال له، أو قُولُوا له، أي: مقولاً له ذُقْ، أو يدرك الذوق بمعنى بدء الشيء وبعده تمامه.

﴿انَّكَ أَنتَ اَلْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ قال عبد الرزّاق عن قتادة: لَمَّا نزلت ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ الْجَحِيمِ﴾ قال أبو جهل لعنه الله: ما بين جبليها أعزُّ ولا أكرم منِّي، فنزل: ﴿ذُقِ انَّكَ أَنتَ اَلْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ فالمعنى: يقال له في النار لأجل قوله ذلك: ﴿ذُقِ انَّكَ أَنتَ اَلْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾. وعن عكرمة مولى ابن عبَّاس: إنَّ أبا جهل قال للنبيء ﷺ : ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، لقد علِمتَ أنّني أمْنَعُ أهل البطْحَاءِ وأنا العزيز الكريم، فيجوز أن يقدَّر: يقال له في النار، أو

بدر: ﴿ذُقِ اِنَّكَ أَنتَ اَلْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ قتله الله يوم بدر، وأذلّه وعيَّره بكلمة: ﴿ذُقِ...﴾.

وروي أنّه قال: يا معشر قريش ما اسمي؟ قالوا: عمرو الحلاس وأبو الحكم، فقال: بل اسمي العزيز الكريم، فنزل: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ...﴾ إلى: ﴿...الْكَرِيمِ﴾، ولا يختصُّ ذلك به بل ذلك لكلِّ أثيم، وقيل: المعنى ذق فإنَّ كرمك في أهلك لا عندنا، وذلك ولو نزل فيه لكنَّه أجيب بما يقال لكلِّ أثيم يوم القيامة.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ هذا العذاب، أو حالكم هذا من البعث والجزاء ﴿مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ تمترون به، أي: تشكُّون فيه، وهو مستأنف، أو من جملة القول المقدَّر. والجمع لأنَّ المراد عموم الأثيم في ذلك كلِّه، لا أبو جهل أو الوليد وحده.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ما للمتَّقين من ألوان النعيم في الجنَّة

﴿إِنَّ اَلْمُتَّقِينَ فِي مُقَامٍ﴾ بضمِّ الميم: في موضع إقامة.

(صرف) والمقيم ملازم للمقام (بفتح الميم) الذي أقام فيه، والمقام (بفتحها): موضع القيام، أي: الثبات، كقوله تعالى: ﴿مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ (سورة آل عمران: ٧٥)، كما قرئ بفتح الميم من "قام" الثلاثي، ففي المقام بالضمِّ معنى الثبات، لأنَّه من "أقام" بالهمزة المبني على "قام" بلا همز.

﴿امِينٍ﴾ يأمن صاحبه من كلِّ ما يكره كالمرض والموت والفقر والخروج.

(بلاغة) وإسناد الأمن للمقام مجاز عقليٌّ، من إسناد ما للحالِّ إلى المحلِّ، وفي ذلك مبالغة، أو مجاز بالحذف، أي: أمينٌ صاحبُه، وأمَّا جعله للنسب، أي: صاحب أمن فلا ينفصل به، لأنَّ المكان ليس صاحب أمن حقيقة، وكذا إن قيل: مأمون، لأنَّ المأمون صاحبه لا هو، وقيل: مأمون فيه، ففيه الحذف والإيصال، فيبقى اللفظ أنَّ المكان هو المأمون، فلم ينفصل به. وقيل: هو من الأمانة، شبِّه بإنسان مؤْتَمَن فرمز إليه بلازمه وهو الأمانة، فذلك استعارة مكنيَّة تخييليَّة.

﴿فِي جَنَّات وَعُيُونٍ﴾ جارٌّ ومجرور بدل من الجارِّ والمجرور، وهما ﴿فِي مُقَامٍ اَمِينٍ﴾. وأمَّا أن تقول: «جنَّات» بدل من «مُقَام» وزيدت عليه «في» فليس في شيء من فنِّ النحو. وذكر الجَنَّات والعيون مُشعِرٌ ببسط العيش والتلذُّذ بالأكل من الجنَّات والشرب من العيون، والزيادة على ذلك، كما لو قيل: فلان يلبس الثياب الجيِّدة وفي راحة، علمت أنَّه مبسوط عليه من سائر الأنواع.

﴿يَلْبَسُونَ﴾ خبر ثان، أو مستأنف، كأنَّه قيل: فما لباسهم؟ ﴿مِن سُندُسٍ﴾ نعت لمفعول محذوف، أي: ثيابًا من سندس. والسندس: الحرير الرقيق، وزعم بعض أنَّه نسب إلى «سند» أُبدِلَتْ ياء النسب سينًا، وذلك يجلب من سند.

﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ الحرير الغليظ، وأصله في لغة الفرس الغليظ مطلقًا، وقيل: هو معرَّب «إستبر» بلا قاف، وكلٌّ من «سندس» و«إستبرق» معرَّب، وقيل: «إستبرق» عربيٌّ من البراقة وهي اللَّمعان، وأُيِّد بقراءة وصل همزته، وهمزة الوصل لا توجد في العجمة، ويجاب بِأَنَّ وصلها من جملة تعريبه بوزن استفعل.

[قلت:] وذكر اللفظ العجميِّ في القرآن لا يخرجه عن أنَّه عربيٌّ، لأنَّ ذكر العجميِّ فيه على طريق حكاية العجميِّ، ثمَّ إنَّ كون «استبر» عجميًّا لا يوجب أن يكون «إستبرق» عجميًّا.

﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ في مجالسهم تقابلاً يزدادون به لذَّةً، ولا يزيلون به وحشة إذ لا وحشة في الجَنَّة لمن فيها، ولو فرض أنَّه لا يرى فيها أحدًا. وهو حال مقدَّرة، لأنَّ لبس ذلك ليس مختصَّ الحدوث بحال التقابل، وإنَّما هو قبل وبعد، وفي حال التقابل بلا انكشاف. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمر كذلك، وهو تأكيد، أو آتيناهم مثل ذلك، ويجوز أن يكون المراد: إنَّه لم يتمَّ الكلام على شأن أهل الجَنَّة بل اجْرِ على مثل ذلك وقس عليه، فليس تأكيدا.

﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ عطفٌ على جملة «آتيناهم مثل ذلك» المقدَّرة، أو على «يَلْبَسُونَ». ومعنى «زَوَّجْنَاهُمْ» قرنَّاهم، إذ لا عقد نكاح بل أزواجهم في الجَنَّة مملَّكة لهم كالسراري. ولا يخفى أنَّه يجوز إبقاؤُهُ على ظاهره من التزوُّج الشرعيِّ، كما فسَّر مجاهد «زَوَّجْنَاهُمْ» بأنكحناهم، وذاك كما في الدنيا، إلاَّ أنَّه بلا عقد ولا وليٍّ بل هبة من الله، إذ لا كلفة في الجنَّة، وقيل: فيها تكليف بما شاء الله تعالى من أمر ونهي، كتكليف الملائكة بلا مشقَّة، وذكر بعض أنَّه لا مانع من العقد، والمشهور أنَّه لا تكليف. ويقال: زوَّجته بامرأةٍ وزوَّجته امرأةً، وترك الباء أكثر.

والحوراء: البيضاء عند ابن عبَّاس، أو شديدة سواد العين وبياضها، أو سوادء العين كلِّها، كما في الظباء، وعن مجاهد: التي يحار فيها الطرفُ، وفيه أنَّ هذا يائيٌّ لا واويٌّ، فإنَّه تحيَّر تحيُّرا، والعيناء: واسعة العين.

قال رسول الله ﷺ : «**خلقت الحور العين من الزعفران**»[1] رواه الطبراني عن أبي أمامة وعن أنس مثله مرفوعًا، وأخرج عبد الله بن المبارك عن زيد بن أسلم: «إنّ الله تعالى لم يخلق الحور العين من تراب، إنَّما خلقهنَّ من مسك وكافور وزعفران». وعنه ﷺ : «**خلق الله تعالى الحور العين من تسبيح الملائكة**»[2].

(أصول الدين) والله تعالى قادر على تجسيد الأعراض، فيخلق من تسبيحهم كافورًا ومسكًا وزعفرانًا نساء، بل الصوت جسم.

وقيل: الحور العين نساء الدنيا، يزيدهنَّ الله حسنًا، والصحيح الأوَّل وهو المشهور، ونساء الدنيا يكنَّ في الجنَّة أفضل من الحور العين، ونساء الدنيا حور عين بالمعنى السابق. قيل: للمؤمن زوجة واحدة من نساء الدنيا، وقيل: اثنتان، وقيل: أزواجه كلُّها، ولو فوق أربع بأن يمتنَ عنه ويتزوَّج بعدهنَّ، وإناث متْنَ بلا تزوُّج، وأزواج الأشقياء، ومن تزوَّجت متعدِّدًا فهي لمن ماتت عنه، وهو الأصحُّ، أو لأوَّلهم إن لم يطلِّقها، وتُخيَّر فتختار أحسنهم خلقًا معها، أقوال. وجاء الحديث أنَّ آسية ومريم من أزواج النبيء ﷺ[3].

﴿**يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ**﴾ أرادوها فتحضر، ولا يختصُّ شيء منها بمكان أو زمان ﴿ **ـــ امِنِينَ**﴾ من فقْدِها ومن قلَّتها، ومن مرض بها، ومن كلِّ مَخُوفٍ.

١-رواه **الطبراني** في الأوسط: ج١، ص٢٠١، رقم٢٩٠. ورواه **الهيثمي** في المجمع: ج١٠، ص٤١٩. من حديث مجاهد.

٢-أورده **الألوسي** في تفسيره: ج٢٥، ص١٣٦. وقال: أخرجه ابن مردويه والديلمي عن عائشة.

٣-أورده **الألوسي** في تفسيره: ج٢٥، ص١٣٦. ولم يشر إلى كونه حديثا ولا أثرا.

﴿لاَ يَذُوقُونَ﴾ الذوق في كلِّ شيء أوَّله، ولو كان يكمل بعد ﴿فِيهَا اَلْمَوْتَ إِلاَّ اَلْمَوْتَةَ اَلاُولَى﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكنَّ الموتة قد ذاقوها في الدنيا، وما مضى في الدنيا من الذوق محال أن يذوقوه نفسه في الآخرة، أو الاستثناء متَّصِل من باب التعليق بالمحال، كأنَّه قيل: إن أمكن ذوق الموتة الماضية ذاقوها، كقولك: لا أسقيك إلاَّ جمرًا، والجمر لا يسقى، و لم تُرد الانقطاع.

أو هذا النفي موجودٌ، وزاد أنَّهم لا يذوقون فيها موتًا غير الذي ذاقوه في الدنيا، و«إِلاَّ» اسم في هذا الوجه، وعبارة بعض: إنَّ «إِلاَّ» بمعنى لكن، أي: لكن الموتة الأولى قد ذاقوها، وهذا غير معروف.

وقيل: الاستثناء من موت الجنَّة، لأنَّ السعداء حين يموتون يصيرون إلى ريحان الجنَّة وروحها، ويرون منازلهم فيها، فكان موتهم في الدنيا وقع في الجنَّة، قيل: يارسول الله أينام أهل الجنة؟ قال: «**لا، النوم أخو الموت، وأهل الجنَّة لا يموتون ولا ينامون**»[1].

﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ اَلْجَحِيمِ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: لأجل الفضل من ربِّك، أو أعطاهم فضلا من ربِّك، أو ضمِّن «وَقَاهُمْ» معنى تفضَّل، ونصب «فَضْلاً» على المفعوليَّة المطلقة على أنَّه اسم مصدر وهو التَّفضُّل ﴿ذَلِكَ﴾ النَّيْلُ لِمَا ذُكر ﴿هُوَ اَلْفَوْزُ اُلْعَظِيمُ﴾ من النار بالخير الدائم.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: بلُغتك، أو على لسانك، بلا كتابة، لأنَّك لا تكتب ولا تقرأ مكتوبًا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كي يتفهَّموه ويعملوا بما فيه ﴿فَارْتَقِبْ﴾ ما يحلُّ بهم إن لم يتذكَّرُوا، أو ارتقب النصر، أو ارتقب ما يحلُّ بهم

١- أورده **الهيثمي** في مجمع الزوائد، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط والبزار ورجال البزار رجال الصحيح». الهيثمي: مجمع الزوائد، ج١٠، ص٤١٥. (برنامج المكتبة الألفية - قرص مدمج).

والنصر. ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ ما يحلُّ بك من الموت، كقوله: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ (سورة الطور: ٣٠) ، وقيل: معناه: صائرون للعذاب، وعبَّر عنه بلفظ يشاكل «ارْتَقِبْ»، وذلك ممَّا يقال لهم قبل الأمر بالقتال وبعده، فليس نهيًا عن القتال منسوخًا بالقتال، وقيل: تهكُّمٌ بهم، والمعنى: إنَّهم مرتقبون ما يترل بهم.

والله أعلم

وهـو الموفّق

ما شاء الله لا قوة إلاَّ بالله

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

تفسير سورة الجاثية وآياتها ٣٧

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦ ﴾

مصدر القرآن وإثبات وجود الخالق ووحدانيَّته

﴿حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لأَيَاتٍ لِّلْمُومِنِينَ﴾ دلالات على وحدانيَّته تعالى وقدرته على البعث، وفي قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (سورة البقرة: ١٦٤) ، حذف المضاف كما ذكر، وصرَّح به في آية أخرى، وكما ذكر في قوله عزَّ وجلَّ : **﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾** والقرآن يفسِّر بعضه بعضًا ولا يلزم ذلك، بل في نفس السماوات والأرض آيات إذ ثبتــتا بلا عمد ولا علاقة مع ثقلهما وسعتهما، وهذا دليل عظيم على قدرته تعالى، **وهذا أولى.**

أو يراد: إنَّ في ما اشتملتا عليه آيات، كالشمس والقمر والنجوم، والجبال والمعادن والبحور والشجر، وإذا قدَّرنا في خلق السماوات والأرض وأريد ذلك باعتبار ما فيهما كان قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ عطف خاصٍّ على عامٍّ فيما قيل.

﴿وَمَا يُبُثُّ من دَابَّةٍ﴾ عطف على الكاف في «خَلْقِكُمْ»، أي: وفي خلق ما يبثُّه من دابَّة، على جواز العطف على ضمير الجرِّ بلا إعادة للجارِّ، واختاره أبو حيَّان، ولا سيما أنَّ الجارَّ هنا الاسم وأنَّ الضمير هنا مفعول به تقديرًا.

وقد اختار بعضهم العطف على الضمير المجرور بالمضاف مطلقًا، وباعتبار أنّ الإنسان دَابَّة، يكون عطف عامٍّ على خاصٍّ، كما شمل الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ ولاَ طَآئِرٍ﴾ (سورة الأنعام: ٣٨) ، وغيره.

(نحو) ويجوز أن تكون «مَا» مَصدَرِيَّة، أي: وفي بثّه، كذا قيل، ويتعطّل عليه قوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، إلاّ بتكلُّف أنّ «مِنْ» للابتداء، أي: يحصل الله البثّ من جهة الدَّآبَّة، وعلى المنع من العطف على ضمير الجرِّ إلاّ مع إعادة الجارِّ يكون العطف على «خَلْقِ»، أي: وفي ما يبثّ من دَابَّة، على تقدير مضاف، أي: وفي خلق ما يبثّ، أو بلا تقدير فيكون المعنى: إنّ في ما يبثّ من دَابَّة آيات، من حيث اختلاف صوره وألوانه وكثرته واختلاف طبائعه وإدراكاته، وأعماله ورزقه، وغير ذلك. أو «مَا» منصوب عطفًا على محلِّ المضاف إليه لأنّه مفعول به، أضيف إليه المصدر.

و«فِي خَلْقِكُمْ» خبر للمبتدأ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ءايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ من شأنهم الإيقان بالأشياء على ما هي عليه.

(بلاغة) وإنّما قال هنا: ﴿يُوقِنُونَ﴾ وفيما قبله: ﴿لِلْمُومِنِينَ﴾ وفيما بعده: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ لأنّ المنصف إذا نظر في السماوات والأرض النظر الصحيح علم أنّها مصنوعة، إذ لا صنعة بلا صانع، وأنّ من صنعها ليس من جنسها، ولا من جنس غيرها، وإلاّ كان محتاجًا إلى صانع فآمن بالله تعالى، ولا جنس له حاشاه، وأقرَّ به، وإذا نظر إلى خلق نفسه وسائر الدَّوابِّ وتنقُّلِ ذلك من حال إلى حال ازداد إيمانًا وأيقن، وزال عنه اللّبسُ، وإذا نظر إلى سائر الحوادث المتجدِّدة في كلِّ وقت كاختلاف الليل والنهار، ونزول الأمطار، وحياة الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً وقبولاً ودبورًا، وشدَّة وضعفًا، وحرارة وبرودة، عقلَ واستَحكَمَ عقلهُ وخلص يقينه، وتنكير الآيات في المواضع الثلاثة للتعظيم.

ووجه آخر: أنَّ المراد: إن كُنتُم مُؤمِنِينَ فافهموا هذه الدلائل وإلاَّ بل طلبتم الجزم واليقين فافهموا هذه الدلائل وإن لم تكونوا من أهل الإيمان ولا من أهل اليقين، فلا أقلَّ من أنَّ لكم عقولاً تستعملونها في هذه الدلائل، والإيقان مرتبة خَاصَّة في الايمان، والعقل المؤيَّد بنور البصيرة مدار للإيمان والإيقان، فجعل لخلوص الإيقان من اعتراء الشكوك من كلِّ وجه وفي استحكامه كلَّ خير.

ولا يلزم أن تكون الآية الثانية أعظم من الأولى، ولا الثالثة من الثانية، لأنَّ الجامع بين النظرين موقن وبين الثلاثة عاقل، ونظر الإنسان في نفسه والدوابِّ أدخل في نفي الشكِّ للقرب والتكرار، وكثرة العدد، والتوافق في الجنس، إلاَّ أنَّ المؤانسة والألفة قد تعطِّلان تجدُّد النظر.

وعلى كلِّ حال السماوات والأرض أتمُّ دلالة على القدرة. والنظر إلى الاختلاف المذكور في الآية بعدُ أدَلُّ على استحكام الإيقان للتجدُّد حينًا فحينًا. والمغايرة بين ما هنا وما في سورة البقرة [آية ١٦٤] للتفنُّن.

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ طولاً وقصرًا ونورًا وظلمة، ومجيئًا وذهابًا.

(نحو) [«وَاخْتِلَافِ»] بالجرِّ عطفًا على «خَلْقِكُمْ». و«آيَاتٌ » بعدُ بالرفع عطفًا على «آيَاتٌ» الثاني، عطف معمولين على معمولَيْ عاملين مُختلفين، كقولك: في الدارِ زيدٌ والحجرةِ عمرٌو بجرِّ الحجرة، ويسهِّله تُلُوُّ المجرورِ العاطفَ. والمانعُ لذلك يَعْطِفُ «اخْتِلَافِ» على «خَلْقِكُمْ» ويجعل «ءايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» خبرًا لمحذوف، أي: هي آياتٌ، أو متبدأً لمحذوف، أي: في ذلك آياتٌ. وأجاز بعضهم ذلك بشرط التُّلوِّ المذكور، ويدلُّ على جواز ذلك العطف قراءةُ نصبِ «ءايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» عطفًا له على «آيَاتٍ لِّلْمُومِنِينَ» وعطفا لـــ«اخْتِلَافِ» على «السَّمَاوَاتِ» و«فِي خَلْقِكُم...» معترض.

﴿وَمَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَآءِ﴾ عطف على «اخْتِلَافِ»، ولا تعرُّض في ذلك باختلاف الماء، وإن عطف على «اللَّيْلِ» ففيه تعرُّض لاختلاف الماء: بعضه نافع وبعضه مضرٌّ، وفي النفع والضرِّ تفاوت: بعضٌ أنفع من بعض، وبعضٌ أضرُّ من بعض، وبعضٌ ينفع نباتًا دون نبات آخر، ويختلف ذلك بفصول السنة أيضًا، وكأنَّه على هذا قيل: واختلافِ ما أَنزَلَ اللهُ مِنَ اَلسَّمَاءِ، [أي] جهة العلوِّ، أو السحاب، أو سماء الدنيا يترل منها بقدرة الله، أو ما قضى الله منه في اللوح المحفوظ. ﴿من رِّزْقٍ﴾ مطر، سُمِّيَ رزقًا لأنَّه سببه، أو الماء نفسه رزق، لأنَّ الرزق ما ينتفع به هكذا، والماء ينتفع به في معالجة الطعام والغسل وفي النبات والعطش.

﴿فَأَحْيَا بِهِ الاَرْضَ﴾ بأن أخرج منها أصناف الزرع والثمار والنبات والكمأة ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ خلُوِّها عن ذلك خلوَّ الْمَيِّت عن التولُّد منه، وأمَّا تدَوُّدُه فاستحالةٌ لا زيادة.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ عطف على «اخْتِلَافِ»، وجاز على «اللَّيْلِ» بحدِّ ما مرَّ، وتصريفها: تكوينها من جهة لأخرى كما مرَّ، ومن حال لحال. قيل: أُخِّر ذكر تصريفها عن ذكر المطر مع تقدُّمه على المطر في الوجود للإعلام بأنَّه آية مستقلَّة، بحيث لو قدِّم لأمكن توهُّم أنَّه والمطر آية واحدة، ولأنَّ كون التصريف آية لإنشاء المطر وسائر المنافع، ومنها سوق السفن في البحر لا لإنشاء المطر خاصَّةً، ومعنى تقدُّم تصريف الرِّياح أنَّه إذا أراد الله الإمطار قدَّم عليه الريح. ﴿ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فينتفعون بها.

﴿تِلْكَ﴾ الآيات القُرآنيَّة، أو آيات السورة، أو السماوات والأرض، وخلقكم وما بثَّ من دَابَّة، واختلاف الْمَلَوَيْن، والماء، والتصريف ﴿ءَايَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ تلاوة قراءة بواسطة جبريل عليه السلام، وإسنادُ التلوِّ إلى الله سبحانه وتعالى مجاز عقليٌّ، أو على حذف مضاف، أي: يتلوها مَلَكنا جبريل.

ومعنى تلوُّ السماوات والأرض وخلقكم وما يبثُّ...إلخ: قراءة الألفاظ الدَّالَّة عليها، كما فسِّرت بالسرد المفسَّر بالتلفُّظ، وقد علمت أنَّ المتلفِّظ جبريل عليه السلام. أو التُّلُوُّ: الجري على أيدينا في شأنها.

(نحو) والجملة حال من «آياتٌ»، لأنَّه أخبر به عن الإشارة، وفي الإشارة حدث يصحُّ تقييده بالحال. و«بالْحَقِّ» حال من «هَا» أو من المستتر، والباء للملابسة، أو للسببيَّة الغائيَّة، وهكذا قل في غير هذا الموضع.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ إذا لم يومنوا بآياتنا المذكورة ولا بغيرها فبأيِّ حديث ﴿بَعْدَ اللهِ وَءايَاتِه يُومِنُونَ﴾ قيل: المراد بعد آيات الله. وذكر لفظ الجلالة وأضمر له ثانيًا للتأكيد، كقولك: "أعجبني زيد وكرمه"، في تأكيد "أعجبني كرم زيد"، وليس ذلك حكمًا بزيادة لفظ الجلالة، وزيادة العاطف وإبدالُ آيات بدل اشتمال من لفظ الجلالة.

وقيل: التقدير: فبأيِّ حديث بعد حديث الله، أي: القرآن كما أطلق عليه لفظ الحديث في قوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ (سورة الزمر: ٢٣) ، أي: الحديث الأحسن.

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ⑦ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑧ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑨ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑩ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ⑪ ﴾

وعيد المكذبين بآيات الله وجزاؤهم

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كثير الإفك أو عظيمه، وهو الكذب ﴿أثيمٍ﴾ كثير الإثم أو عظيم الإثم، والآية عامَّة لفظًا ومعنىً، ولو نزلت في أبي جهل، وقيل: في النضر بن الحارث الذي كان يشتري كلام الأعاجم وكتبها، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن.

﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللهِ﴾ الجملة نعت آخر ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ نعت آخر، والأصل: لكلِّ إنسانٍ أفَّاك أثيم يسمع آيات الله، وإنَّما يتمُّ النعت به لقوله: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أو جملة «تُتْلَىٰ...» حال من «آيات» أولى من أن يكون حالاً من المستتر في «يَسْمَعُ» للقرب، ولأنَّ رابطها عمدةٌ، ولو كانت الجملة مِمَّا لا يسمع، كقولك: سمعت زيدًا جاء، كانت مفعولاً ثانيا للسمع.

(نحو) و«كَأَنْ» مخفَّفة، واسمها ضمير الأفَّاك محذوفًا، وهو أولى من ضمير الشأن، وشهر أنَّه ضمير الشأن، وقيل: لا تقدير فهي مهملة، و«يَسْمَعُ» و«تُتْلَىٰ» للاستمرار، و«ثُمَّ» للتراخي الرتبي، لاستبعاد الشرع والعقل الإصرار بعد هؤلاء الآيات. والإصرار على الشيء ملازمتُه، قيل: من الصرِّ وهو الشدُّ، ومنه صرَّة الدراهم، كذا يقال، ومثل هذا قابل للعكس. وجملة «كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا» حال من ضمير «يُصِرُّ»، أو ضمير «مُسْتَكْبِرًا».

﴿فَبَشِّرْهُ﴾ لذلك الإصرار. أصل التبشير: تغيير البشرة بإفراح أو إحزان، أو لطخ شيء، وهي الجلدة، وخصَّه العُرف بتغييرها بالإفراح، بأن تكون مبتهجةً منبسطة، وهو هنا استعارة تهكُّميَّة، أو من باب قوله: «تحيَّة بينهم ضربٌ وجيع». كأنَّه قيل: اجعل عذابًا أليمًا بدل التبشير بالخير، وذلك لقوله: ﴿بِعَذَابٍ

﴿اَلِيمٍ﴾ ويجوز إبقاؤُه على أصله من مطلق التغيير، ومنه تغيير بشرهم إلى السواد والصورة القبيحة، وهكذا كلٌّ ما ورد في الشرِّ.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنَ ـ ايَاتِنَا شَيْـًٔا﴾ بأن سمع منها شيئًا ﴿اتَّخَذَهَا﴾ أي: الشيء، وأنَّثه لأنَّه آية ﴿هُزُؤًا﴾ صيَّرها نفس الهزؤ مبالغة، أو مهزوءًا بها، ومعنى اتِّخاذها هزؤًا تكرير الهزؤ بها، فهو أبلغ من أن يقال: وإذا علم من آياتنا شيئًا هَزأَ بها قبل التأمُّل وبعد التأمُّل فيما يعيبها به. والهزؤ: اللعب بها واحتقارها، والتكذيب بها، والجدال فيها بالباطل، كما اعترض ابن الزبعرى[1] [عندما نزل] ﴿إِنَّكُم وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٨) ، بأنَّ الملائكة وعيسى وعزيرًا عُبِدُوا من دون الله فهم حصب جهنَّم.

ويجوز عود ضمير النصب إلى الآيات، كأنَّه استهزأَ بهنَّ كلِّهنَّ صُرَاحًا حين استهزأ بما علم منهنَّ، لأنَّ الاستهزاء بواحدة منها استهزاءٌ بها كلِّها، لما بينها من الاتِّفَاق بأنَّهنَّ من الله عز وجل ، وبالتماثُل.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأفَّاكُونَ المُصِرُّونَ بعد السمع، المتَّخذون الآيات هزؤًا. والجمع باعتبار معنى شمول كلٍّ، والإفراد في «يَسْمَعُ» و«عَلَيْه» و«يُصِرُّ» وما بعد ذلك باعتبار فَرْدٍ فَرْد. وإشارةُ البعد لبُعد مترلتهم في الشرِّ. ﴿لَهُمْ﴾ بسبب إفكهم وإثمهم وما ذكر بعده ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مُحَقِّرٌ ومُذِلٌّ لهم، ضدَّ استكبارهم، ومقابلةً لاستهزائهم، جزاءً وفاقًا.

(بلاغة) ولهذه المقابلة والجزاء المضادِّ والمماثل أخِّر قوله: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنَ ـ ايَاتِنَا شَيْـًٔا اتَّخَذَهَا هُزُؤًا﴾ مع أنَّه من جملة نعوت الإنسان الأفَّاك، إلاَّ أنَّه بالعطف، وأخبر عن الإشارة أيضًا بقوله سبحانه:

١- تَقَدَّمَ التعريف به في معرض تفسير الآية ٥٧ من سورة الزخرف.

﴿مِّنْ وَّرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ من خلفهم، لأنَّهم مُعرِضُونَ عمَّا ينجِّيهم منها من التوحيد والعمل الصَّالح، فهي كالشيء المنبوذ خلف الظهر، كأنَّه لم يكن، ولأنَّها بعد الأجل فهي كشيء يتبعهم من خلف.

أو المراد: من قدَّامهم جهنَّم، لأنَّهم متوجِّهون إليها لمضيِّ أعمارهم شيئًا فشيئًا، كالسَّائر إلى موضع، أو بالاشتغال بما يقرِّبهم إليها من الشرك وما دونه، ووجه ذلك أنَّ الوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص فعمَّت الخلف والقدَّام، فإنَّك موارٍ خلفك عن قدَّامك، وقدَّامك عن خلفك.

وَلَكِنَّ الأصل أنَّه بمعنى خلف، فالحمل عليه أولى، وأيضًا خفاء ما وراءك وظهور ما قدَّامك أنسب. والجملة خبر ثانٍ للاشارة.

﴿وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا﴾ ماكسبوه من الأولاد والأموال، أو كَسْبُهم ﴿شَيْئًا﴾ أيْ: إغناءً، فهو مفعول مطلق، أو لا يدفع عنهم شيئًا من الضرِّ فهو مفعول به.

﴿وَلاَ مَا اتَّخَذُواْ من دُون الله أَوْلِيَآءَ﴾ مفعول ثانٍ، والأوَّل محذوف، أي: وما اتَّخذوه أولياء، أو ولا اتِّخَاذهم غير الله أولياء، وهي الأصنام، وقيل: الأصنام ومن عبدوا من الملائكة وغيرها، والأوَّل أولى، لأنَّهم يتحبَّبون إلى الأصنام ويرجونها ما لا يتحبَّبون إلى غيرها ويرجونه، للمشاهدة والقرب منها، وكانوا يطمعون في شفاعتها، ولطمعهم فيها كرِّرت «لاَ»، مع أنَّ عدم إغنائها أظهر من عدم إغناء الأولاد والأموال. وفي جمعها مع الأولاد والأموال ونَفْيِ إغنائها كأنَّها شيءٌ يمكن منه النفع تَهَكُّمٌ. ﴿وَلَهُمْ﴾ في جهنَّم التي وراءهم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يعلم قدره إلاَّ الله.

﴿هَذَا﴾ أي: القرآن المدلول عليه بقوله: ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللهِ﴾، ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنَ ـــ ايَاتِنَا﴾ و﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللهِ﴾ و﴿بِئَايَاتِ رَبِّـــهِم﴾. ﴿هُدًى﴾ دلالة

عظيمة، وألفاظ القرآن دالّةٌ، والتلفُّظ بها دلالة للسامع. وإن فسَّرنا الهدى بهُدَى العِصْمَة كان المعنى: إنّ القرآن في كمال الدلالة كأنَّه نفس العصمة والتوفيق.

﴿وَالذينَ كَفَرُواْ بِئَايَاتِ رَبِّـهِمْ﴾ أي: القرآن، وعبَّر بهذا بدل «كفروا به»، أي: بذلك الذي هو هدى، لزيادة تقبيح كفرهم. أو الآيات: القرآن وسائِر المعجزات، أو ذلك كلُّه وسائرُ كتب الله.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ من أشدِّ العذاب ﴿الِيمٍ﴾ أسند الألَمَ إلى الرِّجز مبالغةً.

(صرف) ومما يذكر أنَّه بمعنى مؤلِم (بكسر اللام) تفسير للوصف من الثلاثي بمعنى الوصف من الرباعي، كمصدر الثلاثي إذا كان بمعنى المصدر مما فوقه.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

من نعم الله تعالى على عباده، والدعوة إلى العفو والمغفرة

﴿اللهُ الذي سَخَّرَ لَكُمُ الْبحْرَ﴾ لا تذهب فيه الخشب المجوَّفة ولا الخشب المتخلِّلة إلى أسفله ﴿لتجْرِيَ الْفُلْكُ فيه بأَمْرِه﴾ بتسخيره تعالى إيَّاهُ، وتسخيره أمرٌ من أُموره، وقيل: بتكوينه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا اَنْ يَّقُولَ

لَهُ, كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة يس: ٨٢) ، وهذا على وجه، أو بإذنه وإرادته، ولا يخفى أنَّ الممتنَّ به جريان الفلك فيه وهم فيها، أو هم وأموالهم بلا تَجْرٍ أو بهِ، فهو أعمُّ من قوله:

﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾ بالسير فيه ﴿مِن فَضْلِه﴾ بالتَّجْرِ وأَخَصَّ منه، من حيث إنَّ الابتغاء من فضله يشمل الصيد والغوص لنحو لؤلؤ وغير ذلك. وذِكْرُ التسخير وما بعده تتميمٌ للتفريع، كما يدلُّ له ذكر الأغراض العاجلة المستوجبة للشكر، كما قال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كي تشكروا نعمة التسخير وما ذكر، وكأنَّه قيل: تلك الآيات أولى بالشكر، ولذا عقَّب بما يعمُّ العاجلة والآجلة، وهو قوله:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ من المنافع الظاهرة والخفيَّة، إذ ذكر التفكُّر بعد، وهو ملاك الأمر ﴿جَمِيعًا﴾ حال من «مَا» في الموضعين، أو توكيد، أي: جميعهما ﴿مِّنْهُ﴾ حال من «مَا» في الموضعين، أو متعلِّق بـ«سَخَّرَ»، فيكون فيه عَمَلُ عاملٍ واحدٍ في ضميرين لشيء واحد، وأنت خبير بجواز ذلك إذا كان ذلك بحرف جرٍّ.

روى الطبرانيُّ أنَّ ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال في تفسير ذلك: كلُّ شيء من الله تعالى، فمعنى قول عكرمة: إنَّ ابن عبَّاس لم يفسِّرها أنَّه لَمْ يَبْسُط الكلام فيها، ويحتمل أنَّ عكرمة لم يبلغه هذا التفسير.

وسأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاصي: ممَّ خلق الله الخلق؟ قال: من الماء والظلمة والنور والريح والتراب، قال: فممَّ خلق هؤلاء؟ قال: لا أدري، وسأل الرجل عبد الله بن الزبير فقال كذلك، فسأل ابن عبَّاس فقال: من الماء والنور... قال: فممَّ خلق هؤلاء؟ فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾.

[قلت:] وظهر لي في قول ابن عبَّاس أنَّه أراد منعه من التسلسل، وأنَّه خلق هؤلاء من شيء، أو تتابعت أشياء لكنَّها تنتهي إلى شيء لم يخلقه الله من شيء، أو أراد أنَّ كُلَّ شيء مستأنف من الله سبحانه وتعالى ، ولو ذكر له الخلق من تلك الأشياء مؤانسة له ومجاراة.

وعاد إلى التحقيق بأنَّ الله لا يحتاج إلى شيء يخلق منه شيئًا، ولكن اقتضت حكمته التولُّد والأسباب، وهو خالق لهما ولأجزائهما، وهما غير مستقلَّين، فكأنَّهما لم يكونا، وعن ابن عبَّاس: كلُّ ذلك رحمة منه، وقيل: كلُّ ذلك تفضُّل منه وإحسان.

(نحو) وعليهما فـ«مِنْهُ» خبر لمحذوف، والمشهور أنَّه متعلِّق بـ«سَخَّرَ»، أو بمحذوف حال من «مَا» في الموضعين، قيل: أو نعت لمصدر، أي: تسخيرًا منه، وهذا يغني عنه تعليقه بـ«سَخَّرَ».

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من التسخير وما بعد ﴿لَأيَاتٍ﴾ كثيرة عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في خلقه، فيهتدون إلى الإيمان والإيقان والشكر، ومن تفكَّر في الله سبحانه أدَّاه فكرُه إلى تشبيهه بخلقه فيشرك.

﴿قُل﴾ يا محمَّد ﴿لِّلذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اِغفروا للذين لا يرجون أيَّام الله، ويعفوا أو يصفحوا فيما علموا منهم من شتم أو [أخذ] مال، أو ضرب، أو غير ذلك ﴿يَغْفِرُواْ﴾ مجزوم بلام الأمر محذوفة، أي: قل لهم ليغْفروا، والمعنى: قل لهم اغفروا، أو المجزوم في جواب «قُلْ»، ولا يصحُّ أن يجزم في جواب «اغفروا» المقدَّر، إذ لا معنى لقولك: اغفروا يغفروا، والقول لا ينسحب على «يَغْفِرُوا» لأنَّ «يَغْفِرُوا» لم يدخل في الحكاية.

﴿لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ أوقات ثوابِ المؤمنين وفوزهم لإنكارهم ذلك، أو الرجاء بمعنى توقُّع السوء من الله بالانتقام منهم، يقال: يوم من أيَّام

العرب، أي: حرب، وذلك مجاز مرسل لعلاقة التضادِّ، أو لعلاقة الإطلاق والتقييد، بأن وضع الرجاء لانتظار الخير، ثمّ اعتبر لمطلق الانتظار، وأخذ من هذا المطلق انتظار الشرِّ.

نفى الله تعالى من المشركين انتظاره لتكذيبهم به، وهذا الشرُّ دنيويٌّ، أو أخرويٌّ، أو كلٌّ منهما، ومثل ذلك يقال في المشركين قبل الأمر بالقتال وبعده، فلا نسخ.

وروي أنّ عمر رضي الله عنه شتمه مشرك من غفار بِمَكَّةَ، فهمَّ أن يبطش به، فنزلت الآية، فهي مكّية، وقيل: همَّ أن يبطش به بعد الهجرة لأنّه قبلها لا يقدر على البطش به، قلت: لا دليل على هذا، لأنّ للمسلمين فيها قدرة على الانتقام، إذا كان لأمر بَدَنِيٍّ، أو ماليٍّ أو شتمٍ، لا لِدِينِيٍّ يظهره، فلو انتقم لدينيٍّ يظهره لِقُوَّة قلبه وشجاعته وهيبته في الناس كان كغيره، ولا سيما أنّه قيل شاتمه رجل من غفار، وذلك الغفران بإظهار العفو، أو ما يدلُّ له من حسن كلام، أو عشرة أو غير ذلك. والأمرُ بالغفران أمر بترك الانتقام في القلب لقصد الثواب.

(سبب النزول) وقيل: آذى المشركون المسلمين في مَكّة، وشكوا إلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية. وروي عن ابن عباس ما يدلُّ أنّ الآية مَدَنِيَّة: أنّه ﷺ وأصحابه نزل في غزوة بني المصطلق على بئر يقال لها المريسيع، فأرسل ابن أُبَيٍّ غلامه، ليستقي، فأبطأ، فقال: ما حبسك؟ قال: غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدًا يستقي حتّى ملأ قرب النبي ﷺ، وقرب أبي بكر رضي الله عنه، فقال ابن أُبَيٍّ: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلاّ كما قيل: «سَمِّنْ كلبَك يأكُلْكَ»، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه، فاشتمل على سيفه يريد التوجُّه إليه، فأنزل الله تعالى الآية.

(سبب النزول) وعن ميمون بن مهران: لما أنزل الله تعالى: ﴿مَن ذَا الذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (سورة البقرة: ٢٤٥) ، قال فنحاص اليهوديُّ: احتاج ربُّ محمَّد، فسمع عمر بذلك فاشتمل سيفه وخرج، فبعث النبيء ﷺ في طلبه حتَّى ردَّه، ونزلت الآية، فهي مَدَنِيَّة.

﴿لِيَجْزِيَ﴾ الله يوم القيامة، متعلِّق بـ«اغفروا» المقدَّر، أو بـ«قُلْ»، لأنَّ قوله: «اغفروا» سببٌ لأَنْ يغفروا لهم، وغفرانهم يترتَّب عليه الجزاء، وسببه هو القول، فهو مترتِّب على القول بالواسطة فصحَّ تعليل القول بالجزاء، وَجْهُ جعله تعليلاً أنَّه بلا واسطة لكن فيه تعليل مَّا حذف، ووجه جعله تعليلاً للقول أنَّه مذكور لكن فيه الواسطة، **والأوَّل أولى**، لأنَّ ذلك المحذوف كالمذكور.

ويجوز تعليقه بـ«يَغْفِرُوا»، أي: مرهم بالغفران فيتنبهوا فيقصدوا بالغفران الجزاء، ويجوز أن يكون ﴿لِيَجْزِيَ...﴾ دَاخلاً في المقُول، فمقتضى الظاهر على هذا: ليجزيكم بما تكتسبون، فذكره الله بالإظهار.

﴿قَوْمًا﴾ عِظام الشأن بصبرهم على الأذى لوجه الله، و إقامة دينه، وهم المؤمنون الصابرون ـ على الأذى من المشركين ـ الغافرون، وفي التنكير تعظيم من جهة أخرى وهي التلويح بأنَّهم معروفون عرِّفوا أو نُكِّروا، مع العلم بأن المجزي لا يكون إلاَّ العامل وهو الغافر في الآية.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ بما كانوا يكسبونه من الصبر على ذلك والعفو، أو بكونهم يكسبونهما، لأَنَّ الكلام عليهما، أو بهما وبغيرهما من الأعمال الصالحة، فيتوفَّر أجرُهم أكثر من توفُّره لو لم يؤمروا بالصبر فلم يصبروا، أو لو لم يصبروا وقد أمروا بالصبر لحبطت أعمالهم. والباء للسببيَّة، أو للمقابلة، أو صلة بـ«يَجْزِي»، كما تقول: جزيته بدرهم.

ويجوز أن يراد بالقوم الكافرون، بمعنى: ليجزيهم بسيِّئاهم بلا نقص منها، فإنَّهم إن انتقموا بما لأنفسهم سقط مقابله عن المشركين، لكن يبقى إصْرارُهم، فالتنكير حينئذ للتحقير.

ويجوز أن يراد بالقوم الأمَّة، المؤمن والمشرك، المؤمن يُجزى على صبره وعمله، والمشركُ يُجزَى بسيِّئاته كلِّها، هذا الإيذاء وسائر أعماله.

وما ذكرت أوَّلاً أولى، ويدلُّ له ما روي عن سعيد بن المسيِّب: كُنَّا عند عمر فقرأ قارئ: «ليجزي عمر بما صنع» ولم ينهه عمر، وذلك قراءة تفسير لا قراءة ما نزل، أو قرأ الآية كما نزلت، ثمَّ قال: هذا تفسير، لَكِنَّ ظاهر قول الراوي: «قرأ» أنَّه قرأ الآية بذلك للتفسير. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ فعمله لنفسه ﴿وَمَنَ اَسَآءَ﴾ أذنب ومات غير تائب ﴿فَعَلَيْهَا﴾ فعمله على نفسه، لا يتعدَّى عمل إلى غير عامله. والآية في الموَحِّد والمشرك. [قلت:] ومن عمل حسنة ونواها لغيره أثيبا معًا، وقصده[1] ونواه لنفسه لا لغيره.

﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الذكريِّ بلا تراخ، أو مع تراخ رتبيٍّ، والعطف على الجملة قبلها ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء.

﴿وَلَقَدَ اٰتَيْنَا بَنِيَ إِسْرَآءِيلَ اَلْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوءَةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ اَلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى اَلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ اَلْاَمْرِ فَمَا اَخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ اُ۬لْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمُۥٓ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِے بَيْنَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٧ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ اَلْاَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعَ اَهْوَآءَ اَلذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُّغْنُواْ عَنكَ مِنَ

١- كذا في النسخ، ولعلَّ الصواب: ولو قصده...

اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

نعمة الله على بني إسرائيل وعلى الرسول بإنزال الشرائع

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ الْكِتَابَ﴾ المعهود لهم، وهو التوراة المشتملة على الأحكام الكثيرة.

ويقال: لم يتَّسع لنبيء فقهُ الأحكام ما اتَّسع لموسى عليه السلام، وقلَّت الأحكام في الإنجيل، وأكثرُ أحكام عيسى من التوراة، وأمَّا الزبور فأدْعيةٌ ومناجاةٌ، والصُّحف مواعظ. ولا مانع من أن يراد بـ«الْكِتَاب» الجنس الشامل لذلك كلِّه، لأنَّها كلَّها لأنبياء بني إسرائيل يمتنُّ الله تعالى بها عليهم، وأحكام القرآن كثيرة، وباعتبار ما يستخرج منه العلماء تكون أكثر مِمَّا في التوراة.

﴿وَالْحُكْمَ﴾ القضاء بين الناس، وكان المُلك فيهم، أو الفقْهُ في الدين، أو الحكَمَ النَّظَرِيَّة الأَصلِيَّة، والعمليَّة الفرعيَّة ﴿وَالنُّبُوءَةَ﴾ ما كثرت النبوءة والرسالة إلاَّ فيهم.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ كلِّهم من حيث كثرة النبيئين والكتب والمعجزات، لا من كلِّ وجه، فإنَّ هذه الأمَّة أفضل من حيثُ إنَّ نبيئها أفضلُ الأنبياء، وكتابَها أفضل الكتب، تشهد بذلك أنبياء بني إسرائيل وكتبهم، ومرَّ كلام في مثل هذه الآية [سورة الدخان آية٣٢] وذلك كما قال الله عز وجل :

﴿وَءَاتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ قال ابن عبَّاس: من أمر النبيء صلى الله عليه وسلم، وعلامات مبيِّنة لصدقه عليه الصلاة والسلام، ككونه يهاجر من مَكَّة إلى يثرب،

ويكون أنصاره أهلها، والآيات الدلائل الظاهرة في أمر الدين. و«مِنْ» بمعنى في، وشملت معجزات موسى عليه السلام، وسيدنا محمَّد ﷺ، وبعض شأنه، وفسَّرها بعض بمعجزات سيدنا موسى عليه السلام.

﴿فَمَا اخْتَلَفُواْ إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ في كتابهم بحقيقة الحال، فجعلوا ما هو موجب لعدم الخلاف موجبا لرسوخ الخلاف، ومن ذلك الباب أنَّهم كانوا مؤمنين برسول الله ﷺ، فلمَّا بعث وأنزل عليه الكتاب أنكروه، وقلَّ من آمن منهم، فذلك اختلافهم.

أو المراد أنَّهم خالفوا على أنَّه لم يُعْتَدَّ بمن آمن لقلَّته، ووجه الرسوخ قُوَّة دلائل التوراة، وما كفروا معها إلاَّ لرسوخ كفرهم.

[قلت:] فيجوز أن يكون «الْعِلْمُ» القرآن، وهو أولى في تسبُّب كفرهم، أو المراد: كتبهم والقرآن.

﴿بَغْياَۢ بَيْنَهُمْ﴾ عداوة وحسدًا، لا شكًّا في التوراة أو في القرآن، ومازالوا في ذلك حتَّى رسخ الإنكار فيمن بعدهم، ولم يذعنوا في قلوبهم وألسنتهم حتَّى كانوا مثل مشركي العرب، ومن لا كتاب له.

[قلت] والآن قلَّ من يقول محمَّد رسول العرب[1]، أو رسول من لا كتاب له، وكذبوا، بل رسول إلى الناس كلِّهم، قال ﷺ: «**لو كان أخي موسى حيًّا لم يسعه إلاَّ اتِّباعي**»[2].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ بالجزاء ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدِّين فيثيب المحقَّ ويعاقب المبطل، كالمجسِّمة منهم

١- لعلَّ ذلك في زمان الشيخ، أمَّا الآن فالأمر بالعكس بل كاد أن يكون إجماعا منهم.

٢- تقدم تخريجه، انظر: ج٦، ص٣١٣.

ومحرِّفي التوراة، ومنكري عيسى، والإنجيل وسيِّدنا محمَّد صَلَّى الله عليهما وسلم والقرآن.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ عظيمة ﴿مِّنَ الاَمْرِ﴾ «ثُمَّ» للترتيب والتراخي الزماني، ويجوز أن يراد الرتبي، والشريعة: الطريق الواضح الواسع، الذي ينتفع سالكه، ويصل به إلى المقصود من عين الماء، أو البلد، أو السوق، أو غير ذلك، وقيل: الذي يوصل به إلى عين الماء.

وعلى كلِّ حال استعير للقرآن وما معه من سائر الوحي، لأنَّه ينتفع بهما متَّبعُهما، ويصل بهما إلى الجنَّة ورِضَى الله، وينجو من ا لهلاك، فمن عمل بهما كمن روى وتطهَّر، أعني آمن وترك الذنوب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (سورة الأحزاب: ٣٣) .

وليس المراد المبالغة في الإيمان حتَّى يعرض عن كلِّ شيء غير الله، فإنَّ هذا شاذٌّ غير مشروط، ومنه ما قال بعض الحكماء: «كنت أشرب فلا أروي، فَلَمَّا عرفت الله رويت بلا شرب»، بمعنى أنَّه كان يعالج نفسه وهواه ولا يصل المقصود، وَلَمَّا أسلم ورسخ إسلامه أعرض عمَّا سواه تعالى، أو كان ذلك في إسلامه وهو مؤمن لا مشرك، وَلَمَّا ازداد إيمانه بالمعالجة والإخلاص التامِّ أعرض عمَّا سوى الله تعالى.

و«مِنْ» للبيان، أي: وهي أمر الدين، ويضعف تفسيره بالأمر ضدَّ النهي فيقدَّر على شريعة من الأمر والنهي.

﴿فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعَ اَهْوَآءَ اَلذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ كمشركي قريش وجُهَّال قُريظة والنضير، وعلمائهم الضالِّين المبثتين إضلاله وكل ضالٍّ[1]. ﴿إِنَّهُمْ لَنْ

١- كذا في النسخ و لم يَتَّضِح لنا المراد. تأمل.

﴿يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ لن يدفعوا عنك عقابًا على اتِّبَاعهم في قولهم: إنَّك لست رسولاً، وقول من يقول: ارجع إلى دين آبائك، كما تقول قريش، وسوَّغه بعض اليهود، أو إنَّك نبيء إلى غير أهل الكتاب ونحو ذلك، أو لن يكْفُوكَ في أمر تحبُّه من الله ﷻ . والجملة تعليل، ولست بوليٍّ ولا هم أولياؤك، وإنَّما وليُّك الله ومن آمن به.

﴿وَإِنَّ الظَّالمينَ﴾ بالإشراك وما دونه ﴿بَعْضُهُمُ, أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فهم الذين يتَّبعون بعضهم بعضًا في الهوى ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين أنت منهم وقدوتُهم، فَدُم على ولايته والإعراض عمَّا سواه ﷻ .

﴿هَذَا﴾ أي: القرآن، أو الأمر المشروع منه، ومن سائر الوحي إليك، أو الاتِّباع المعلوم من قوله: ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾، ولتعدُّد ما تضمَّنه اسم الإشارة المفرد أخبر عنه بالجمع إذ قال: ﴿بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ﴾ أي: بمترلة البصائر في القلوب، مع أنَّه ما هو إلاَّ سببُهَا، أو بمترلة العيون التي يبصر بها، فإنَّه مشتمل على مَعَالِم الدين ﴿وَهُدًى﴾ من الجهل والضلال والهلاك ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ خارجين عن الشكِّ.

(لغة) وليس لفظ القوم دالاًّ على المدح كما قيل، ولو كان أصله من القيام، وإنَّما يدلُّ أمر خارج كالإيقان، وكسب الخير، وعمل القوم عملاً حسنًا، ألا ترى أنَّه أطلق على الأقوام الكفرة كعاد وثمود؟ ودعوى أنَّه عبَّر عنهم بما هو عندهم من المدح غير ظاهر، ولا دليل عليه، وخلافُ الأصل. وإذا مدح الرجل بقولك: يا ابن القوم فإنَّما هو فيمن قومه كرام، أو ادَّعَى لهم الكرم، ولا يقال لكلٍّ أحد: يا ابن القوم.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

حال المحسنين والمسيئين في المحيا والممات

﴿أَمْ حَسِبَ﴾ إضراب انتقاليٌّ توبيخيٌّ إنكاريٌّ إلى بيان حال المسيئين، وحال المحسنين بالإيمان والعمل، بعد بيان حال الظالمين والمتَّقين، **أنَّهم لا يستوون**، وإنَّما تغايرهم بعنوان الظلم والاتِّقاء وكسب السَّيِّئات، والإيمان والعمل الصالح، وإلاَّ فالمجترحون للسيئات هم الظالمون، والمؤمنون العاملون هم المتَّقون ﴿**الذين اجْتَرَحُواْ**﴾ اكتسبوا، ومنه تسمية الأعضاء جوارح، وقولهم: فلان جارحة أهله، أي: كاسب لهم، وكلب الصيد وطائر الصيد جارحة، لأنَّه يكسب لسيده ﴿**السَّيِّئاتِ**﴾ سَيِّئات الشِّرك

(سبب النزول) روى البعض أنَّ عتبة وابنه الوليد وشيبة قالوا لعليٍّ وحمزة والمؤمنين: «والله ما أنتم على شيء، ولئن كان ما تقولون حقًّا لَحالُنا أفضل من حالكم يوم القيامة كما هو أفضل في الدنيا» فنزلت الآية ردًّا عليهم.

(أصول الدين) ويؤخذ من ذلك حكم الموحِّد الفاسق والموحِّد الموفِّي، فالفاسق في النار والموفِّي في الجَنَّة، ولا مانع من حمل الآية عليهما وعلى المشرك، وعلى هذا ففيها زيادة إقناط المشركين، إذا كان الموحِّد الفاسق في النار فالمشرك أولى بها، وكذا إن حملت على الموحِّد المجترح للسيِّئات التائب، والموحِّد الموفِّي، ولا يعارض شمولَهما قولُه: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وقد تمثَّل

بالآية تميم الداري[١] والرَّبيع بن خُثَيْم[٢] ونحوهما الموحِّد الفاسق، والموحِّد الموفِّي مع إبقائها في أهل الشرك، أو حملوها على العموم فيهما وفي المشرك، أو فسَّروها بهما.

قال أبو الضحى[٣] قرأ تميم الداري سورة الجاثية، فلمَّا أتى على قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الذينَ...﴾ لم يزل يبكي ويكرِّرها حتَّى أصبح عند المقام، قال مسروق: قال لي رجل من أهل مكَّة : هذا مقام أخيك تميم الداري، ولقد رأيته ذات ليلة قائمًا لها حتَّى أصبح أو قرب أن يُصبح يقرأ آية من كتاب الله ﷻ يركع بها ويسجد ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ الذينَ اَجْتَرَحُواْ السَّـيِّـئَات...﴾. ومعنى «يركع بها»: يركع عنها، أو يصلِّي بها، لورود النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، أو جاز ذلك في النفل.

وروى ابن أبي شيبة عن بشير مولى الربيع بن خيثم، أنَّ الربيع كان يصلِّي فمرَّ بهذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الذينَ اَجْتَرَحُواْ السَّـيِّـئَات...﴾ فكرَّرها حتَّى أصبح. وكان الفضيل بن عياض إذا قرأها قال لنفسه: ليت شعري من أيِّ الفريقين أنت؟ **وكان الخائفون يبكون لهذه الآية حتى إنَّها تسمَّى: "مبكاة العابدين".**

ويؤخذ بالقياس أنَّ الموحِّد المستغرق في السَّـيِّـئَات التائب لا يساوي العابد

١- تقدَّم التعريف به في ج٩، ص٢٥١.

٢- الربيع بن خُثَيْم بن عائذ أو زيد الكوفي أدرك زمان رسول الله ﷺ ، وأرسل عنه، روى عن عبد الله بن مسعود وأبي أيُّوب الأنصاري، وهو قليل الرواية، إلاَّ أنَّه كبير الشأن، زاهد في الدنيا، تُوُفِّيَ قبل٦٥هـ. سير أعلام النبلاء، ج١، ص١٤٤.

٣- أبو الضحى مسلم بن صبيح القرشي الكوفي مولى آل سعيد بن العاصي، سمع عن ابن عبَّاس وابن عمر وغيرهما، وكان من أيِّمَّة الفقه والتفسير، تُوُفِّيَ في خلافة عمر بن عبد العزيز حوالي سنة ١٠٠هـ. سير أعلام النبلاء، ج١، ص١٧٥.

غير المستغرق فيها، إلاَّ إن كان أمرٌ خارج أفضى إلى المساواة أو العكس، فإنَّ حاصل الآية مقابلة كلٍّ أحد بعمله، إذ قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الذِينَ اَجْتَرَحُواْ السَّـيِّـئَاتِ﴾.

﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ في دخول الجَـنَّة، كلاَّ ، لا يَدْخُلُها مشرك، ولا يترك عقابه، أو في استواء درجات الموحِّدين لا.

(نحو) ومصدر «نَجْعَل» مفعول به لـ«حَسِبَ»، ولَمَّا اشتمل الفعل على المسند والمسند إليه قبل التأويل بالمصدر اكتفى به عن المفعولين، أو حذف الثاني وجوبًا، أي: جعلُهم كالذين آمنوا ثابتًا، وهكذا في مثل هذا المقام.

﴿سَوَآءٌ﴾ خبر مقدَّم لأنَّه نكرة ﴿مَّحْيَاهُمْ﴾ مبتدأ لأنَّه معرفة، والهاء فيه وفي قوله: ﴿وَمَمَاتُهُمْ﴾ لـ«الذِينَ اَجْتَرَحُواْ السَّـيِّـئَاتِ»، وجاز أن تكون للمؤمنين، وأن تكون للفريقين.

(نحو) والجملة بدل من الكاف على أنَّها اسم، أو من ثابتين بدل اشتمال، بدل جملة من مفرد، أجازه الفارسيُّ وابن مالك، ولا أقول بذلك، بل نقدِّر الاستقرار فعلاً، أي: يثبتون، أو ثبتوا، فتكون الجملة بدلاً من الجملة، أو نبدِّلها من الجارِّ والمجرور لنيابتهما عن الجملة المقدَّرة، أو هذه الجملة مفعول ثان بعد مفعول ثان كما يتعدَّد خبر المتبدأ، تقول علمت زيدًا عالمًا عاقلاً، ولا مانع من أن يقال: نُصيِّرهم كالذين آمنوا ونصيِّر محياهم ومماتهم سواء، وأجيز أن تكون بدل بعض أو كلٍّ، لأنَّهما كما يكونان في المفرد يكونان في الجملة بلا ضمير يرجع للجملة إذ لا يرجع الضمير للجملة.

ويجوز أن تكون مستأنفة غير داخلة في قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾، بمعنى أنَّه لا بدَّ من الانتصار للمظلوم من الظالم في الدنيا والآخرة بحسب الأصل، فإن لم يكن في الدنيا حال الحياة كان بعد الموت.

[قلت:] ومعنى انتفاء استواء حياهم ومماهم أنَّه لا يُرحم الكافرون كما يُرحمُ المؤمنون، ولا يعذَّب المؤمنون كما يعذَّب المشركون، ولو استووا في الدنيا بالحياة ومطلق الرزق؛ والمؤمنون مرحومون دنيا وأخرى، والكُفَّار دنيا فقط؛ وحيلة المؤمن على الطاعة، والكافرِ على المعصية؛ وموت المؤمن بالرضوان، والكافر بالخذلان. ولا يستوي المؤمن والكافر في الآخرة كما استويا في رزق الدنيا وحياها، بل للكافر النار وللمؤمن الجنَّة.

﴿**سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ ساء حكمهم بالمساواة، على طريق الإخبار، ويجوز أن يكون إنشاءً للذمِّ، والمخصوص محذوف، أي: ساء حكمُهم هذا.

﴿**وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾ بالعدل، فلاَ بدَّ من العدل بين المؤمن والكافر، وترك التسوية بينهما، والحياة والموت سواء في ذلك، فإن لم يكن في الدنيا كان في الآخرة ﴿**وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**﴾ بما كسبته، أو بكسبها. وذلك تعليل معطوف على سَبَبِـــيَّة.

.وباء «بالْحَقِّ» سَبَبِـــيَّة، وإن جعلناها للملابسة فالملابسة تقتضي التعليل، لأنَّ المعنى: خلقهما ملابسًا بالحقِّ، أو ملتبسين به، وحاصله أنَّه خلقهما لأجْل الحقِّ، والأوَّل أولى، ويليه العطف على محذوف، أي: وخلق الله السماوات والأرض بالحقِّ ليدلَّ هما على قدرته وليجزِيَ...إلخ، أي: ليعدل فيما خلق فيهما.

﴿**وَهُمْ**﴾ النفوس المدلول عليها بقوله عَزَّلَجَلَّ : ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ والواو للحال ﴿**لاَ يُظْلَمُونَ**﴾ بترك ثواب أو نقصه، أو زيادة عذاب، أو بعذاب من لا يستَحقُّ العذاب، ولو فعل ذلك لم يكن ظلمًا لأنَّهم ملكه، والظلم تصرُّف في ملك الغير.

(بلاغة) ولكن سمَّاه ظلمًا ونفاه، لأنَّه لو فعله غيره لكان ظلمًا، على

الاستعارة التمثيليَّة بأن شبَّه فعلهم الخير والشرَّ، وفعلَه ذلك بهم بفعل أحد شيئًا وظلم غيره له على ذلك الفعل، والجامع استنكار العقل لذلك. أو استعارة مفردة في ظلم، بأنَّ شبَّه خلف الوعد بالظلم فسمَّاه ظلمًا ونفاه.

﴿أَفَرَآيْتَ﴾ أنظرت فرأيت، والاستفهام تعجيب من ترك الهدى إلى الهوى ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ, هَوَيٰهُ﴾ «مَن» موصولة مفعول به أوَّل، والثاني جملة محذوفة معلَّق عنها، أي: أيهتدي؟ يُقدَّر بعد قوله: ﴿غِشَاوَةً﴾، يدلُّ عليه قوله: ﴿فَمَنْ يَّهْدِي مَنَ اَضَلَّ اللَّهُ﴾[1] (سورة الروم: ٢٩) ، أو يقدَّر: يهتدي، بلا همزة فلا تعليق.

ومعنى «أَرَآيْتَ»: أخبرني، لأَنَّ رؤية الشيء سبب للإخبار به، وتسمية الهوى إلها تشبيه بليغ على المشهور، أو استعارة على مختار السعد التفتازاني، في نحو: «زيد أسد».

(سبب النزول) والآية نزلت كما قال الكلبي في الحارث بن قيس السهمي، كان لا يهوى شيئًا إلاَّ فعله، قال ابن عبَّاس: أفرأيت من اتَّخَذَ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئًا إلاَّ ركبه؟ لأنَّه لا يؤمن بالله ولا يخافه، ولا يحرِّم ما حرَّم الله.

وقيل: اتَّخَذَ معبوده ما تهوى نفسُه يعبد صنمًا من ذهب أو فِضَّة أو حجر أو غيره، فإذا رأى شيئًا استحسنته نفسه عبده وترك غيره.

(ذمُّ الهوى) ويروى أنَّه ما عُبِد إلهٌ في الأرض أبغض من الهوى، قال ابن عبَّاس: «ما ذكر الله الهوى إلاَّ ذمَّه». قال وهب بن منبِّه: «إذا شككت في أيِّ أمرين فانظر أبعدهما عن هواك فهو الخير». قلت: فإن كانا شرَّين

١- كذا في النسخ، وَلَعَلَّه يقصد قوله تَعَالَىَ: ﴿فَمَنْ يَّهْدِيه مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾ في الآية الآتي ذكرها.

فأقربهما إلى هواك هو شرٌّ من الآخر. وقال سهل التستري[١]: « هواك داؤُك، وإن خالفته فَدَوَاؤُكَ»، أي: فمخالته دواؤُك منه، قلت: تضمَّن أنَّ حضور الهوى داء، فإن اتَّبعته فقد حقَّقته. قال ﷺ : «**العاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله**»[٢] ويروى: «**وتمنَّى على الله الأماني**». وأحاديث الهوى وآياته وأخباره كثيرة، وهو غالب مع كثرتها، لأنَّه ملائم للنفس، وهي عدوٌّ من داخل، وأعوانه كثيرة من الجنِّ والإنس.

(أصول الدين) ﴿**وَأَضَلَّهُ اللَّهُ**﴾ خَذَلَهُ، أو خلق فيه الضلال، أو خلقه ضالاًّ، كلُّ ذلك بلا إجْبار بل باختياره، ولو كان اختياره مخلوقًا من الله تعالى، وكفى في عدم الإجبار ما يجد من نفسه أنَّه قادر على الفعل والترك.

﴿**عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾ حال من المستتر، أي: ثابتًا على علم بأنَّه أهل للإضلال، أو من الهاء، أي: ثابتًا على علم بطريق الرشاد، كقوله تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُواْ إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ (سورة الجاثية: ١٧) ، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُم حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ (سورة التوبة: ١١٥) ، ﴿**وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ**﴾ فلا ينتفع بما يسمع، وقدَّم السمع، لأنَّ المقام لسماع الوحي، فيصل من الأذن إلى القلب، والتذكُّر بالأجسام المبصرة رتبته دون التذكُّر بالوحي ﴿**وَقَلْبِهِ**﴾ فلا يتأثَّر بالمواعظ لإهماله التفكُّر. ﴿**وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ**﴾ عيني وجهه ﴿**غِشَاوَةً**﴾ مانعة من الاعتبار والاستبصار، فكأنَّه أعمى لا يرى شيئًا، فهو كفاقد السمع والقلب والبصر.

١- تَقَدَّمَ التعريف به، انظر: ج٥، ص٢٢٧.

٢- رواه **أحمد** في مسنده، ج٥، ص١٠٥، رقم ١٦٦٧٤. ورواه **الحاكم** في مستدركه، كتاب التوبة والإنابة، رقم٧٦٣٩. من حديث شدَّاد بن أوس.

﴿فَمَنْ يَّهْدِيه مِنۢ بَعْدِ اللهِ﴾؟ بعد إضلال الله إيَّاهُ، فيفهم منه أنَّه لا يهديه الله، وأمَّا تفسيره بلا يهديه غير الله فلا. ﴿أَفَلاَ تَذَّكَّرُونَ﴾ أتلاحظون فلا تتذكَّرون؟.

□ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُواْ ائْتُواْ بِـَٔابَآئِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ □

الردُّ على منكري البعث، وأهوالُ يوم القيامة

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: الكفرة، أو «مَنِ اتَّخَذَ»، باعتبار معناه، كما أفرد قبل ذلك نظرًا للفظه. ﴿مَا هِيَ﴾ أي: ما الحياة، أو ما الحالة ﴿إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ مجرَّدة عن الحياة بعد الموت ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يموت الحيُّ مِنَّا، ويولد الحيُّ فيحيا ثمَّ يموت وهكذا، أو عطفت الواو السابق على اللاحق، أي: نحيا ونموت، أو نكون نطفًا وما بعدها وينفخ فينا الروح ونكون أحياء.

وقيل: أرادوا بالحياة بقاء النسل، أي: نموت بأنفسنا ونحيا بحياة أولادنا، وقيل: نموت بالأجساد ونحيا بالأرواح، وهو قول تناسخ الأرواح: يخرج روح إنسان ويدخل في جسد إنسان آخر في البطن، أو في بغل أو حمار وغيرهما،

ويخرج من حمار ويدخل في حمار آخر أو بغل أو في إنسان، وفي جميع ذلك يقولون: لا بعث.

(لغة) ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ ٱلدَّهْرُ﴾ أي: طول الزمان، وهو أخصُّ من الزمان، وقيل: الدهر في الأصل اسم لمدَّة العَالَم من مبدإ وجوده إلى انقضائه، ثمَّ يعبَّر به عن كلِّ مدَّة كثيرة، والزمان يقع على أقلِّ قليل وما فوقه. ودهر كلِّ شيء عمره.

ومعنى الآية: إنَّما يهلكنا الدهر لا ملك الموت، وهم منكرون لملك الموت، ويسندون الحوادث إلى الدهر، وهم معترفون بوجود الله تعالى، وليسوا بالدهريَّة الذين ينكرون وجود الله تعالى ويسندون الحوادث إلى الدهر، ولا يبعد أن يكون الزمان عندهم مقدار حركة الفلك، كما قال معظم الفلاسفة.

وفي مسلم عنه ﷺ : «**لا يسبُّ أحدكم الدهر، فإنَّ الله هو الدهر**»[1]، يعني أنَّ ما تنسبونه إلى الدهر من الحوادث وتسبُّونه لأجلها ليس فعلاً له بل لي. وروى أبو داود والحاكم عنه ﷺ عن الله ﷻ : «**يؤذيني ابنُ آدم يقول يا خيبة الدهر، فإنِّي أنا الدهر أقلِّبُ ليله ونهارهُ**»[2]، أي: أنا الفاعل لما ينسبون فعله إلى الدهر، ومعنى «يؤذيني»: يفعل ما نُهيته عنه، وذلك أنَّ مخالفة الناهي في الجملة تضرُّ الناهي بالغيظ والحزن، وتغيُّر القلب تعالى الله عن ذلك.

١-رواه **مسلم** في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها (١) باب النهي عن سبِّ الدهر، رقم٤. ورواه **البيهقي** في (الكبرى) كتاب صلاة الاستسقاء (٣٦) باب ما جاء في سبِّ الدهر. من حديث أبي هريرة.

٢-رواه **الحاكم** في المستدرك، كتاب التفسير، ج٢، ص٤٩٢، رقم٣٦٩٢. ورواه **مسلم** في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها (١) باب النهي عن سبِّ الدهر رقم٢. من حديث أبي هريرة.

وروى الحاكم: «**يقول الله عز وجل: "استقرضت عبدي فلم يقرضني، وشتمني عبدي وهو لا يدري، يقول وادهراه، وأنا الدهر"**»[١]، أي: أنا الخالق لما تشكون منه لا الدهر.

وروى البيهقيُّ: «**لا تسبُّوا الدهر، قال الله عز وجل: "أنا اللَّيالي والأيَّام أجدِّدها وأبليها، وآتي بملوك بعد ملوك"**»[٢] وعبارة بعض: إنَّ الآتي بالحوادث هو الله، فإذا سببتم الدهر على أنَّه فاعل، وقع السبُّ على الله.

قلت: ما ذكرته أولى، وقد سبَّ الدهر من يعرف أنَّ الله تعالى هو الآتي بالحوادث فيكون فاسقًا بالجزع بما أجرى الله عز وجل في الدهر.

(أصول الدين) وسبُّ الدهر كبيرة، ومن سبَّ الله أشرك، وظاهر ما ذكر: أنَّ من سبَّ الدهر فقد سبَّ الله، وأنَّ من سبَّه أشرك، لأنَّه سبٌّ لله عز وجل، وقال الشَّافعيَّة: مكروه. وإن كان السبُّ لعنًا أو ما هو بمنزلته فقد جاء أنَّه من لعن ما لا يستَحقُّ اللعن رجعت عليه اللَّعنة، فهو فاسق، ولو لم يرد إلاَّ الزمان، ومن اعتقد تأثير الدهر مستقلاًّ عن الله سبحانه وتعالى فهو مشرك.

﴿**وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ**﴾ لا علم لهم مستندًا إلى عقل أو نقل بذلك المذكور، من أنَّه لا حياة بعد الموت من هذه الحياة، وأنَّه إنَّما يهلكهم الدهر ﴿**اِنْ هُمُ,**﴾ في ذلك ﴿**إِلاَّ يَظُنُّونَ**﴾ تقليدًا.

﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ**﴾ تقرأ ﴿**عَلَيْهِمُ, ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ**﴾ في مخالفة معتقدهم ﴿**مَّا كَانَ حُجَّتَهُمُ,**﴾ خبر «كَانَ» مقدَّم، واسمها المصدر من قوله: ﴿**إِلاَّ أَن قَالُواْ**﴾

١- رواه **الحاكم** في المستدرك، كتاب التفسير، ج٢ ص٤٩٢، رقم ٣٦٩١. من حديث أبي هريرة.

٢- رواه **البيهقي** في شعب الإيمان، كتاب حفظ اللسان، باب حفظ اللسان عند هبوب الرياح، رقم ٥٢٣٧. من حديث أبي هريرة.

إلاَّ قولهم، حصر قولهم في الحجَّة، كما تقول في الإثبات: قائم زيد، فتحصر المتأخِّر في الْمُتَقَدِّم، وتسمية قولهم ــ الذي ذكر الله عنهم بقوله: ﴿إِلاَّ أَن قَالُواْ ايتُواْ بِآبَائِنَآ﴾ أي: الذين ماتوا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ــ حجَّةً مجازٌ، لسوقهم إِيَّاهُ مساق الحجَّة، وتهكُّمٌ بهم، أو معناه ما كان حجَّةً لهم إلاَّ ما ليس حجَّة، والمراد: نفي أن تكون لهم حجَّة.

والخطاب في «ايتُوا» للنبيء ﷺ والمؤمنين، أو له ﷺ وللأنبياء تغليبًا لخطابه ﷺ على غيبتهم، وقيل: الخطاب له ﷺ ولجبريل الذي يأتيه بالبعث ولله تعالى. وجواب «إِذَا» يجوز أن لا يقرن بالفاء إذا تصدَّر بـ«مَا» النافية، ولذلك لم يقل: «فما كان»، كذا قالوا، والظاهر أن يقدَّر لها جواب، أي: عمدوا إلى الحجج الباطلة.

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ ابتداء في بطون أُمَّهاتكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ لآجالكم، هو لا الدهر ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: في يوم القيامة للجزاء.

(نحو) وقال البصريُّون: يضمَّن «يَجْمَعُ» معنى فعل يتعدَّى بإلى، مثل: ينهيكم أو يوصلكم، وهكذا كلَّما خرج حرف عن أصل معناه يبقون الحرف على معناه يؤوِّلون متعلَّق الحرف بما يناسب معنى الحرف.

ومذهب الكوفيِّين أقلُّ تعسُّفًا: يخرجون الحرف عن معناه على سبيل التجوُّز، ومعنى «في» هنا أظهر، لأنَّهم موتى موجودون، فما معنى جمعهم إلى زمان، نعم لو قلنا: «ثُمَّ» بمعنى الواو، والمعنى: لم يزل الله تعالى يجمعهم بالتوفِّي واحدًا بعد واحد إلى يوم القيامة.

﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا يصحُّ شكٌّ في وقوع يوم القيامة، أو في الجمع المدلول عليه بقوله: ﴿يَجْمَعُكُم﴾. والحكمة اقتضت وقوع ذلك، فلا بدَّ من

وقوعه، وعدمُ الإتيان بالآباء في الدنيا لا يوجب أن لا يؤتَى بهم يوم القيامة، وقد نَصَبَ لكُم دَلائل البعثِ كخلْقكُم وإنباتِ الأرض ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الريب منتف عن البعث، وهذا آخر ما حكي بـ«قُلْ»، ولا يصحُّ أن يكون من كلام الله تعالى إذ لم يتقدَّم ما يستدرك عليه بـ«لَكِنَّ»، نعم يتمُّ باعتبار تقدير: «قل لهم قولاً من شأنه أن يؤثِّر فيهم»، فالاستدراك باعتبار قوله يؤثِّر فيهم.

﴿وَلِلهِ﴾ وحده ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ تعميمٌ للقدرة بعد ذكر خصوص الإحياء والإماتة، والبعث والتصرُّف في السماوات والأرض وما بينهما، وما فيهما، كما هو المراد لا يخفى أنَّه شمل الإماتة والإحياء والبعث.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ متعلِّق بـ«يَخْسَرُ»، وقُدِّم للحصر وعلى طريق الاهتمام بذكر ما يعيد البعث الذي أنكروه لا للفاصلة، لأنَّها «الْمُبْطِلُونَ» لا «يَخْسَرُ»، فلو قيل: ويخسر يومَ تقوم الساعة يومئذ المبطلون، لصحَّ.

(نحو) ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ توكيد لـ«يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ»، لأنَّ التنوين عوض عن «تَقُومُ السَّاعَةُ» لا بدَل، لأنَّ بدل الكلِّ لا يتَّحد بالمبدل منه لفظًا، بل معنى نحو: جاء زيد أخوك، وأخوك هو زيد، وإن قيل: جاء زيد فتأكيد.

وقد يوجَّه البدل بأنَّه ليس في «يَوْمَئِذٍ» لفظ «تَقُومُ السَّاعَةُ»، ولعلَّ هذا مراد أبي حيَّان بقوله: بدل تأكيديٌّ، وإن امتنع إعادةُ الأوَّل فتأكيد ولو اختلف اللفظ، نحو: إنَّك أنت قائم، وإنَّك إيَّاك، فإيَّا توكيد كانت، إذْ لا يُقال: إنَّكك قائم، بتكرير الكاف.

(نحو) ويجوز العطف على محذوف وتعليق «يَوْمَئِذٍ» بـ«يَخْسَرُ»، أي: ولله ملك السماوات والأرض اليوم ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر

المبطلون، فيتعلَّق ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ باستقرار الخبر، و«يَوْمَئِذٍ» بـ«يَخْسَرُ».

﴿يَخْسَرُ﴾ خسارةً كلُّ خسارة إليها كلاً خسارة ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ يظهر خسرانهم فيما يدعونه نفعًا وصوابًا. و«الْمُبْطِلُونَ»: الداخلون في البطلان، أو الآتون به، وهو عامٌّ، وأعظمه الإشراك، وقيل: الإشراك هو المراد.

﴿وَتَرَىٰ﴾ بعينيك يا محمَّد أو يا من يصلح للنظر ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿جَاثِيَةً﴾ باركة على ركبها، خاضعة كهيئة الجاني المنتظر للعقاب.

وقيل: مجتمعة، من الجُثْو بمعنى الجماعة المجتمعة على جَثْيٍ، وهو تراب مجتمع، وعن سلمان الفارسيِّ: «إنَّ في القيامة ساعة هي عشر سنين يخرُّ الناس فيها جثاة على الركب، حتَّى إبراهيم ينادي ربَّه: لا أسألك إلاَّ نفسي».

﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ كافرة أو مؤمنة، وقيل: المراد الكافرة، والأوَّل أولى ﴿تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ صحيفة أعمالها، والإضافة للجنس، فهو صحائف، لأنَّ لكلِّ فردٍ صحيفة، هذا أصحُّ.

وقيل: المراد كتاب نبيئها، ينظر هل عملت به؟ وقيل: المراد اللوح المحفوظ تدعى إلى ما سبق لها فيه.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مفعول لحال محذوفة من المستتر في «تدعى»، أي: مقولاً لها: اليوم تجزون ما كنتم تعملون، و«مَا» مفعول ثان، أو يقدَّر الباء. والمراد بـ«مَا» أعمالُهم، أوقعت بمنزلة الثواب والعقاب مجازًا لأنَّها سببها، أو يقدَّر مضاف، أي: جزاء ما كنتم تعملون، ولا تكون هذه الجملة خبرًا ثانيا، ولو كانت خبرًا ثانيًا لكان بالتحتيَّة، إلاَّ أن يُدَّعى طريقة الالتفات.

﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...تَعْمَلُونَ﴾ من تمام القول المقدَّر قبل قوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾. والإشارة إلى الكتاب الذي تدعى إليه كلُّ أمَّةٍ، وإضافة

«كتاب» إلى «نَا» يؤيِّد أَنَّ كتابها هو كتاب نبيئها، والله هو الذي أنزله فأضافه إلى نفسه، أو اللوح المحفوظ. وإن أريد بكتابها كتاب أعمالها فإنَّما أضيف إلى «نا»، لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه.

[قلت:] ولا يجوز أن يرجع الضمير إلى الملائكة الكاتبين، ووجهه أنَّ القول المقدَّر تقوله الملائكة، وفيه أنَّه لم يجر لهم ذكر يعلم به أنَّه لهم، لأنَّه ولو قدَّر القول يتبادر أنَّهم يقولون عن الله: «هَذَا كِتَابُنَا»، وأيضًا لا يتمُّ إلاَّ بجعل «نَسْتَنسِخُ» بمعنى ننسخ ونكتب.

﴿**يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ**﴾ حال من «كِتَابُنَا»، أو خبر ثانٍ، ومعنى الحقِّ أنَّه لا يزيد ولا ينقص ﴿**إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ**﴾ نأمر الملائكة في الدنيا بالنسخ، كما نقول: استفعل للطلب، وقيل: نصيِّر الملائكة ناسخة، ﴿**مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ في الدنيا من خير أو شرٍّ.

والكلام كما مرَّ في المشركين والمسلمين، والمشرك قد يعمل الحسنة وتحبط. والنسخ إنَّما هو من مكتوب متقدِّم، فجعل الله أفعالهم وأقوالهم ككتاب ينسخ منه، وإن جعلنا نستنسخ بمعنى نأمر بالكتب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «خلق الله الدواة والقلم، فقال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، من برٍّ وفجور، ورزقٍ حلال وحرام، ومتى الدخول في الدنيا والخروج منها، والمقام فيها، وكيف الخروج، واجعل الحفظة على العباد، واجعل الخزَّان»، فالحفظة ينسخون كلَّ يوم من الخزَّان ما لذلك اليوم، وتجيء الحفظة يوما لذلك فتقول الخزَّان: ما نجد لصاحبكم شيئًا، فيرجعون فيجدونه ميِّـتًا». قال ابن عبَّاس: «ألستم قومًا عربا تسمعون ما يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولا يكون الاستنساخ إلاَّ من أصل»، ومعنى قولهم: «نَسْتَنسِخُ» ننسخ، وقيل: نستنسخ من اللوح المحفوظ، أي: ننسخ.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ۝٣٠ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٣١ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۝٣٢ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٣ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٣٥ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾

جزاء المؤمنين المطيعين وجزاء الكافرين العصاة

﴿فَأَمَّا اَلذينَ ءامَنُواْ وَعَملُواْ الصَّالحَات فَيُدْخلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَته﴾ تفصيل للحقِّ المذكور، والرحمة: الجنَّة مجازًا، وقيل: الجنَّة وغيرها **﴿ذَٰلكَ﴾** الإدخال **﴿هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾** الذي هو كلُّ فوز بالنسبة إليه كلا فوز. و«ال» للكمال، كما يفيد الحصر ذلك.

﴿وَأَمَّا اَلذينَ كفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنَ ـ ايَاتي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فيقال لهم توبيخًا: ألم تكن رسلي تأتيكم؟ فحُذف الجواب وفاؤه، وأمَّا الفاء الداخلة على «لم» فعاطفة على محذوف بينها وبين الهمزة، وقيل: هي فاء الجواب، والهمزة ممَّا بعدها قدِّمت لكمال صدارتها، يقدَّر الجواب فقط، والأصل: فيقال: ألم تكن آياتي تتلى عليكم؟ **﴿فَاستَكْبَرتُمْ﴾** عن الإيمان بها **﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرمينَ﴾** راسخين في الجنايات على أنفسكم.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا اَلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ معطوف على خبر كان، كأنَّه قيل: كنتم قومًا مجرمين وقائلين: ﴿مَا نَدْرِي مَا اَلسَّاعَةُ ...﴾ إذا قيل: ﴿إِنَّ وَعْدَ اَللَّهِ حَقٌّ...﴾.

و«وعد» بمعنى موعود، وهو الجزاء والبعث، أو باق على المعنى المصدريِّ، أي: وعده بالجزاء واقع، فلا بدَّ من إنجازه. وقوله: ﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ معناه: لا يسوغ الشكُّ فيها. والجملة معطوفة على «إنَّ» وما بعدها، لا على ما بعدها، فلم ينسحب عليها حكم التوكيد بـــ«إنَّ» ولا نصب. وقولهم: «مَا نَدْرِي مَا اَلسَّاعَةُ» إنكارٌ لها مع استغراب لها لعتوِّهم.

وقوله: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ بصورة استثناء الشيء من نفسه، الجواب: «إِن نَّظُنُّ» معناه: نفعل، على التجوُّز الإرساليِّ باستعمال المقيَّد في المطلق فهو مفعول به، أو يقدَّر: إن نظنُّ إلاَّ ظنًّا ضعيفًا، فهو مفعول مطلق، أو المراد: ما نعتقد إلاَّ ظنًّا، وهو كذلك استعمال للمقيَّد في المطلق، فإنَّ الاعتقاد أعمُّ من الظنِّ، فهو مفعول به. أو «نَظُنُّ» عامٌّ و«ظَنًّا» هو في أمر الساعة، فكأنَّه قيل: ما نظنُّ إلاَّ ظنًّا في أمرها، وهو مفعول مطلق، كأنَّه قيل: لا ظنَّ لنا ولا تردُّد إلاَّ ظنَّ أمر الساعة. واعترض التأويل بقولنا: إن نظنُّ إلاَّ ظنًّا ضعيفا بأنَّه ينافيه قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ لأنَّ نفي الاستيقان يقتضي وجود حال فوق الظنِّ قريبة من العلم، وأجيب بأنَّ نفي الاستيقان صالح لبقاء حالة تَقْرُبُ من العلم ولحَالة شكٍّ، وإذا قلت: لم يجزم زيد بالأمر، صحَّ أن يكون شكٌّ، وأن يكون رجَّحَ.

ولعلَّ القائلين: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ جازمون بإنكار البعث، وهم غير المثبتين لأنفسهم إذ قالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾، فالكفرة قسمان: جازم بالنفي

وظانٌّ، إذا سمع ما يتلى ظنَّ، وإذا وسوس إليه نفى، أو قسم واحد تارةً يجزم بالنفي وتارة يَظُنُّ.

﴿وَبَدَا﴾ ظهر ﴿لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ العقوبات السَّيِّئَات، أضيفت إلى ما علموا لأنَّ ما علموا هو سببها، أو السَّيِّئَات: الذنوب، والإضافة لأنَّهم عملوا سَيِّئَات ومباحات، وربَّما عملوا عَملاً صالحًا لا ينفعهم لبطلانه، أُحضِرتْ لهم ليُقرُّوا بها فيشتدَّ قيام الحجَّة، وهي عبارة عن العقاب إذ كانت سببه، أو يقدَّر مضاف، أي: جزاء ما عملوا.

أو المراد: سيِّئات جهات قبحها، أعني قبح أعمالهم، ولا يلزم من هذا قول بالتقبيح أو التحسين العقليين. واعلم أنَّ «مَا» الموصولة لا تنعت، فلا يقال في الآية: إضافة الصفة إلى الموصوف، ويجوز أن تكون مَصدَرِيَّة.

﴿وَحَاقَ﴾ نزل ﴿بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العقاب، أو عقابُ الدين الذي استهزؤوا به، أي: العقاب الذي على الاستهزاءِ.

﴿وَقِيلَ﴾ قال الله ﴿الْيَوْمَ﴾ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿نَنسَاكُمْ﴾ أي: نتركم في العذاب، وقدِّم على طريق الاهتمام بوقت العقاب الذي أنكروا مجيئه، وللتشويق إلى ما بعدُ فيزيدُ ذكره شدَّةً، وربَّما إذا سمعوا لفظ اليوم طمعوا أن يقال بعده: عفوت.

(بلاغة) ومعنى ﴿نَنسَاكُمْ﴾: نترككم، على أنَّ النسيان وُضِعَ مشتركًا للتَّرك ولعدم التذكُّر، أو على أنَّه في الترك مجاز، بمعنى نعاملكم معاملة ما يُنسى، أو أطلق السبب على المسبَّب؛ لأنَّ من نسي شيئًا تركه. ويجوز أن يكون ذلك استعارة تمثيليَّة، بأن شبَّههم وإبْقاءَهُم في النار على استمرار بشيءٍ ونسْيانه على حاله بلا تنبُّه له، والجامع عدمُ التعرُّض له بالإقبال عليه والاعتناء، أو شبَّه المخاطبين بالشيء المنسيِّ، ورمز إليه بذكر النسيان على الاستعارة المكنيَّة.

﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ نسيانًا ثابتًا كنسيانكم لقاء يومكم هذا، أو نسيانًا مثل نسيانكم لقاء يومكم هذا، لم تومنوا به و لم تستعدُّوا له بالعمل الصالح، أو جعلتموه كالشيء المنسيِّ الذي لا يخطر بالبال.

أو لَمَّا علموا به سماعًا أو صار بحدٍّ ما يوقن لكثرة الدلائل عبَّر عنه بالنسيان كما ينسى الشيء المعلوم، كما قال ا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿نَنسَاكُمْ﴾ مشاكلة. وإضافة «لِقَاءَ» إلى «يَوْمِ» إضافة مصدر لمفعوله، على طريق المبالغة في التوبيخ، بأن وُبِّخوا على نسيان اللقاء فكيف نسيان ما فيه من العقاب؟ وأيضًا لقاؤه قد يجعل كناية عن لقاء ما فيه، فلا يلزم اعتبار أنَّ الأصل التوبيخ على نسيان ما فيه، وأنَّ ما فيه هو الأحقُّ بالمفعوليَّة، وأنَّ اللقاء كالمفعول لا مفعول، وعلى هذا الاعتبار يجعل من إضافة المصدر إلى ظرفه والأصل: كما نسيتم لقاءكم العقاب في يومكم أو لقاءكم الله في يومكم.

﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يمنعونكم من دخولها، أو يخرجونكم منها بعد الدخول.

﴿ذَالِكُم﴾ أي: العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ بسبب أنَّكم ﴿اتَّخَذتُّمُ ءَايَاتِ اللهِ هُزُوًا﴾ شيئًا يُهْزَأُ به، أو نفس الهُزءِ، ومرَّ كلام فيه. ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ متاعُها من الأموال وَالصِّحَّة والأولاد والجاه، وزادكم ذلك قسوةً وإعراضًا عن التفكُّر في البعث لعلَّه صحيح.

﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ مقتضى الظاهر الخطاب، لكن أعرض عنهم إهانةً لهم عن الخطاب، أو لذهابهم عن مقام الخطاب إلى النار، وذلك أنَّ المَلَك يقول عن الله في موضع خطابهم، أو يَخْلُق الله لهم خطابًا في الجوِّ أو حيث شاء ﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يطلب منهم أن يَعْتُبوا ربَّهم، أي: يزيلوا عتبه، أي: غضبه كما طلبوا بذلك في الدينا.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تفريع على ما احتوتْ عليه السورة من الدلائل، وتنبيهٌ لنا أن **نحمدهُ** عليها، **ولله الحمد**، وإعلان بأنَّ كفرهم لا يؤثِّر في الله، ولا يمنع إحسانه عَمَّن هُوَ لَهُ أهل، وأكَّد ذلك بتكرير الرُّبــُوبِيَّة.

﴿وَلَهُ﴾ وحده ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ العظمة والملك، وعدم الخضوع لغيره، قال رسول الله ﷺ : قال الله سبحانه وتعالى : «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفْتُه في ناري**»[1] رواه أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم عن أبي هريرة.

﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مقتضى الظاهر أن يقال: «فيهما»، إلاَّ أنَّه أظهر لتفخيم شأن الكبرياء، والتقييد بهما لظهور أثر الكبرياء والعظمة فيهما، وهو متعلِّق بمحذوف حال من هاء «لَهُ». ومعنى كونه فيهما: إيجادهما وإبقاؤُهما والتصرُّف فيهما. أو متعلِّق بالكبرياء.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ لا يعجز عن شيءٍ ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أموره كلِّها. وفي مسلم عن أبي سعيد الخدريِّ وأبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**العزُّ إزاره والكبرياء رداؤُه، قال الله عز وجل : فمن ينازعني عذَّبته**»[2]. ورُوي عن أبي مسعود: يقول الله عز وجل : «**العزُّ إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني شيئًا منهما عذَّبته**»[3].

١-رواه **أبو داود** في كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، رقم ٤٠٩٠. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع، رقم ٤١٧٤. من حديث أبي هريرة.

٢-رواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة (٣٨) باب تحريم الكبر، رقم ١٣٦ (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة.

٣-رواه **البخاري** في كتاب الأدب المفرد (٢٢٠) باب الكبر، رقم٥٥٢، من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة. ورواه **البيهقي** في كتاب الأسماء والصفات، ص١٣٣ و١٣٨، من حديث أبي مسعود.

وفي أبي داود عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في شيء منهما قذفته في النار**»[1].

(بلاغة) والعرب تكنيِّ عن الصفات اللازمة بالثياب، والإنسانُ لا يشاركُه أحد في ثيابه، كذلك لا يشارك الله في صفته. وشعارُ المسلم الزهدُ ولباسه التقوى.

[قلت:] ختم الله سبحانه السورة بذلك لنحمده ونكبِّره ونُطيعَهُ، إذ كان هو العزيز الحكيم، ونختم مباحنا وعبادتنا بذلك، قائلين: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الصافات: ١٨٠-١٨٢) .

والله الموفّق المستعان
وصلى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلم.

١-رواه **أبو داود** في كتاب اللباس، باب في الكبر، رقم٤٠٩٠. من حديث هناد. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد (١٦) باب البراءة من الكبر والتواضع، رقم٤٢٤٩. من حديث أبي هريرة بلفظ «ألقيته» بدل «قذفته».

تفسير سورة الأحقاف وآياتها ٣٥

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ② مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ③ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ④ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ⑤ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ⑥ ﴾

إثبات وجود الله تعالى ووحدانيّته
ووقوع الحشر والرَّدُّ على عبدة الأوثان

﴿حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ مثل ما مرَّ **﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوٰتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾** من المخلوقات، ومنها الجوُّ **﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾** بسبب من الأسباب إلاَّ بسبب الحقِّ، أو ملتبسين أو ملتبسات بشيء إلاَّ بالحقِّ، أو إلاَّ خلقًا ملتبسًا بالحقِّ والحكمة، كالتكليف والدلائل.

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وتقدير أجلٍ مسمًّى يجازون فيه، وإنَّما قدَّرت المضاف المذكور لأنَّ الخلق يعتبر بقدر الله لا بالأجل المسمَّى بعد فناء السماوات وتبديل الأرض نفسه، وهو يوم القيامة، فإنَّ أمور المكلَّفين تنتهي إليه، وفيه تبدَّل الأرض غير الأرض، وفيه يبرزون لله الواحد القهَّار.

وقيل: الأجل المسمَّى: مدَّة البقاء في الحياة لكلِّ أحد، والصحيح أنَّه يوم

القيامة؛ لأنَّ الإنذار إنَّما يكون به، كما هو قوله تعالى: ﴿**وَالذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ**﴾ أي: عمَّا أنذروه بحذف رابط الموصول.

﴿نحو﴾ وهذا الضمير المقدَّر مثل المنصوب الثاني في قوله تعالى ﴿فَأَنذَرْتكُمْ نَارًا﴾ ﴿سورة الليل: ١٤﴾ ، والجارُّ مُتَعَلِّق بقوله: ﴿**مُعْرِضُونَ**﴾ عن الإيمان به، والاستعداد له، وقدِّم للفاصلة والحصر، فالمعنى: معرضون عَمَّا أنذروا، لا عن بعض ما أرادوه من الكفر، فضلاً عن كلِّه وعن سائر معاصيهم وأمور دنياهم. أو «مَا» مَصدَرِيَّة فلا يقدَّر الضمير، أي: عن إنذارهم، بإضافة المصدر إلى المفعول به النائب عن الفاعل، أي: عن إنذار الله أو النبيء ﷺ لهم، والواو للحال المقدَّرة للضمير، وهوَ نَا، وليست مقارنة، لأنَّ إعراضهم ليس وقت خلق السماوات والأرض.

﴿**قُلَ**﴾ يا محمَّد توبيخًا لقومك، وآخرُ القول: ﴿...صَادِقِينَ﴾ أو ﴿...كَافِرِينَ﴾. ﴿**أَرَآيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ**﴾ من الأصنام وغيرها ﴿**أَرُونِي**﴾ تأكيدٌ لـ«أَرَآيْتُم» وكلاهما بمعنى: أخبروني.

﴿نحو﴾ ﴿**مَاذَا**﴾ اسم واحد مركَّب مفعول مقدَّم لقوله تعالى شأنه: ﴿**خَلَقُواْ مِنَ الاَرْضِ**﴾ والمجموع مفعول ثان معلَّق عنه بالاستفهام، أو مبتدأ وخبر، و«خَلَقُوا» صلة «مَا»، والرابط محذوف، أي: خلقوه، والمجموع مفعول ثان. ومن العجيب جعل «ذَا» زائدة و«مَا» مفعولاً مقدَّمًا، ومنه جعل ذلك من باب التنازع، لأنَّ الضمير لا يرجع إلى الجملة إلاَّ إن أريد لفظها، والمهمل من المتنازعين لاَ بُدَّ أن يعمل في ضمير المتنازع فيه.

﴿مِنَ الاَرْضِ﴾: من أجزاء الأرض، أو من مظروفات الأرض، كمائها وبحارها وأشجارها وجبالها وحيوانها، أو أرض من الأرضين السبع. و«مِنْ» للبيان متعلِّق بمحذوف حال من الهاء في «خلقوه» المقدَّرة، أو من «مَاذَا» مركَّبًا

أو من «ذَا».

﴿أَمْ لَهُمْ﴾ بل ألهم، أو ألهم؟ بناء على أنَّ «أَمْ» المنقطعة استفهامية بدون بل دائمًا؟ حيث كانت، وعلى كلِّ حال لا بدَّ أن يتقدَّمها كلام ولو كانت للاستفهام، ولا تكُون معادِلةً كما تكون الْمُـتَّصلة، فيقال: هل قام زيد أم قعد، تريد: أقعد، بالاستفهام، لأنَّ «هل» لا يؤتى لها بمعادل كما شهر.

﴿شِرْكٌ﴾ شركة مع الله سبحانه وتعالى ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ السبع ومظروفها؟ أو في العلويَّات الشاملة لهنَّ وللعرش والكرسيِّ.

انتفت أُلُوهيَّة ما عبدوا من دون الله تعالى انتفاء بليغًا لأنَّهم لم يخلقوا شيئًا في الأرض ولا منها، فضلاً عن العلويات، ولا شركة لهم فيها، وخصَّ انتفاء الشركة في السماوات بالذكر لانقطاع شُبههم بهنَّ، إذ لهم صورة تملُّك في الأرض وما فيها، وذلك كقول إبراهيم: ﴿فَاتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٨) .

﴿ايتُونِي بِكِتَابٍ﴾ من الله يبيح عبادة غير الله عز وجل ﴿مِّن قَبْلِ هَذَآ﴾ قبل هذا القرآن النازل بالتوحيد ﴿أَوَ اثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ بَقِيَّة من علم، مصدر كالضَّلالة، و«مِنْ» للبيان. وتنكير «عِلْمٍ» للتبعيض، أي: باقٍ هو علم من علوم الأوَّلين صحيحة في إباحة عبادة غير الله عز وجل ، تقول العرب: سمنت الناقة على أثارة من لحم، أي: على باقٍ منه.

أو الأثارة: الرواية، كما تقول: جاء في الأثر كذا، قال الأعشى من السريع:

إنَّ الذي فيه تماريتما بُـيِّن للسامع والأثر[1]

أي للسامع ومتتبِّع الأثر بعينيه.

١- انظر ديوانه ص١٩١.

أو الأثارة: الخَاصَّة من علم، يقال: آثره بكذا: خصَّه به، أي: أثارةٍ من علمٍ خُصُّوا بها، أو العلامة.

أو علم الرمل، كما روى ابن عباس موقوفًا ومرفوعًا: ﴿أَوَ اَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: أنَّها الخطُّ. وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**كان نبيء من الانبياء يخطُّ فمن صادف مثل خطِّه علم**». وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما كذلك.

أو أَثَارَةٍ مِنْ علمٍ خطٌّ كان يخطُّه العرب في الأرض. وذلك تشريع لعلم الرمل إن لم يدخل فيه ما لا يجوز في الدين. وذلك تهكُّمٌ بهم وبدلائلهم، بِأيِّ وجه فسِّرت الأثارة.

أو الأثارة: كتابة بالقلم، أي: شيء مكتوب.

﴿تاريخ الخط العربي﴾ والكتابة قديمة لغير العرب، حادثة في العرب، ولا سيما أهل الحجاز، فقيل: نقلت إليهم من أهل الحيرة، وأهل الحيرة من أهل الأنبار، وقال الكلبي: الناقل للخطِّ العربيِّ من العراق إلى الحجاز حرب بن أميَّة، قدِم الحيرة فعاد إلى مَكَّة به، قيل لابنه أبي سفيان: ممَّن أخذ أبوك هذا الخطّ؟ قال: من أسلم بن أسدرة، وسألت أسلم: مِمَّن أخذته قال: من واضعه مرار بن مرَّة. وكان لحمير كتابة يسمونها المسند، منفصلة غير متَّصلة، وكان لها شأن عندهم، فلا يتعاطاها إلاَّ من أذن له في تعلُّمها.

ويقال: كتاب الأمم اثنا عشر صنفًا: العَرَبيَّة، والحِمْيَريَّة، والفارسيَّة، والعبرانيَّة، واليونانيَّة، والروميَّة، والقبطيَّة، والبربريَّة، والأندلسيَّة، والهنديَّة، والصينيَّة، والسريانيَّة[1].

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى إباحة الإشراك، ولا تصحُّ أبدًا بدليل عقليٍّ

١- إن صحَّ هذا فالمقصود به اللغات المشهورة لا الكتابة.

ولا نقليٌّ، وصحَّ بطلانها بهما.

ولا تقل في مثل هذا: إنَّ الجواب محذوف دلَّ عليه ما قبله، بل قل: ما تقدَّم أغنى عن الجواب، فإنَّ القائل: قوموا إن قام زيد، لا يعني: قوموا إن قام زيد فقوموا، فكيف يقدَّر ما لا يعني؟ ولو ادَّعيت العناية لزم أنَّ مثل ذلك أبدًا مؤكَّد بالتكرير، ولو بغير محلِّ التكرير، ولا تعط من نفسك عناية للمحذوف.

﴿وَمَنَ اَضَلُّ مِمَّنْ يَّدْعُواْ من دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ,﴾ لا أضلَّ من المشركين، ولا مساوي لهم، لأنَّهم يعبدون أو يسألون حوائجهم من لا يجيب لهم بكلام ولا بقضاء حاجة، ويتركون القادر المجيب، أو لا مساوي لهم، فإنَّ استعمال مثل هذا في المساواة مستعمل واردٌ معقول، فإذا انتفت المساواة انتفت الزيادة، لأنَّ الزيادة تعتبر بعد ثبوت المساواة تحقيقًا أو حكمًا ولو في دفعة.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ موت الناس دفعةً، أو البعث من القبور، وهكذا في غير هذا المحلِّ بحسب الإمكان، ووجهه أنَّه من حيث يموتُ الناس كلُّهم يعدُّ الزمان نوعًا واحدًا، الأحياء في بعضه موتى، وفي بعضه يبعثون.

وحدُّ نفي الاستجابة بيوم القيامة نفيٌ لها أبدًا، إذ حدَّها بوقت لا يتوهَّم إن ثبتت فيه، كقولك: لا أكلِّم عمرًا ما دمت حيًّا، فبعد الموت أيضًا لا تكلِّمه، وذلك مِمَّا يفهم بالأولى، ومن باب التنبيه بالأدنى على الأدنى.

وقيل في مثل ذلك: إنَّه عبارة عن التأبيد، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْحَقُّ﴾ (سورة الزخرف: ٢٩) ، و﴿إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيَ...﴾ (سورة هود: ٧٨) ، و﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَت...﴾ (سورة هود١٠٧) ، وقولهم: «لا أكلِّمك ما دام تبير»، وما تقدَّم أولى، وهو أنَّه من باب المفهوم، والقول الثاني نصٌّ في أنَّه منطوق، وذلك في الغاية الموافقة لما قبل، كما في الآية والأمثلة.

﴿منطق﴾ وقد اختلف أيضًا في المخالفة، الجمهور على أنَّها مفهوم، وغيرهم على أنَّها منطوق، وادَّعى بعض أنَّ أهل اللغة على أنَّها موضوع للمخالفة، مثل: ﴿وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشرِكِينَ حَتَّىٰ يُومِنُواْ﴾ ﴿سورة البقرة: ٢٢١﴾ ، و﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ ﴿سورة البقرة: ٢٣٠﴾ ، و﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ ﴿سورة البقرة: ٢٢٢﴾ ، والصحيح مذهب الجمهور، وما يظهر من المخالفة إنَّما هو بمعونة المقام. وإذا قيل: أكرم زيدًا حتَّى يستغني يحتمل أنَّه يجوز إكرامه بعد الاستغناء، سواء كان هذا الأمر للإيجاب أو للندب.

﴿بلاغة﴾ وإذا وصف الأصنام بما للعقلاء من استشعار الاستجابة وتركها، واستشعار التنبُّه للشيء، وتركه والغفلة عنه، عبَّر عنها بما للعقلاء من لفظ «مَنْ» والواو، وهم جمع المذكَّر السالم. وفي وصفهم بالغفلة وترك الاستجابة تهكُّمٌ.

﴿بلاغة﴾ ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ﴾ استعار لفظ الغفلة التي من شأنها أنَّها من المدرك، لعدم الشعور على الأَصليَّة، واشتقَّ منه غافلاً على التبعيَّة، والجامع: عدم الإدراك المطلق. والجمع لمراعاة معنى «مَنْ» بعد مراعاة لفظها، ولفظ العقلاء مجاراة لهم في شأن أنَّهم يحسبون الأصنام كالعقلاء، أو تغليبًا لمعبود له عقل كالملائكة والجنِّ المعبودين، وإذا اعتبرناهم فغفلتهم تارة كغفلة الأصنام إذ غابوا عن العابدين، كما لا يسمعها عيسى في السماء، وتارة على أصلها إذ حضروا وذهلوا، وتارة يُنزَّلون منزلة الذاهل، إذ حضروا وعلموا وكرهوا، أو شغلتهم العبادة عن السمع، وقد يحضر الجني ويرضى كأنَّه كلا عبادة ولا سؤال، وكذا ميت عبدوه فإنَّه لا شعور له، كعزير، فنقول: جَمَعَ بين الحقيقة والمجازِ. أو نحمل الكلام على عموم المجاز. و«هُمْ» و«غَافِلُونَ» للمعبودين، وهاء «عِبَادَتِهِمْ» للعابدين، من إضافة المصدر للفاعل، والمفعول محذوف، أو لمعبودين

من إضافة المصدر للمفعول، وقيل: المعنى: إنّ العابدين غافلون عن كون عبادهم من لا يستجيب لا تنفع، وهو خلاف الظاهر.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ بعثوا للجزاء ﴿كَانُواْ﴾ أي: المعبودين ﴿لَهُمْ﴾ للعابدين ﴿أَعْدَآءً﴾ شدادًا وقد عبدوهم في الدنيا ليكونوا لهم أولياء يشفعون لهم في الدنيا، وعلى فرضهم البعث وتقديره يشفعون لهم في الآخرة أيضًا في زعمهم. ومعنى العدواةِ المضرَّةُ، على المجاز الإرساليّ لعلاَقة اللزوم.

﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا اسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ (سورة فاطر: ١٤) . ومعنى ﴿كَافِرِينَ﴾: مكذّبين لهم، كذا قيل، وفيه أنّ الأصنام لا تكذّبهم، بل تقول إن أنطقها الله: لم نعلم بعبادتكم لنا، وكذا من لم يعلم بها من العقلاء المعبودين، ينفون عن أنفسهم العلم بها، ولا ينفون وقوعها، ومن علم بها لا ينفي وقوعها ولا العلم بها ، فبان أنّ الكفر بها كفرٌ بلِيَاقتِها وبأنّها صواب.

إلاّ أن يقال: المراد بالكفر بها وتكذيبها: التبرُّؤ منها وعدم الرضا بها حين أوقعوها وبعده، إمَّا لعدم العلم بها حين تقع، وإمَّا لإنكارها حين تقع، ولكن بقي أنّ فيهم من رضي حين الوقوع كالجنِّ الكافرين، وكالإنسان الكافر المعبود العالم أنّهم يعبدونه، فيكذّبون بوقوعها تستُّرًا على أنفسهم، فيجمع بين الحقيقة والمجاز، أو يحمل على عموم المجاز، أو على استعمال المشترك في معانٍ له.

وللوقوع في هذه الأشياء ساغ أن يتخلّص منها بما هو خلاف الظاهر، وهو أن نردَّ الواو في «كَانُوا» للعابدين، والهاء في «عِبَادَتِهِمْ» لهم، إضافةً للمصدر لفاعله، أو للمعبودين إضافةً إلى مفعوله، فهم كاذبون، إذ المعنى على هذا: ما عبدناهم، مع أنّهم عبدوهم، وهذا تبرُّؤ من عبادهم لهم، فذلك كقوله تعالى:

﴿والله رَبِّـنَا مَا كُـنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿سورة الأنعام: ٢٣﴾ ، فكذا نقول: المعنى: إذا حشر الناس كان الكُفَّار أعداءً لما عبدوه من دون الله لَمَّا رأوا من ترتُّب العذاب على عبادتها.

ووجه كون ذلك خلاف الظاهر أنَّ الكلام سيق لبيان حال المعبودين مع العابدين لا العكس، وأمَّا تسمية إنكار عبادتهم هؤلاء المعبودين كفرا، فلا نسلِّم أنَّها خلاف الظاهر، لأنَّ هذا الإنكار تبرُّؤ منها، والتبرُّؤ من الشيء كفرٌ به.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

شبهات المشركين حول الوحي

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءايَاتُنَا بَـيِّـنَات﴾ واضحات الدلالة على دين الله تعالى ولا يجوز تفسيره بموضِّحات له، لأنَّه لم تسمع تعدية "بَانَ" الثلاثيِّ. **﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾** دين الله تعالى، وقيل: النبوءة، والمعنى: قالوا في شأن الحقِّ، فاللام بمعنى في، قيل: اللام للتعليل، وما قيل في شأن الشيء مقول لأجله، وهو متعلِّق بـ«قَالَ»، أو بمعنى الباء فتعلَّق بـ«كَفَرُوا»، وقيل: «الحقُّ»: الآيات المتلوَّة، وضع موضع المضمر إيذانًا بكمال ضلالهم، وكذلك وضع الذين

كفروا موضع الضمير، تقبيحًا لهم بالكفر وذمًّا.

﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ حين جاءهم بلا تأخير للتأمُّل ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر، وجه قولهم: «هَذَا سِحْرٌ» في الآيات المتلوَّة عجزُهم عن الإتيان بمثلها، وفي النبوءة خرق العادة، وفي الإسلام أنَّه يفرِّق بين المرء وزوجه وولده، أو لم يفهموا فعاندوا، أو قالوا ذلك جزافًا.

﴿امْ يَقُولُونَ﴾ «أَمْ» بمعنى بل الانتقاليَّة، وهمزة الإنكار والتعجيب من الافتراء على الله، فإنَّه أشنع من قولهم: هذا سحر، والسحر قد يرغب فيه بالطبع بخلاف الكذب على الله، فَإِنَّهُ لا يرضى العاقل أن تقول له كذبت على الله تعالى، ولو كذب مدَّعيًا أنَّه غير كاذب عليه تعالى. ﴿افْتَرَايهُ﴾ أي: الحقَّ الذي هو الآيات المتلوَّة، أو افترى القرآن المدلول عليه بما تقدَّم.

﴿قُلِ ان افْتَرَيْتُهُ﴾ على سبيل الفرض، الجواب محذوف، أي: عاجلني بالعقاب، أو يعاجلني بالعقاب، دلَّت عليه علَّتُهُ المعطوفة، وهو قوله: ﴿فَلاَ تَمْلكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾.

﴿نحو﴾ فإنَّ الفاء عاطفة على عاجلني، أو يعاجلُني، بالرَّفع ولو كان جوابا، لجواز رفع الجواب إذا كان الشرط ماضيًا، وليس هذا من العلَّة القائمة مقام الجواب، لأنَّ المضارع المنفيَّ بـ«لا» يكون شرطًا، فلا يقرن بالفاء إذا كان جوابًا، وأيضًا معاجلة العقاب سبب، و«لاَ تَمْلكُونَ» مسبَّب لا عكس. وجعلها فاء الجواب يُحْوِجُ إلى تقدير المبتدأ، أي: فأنتم لا تملكون، أو قد التحقيقيَّة، أو إلى زيادة الفاء. والمعنى: لا تقدرون على دفع شيء يأتيني من عقاب الله. و«منَ الله» حال من «شَيْئًا». وقال بعض المحقِّقين بناءً على أنَّ «لاَ تَمْلكُونَ» جوابٌ: يجوز أن يكون «لا يملكون» مسبَّبًا والمعاجلة سببًا.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ بالذي تشرعون فيه من الشتم في الوحي

وآياته، بقولكم: إنَّه سحر، وقولكم: إنَّه افتراء، وقولكم: أساطير الأوَّلين.

﴿بلاغة﴾ والإفاضة إسالةُ الماء، استعير لذلك الشروع استعارةً أصليَّةً، واشتقَّ منه «تفيض» على طريق التبعيَّة، أو استعمل المقيَّد في المطلق على المجاز الإرساليِّ التبعيِّ. ويجوز كون «مَا» مَصدَريَّة، فلا يعود إليها الضمير، فهاء «فيه» عائدة للحقِّ بأحد معانيه، أو للقرآن المدلول عليه.

﴿كَفَىٰ بِهِ﴾ بالله ﷻ، والهاء فاعل، والباء صلة ﴿شَهِيدًا﴾ لي بالصدق، وعليكم بالكذب، حال من الهاء ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ متعلِّق بـ«كَفَى» أو بـ«شَهِيدًا». ﴿وَهُوَ اَلْغَفُورُ﴾ لمن تاب، من مشرك أو موحِّد عاصٍ ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالإمهال ليتداركوا بالتوبة.

﴿قُلْ﴾ يامحمَّد لقومك: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا﴾ مبتَدعًا، صفةٌ مشبَّهةٌ، كخفٍّ بمعنى خفيف، وخلٍّ بمعنى خليل، وطبٍّ بمعنى طبيب، وهذا أولى من أن يكون مصدرًا مقدَّرًا بالوصف أو بمضاف، أي: ذا بدع، أو ما كان أمري بدعًا، أو مبالغةً، وعليها يكون من باب قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (سورة فصِّلت: ٤٦) .

﴿مِّنَ اَلرُّسُلِ﴾ نعت لـ«بِدْعًا»، أي: مبتدعًا خارجًا عنهم، بأن جئت بما لم يجيئوا، بل ما جئت إلاَّ بالتوحيد الذي جاؤوا به، وبالدعاء إليه كما دعوا إليه، وبإظهار المعجزات كما أظهروها، ليس عليَّ من المقترحات شيء، كما أنَّها ليست عليهم إلاَّ ما خصَّ الله به بعضًا، وكانوا يقترحون عليه، كقولهم: ﴿فاتُواْ بِئَابَآئِنَا﴾ (سورة الدخان: ٣٦) ، فأمره الله أن يقول لهم: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾.

﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة على التفصيل

الكلِّيِّ، وأمَّا إجمالاً فقد علم أنَّه ﷺ والمؤمنين في الجنَّة، والكفرة في النار، وأنَّ الكلَّ سيموت.

وأمَّا أن يعلم متى يموت أو يموتون، أو كم أنفاسه، أو أنفاسهم، أو رزقه أو رزقهم، وسائر ما كتب له ولهم فلا، ومن ذلك أن يعلم أنَّه أيقتل أم لا ؟ أو يخرج من الأرض إلى أرض ماءٍ أو نخلٍ رفعت له في المنام أم لا ؟. وكذا هم. ولا يعلم أنَّهم مقضيٌّ عليهم بالكفر إلى أن يموتوا، أو بالإيمان بعد، أو يقذفون بالحجارة، أو يخسف بهم، ولا يعلم إلاَّ ما أخبره الله عزَّ وجلَّ به، مثل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ ﴿سورة الإسراء: ٦٠﴾ ، أي: لا يقتلونك، ﴿وَهُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ...﴾ ﴿سورة الفتح: ٢٨﴾ ، و﴿مَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ ﴿سورة الأنفال: ٣٤﴾ .

(سيرة) وقال له أصحابه وقد ضجروا: إلى متى نكون هكذا ؟ فقال: لعلِّي أخرُج إلى أرض ذات نخل وأشجار رأيتها في المنام، وقال الله عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ...﴾ ﴿سورة الفتح: ١﴾ ، فقالوا: هنيئًا لك يا رسول الله فما لنا ؟ فنزل: ﴿وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيرًا﴾ ﴿سورة الأحزاب: ٤٧﴾ .

وعن ابن عبَّاس: ﴿مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُم﴾ في الآخرة، فالآية قبل نزول قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ...﴾ وما مات رسول الله ﷺ حتَّى علم أنَّ الله غفر له، وأنَّه من أهل الجنَّة.

وذكر الضحَّاك أنَّ المراد: ما أدري ما أومر به، ولا ما تؤمرون به في التكاليف والشرائع، والجهاد والابتلاء.

واختار بعض المحقِّقين أنَّ نفي الدراية من غير جهة الوحي تفصيليَّة أو

إجماليَّة دنيويَّة أو أخرويَّة، أي: لا أدري إلاَّ بالوحي، وأنَّه ما مات حتَّى أوتِي من العلم بالله تعالى وأفعاله وصفاته، وأشياء يُعَدُّ العلم بها كمالاً ما لم يؤته غيره من العالمين.

(سيرة) لَمَّا مات عثمان بن مظعون رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالت أمُّ العلاء: «أشهد أنَّ الله أكرمك، طب نفسًا إنَّك في الجنَّة»، فقال ﷺ مغضبًا: ما يدريك؟ والله ما أدري وأنا رسول الله ﷺ ما يفعل بي ولا بكم، فقالت: يا رسول الله صاحبك وفارسك؟ فقال: أجل، وإنا ما رأينا إلاَّ خيرًا وأرجو له رحمة الله تعالى وأخاف عليه ذنبه. قال ابن عبَّاس: ذلك قبل أن ينزل: ﴿لِّـيَغْفِرَ لَكَ اللهُ...﴾ فقالت: والله لا أزكِّي بعده أحدًا.

(نحو) و«مَا» استفهاميَّة مبتدأ مخبر عنه بالجملة بعده، والمجموع سدَّ مسدَّ مفعولي «أَدْرِي» علِّق بالاستفهام، أو موصولة بالجملة بعدها، مفعول به لـ«أَدْرِي» متعدِّيا لواحد، مثل: أعرف، وهذا غير معروف. وأعيدت «لاَ» مع أنَّه لا إيهام بدونها لتأكيد انفراد كلٍّ بما يفعل به.

عن أنس وقتادة وعكرمة والحسن البصريِّ: لَمَّا نزلت الآية قال المشركون وفرحوا: «واللات والعزَّى أمرنا وأمر محمَّد واحد، ولو كان ما يقول من الله تعالى لفضَّله وأخبره بما يفعل به»، فنزل: ﴿لِّـيَغْفِرَ لَكَ اللهُ...﴾ فقال المسلمون: هنيئًا لك فما لنا ؟ فنزل: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُومِنِينَ...﴾ و﴿بَشِّرِ الْمُومِنِينَ بِأَنَّ...﴾ وهذا قبل أن ينزل عليه في الحديبية غفران ذنبه.

وفي البخاري: قسَّم الأنصار المهاجرين، فناب أهل بيت أمِّ العلاء عثمان بن مظعون، وهي ممَّن بايعن رسول الله ﷺ ومات بمرض، وقالت: أكرمك الله، فقال ﷺ : ما يدريك؟ قالت: فمن يكرمه الله تعالى؟ قال: أرجو له، والله ما

أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي، قالت: والله لا أزكّي بعده أحدًا يا رسول الله، ورأت له في النوم عينًا تجري فقال لها ﷺ : ذلك عملُه»[1].

وعن ابن عبَّاس: ضايق المشركون على المؤمنين فقالوا: نخرج إلى الأرض التي رأيت؟ قال: لا أدري أنخرج إليها، ولا أدري أأخرج كما أخرج الأنبياء أم أقتل كما قتل بعض الأنبياء؟ ولا أدري أتخرجون معي أم لا أيُّها المؤمنون؟ ولا أدري ما يفعل بكم أيُّـها المجرمون؟ أترجمون من السماء أم يخسف بكم أو يفعلْ بكم غير ذلك ممَّا فعل بمن قبلكم؟ ولا أدري من الغالب؟ وجاء بعد ذلك: ﴿هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى...﴾، ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَـهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

﴿إِنَ اتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ قولا وفعلا أو اعتقادا، لا قدرة لي على ما تقترحونه، وكانوا يقترحون عليه أمورا وعلما بالغيب، وكان المسلمون يستعجلون الخلاص من أذى المشركين، فالآية في ذلك كلّه، والأولى اختصاصُها باقتراح الكفرة المذكور، لقوله ﷻ : **﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾** لكم بعقاب الله ﷻ بحسب ما يوحى إليّ **﴿مُّبِينٌ﴾** ظاهر بالمعجزات، أو مظهر للحقّ.

﴿قُلَ اَرَآيْتُمُ, إِن كَانَ﴾ ما يوحى إليّ من القرآن، ولو كان الضمير للرسول ﷺ ــ كما قيل ــ لقال: إن كنت وكفرتم بي، إلاَّ أن يدَّعَى أنَّه عبَّر عن نفسه بالرسول، فردَّ الضمير إليه، وهو خلاف الظاهر **﴿مِنْ عِندِ اللهِ﴾** لا سحرًا ولا

١- رواه **البخاري** في كتاب التعبير، باب العين الجارية في المنام، رقم ٦٦١٥، من حديث أمِّ العلاء الأنصاريَّة.

ورواه **الحاكم** في المستدرك كتاب التفسير (٤٦) تفسير سورة الأحقاف ج٢ ص٤٩٣ رقم٤٦٩٦. من حديث أم العلاء الأنصارية.

مفترًى ولا تعليم بشر ولا أساطير الأوَّلين كما تزعمون ﴿**وَكَفَرْتُم بِهِ**﴾ عطف على ﴿كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ كما عطف بـ«ثُمَّ» في مثله، وهو قوله تعالى: ﴿قُلَ اَرَآيتُمُ, إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ وأيُّ داعٍ إلى جعله حالاً مع صحَّة العطف بلا ضعف؟ ومع أنَّ الأصل في الواو العطف لا الحالية، ومع أنَّ الحال تحتاج إلى تقدير "قد" أو "أنتم" قبل «كَفَرْتُمْ» أو إلى المساهلة بعدم التقدير، وذلك أنَّ الفعل ماضٍ متصرِّف مثبت.

﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِي إِسْرَآءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ**﴾ مثل ما يوحى إليَّ من القرآن. وإن رددنا ضمير «كَانَ» إلى الرسول رددنا إليه الهاء، والحقُّ أنَّ الهاء للقرآن.

وفُخِّم «شَاهِدٌ» بالتنكير، وبوصفه بأنَّه من بني إسرائيل العالمين بشؤون الوحي بما أتوه من التوراة، فإذا شهد على مثل القرآن بما في القرآن من التوحيد والوعد والوعيد، وغير ذلك، كانت شهادته شهادة بالقرآن، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ الاَوَّلِينَ﴾ ﴿سورة الشعراء: ١٧٦﴾ ، ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الاُولَىٰ﴾ ﴿سورة الأعلى: ١٨﴾ . والمثليَّة تأدية ما في القرآن بعبارة أخرى، أو بأنَّهُ من عند الله، أو على مثل شهادة القرآن لنفسه بأنَّه من الله، كأنَّه لإعجازه يشهد لنفسه بأنَّه من الله عَزَّ وَجَلَّ . وقيل: «مثل» كناية عن القرآن نفسه مبالغةً، كقولك: مثلك لا يفعل كذا، تريد أنت لا تفعله، وإذا ردَّ الضمير إلى الرسول فالمثل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

﴿**فَـَٔامَنَ**﴾ بالقرآن، أي: ظهر إيمان ذلك الشاهد به، بسبب شهادته المطابقة للوحي. ويجوز أن تكون الفاء للتفصيل، فإيمانه به هو الشاهد له، وكذا إن رددنا الضمير للرسول، فإنَّه إذا شهد بمثله فقد شهد به، فإذا شهد به فقد آمن به، فإنَّه إذا شهد أنَّ صفته صفة النبوءة فقد شهد له بها. أو المثل هو الرسول نفسه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان.

(نحو) والمجموع معطوف معنى على الشرط، والعطف عَلَى «شَهِدَ شَاهِدٌ»، أو على «آمَنَ»، لأنَّ الإيمان مقابل الاستكبار عن الإيمان، والمجموع معطوف معنى على الشرط. قال بعض المحقِّقين: مجموع «شَهِدَ شَاهِدٌ» و«ءَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُم» معطوف على مجموع «كَانَ من عند الله وَكَفَرتُم به» مثل عطف مجموع «الظَّاهِرُ والْبَاطِنُ» على مجموع «الاَوَّلُ والاَخِرُ» من المفرد، في قوله تعالى: ﴿هُوَ الاَوَّلُ والاَخِرُ وَالظَّاهِرُ والْبَاطِنُ﴾ (سورة الحديد: ٣) . قلت: هذا إعراب معنىً لا يصحُّ صناعةً، والإعراب الصناعيُّ عطف كلِّ واحد على الأوَّلِ، إلاَّ إن كان العواطف مرتَّبة، فكلٌّ واحد على متلوه، أو اقترن شيئان متناسبان فإنَّه يعطف أخيرُهما على أوَّلِهِمَا مثل لفظ: «الظَّاهِرُ والْبَاطِنُ».

ولا يتكرَّر «اسْتَكْبَرْتُم» مع «كَفَرْتُمْ»، لأنَّ الاستكبار بعد الشهادة، والكفر قلبها. ولا مفعول لـ«اَرَآيْتُم»، لأنَّ معناه: أخبرونا بالواقع. والجملة مغنية عن جواب «إِنْ». وقدَّر بعض: «أرآيتم حالكم إن كَانَ من عند الله، فقد ظلمتم ألستم ظلمتم»، فـ"حالكم" مفعول أوَّل، والثاني: "ألستم ظلمتم" معلَّق عنه، و"قد ظلمتم" جواب.

وقدَّر الحسن الجواب: «فَمن أضلُّ منكم»، لقوله تعالى: ﴿قُلَ اَرَآيْتُمُ إِن كَانَ مِنْ عند الله ثُمَّ كَفَرْتُم به مَنَ اَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (سورة فصِّلت: ٥٢) ، وقدَّر بعض: «فمن المحقُّ منَّا ومنكم، ومن المبطلُ؟»، وقدَّر بعض: «تُهلَكُوا»، وبعض جعله «آمَنَ»، أي: فقد آمن محمَّد به، أو فقد آمن الشاهد.

وقدَّر بعضٌ: «أفتومنون؟»، لدلالة «فَئَامَنَ» وأجاز بعض أن يكون قوله ﴿إِن كَانَ...﴾ سادًّا مسدَّ مفعولي «أَرَآيْتُمْ»، ويردُّه أنَّه لا يجوز ذلك بلا معلَّق.

(سيرة) والشاهد عبد الله بن سلام عند الجمهور، وعليه ابن عبَّاس،

فتكون الآية مَدَنيَّة، ويجوز أن تكون مَكِّيــَّة نزلت لِمَا سيكون، كما أنّ القرآن كلّه خلق قبل آدم، وكما نزل قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (سورة الحجر: ٩٠) ، أي: أنذر قريشا مثل ما أنزلنا على قريظة، والإنزال على المقتسمين بعد نزول الآية بسبع سنين، فإن كان إيمانه بعد نزول الآية فظاهر، وإلاّ فلا مانع من أن يقال: رأيت إن كان كذا، مع أنّه كان، فيكون تذكيرًا بالواقع واستشهادًا به.

(سيرة) وقيل: نزلت في المدينة، والخطاب فيها لقريش، دخل ﷺ وعوف بن مالك كنيسة اليهود يوم عيد، فقال ثلاث مرَّات: «لِيُؤمِنْ منكم اثنا عشر رجلاً يسقط الله تعالى عنكم الغضب» فلم يجيبوه، فقال: «والله أنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفى آمنتم أو كذّبتم»، فانصرف حتَّى قرب من الباب، فلحقه عبد الله بن سلاّم وقال: قف، فقال: ما أنا فيكم يا معشر اليهود؟ فقالوا: سَــيِّدنَا وابن سَــيِّدنَا، ولا أعلَمَ منك ولا من أبيك ولا من جدِّك، فقال: إنَّك النبيء الذي نجده في التوراة والإنجيل، فقالوا: شرُّنا وابن شرِّنا، كذبت!.

وقيل: أسلم فقال: أدخلني بيتًا واسألهم عنّي فإنَّهم قوم بهت، ففَعل وسألهم فمدحوه بما مرَّ، وقال: أرآيتم إن أسلم قالوا: حاشاه، فخرج وأظهر إسلامه، وقالوا: شرُّنا وابن شرِّنا، فقال: هذا ما أخاف منهم يا رسول الله.

(سيرة) وفي البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقّاص: ما سمعت النبيء ﷺ يقول لحيٍّ يمشي على الأرض إنَّه من أهل الجنة إلاّ لعبد الله بن سلاّم، وإنَّه الشاهد في الآية، بلغه قدوم النبيء ﷺ وهو في نخله، فجاءه فقال: أسألك عن ثلاث لا يعلمُهُنَّ إلاّ نبيء، ما أوَّل أشراط الساعة؟ وما أوَّل طعام يأكله أهل الجنَّة؟ وبم يشبه الولد أباه أو أمَّه؟ فقال: أخبرني بهنَّ جبريل آنفًا فقال عبد الله بن سلاَّم: هو عدوُّ اليهود، فقرأ ﷺ : ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ (سورة البقرة: ٩٧) ، وقال: «أوَّل أشراط الساعة نار تحشر الناس من

المشرق إلى المغرب، يعني إلى الشام لأنَّه غرب المدينة، وأوَّل طعام يأكله أهل الجنَّة زيادة كبد الحوت الحامل للدنيا، وإن سبق ماء الرجل أشبهه الولد وإن سبق ماؤها أشبهها»، فقال: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنَّك رسول الله، اسأل اليهود عنِّي... إلى آخر ما مرَّ.

وروى سعيد بن جبير: الشاهد هو ميمون بن يامين، وأنَّه الذي آمن واختفى، ومدحوه، ولَمَّا أظهر إسلامه كذَّبوه وبهتوه، ومِن كذبهم ما قالوا من أنَّه ﷺ إنَّه صحبه عبد الله بن سلاَّم في تجارة خديجة فعلَّمه الشرائع وأخبار الأمم، وألَّف له القرآن، ونسبوا القرآن المعجز إلى عبد الله بن سلاَّم.

وقيل: الشاهد موسى عليه السلام، فقيل: شهد موسى على التوراة، وهي مثل القرآن، وشهد محمَّد على القرآن، وكلٌّ يصدِّق الآخر، فآمن من آمن بموسى والتوراة، وكفرتم يامعشر العرب بمحمد والقرآن، وذلك قول مسروق قال: والله ما نزلت في عبد الله بن سلاَّم، لأنَّها مكِّيَّة وعبد الله بن سلاَّم أسلم بعد الهجرة.

وأقول: **الشاهد في الآية على عمومه، أيُّ شاهد كان.** **﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** تعليل للاستكبار، وإيذان بِأَنَّ سبب كفرهم به هو ظلمهم، وهذا على أَنَّ ظلمهم غير ذلك الكفر.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِ كِتَٰبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَٰمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

الردُّ على شبهات الكفَّار وجزاء المؤمنين

﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ من قريش **﴿لِلذِينَ ءامَنُواْ﴾** في شأن الذين آمنوا، أو لأجل الذين آمنوا على حدٍّ ما مرَّ، ولو كانت لام التبليغ لقال: ما سبقتمونا إليه، وليس ذلك طريق التفات إليه.

وقيل: الواو في «سَبَقُونَا» لطائفة أقوياء، كالصدِّيق وعمر وعثمان آمنوا، والمقول لهم: «لَوْ كَانَ خَيْرًا» طائفة أخرى، فيصحُّ أنَّ اللام للتبليغ، وهو خلاف الظاهر. وقيل: قالوا «مَا سَبَقُونَا» بالغيبة تحقيرًا لهم، ويردُّه أنَّ الكلام ليس ممَّا يصحُّ فيه هذا. فاللام للتعليل، أو بمعنى. في والغيبة في «سَبَقُونَا» على بابها.

﴿لَوْ كَانَ﴾ القرآن أو الإسلام **﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾** أسلم عمَّار وصهيب وبلال وأبو ذرٍّ، وغفار وزبيرة أمة عمر، فكان يضربها لإسلامها، وأكثر من أسلم أوَّلاً الضعفاء، فقالوا: لو كان خيرًا ما سبقنا إليه هؤلاء الضعفاء، ولا سبقتنا إليه زبيرة، وقيل: قالوا ذلك حين أسلم صعصعة وغطفان، وأسد وأشجع، وأسلم ومزينة وغفار.

وقيل: الذين كفروا اليهود، قالوا ذلك لَمَّا أسلم عبد الله بن سلاَّم وأصحابه، فالآية مَدَنيَّة، أو إخبار في مَكَّة بما سيكون كأنَّه قد كان، كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الاَعْرَافِ﴾ (سورة الأعراف: ٤٨) .

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ﴾ بالقرآن مطلقًا، أو ببشائره ونذائره، أو بالرسول. و«إِذْ» متعلِّق بمحذوف، أي: ظهر استكبارهم إذ لم يهتدوا به، وإن شئت قدَّرته مؤخَّرًا، أو قالوا ما قالوا إذ لم يهتدوا به.

(نحو) وقيل: متعلِّق بقوله: **﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾** على أنَّ الفاء صلة، وفيه أنَّ الأصل فيها العطف، والسين تنافي المضيَّ، فيحتاج إلى أن

يقال: «إِذْ» هنا للاستقبال، أي: إذا اسْتَمَرَّ عدم إيمانهم، أو أن يقال: المستقبل كالماضي لتحقُّق الوقوع.

(بلاغة) والتعبير بالاستقبال للدلالة على الاستمرار، وذلك كما استعملت في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ (سورة غافر: ٧١) ، ولا فرق بين السين وسوف في ذلك. وقيل: «إِذْ» للتعليل والفاء صلة.

﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ أي: قبل القرآن، وهذا ممَّا يرجِّح أنَّ الضمائر للقرآن، ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ مبتدأ أخِّر عن الخبر للحصر، أو «كِتَابُ مُوسَى» معطوف على «شَاهِدٌ»، فهو شاهد آخر، وعليه فـ«مِنْ قَبْلِهِ» حال من «كِتَابُ»، وفيه فصل كثير. ﴿إِمَامًا﴾ يقتدى به ﴿وَرَحْمَةً﴾ حالانِ من الضمير في الخبر.

﴿وَهَذَا﴾ أي: القرآن الذي يقولون: «إِنَّهُ إِفْكٌ قَدِيمٌ» وغير ذلك من الباطل ﴿كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة، ولجميع الكتب الإلهيَّة بموافقته لها في التوحيد وتوابعه، فكأنَّه هو كتاب موسى، وسائر كتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فتكذيبه تكذيب لكتب الله تعالى كلِّها، وكأنَّهم قالوا: هِي كلُّها إفكٌ قديم.

﴿لِّسَانًا﴾ حال من المستتر في «مُصَدِّقٌ»، أو من «كِتَابٌ»، لأنَّه خبر عن اسم الإشارة المتضمِّن للحدث، كأنَّه قيل: أشيرُ إليه حَالَ كونه لسانًا، وصحَّت حاليَّته مع جموده لنعته بما هو كالمشتقِّ، وهو قوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي: منتسبًا أو منسوبًا للعربيَّة، وفائدة هذه الحال على أنَّ الكلام مع اليهود أنَّ كونه مصدِّقًا ــ كما دلَّ على أنَّه حقٌّ ــ دلَّ على أنَّه وحي من الله عَزَّوَجَلَّ .

وعلى أنَّ الكلام مع كُفَّار مكَّة أنَّهم قد يُسلِّمونَ [بِأَنَّ] التوراة والانجيل ونحوهما من كتب الله، ولو كانوا ينكرون أحيانًا الرسل والكتب كلَّها.

(نحو) ولا يتبادر أنّ «لِسَانًا» مفعول لـ«مُصَدِّقٌ» على حذف مضاف، أي: مصدق ذا لسان عربيٍّ. وذو اللسان العربيِّ هو سَيِّدنَا محمَّد ﷺ ، يصدِّقه هذا الكتاب بموافقة كتاب موسى وسائر كتب الله عزّ وجلّ ، ويجوز على هذا أن تكون الإشارة إلى كتاب موسى عليه السلام ، كأنَّه مصدِّق للِّسان العربي وهو القرآن، أو لذي اللسان العربيِّ.

﴿لِّتُنذِرَ الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هم الكفرة، متعلِّق بـ«مُصَدِّقٌ»، أو بمحذوف، أي: أنزلناه لتنذر...الخ، وهو أولى لظهوره من تعليقه بـ«مُصَدِّقٌ» لاحتياجه إلى تأويل «مُصَدِّقًا» بمؤثر التصديق في الجملة.

(نحو) ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ اسم مصدر، ومعناه: التبشير، مجرور بفتحة مقدَّرة على الألف نائبة عن الكسرة، لأنَّه ممنوع الصرف لألف التأنيث، معطوف على المصدر المجرور باللام، أي: لإنذارك الذين ظلموا وللتبشير.

[قلت:] ومن العجيب دعوى نصبه على التعليل عطفا على محلِّ المصدر المذكور، معتبرًا بإسقاط اللام وبالنصب، أي: إنذارا. وأعجب من هذا تخطئة من قال ما ذكرته وتصويب تلك الدعوى العجيبة. ومن التخليط تقدير: «هو بشرى»، ومنه عطفه على «مصدق» ومنه تقدير: ويبشر بشرى، ومنه دعوى أنَّه منصوب على نزع اللام، ولو أمكن ذلك كلُّه.

(بلاغة) ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ مقابل لـ﴿الذينَ ظَلَمُواْ﴾، ولم يقل: للعادلين مع أنَّه أشدُّ مبالغة، ليكون ذريعة إلى البشارة بنفي الخوف والحزن لمن قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا. ولم يقل: للذين أحسنوا مع أنَّه أنسب بـ«ظَلَمُوا» للفاصلة، وليكون المعنى: لينذر الذين وجد منهم الظلم، ويبشر الذين ثبتوا واستقاموا، والوصف للثبات بخلاف الفعل، فيناسب تعليل البشارة بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ﴾ أي: إنَّ الذين جمعوا بين التوحيد ــ الذي هو خلاصة العلم بكتب الله ــ والاستقامة في الدين التي هي منتهى العمل. و«ثمَّ» للترتيب الزماني، لأنَّ وقت الاستقامة بالعمل متأخِّر عن وقت الإقرار بالتوحيد، أو للتراخي الرتبي، فإنَّ العمل متراخي الرتبة عن التوحيد، فإنَّ التوحيد أفضل، ولا يعتدُّ بشيء قبله، أو للتراخي الرتبي من وجه آخر هو علوُّ التوحيد المقرون بالعمل عن التوحيد المجرَّد السابق أوَّلا قبل العمل، على فرض أنَّ الاستقامة مستحضرة للتوحيد.

﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ممَّا يلحق المشرك في الدنيا لشركه وما يلحقه في الآخرة ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوت محبوب ممَّا يحبونه، ولا من لحوق مكروه، والفاء في خبر الموصول، لأنَّ المقصود به العموم لا مخصوصون، فهو كاسم الشرط.

﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بالإيمان والاستقامة ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ النصب على الحال من المستتر في «أَصْحَابُ» على أنَّه متضمِّن معنى مصاحبين الجنَّة، أو حال مقدَّرة من «أَصْحَابُ»، أي: مقدَّرًا لهم الخلود، وفيه أنَّ القاعدة أن يقدَّر: مقدِّرين الخلود. ﴿جَزَآءً﴾ أي: يجزون بها جزاء، فهو مفعول مطلق مؤكِّد للجملة، نحو: «ابني أنت حقًّا». ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الحسنات الاعتقاديَّة واللسانيَّة والفعليَّة.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ

إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

الوصيَّة ببِرّ الوالدين

-١-

الولد البارُّ بوالديه

﴿وَوَصَّيْنَا﴾ التوصية والإيصاء التَّقَدُّم إلى أحد بما يعمل به، مقترنا بوعظ وتأكيد ﴿الانسَانَ﴾ «ال» للجنس أو للاستغراق، حتَّى يشمل الصبيان فإنَّهم موصون بالأعمال الصالحة، ويثابون عليها، ولا يعاقبون على شيء، وكلُّ طاعة أمر بها أو معصية نهي عنها فإنَّ الطفل داخل فيها، إلاَّ أنَّه لا يسمَّى فعله فسقا أو كفرا أو فحشا.

ووجه دخوله أنَّ الأمر يكون للندب كما يكون للوجوب، فقد يجوز الجمع بينهما بلفظ واحد، فيدخل الطفل، فيكون في حقِّه للندب وفي حقِّ المكلَّف للوجوب، وكذا المحرَّم هو كراهة حقِّ الصبيِّ، وهذا أولى في الزجر والمحافظة على حقوق الوالدين، والمتبادر الجنس، وكثيرا ما يكون الشيء عامًّا والمقام ليس لذكر الاستغراق فيحمل على الجنس.

﴿بوَالدَيْه﴾ أبيه وأمِّه، ولو مشتركا إذا حكم الشرع بالشركة في الولد ﴿حُسْنًا﴾ اسم مصدر هو الإحسان، مفعول به لـ«وَصَّيْنَا» لتضمُّنه معنى ألزمنا، أو مفعول مطلق لتضمُّن «حُسْنًا» معنى «وَصَّيْنَا» أو «وَصَّيْنَا» معنى أحسنَّا، أي: أحسنَّا بالوصية للإنسان بوالديه إحسانا، أو لتقدير: وصَّينا الإنسان إيصاء ذا حسن، وقيل: وصَّينا الإنسان أن يحسن بوالديه إحسانا.

﴿نحو﴾ ولا يعلّق الجارُّ بـ«حُسْنًا» بعده، لأنّه مصدر مقصود به أنْ والفعل، وأما قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَاخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ ﴿سورة النور: ٢﴾ ، فليس على معنى لا يأخذكم بهما أن ترأفوا، فيجوز التعلّق به، وأمّا ﴿وَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ ﴿سورة الصافات: ١٠٢﴾ ، فـ«مَعَ» متعلّق بـ«بَلَغَ» والقاعدة التصرُّف في الظروف والجارِّ والمجرور لاحتياج الأشياء إليها، فيقاس فيما لا ينحلُّ إلى حرف المصدر والفعل، ويتوقّف مع السماع فيما ينحلُّ، وإذا عدِّي الحسن بالباء فهي للإلصاق.

(سبب النزول) والآية نزلت في الصدِّيق ﵁ إلى قوله تعالى: ﴿يُوعَدُونَ﴾، أسلم هو وأبواه كابن عمر، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر وابنْ العاصي، وإنّما أسلم والد أبي بكر بعد الفتح، والآية مَدَنِيَّة، وقد قيل: قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيَ...﴾ بالنسبة إلى أبويه دعاء بتوفيقهما للإيمان.

﴿سيرة﴾ وروي أنّ أبا بكر صحب النبيء ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنة، ورسول الله ﷺ ابن عشرين في سفر إلى الشام في تجارة، فنزل تحت سمرة فقال له الراهب إنّه لم يستظلّ بها أحد بعد عيسى غيره ﷺ ، فوقع في قلبه تصديق الراهب، فلم يكن يفارق النبيء ﷺ في سفر ولا حضر، فلمّا بعث ﷺ وهو ابن أربعين سنة آمن به، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، وَلَمَّا بلغ أربعين قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيَ...﴾.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ, كَرْهًا﴾ ذات كره، أو حملاً ذا كره، أو مكروهاً لا بالذات بل من حيث المشقّة، فإنّها في المشقّة من حين ينتن في البطن وصار علقة إلى أن يولد، وذلك مشقّة النتن، ومشقّة كراهة بعض الأطعمة وثقله وتحرُّكه.

﴿وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا﴾ لمشقّة الولادة، ويقال أيضًا: بضمِّ الكاف كما هو قراءة البعض، ومعناهما واحد، وقيل: المفتوح مصدر بمعنى الحدث، والمضموم اسم

للحاصل من المعنى المصدريِّ، وقيل المفتوح المشقَّة التي تنال الإنسان من غيره بإكراه، والله ﷻ قهرها على الحمل والولادة الشاقّين، والكره ما يناله من ذاته وهو ما يعافه بالطبع والعقل أو الشرع.

﴿وَحَمْلُهُۥ﴾ العلوق وما بعده ﴿وَفِصَالُهُۥ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ أي: مدَّة حمله وفصاله، وهو الفطام، والمفاعلة على بابها، وهو انفصال بينه وبين أمِّه، فصلته وفصلها، وكلٌّ منهما فَاصَلَ الآخر، والإضافة للفاعل، وقيل: خارجة عن بابها، بمعنى: فصلته عنها، كما قرأ أبو رجاء والحسن وغيرهما: «وَفَصْلُهُ»، أي: وفطْمه، والإضافة للفاعل.

وقيل: الفصال في الأصل المصدر، والمراد: الزمان، وهو وقت الفطم، فهو معطوف على «مدَّة» المحذوفة، لكن ناب عنها «حَمْلُهُ». والفصال: الرضاع التامُّ الذي يعقبه الفطم، وذكر المشقَّة والرضاع حضًّا على برِّ الأمِّ والإحسان إليها كلَّ الإحسان، لما تلقاه من الألم.

قال رجل: يارسول الله من أبرُّ؟ قال: «أمَّكَ» وقال: ثمَّ من؟ قال: «أمَّكَ» وقال: ثمَّ من؟ قال: «أمَّكَ»، فذلك ثلاث مرَّات قال: «ثمَّ أباك»[1]، وذلك دليل على أنَّ الأمَّ أعظم حقًّا، وكذا ذكر مشاقِّها في الآية دليل على ذلك ثلاثًا، كما أفصح به الحديث عن الآية، ولم يذكر مثل ذلك للأب، بل ذكره في المرتبة الرابعة من الحديث.

والجمهور على أنَّ مدَّة الحمل أقلُّها ستَّة أشهر، لأنَّ من ثلاثين شهرًا ــ كما قال تعالى: ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ ــ سنتين للرضاع، كما قال الله ﷻ:

١-رواه **أبو داود** في كتاب الأدب، باب في برِّ الوالدين، رقم٥١٣٩، من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جدِّه.

﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنَ اَرَادَ اَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٣) ، فيبقى منها للحمل ستَّة أشهر، وبه قال: عليٌّ وابن عبَّاس والأطبَّاء، وشاهد جالينوس وابن سينا ولادة امرأة على مائة ليلة، وأربع وثمانين ليلة [وذلك ٦ أشهر وعشرة أيَّام].

وأمَّا أكثر مدَّة الحمل فليس في القرآن ما يدلُّ عليها، وقد ولدت امرأة ولدًا لأربع سنين من حين الحمل، قد نبتت أسنانه. وأزمنة حمل الحيوان أكثر ضبطًا من زمان حمل المرأة، فقد تضع لسبعة أشهر، وقلَّما يجيء ما وضعت لثمانية إلاَّ في بلاد معيَّنة كمصر.

(فقه) ولو ولدت امرأة لأقلِّ من ستَّة أشهر أو تحرَّك في بطنها لأقلّ من أربعة أشهر من حين النكاح كان ولد زنًى فترجم، إلاَّ إن كان زوجٌ قبلها فليلحق به، ولا رجم.

(فقه) ومن أرضعت بعد حولين فليس برضاع موقِعٍ للحرمة، وقيل: رضاع إن كان قويًّا مُغذِّيا، وقيل: رضاع مطلقًا، وإن أرضعت من له أكثر من حولين فليس محرما لها. وأكثر مدَّة الرضاع أربعة وعشرون شهرًا، قال ابن عبَّاس: إذا حملت المرأة تسعة أشهر أرضعت أحدًا وعشرين شهراً، وإذا حملت ستَّة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرًا، وعن أبي حنيفة: المراد في الآية الحمل بالأيدي.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ﴾ عاش حتَّى إذا بلغ ﴿أَشُدَّهُ﴾ قوَّة عقله وبدنه، وقيل: ثماني عشرة سنة إلى أربعين، وذلك قوَّته الشديدة، وقيل: تشتدُّ قوَّته وعقله إذا زاد على ثلاثين، وناصح أربعين، وعن قتادة في ثلاثة وثلاثين، فيقال: أوَّل الأشدِّ ما ذكر، وتمامه أربعون، وهو اسم جمع، وعن سيبويه: جمع شدَّة.

﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ عطف تفسير، فسَّر بلوغ الأشُدِّ ببلوغ أربعين سنة،

والأولى أنّه غير بلوغ الأشدِّ، فهو ما قبل أربعين في قرب منها.

وتكمل القُوَّة عقلاً وبدنًا بتمام أربعين، وكذلك كان غالب النبوءة على تمام الأربعين، وقلّت النبوءة قبلها، كما قيل في يحيى وعيسى: إنَّهما نبيئان في زمان الصبا، قال الله تعالى: ﴿إني عَبْدُ اللهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيئًا﴾ ﴿سورة مريم: ٣٠﴾، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ﴿سورة مريم: ١٢﴾، وقيل: هذا إخبارٌ عَمَّا سيحصل لهما على تمام الأربعين. وعنه ﷺ: **«إنَّ الشيطان يجرُّ يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب»**[1] ويقول: **«بأيِّ وجه لا يفلح»**، أي: متعجِّبٌ من عدم فلاحه مع بلوغ الأربعين، وعنه ﷺ: **«من أتى عليه أربعون سنة ولم يغلب خيرُه شرَّه فليتجهَّز إلى النار»**[2].

﴿**قَالَ رَبِّ**﴾ يَا رَبِّ ﴿**أَوْزِعْنِيَ**﴾ حضِّضْني ﴿**أَنَ اَشْكُرَ**﴾ على أن أشكر ﴿**نِعْمَتَكَ التِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ**﴾ من الإيجاد وصحَّة البدن والعقل، ودين الإسلام. نزلت في أبي بكر، وقد أسلم هو ووالده، وهي على عمومها فيمن يقول ذلك، وفيمن نعمة والديه نعمة الدنيا لا الدين[3].

﴿**وَأَنَ اَعْمَلَ صَالِحًا**﴾ فريقًا كثيرًا من العمل الصالح ﴿**تَرْضَاهُ**﴾ بأن لا يخالطه إهمالٌ أو رياءٌ، أو خلل أو عُجب، وغير ذلك مِمَّا يفسده أو ينقصه. والرضا القبول، وقيل: الرضا **الثواب**، تسمية بالملزوم والسبب باللازم والمسبَّب،

١- أورده الألوسي في تفسيره: ج٢٦ ص١٨ بلا إسناد ولا تخريج.

٢- اورده **ابن الجوزي** في الموضوعات (٣٨) باب تحذير من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره، ج١ ، ص٢٨١، رقم٣٧٥. كما أورده **الشوكاني** في الفوائد المجموعة: ص٤٨٠، رقم ١٣٥١، (٥٢). من حديث ابن عبَّاس.

٣- في الطبعة العمانية: «نعمة الدنيا والدين».

وفسَّره بعض بالإرادة، ولا يصحُّ إلاّ إن عنى بالإرادة الحبَّ.

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ اجعل الصلاح راسخًا فيهم، نزِّل «أَصْلِحْ» منزلة اللاّزم فعدِّي بـ«في» للدلالة على الرسوخ فيه، وزعم بعض أنَّ المراد: ألطف بي في ذرِّيَّتي.

أجاب الله تعالى دعاء أبي بكر ﵁ فأعتق تسعة من المؤمنين يعذَّبون في الله تعالى، منهم بلال وعامر بن فهيرة، ولم يُرِد شيئا من الخير إلاَّ أعانه الله تعالى عليه.

ودعا أيضًا فقال: «أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» فلم يكن له ولدٌ إلاَّ آمن، فاجتمع له إسلام أبويه: أبي قحافة عثمان بن عمرو، وأمِّه أمِّ الخير بنت صخر بن عمرو وأولاده. أدرك أبوه وولدُه عبدُ الرحمن، وولدُ عبدِ الرحمنِ ــ واسمه: محمَّد، وكنيته أبو عتيق ــ النبيءَ ﷺ وآمنوا به، ولم يجتمع لغيره من الصحابة ذلك.

أسلم هو وأبواه وبنوه وبناته، وولد ولده. زاد عليه النبيء بعامين، أوحي إليه على أربعين عامًا وآمن به أبوبكر وهو ابن ثمان وثلاثين.

والآية في سعد بن أبي وقَّاص عند بعض، وصحِّح أنَّها في أبي بكر، وقيل: على العموم.

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من كلِّ حرامٍ وكلِّ مكروهٍ، ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المخلصين أنفسهم لكَ ﴿أُوْلَئِكَ﴾ إشارة البعد للإنسان المراد به الجنس البعيد درجةً في الخير والأفعال الجليلة ﴿الذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُواْ﴾ وهوالطاعات، فأمَّا الحسن وهو المباح فلا مدخل له في القبول ولا الرَّدِّ.

ولا يتبادر أن يراد بالأحسن الحسن، ويشمل المباح على أنَّهم قصدوا به الطاعة فيثابوا عليه، ويكون خارجًا عن التفضيل، ولو كان ذلك لاَ بُدَّ منه في

نفس الأمر لا تفسيرا للآية، وعليه فلا يوجد إلاّ قسمان: حسن وهو الطاعة ولو بالمباح، وقبيح وهو المذكور في قوله عز وجل: ﴿وَالذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾.

﴿**وَيُتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ**﴾ كبائرهم وصغائرهم لتوبتهم، كما قال: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾. ومن أصرَّ لم تقبل حسناته ولم تغفر سَيِّئَاته، وأجاز قومنا المغفرة بلا توبة، وهو خطأ. ﴿**فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ**﴾ حال، أي: ثابتين في أصحاب الجَنَّة، أو منتظمين في سلكهم. وقيل: «في» بمعنى مع.

﴿**وَعْدَ الصِّدْقِ**﴾ وَعَدَ اللهُ ذلك وَعْدَ الصِّدْق، مفعول مطلق مؤكِّد لمعنى نفسه في الجملة قبله، نحو: لك عليَّ ألفٌ اعترافًا ﴿**الذي**﴾ نعت «وَعْدًا» لا نعت «الصِّدْق» ﴿**كَانُواْ يُوعَدُونَ**﴾ على ألسنة الرسل.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

-٢-

الولد العاقُّ لوالديه المنكر البعث

﴿**وَالذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ**﴾ حين دعواه إلى الإيمان بالله ورسوله والبعث، وهو مبتدأ خبره ﴿أُوْلَئِكَ الذينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ والمراد جنس من نازع أبويه في الإسلام والبعث، بدليل الإخبار عنه بـ﴿أُوْلَئِكَ الذينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ...﴾.

والمراد العموم ولو نزلت في واحد، فقيل: هو عبد الرحمن بن أبي بكر، نازع أبويه في الإسلام والبعث ثمّ أسلم، وبه قال ابن عبَّاس، وكان من الصحابة، وكان له غناء يوم اليمامة وغيره، والإسلامُ يجُبُّ ما قبله، ولا يعارض ذلك بقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ...﴾ فإنَّه غير شامل له.

[قلت:] لأنَّ الحكم على الجنس لا يستغرق أفراده، فهذا كسائر ما نزل من القرآن في كُفَّار قريش ثُمَّ يسلم بعضٌ، فلا يشمله حكم السوء ولو كان هو سبب النزول، وذلك أولى من تقدير بعض في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ﴾ صنف هذا المذكور. وكذا قال السهيلي: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، فإنَّ قاعدة القرآن أن لا يقال لمشرك: «إنَّه حقَّ عليه القول» إلاَّ من قضى الله عليه أن سيموت مشركًا، كأن يدعوه أبواه إلى الإسلام فيأبى، ويقول: أحيوا لي عبد الله بن جدعان، وعامر بن كعب، ومشايخ قريش، حتَّى أسألهم عمَّا تقولون ثمَّ أسلم، وكذا تأخَّر إسلام جدِّه أبي قحافة.

وكذا قال مروان: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، فقال له: ألست الذي قال لوالديه أفٍّ لكما...إلخ؟ فأجابه عبد الرحمن: ألست الذي لعن رسول الله ﷺ أباك وأنت في صلبه؟ وليست الآية فيَّ، وقالت عائشة لمروان ثلاثًا: كذبت، والله ما نزلت فيه، ولو شئت لسمَّيت من نزلت فيه.

ويروى أنَّه كتب معاوية إلى مروان ليأمر الناس بالبيعة ليزيد، فخطب، فأمر له بالبيعة، فقال عبد الرحمن: لقد جئتم بها هرقلية، أتبايعون لأبنائكم؟ فقال مروان: أيـــُّهَا الناس هذا الذي قال الله فيه: ﴿وَالذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ وسمعت عائشة وقد التجأ إليها عبد الرحمن فنجا، وقد قال: خذوه، وغضبت وقالت من وراء حجاب: والله ما هو به، ولو شئت لسمَّيته، ولكن الله تعالى

لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت فضَضٌ من لعنة الله، ما أنزل الله تعالى فينا شيئًا من القرآن إلاّ ما أنزل الله في سورة النور من براءتي.

وقيل: الآية في كلّ كافرٍ عاقٍّ لوالديه، **وقيل: في كلّ من دعاه أبواه إلى الإسلام فأبى، قال بعض: وهو الصحيح.**

واللام في قوله: ﴿**أُفٍّ لَّكُمَآ**﴾ لبيان من أفّفَ لَهُ ﴿**أَتَعِدَانِنِي أَنُ اخْرَجَ**﴾ من قبري حيًّا بعد موتي؟ ﴿**وَقَدْ خَلَتِ**﴾ مضت، والواو للحال ﴿**الْقُرُونُ مِن قَبْلِي**﴾ موتي ولم يخرج منهم أحد، ولو خرج أحدٌ الآن لعلمنا أنّهم يخرجون في اليوم الذي تقول إنّهم يخرجون فيه.

وقيل: المعنى: وقد خلت القرون من قبلي على التكذيب بالبعث، وأنا على ما مضوا عليه، وهذا استدلال على إنكار البعث.

﴿**وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ**﴾ يدعوان الله برغبَة ولَهَف أن يوفّقَهُ إلى الإيمان، أو يلتجئان إلى الله أن يعصمهما من كفر ولدهما وعذَابه ﴿**وَيْلَكَ ءَامِنِ**﴾ بالبعث ﴿**انَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**﴾ مفعول لحال محذوفة من ألف «يَسْتَغِيثَانِ» مقدَّرة، لأنّ وقت الاستغاثة غير نفس وقت الحال بل بعده، وإن شئت فقل: مقارنة، لتقارب الوقتين كأنّهما وقت واحد، تقديرها: قائلين وَيْلَكَ ءَامِنِ... وإن شئت فقل: مقارنة بوجه آخر، هكذا: مُتّـصفين بهذا القول بقطع النظر عن كونه ماضيًا أو آتيا. أو قدَّر القول مرفوعًا خبرا ثانيا، أي: قائلان أو يقولان: «وَيْلَكَ ءَامِنِ انَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ».

وليس المراد الدعاء عليه بالهلاك، بل التنبيه على أنّ ما هو فيه موجب له، أو حقيق بأن يُدْعَى له بالهلاك، قيل: أو للتنبيه على أنّ الأمر الذي أمرَاهُ به ممَّا يُحسدُ عليه ويُدعى عليه لأجله بالهلاك للحسد، كما يقال: ويلك دُمْ على ما أنت عليه من الكرم، وغير ذلك من ألفاظ السوء التي تذكر في الخير.

(نحو) والجملة تعليل لـ«آمِن» جمليٌّ، كما قرأ الأعرج وعمرو بن فائد بفتح همزة «انّ» تعليلاً إفراديًا، أي: لأنّ وعد الله حقٌّ، أو يقدَّر: آمن بِأَنّ وعدَ الله حقٌّ على غير التعليل، وتقدير لام التعليل أولى لموافقة كسر «إنّ»، فإنّ كسرها على التعليل الجمليِّ، ولو احتمل الاستئناف في كلامهما.

﴿فَيَقُولُ مَا هَذَآ﴾ أي: ما الذي تدعوان إليه من الإخراج من القبر بالبعث ﴿إِلاَّ أَسَاطِيرُ الاَوَّلِينَ﴾ على حذف مضاف، أي: بعض أساطير الأوَّلين، أو اعتبر في الإخبار عنه بالجمع نظرًا إلى ما اشتمل عليه الإخراج من القبر بالحساب والثواب والعقاب.

(لغة) وأساطير جمع أسطورة بصيغة التفخيم، كأُعْجُوبَة وأُحْدُوثة، أي: شيء مستعظم من جهة الإخبار به، والتلهِّي، وهي ما سطِّر، أي: كتب في أخبار الأوائل التي لا حقيقة لها.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ أي: الإنسان المراد به الجنس، وفسَّر بعضهم ﴿أُوْلَئِكَ﴾ بالصنف، أي: صنف هذا الإنسان المفرد الذي هو عبد الرحمن، والمراد: الجنس الذي لا يتوب.

﴿الذينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وعد الله وقضاؤُه عليهم بالسوء، أو قول الله: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ...﴾ (سورة ص٨٥) ، ﴿فِي أُمَمٍ﴾ حال، أي: في جملة أمم، أو مع أمم، وذلك هو في مقابلة قوله تعالى: ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّة﴾. وقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ نعت «أُمَمٍ» ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالاِنسِ﴾ تبعيض.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: لأَنَّهم، كما قرأ أبو عمرو بفتح الهمزة في رواية عنه. ﴿كَانُواْ خَاسِرِينَ﴾ مُضيِّعين لأبدانهم وعقولهم وأموالهم وكلّ ما ينتفعون به لدين الله، إذْ لم يستعملوها في دين الله تعالى، كمن خسر رأس ماله.

وعن الحسن: إنَّ الجنَّ لا يموتون، فإن صحَّ عنه فالآية ردٌّ عليه، لأنَّ الخلوَّ المذكور بالموت، وإن صحَّ فالمراد أنَّهم يموتون يوم نفخة الموت، ولا يموتون قبلها، وردَّت الآية ذلك وسائرُ أخبار موت أفراد الجنِّ.

﴿**وَلِكُلٍّ**﴾ من: ﴿الذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُم﴾ و﴿الذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ و﴿الذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللهُ﴾ و﴿الذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ أو لكلٍّ من الذين حقَّ عليهم القول ومن قبلهم من الأمم المهلكة.

﴿**دَرَجَاتٌ**﴾ مراتبٌ في الثواب والعقاب، من استعمال المقيَّد وهو ما للأعلى في المطلق الشامل لما للأسفل، وهو الدركات، وغلَّب الدرجات لأنَّ أهلها أحقُّ بالتغليب، ولذكر جزائهم مرارًا وجزاء أهل الأسفل مرَّة، والدرجات للأسفل فقط على الوجه الأخير. وعن ابن عبَّاس: الآية فيمن سبق إلى الإيمان وأنَّه أفضل مِمَّن تأخَّر ولو بساعة.

﴿**مِّمَّا عَمِلُواْ**﴾ نعت. و«مِنْ» للابتداء، أي: ثابتة لهم مِمَّا علموه، أو من عملهم. وإذا فسَّر «دَرَجَاتٌ» بغير الثواب والعقاب فـ«مِنْ» للبيان، أي: مراتب هي ما عملوا ﴿**وَلِنُوَفِّيَهُمْ**﴾ أي: الله ﴿**أَعْمَالَهُمْ**﴾ متعلِّق بمحذوف، أي: قدر الأجزية على مقادير أعمالهم ليوفِّيهم أعمالهم، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات، أي: جزاء أعمالهم على العدل لا نقصًا ولا زيادة، كما قال: ﴿**وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾ الواو للحال من المستتر، أو من الهاء الأولى.

﴿**وَيَوْمَ**﴾ متعلِّقٌ بقول محذوف عامل في قوله: ﴿أَذْهَبْتُم طَيِّبَاتكم...﴾ أي: ويقال لهم يَوْمَ يُعْرَضُ الذينَ كَفَرُواْ عَلَى النَّارِ: «أَذْهَبْتُمْ...»، أو ونقول لهم يَوْمَ يُعْرَضُ الذينَ كَفَرُواْ عَلَى النَّارِ: «أَذْهَبْتُمْ...»، وهم كُفَّار آخرون غير المذكورين في قوله تعالى: ﴿**يُعْرَضُ الذينَ كَفَرُواْ عَلَى النَّارِ**﴾، أو هذا أعمُّ،

والأصل في المعروض عليه أن يكون مدركًا قابلاً للمعروض المنتقل إلى المعروض عليه، أو ا لمتحرِّك إليه فيقبله أو يرُدُّه.

فأمَّا أن تكون نار الآخرة مُدْركة كالحيوان أو العاقل كما قيل، أو تنزَّلُ منزلة العاقل فتقبل الكفرة. فلا حاجة إلى ادِّعاء بعضهم القلب هكذا: الأصل تعرض النار على الذين كفروا، و لم يحسن القلب لأنَّه ضروريٌّ أو شاذٌّ، أو لَمَّا كان المعروض في الأصل يتحرَّك، أو يحرك إلى المعروض عليه، وهنا لا يتحرَّك عن موضعه وهو النار نُزِّل منزلة المعروض عليه الذي يبقى في محلِّه، فيعرض عليه غيرهُ.

ومن القلب عرضت الناقة على الحوض، إلاَّ بهذا الاعتبار بأن ينزل الحوض منزلة المعروض عليه، إذ لا ينتقل، وقال ابن السكيت[١]: إنَّ عرضت الحوض على الناقة مقلوب، والأصل عرضت الناقة على الحوض، وهو خلاف المشهور، واختار السيالكوتي[٢] محشِّي شرح المواقف أنَّ كلاًّ من ذلك غير مقلوب، وأنَّ العرض إظهار شيء لشيء.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ باستيفائها، مرَّ حديث البخاري ومسلم أو بعضُه[٣]: أنَّ عمر دخل على رسول الله ﷺ فإذا هو متَّكئ

١-ابن السكيت يعقوب بن إسحاق أبو يوسف، إمام في اللغة والأدب أصله من خورستان بين البصرة وفارس، تعلَّم ببغداد، اتَّصَلَ بالمتوكِّل العَبـَّاسيِّ، فعهد إليه بتأديب أولاده، ثمَّ قتله بسبب مجهول سنة ٢٤٤هـ.

٢-السيالكوتي عبد الحكيم بن شمس الدين الهندي السيالكوتي البنجابي، اتَّصَلَ بالسلطان شاه جان، فأكرم مثواه بضياع أغنته، فانقطع للتآليف، منها: حاشية على تفسير البيضاوي، تُوُفِّيَ سنة ١٠٦٧هـ. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٢٨٣.

٣-رواه **مسلم** في كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهنَّ... رقم١٤٧٩. ورواه **الترمذي** كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التحريم، رقم٣٣١٨. من حديث عمر.

على رمال حصير قد أثّر في جنبه، فقلت: أستأنس يا رسول الله؟ قال: نعم، فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت فيه شيئًا يردُّ البصر إلاَّ أهبة ثلاثة، أي: جلودًا، فقلت: ادع الله أن يوسِّع على أمَّتكَ فقد وسَّع على فارس والروم ولا يعبدون الله، فاستوى جالسا ثمَّ قال: «**أفي شكٍّ أنت يا ابن الخطَّاب؟ أولئك قومٌ عجِّلت لهم طيِّـباتهم في الحياة الدنيا**» فقلت: استغفر لي يا رسول الله. وفي البخاري أنَّ عبد الرحمن بن عوف أتيَ بطعامٍ وكان صائمًا فقال: «قتل مصعب بن عمير وهو خير منِّي، فكُفِّن في بردة، إن غطِّي رأسه بدت رجلاه، وإن غطِّيت رجلاه بدا رأسه». قال ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وأراه قال أيضًا: «قتل حمزة وهو خير منِّي، ولم يوجد ما يكفَّن فيه إلاَّ بردة، ثمَّ بسط لنا من الدنيا ما بسطَ، وقد خشيت أن تكون عجِّلت لنا طيِّـباتنا في حياتنا الدنيا»، ثمَّ جعل يبكي حتَّى ترك الطعام.

قال عمر: لو شئت لكنت أطيبكم طعامًا، وأحسنكم لباسًا، ولكنِّي أستبقي طيِّـباتي. وفي البخاري عن عائشة: «ما شبع آل محمَّد من خبز الشعير يومين متتابعين، حتَّى قبض رسول الله ﷺ» .

﴿**وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا**﴾ فلم يبق لكم بعدها شيء، وإنَّما أذهبوها بالاستمتاع، فالعطف للتفسير.

﴿**فَالْيَوْمَ تُجزَوْنَ**﴾ على أعمالكم وأقوالكم واعتقادكم السيِّئات ﴿**عَذَابَ الْهُونِ**﴾ عذاب الهوان، كما قرأ به بعض ﴿**بِمَا كُنتُمْ**﴾ بكونكم في الدنيا ﴿**تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ**﴾ المخلوقة للعبادة والتواضع، ﴿**بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ من الله تعالى، بمعنى أنَّ الحقَّ في دين الله أن لا تستكبروا عن الخلق بالترفُّع عنهم، وأن لا تستكبروا عن الدين بإنكاره، أو بغير استحقاق، فقد يكون باستحقاق كالترفُّع عن الكافر لكفره والترفُّع عن الظالم.

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ تخرجون عن الطاعة بالزنى، وأكل أموال الناس وظلمهم، وغير ذلك من الذنوب.

(أصول الدين) وهذا وأمثاله دليل على خطاب المشركين بالفروع كالأصول. وقدَّم التكبُّر لأنَّه من فعل القلب، والفسق من أفعال الجوارح، وهي تابعة للقلب.

روى سعيد بن منصور والبيهقيُّ وغيرهما عن عبد الله بن عمر أنَّ عمر رضي الله عنه رأى في يد جابر بن عبد الله درهمًا، فقال: ما هذا الدرهم؟ فقال: أريد أن أشتري به لأهلي لحمًا قرموا إليه، فقال: أكُلَّما اشتهيتم شيئًا اشتريتموه؟ أين تذهب عنكم هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾، وفي رواية: رأى بيده لحما فقال: ما هذا ؟ فقال: لحم اشتريته لأهلي قرموا إلى اللحم، فقال: أكلَّما...إلخ. ويروى: اشتهيت لحما فاشتريته، فقال عمر: أفكلَّما اشتهيت شيئا أجابر اشتريت؟ أما تخاف هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

ومراده: التزهيد والتحذير من إكثار اللذَّات، كما هو شأن المشركين، ومن قسوة القلب لا التحريم، والآية إنَّما هي في المشركين إذ أقبلوا على اللَّذات، وأعرضوا عن الآخرة.

وقدِمَ وفد أهل البصرة على عمر رضي الله عنه مع أبي موسى الأشعريِّ، فكان له كلَّ يوم خبز مأدوم بزيت، وتارة بسمن، وتارة بلبن، وتارة بقدائد دقَّت وأغلي عليها، وتارة بلحم طريٍّ، وهو قليل، وقال: «والله ما أجهل كراكر وأسمنة عن صلاء وصناب وسلائق، ولكنَّ الله تعالى عيَّر قومًا بقوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ...﴾». رواه عبد الله بن المبارك وابن سعدة وأبو نعيم وغيرهم عن الحسن.

والكركرة: ما يصيب الأرض من البعير إذا برك، وهي أطيب لحمه، والصِّلاء: الشواء، والصناب: إدام يتَّخذ من الخردل والزبيب، والسليقة: ما سلق من البقول وغيرها، وبالصاد: اللحم المشوي.

وفي البخاري ومسلم عن عائشة: «يأتي علينا الشهر ما نُوقدُ فيه نارًا، إنَّما هو الأسودان: الماء والتمرُ، إلاَّ أن نؤتَى بلحيمٍ». وفي رواية: «إنَّا كنَّا لننظر إلى الهلال ثمَّ الهلال ثمَّ الهلال ثلاثة أهلَّة أو شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نارًا». قال عروة: ياخالة فما كان يعيشكم؟ قالت: «الأسودان التَّمر والماء، إلاَّ أنَّه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا».

وعن ابن عبَّاس: «كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويًا، وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم الشعير» رواه الترمذي.

وروى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : «**لقد أُخفت في الله تعالى ما لم يُخَف أحدٌ، وأُوذيتُ في الله تعالى ما لم يُؤذَ أحدٌ، ولقَد أتَى عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلاَلٍ طعامٌ إلاَّ شيء يواريه إبطُ بلال**»[1].

وكانت فاطمة رضي الله عنها آخر من يوادع ﷺ إذا سافر، وأوَّل من يلقى إذا رجع، وقدِم من غزوة فرأى مسحا على بابها، وعلى الحسن والحسين قُلبَيْن من فِضَّة، فرجع، فظنَّت أنَّه رجع لذلك، فنزعت المسح وقطعت القلبين فبكيا فقسمتهما بينهما، وأتياه ﷺ يبكيان فأخذه ﷺ ، فقال: يا ثوبان اشتر

١-ورواه **الترمذي**، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا، حديث ٢٤٧٢. عن أنس.

بهذا من بني فلان قلادة عصب وسوارين من عاج، فإنَّ هؤلاء أهل بيتي ولا أُحِبُّ أن يأكلوا طيِّـــباهم في الحياة الدنيا.

والمِسح ثوبٌ غليظٌ سترت به الباب، والقُلب (بضم فإسكان) السوار، والعصْب ثياب يمنيَّة أو (بفتح الصاد) مفاصل الحيوان يتَّخذ منها زينة، وقيل: دابَّة بحريَّة يتَّخذُ منها خرز بيض (بإسكان الصاد).

وفي البخاري عن أبي هريرة: «لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفَّة ما منهم رجل عليه رداء، إمَّا إزار وإمَّا كساء قد ربطوه في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهة أن ترى عورته»».

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

هلاك قوم هود ومجادلتهم له عليه السلام

﴿وَاذْكُرْ﴾ يامحمَّد لقومك ﴿اخَا عَادٍ﴾ هودًا عليه السلام قال بعض العلماء: كلَّما ورد في القرآن خبر عاد فالمراد بعادٍ فيه عاد الأولى، إلاَّ ما في سورة الأحقاف. ﴿اِذَ انذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ بدل اشتمال ﴿بِالاَحْقَافِ﴾ جمع حقف، وهو الرمل المستطيل في اعوجاج، واحْقَوْقَفَ الشيءُ اعوَجَّ، وقيل: الحقف ما استدار من الرمل، فلعلَّه من الأضداد. كانوا بدويِّين في الأخبية والأعمدة بين رمال، مشرفين على البحر في الشَّحر (بالحاء المهملة) وهو أرض باليمن، وقيل: بين عمان ومهرة، وهو الصحيح عن ابن عبَّاس، لا ما قيل عنه: جبل بالشام، وقيل: بين عمان إلى حضرموت، والصحيح الأوَّل.

وعبارة بعض: إِنَّهُم أحياء باليمن مشرفين على البحر، في أرض يقال لها: أشحر، وقيل: كانت منازل عاد في حضرموت بموضع يقال له: مهرة، سيَّارة في الربيع، وإذا هاج العود ـــ أي يبس ـــ رجعوا إلى منازلهم، وهنَّ من إِرَمٍ.

﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ جمع نذير، وهم الرسل، أو الرسل وأتباعهم في الأمر والنهي ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ من بين يدي هود، أي: من قبله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ بعده كما قرئ: «وَمِن بَعْدِهِ».

[قلت:] فهذه الآية بهذه القراءة دليل على أنَّ ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ في سائر القرآن بمعنى: من قبله، و﴿مِنْ خَلْفِهِ﴾ بمعنى: من بعده، ولا يعكس. وعن ابن عبَّاس: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾: قبله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ في زمانه، فيقدَّر مضاف، أي: من خلف إنذاره، ويبحث بأنَّه كيف يقال: خلت وهم في زمانه؟ الجواب: إنَّ الخلوَّ باعتبار من تأخَّر عن زمانه، كزمان بعثة سَـيِّدنَا محمَّد ﷺ، أو باعتبار قضاء الله، أو اللوح المحفوظ، أو يقدَّر: وتأتي من خلفه، أي: من بعده، كقوله:

«علفتها تبنًا وماءً باردًا». والجملة حال من المستتر في «أَنذَرَ»، أو من «قَوْمَ»، أو عطف على «أَنذَرَ»، ويجوز أن يكون المعنى: أنذرهم على فترة من الرسل قبله وبعده.

﴿أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ﴾ «أَنْ» تفسيريَّة لتقدُّم معنى القول، وهو الإنذار. و«بالاَحْقَافِ» متعلِّق بـ«أَنذَرَ»، أو بحال محذوف، أي: عالمًا، أو عالمين بالأحقاف، وإنَّما علموا بإعلام هود لهم. وعلَّل النهي بقوله: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ بسبب شرككم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عظَّمه لعظم الهول فيه، فالأصل إسناد العظم إلى الهول، وأسنده إلى اليوم لأنَّه يقع فيه، على التجوُّز العقليِّ.

﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا﴾ توبيخ ﴿لِتَافِكَنَا﴾ لتصرفنا، ولا يصحُّ ما قيل: لتزيلنا بالإفك، وهوالكذب، إذ لم يوضع الإفك بمعنى الإزالة بالكذب، إلاَّ إن أريد التفسير بالمعنى الواقع، لا بمعنى الوضع والصناعة ﴿عَنَ ـ الِهَتِنَا﴾ عن عبادة آلهتنا ﴿فَاتِنَا﴾ إن أبيت إلاَّ ما أنت عليه من الديانة، وتخطئتنا فأْتنا في الدنيا ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب عاجلاً ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعدك بتزوله.

﴿قَالَ إِنَّمَا اَلْعِلْمُ﴾ بكلِّ شيء، أو جنس العلم ﴿عِندَ اللهِ﴾ فهو يعلم بوقت نزوله، أو إنَّما العلم بوقت نزوله عند الله تعالى، طلبوه بالإتيان به وأجابهم بأنَّه لا علم له بوقته، لأنَّ ذلك كناية عن أنَّه لا يقدر عليه ولا على تعجيله، أي: لا آتيكم به، لأنِّي لا أعرف وقته فأقصده بالمجيء به فيه، ولو علمت لم أقدر على الإتيان به، وإنَّما يأتيكم بوقته المقدَّر له وهو الله عز وجل، ويجوز أن يكون المعنى: فأتنا في الدنيا بما تعدنا به في الآخرة.

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ عطف على «الْعِلْمُ عِندَ اللهِ»، فينسحب الحصر عليه، كأنَّه قيل: وَإِنَّمَا أبلِّغكم ما أرسلت به، ويجوز أن يعطف على «إِنَّمَا...»

عطف قِصَّة على أخرى. ﴿وَلَكِنِّيَ أَرَيٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ يتكرَّر منكم السَفه، كالكذب وإنكار الحقِّ، فتعتادونه.

[قلت:] وإنَّما قلت ذلك ولم أفسِّره بظاهر الجهل لأنَّ الجهل على المعنى الظاهر يقع بالشيء دفعة، وليس المراد: سيكون منهم الجهل، نعم يجوز أن يكون للحال بالمعنى الظاهر، وعلى كلِّ حال المراد الردُّ عليهم في اقتراحهم عليه ما ليس في قدرته لجهلهم.

﴿فَلَمَّا﴾ عطف على محذوف مستأنف، أي: أتاهم فلمَّا...إلخ، أو محذوف معطوف، أي: فأتاهم فلمَّا ﴿رَأَوْهُ﴾ بأبصارهم، والهاء والمستتر في «أتاهم» المقدَّر لما في قوله: ﴿بِمَا تَعِدُنَا﴾. والذي رأوه لم يروه على أنَّه الموعود به، لأنَّهم أنكروا الموعود، وإنَّما هو موعود عند الله، وباعتبار أنَّه سيعلمون أنَّه إذا نزل علموا أنَّه الموعود يصدِّق الموعود به عندهم، لأنَّه سيكون هو الموعود به عندهم. أو الضميران مبهمان مفسَّران بقوله:

(نحو) ﴿عَارِضًا﴾ حال باعتبار أصله من الوصفيَّة، أو تمييز باعتبار تغلُّب الاسِميَّة عليه، فإنَّه السحاب الذي في أفق السماء سمِّي لأنَّه يعرض، لكن تفسير الضمير بما بعده مخصوص بأبواب، وليس منها تفسيره بالحال والتمييز، ولا مانع من اطِّراده مطلقًا باعتبار نكتة الإبهام ثمَّ البيان، ولا مانع من أنَّ «عَارِضًا» بدل منه فقد فسِّر بالبدل.

﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ إضافة «مُسْتَقْبِلَ» لَفْظِيَّة، لأنَّه وصف للحال، فإضافته للمعرفة لا تفيد التعريف، فصحَّ نعتُ النكرة به، وهي «عَارِضًا»، كأنَّه منوَّن ناصب لما بعده على الْمَفعُولِيَّة.

(صرف) والمفرد: «واد»، وجمعُ فاعل الذي هو غير وصف على "أفعلة" شاذٌّ قياسًا، فيصحُّ استعمالاً حيث ورد، فإنَّ واديًا وصف تغلَّبت عليه

الاسمِيَّة، وكذا "نَاد" لمعنى مجمع القوم، وجائِزة للخشبة الممتدَّة في أعلى السقف تعتمد عليه خُشُبٌ، وأصلهما وصف، سمع: "أندية" و"أَجْوِزَة".

﴿قَالُواْ هَذَا عَارِضٌ﴾ سحاب ﴿مُّمْطِرُنَا﴾ نعت نكرة، لأنَّه وصف للاستقبال، كأنَّه منوَّن ناصب لما بعده على الْمَفعُولِيَّة، وليست إضافة مثل ذلك مجازًا كما قيل، لأنَّ باب التقييد واسع، يقول: ممطرهم لا ممطر غيرهم.

(نحو) والأصل: «ممطرهم»، ثمَّ كان المعنى بالإضافة أنَّه ممطر لهم، كما تقول: «غلام زيد» و«غلامٌ له»، فإنَّ مكرمك شخص نسبته أنَّه لك بالإكرام، فإنَّه ولو لم يفد فائدة زائدة على ما قبل الإضافة لكن تجدَّد له معنى آخر معتبر بالإضافة، فلا تقل كما قيل: لما لم يفد فائدة زائدة عُدَّ كأنَّ إضافتهُ كلا إضافة.

﴿بَلْ هُوَ مَا اَسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ من العذاب، أي: قال هود: بل ذلكم العارض هو ما استعجلتم به، كما قرأ بعض: «قال هود بل هو...». وقدَّر بعض: «قل بل هو...» كما قرأ به بعض، وذلك أنَّه لم يخاطبهم بذلك في زمان القرآن، ولا هو من كلام قوم هود القائلين: «هَذَا عَارِضٌ» فاحتجنا إلى التقدير. وقدَّر بعض: قال الله ﴿بَلْ هُوَ...﴾، ولا بأس، لأنَّ المراد: قال الله في ذلك الزمان. و«بَلْ» على كلِّ حال للإضراب الإبطالي.

﴿رِيحٌ﴾ بدل من «مَا»، أو خبر لمحذوف، أي: هو ريح، أو هي ريح بتأنيث الضمير لتأنيث خبره، لأنَّ الريح يؤنَّث ويذكَّر، أو بدل من «هُوَ» على أنَّ «هُوَ» خبر مُقَدَّم، و«مَا» مبتدأ، والواضح ما مرَّ ولفظ «هُوَ» مبتدأ و«مَا» خبر. والتنكير للتعظيم.

ويقال: تقطع الريح المعتدلة في ساعة نحو فرسخ، والمتوسِّطة نحو أربعة فراسخ، والقويَّة نحو ثمانية فراسخ، وما هي أقوى نحو سِتَّة عشر فرسخًا، وما هو

أقوى منها وتسمَّى العاصف نحو سبعة عشر فرسخًا، وما فوقها وتسمَّى المؤتفكة نحو تسعة وعشرين فرسخًا، وأكثر ما قيل: ستَّة وثلاثين فرسخًا[1].

أو نعت الريح بقوله: ﴿فِيهَا عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ وبقوله: ﴿تُدَمِّرُ﴾ تهلك ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ أمرت بتدميره، وهو نفوسهم وأموالهم، كما قيِّد في آية أخرى بقوله: ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ (سورة الذاريات: ٤٢) ، وقد يفيد ذلك التقييد قوله عزَّ وجلَّ : ﴿بِأَمْرِ رَبِّـهَا﴾ على معنى: بحسب ما يأمرها الله بإهلاكه، لا كلَّ شيء مطلقًا، بل أنفسهم وأموالهم إلاَّ المساكن كما قال عزَّ وجلَّ :

﴿فَأَصْبَحُواْ﴾ أي: صاروا، وذلك على أنَّه أهلكوا نهارًا وإن أهلكوا ليلاً فـ«أَصْبَحُوا» على ظاهره، والعطف على محذوف، أي: فدمَّرتهم بمجيئها فأصبحوا، أو فأتت الريح فدمَّرتهم فأصبحوا ﴿لاَ تَرَى﴾ يا محمَّد أو يا من يصلح للرؤية لو كنت في ذلك الزمان، وفي ذلك المكان ﴿إِلاَّ مَسَاكِنَهُمْ﴾.

(قصص) قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أوَّل ما رأوا من شأنها أنَّهم رأوا إبلهم وبقرهم، وسائر حيوانهم، بين السماء والارض كالريش تحملها الريحُ وتلقيها، فبادروا بيوتهم فأغلقوها على أنفسهم ففتحتها، ومالت عليهم بالرِّمال، فبقوا تحتها سبع ليالٍ وثمانية أيَّام، وأرسل الله عزَّ وجلَّ الريح فكشفت عنهم، وألقتهم في البحر.

ويروى أنَّ الريح تجبذ الإنسان من داخل البيت وتدقُّه، وتلقي عليه التراب وترجمهم بالحجارة، وقيل: بقوا تحت الرمال، وبهذا أو بالإلقاء في البحر لا ترى

١- الفرسخ يقدَّر بـــ٥٥٤٤ مترا. راجع جدول المقاييس في تعليق البكري على قواعد الإسلام، ج٢، ص٣٠.

إلاَّ مساكنهم، وعلى فرض أنَّهم بقوا بعد الهلاك بالأحقاف منكشفين، يكون المعنى: لا تراهم على حالهم في حياتهم، وكانت كعاقل مأمور.

وروي أنَّه أوَّل من أبصر العذاب منهم امرأة رأت ريحًا فيها كشهب النار، ولَمَّا أحسَّ هود بالريح خطَّ على نفسه والمؤمنين خطًّا إلى جنب عين تنبع. وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: اعتزلوا في حظيرة يصيبهم من الريح ما يلين جلودهم، وهي ريح واحدة: على الكُفَّار شديدة من جهة واحدة، وريح هود والمؤمنين معه رياح من هاهنا ومن هاهنا خفيفة.

(سيرة) وكان رسول الله ﷺ يقول في الريح: «**اللهمَّ اجعلها رياحًا لا ريحًا**»[1] ويقول: «**اللهمَّ إنِّي أسألك خيرها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرِّها ومن شرِّ ما فيها وشرِّ ما أرسلت به**»[2]. وكان يتغيَّر لونه بتغيُّر السماء بالسحاب، ويخرج ويدخل، ويقبل ويدبر، وإذا أمطرت زال عنه ذلك، فسألته عائشة فقال: «**لا أدري لعلَّه كما قال قوم عاد: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾**».

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء في الشدَّة بغير ريح ورمال **﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾** سائر المجرمين، والمراد الجنس لا الاستغراق لأنَّه لم يهلك كلَّ قومٍ مجرمين.

﴿وَلَقَدْ مَكَّـنَّاهُمْ﴾ أثبتناهم إثباتًا شديدًا **﴿فِيمَآ﴾** في الأموال وقوَّات الأبدان وطولها وعرضها، وطول الأعمار التي **﴿إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾** لم نمكِّنكم فيه يا معشر قريش.

١-تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج١، ص٣٣٦.

٢-رواه **مسلم** كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوُّذ عند رؤية الريح والمطر والغم، رقم٨٩٩. ورواه **البيهقي** في كتاب الاستسقاء، باب ما كان يقول عند هبوب الريح... رقم٦٥٥٨. من حديث أبي هريرة.

(نحو) فـ«مَا» اسم موصول، و«إِنْ» حرف نفي، و«لَمْ» لا تدخل على الماضي، و«لا» النافية لا تدخل في الإخبار على الماضي بلا تكرير، ولو نفي بـ«ما» لثقل اللفظ بتكرر لفظ «مَا»، وقد كان أصل «مهما» «ماما»، أبدلت ألف «ما» الأولى هاء دفعًا للتكرير. وذلك ـ لكونه أبلغَ في التوبيخ والحثّ على الاعتبار، ودلالة مواضع من القرآن عليه كقوله تعالى: ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الاَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ (سورة الأنعام: ٦) ـ أولى من جعل «إِنْ» شرطيَّة محذوفة الجواب تقديره: طغيتم، أو زدتم طغيانًا.

وأجيز كون «إِنْ» صلة، وفيه بعدٌ، لأنَّ قريشا لم يمكَّنوا تمكين عاد، لا قوَّةً ولا عددًا ولا مالاً، ولَو قدِّر مضاف، أي: في مثل ما مكنَّاكم فيه لانتفاء المقاربة. اللهمَّ إلاَّ أن يراد المماثل في جنس القُوَّة والعدد والمال، ولو تفاوت ذلك جدًّا، وفي الأوَّل السلامة من الحذف والزيادة، وفيه الموافقة للآي الأخر فهو أولى وأصحُّ.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ أفرده لأنَّه مصدر صالح للقليل والكثير، ولاتِّحاد المسموع من الرسل، وهو التوحيد وتوابعه، وما لا يختلف في الأمم، ولاتِّحاد مدرك السمع وهو الأصوات ﴿وَأَبْصَارًا﴾ عيونًا ﴿وَأَفْئِدَةً﴾ ليستعملوا ذلك فيما خلق لأجله، من الإدراك والاعتبار والتفكُّر والاستدلال على الله تعالى، وشُكْرِ نعمه.

﴿فَمَآ﴾ نافية ﴿أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ من الرسل ونواهم، إذ لم يؤمنوا بما سمعوا من وجوب وتحريم وغيرهما، ووعظٍ فلم يعملوا، ومثلهم من آمن ولم يعمل ﴿وَلَآ أَبْصَارُهُمْ﴾ إذ لم يتأثَّروا بعنوان الأشياء التي أبصروها ﴿وَلَآ أَفْئِدَتُهُم﴾ إذ لم يؤمنوا بها ولم يستعملوها بالفكر، ولم يقل: فما أغنت من شيء، بضمير مفرد مؤنَّث بتأويل الجماعة، عائدًا إلى السمع والأبصار والأفئدة لتأكيد الأمر.

﴿مِّن شَيْءٍ﴾ «مِنْ» صلة للتأكيد، و«شَيْءٍ» مفعول مطلق، أي: شيئًا من الإغْنَاءِ، كأنَّه قيل: إغناء مَّا. وأجيز أن تكون غير صلة بل تبعيضيَّة، أي: بعض إغناء، وأن تكون «مَا» استفهاميَّة إنكاريَّة، والاستفهام كالنفي تجوز زيادة «مِنْ» بعده.

﴿إِذْ﴾ متعلِّقٌ بـــ«مَا» النافية، تعليل للنفي، أو بـــ«مَا» استفهامية، لأنَّها إنكار، والإنكار نفي، فهي تعليل للنفي المستفاد منها، و«إذ» التعليليَّة حرف تعليل عند بعض، والواضح أنَّها ظرف.

(بلاغة) والتعليل مستفاد بما بعدها، كتعليق الحكم بالمشتقِّ المؤذن بالعلِّية، وكتعليقه بالصِّلة نحو: أكرم من يأتيك، أي: لإتيانه، وأكرم زيدًا إذْ جاءك، أي: لمجيئه. فهنا انتفى الإغناء عنهم وقت جحودهم، أي: للجحود الواقع في الوقت، وعلى هذا فليست «إِذْ» موضوعة للتعليل، وهي على حقيقتها لا مجاز ولا كناية كما قيل بهما.

﴿كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِئَايَاتِ اللهِ﴾ الباء صلة في مفعول «يَجْحَدُ» من قوله تعالى: ﴿يَجْحَدُونَ﴾، أو غير صلة على تضمين «يَجْحَدُ» معنى يكفر، والمراد: الآيات المتلوَّة، وجحودها نفي أن تكون من الله عَزَّلَ ، ويبعد أن يراد الآيات التكوينيَّة من سائر العالم، بمعنى حجود أن تكون أدلَّة عليه تعالى، أو مع المتلوَّة.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ العقاب الذي استحقُّوه باستهزائهم واستعجالهم به في قولهم: ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٧٠) .

﴿وَلَقَدَ اَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ أي: من أهل القرى، وَلَمَّا حذف ناسب إيقاع «مَا» على «الْقُرَى» لأنَّها غير عاقلة، ولو اعتبر «أهل» لقيل:

«مَنْ»، وإن قلنا المراد بـ«الْقُرَى» أهلها اسماً لها حقيقة أو مجازا لعلاقة الحلول كان ممَّا وردت فيه «مَا» للعاقل أو للأنواع، والأنواع غير عاقلة.

ويجوز أن يراد: إهلاك نفس القرى، كهدمها، فيستفاد من إهلاكها إهلاك أهلها، أو بطريق الكناية، وذلك كحجر ثمود، وقرى قوم صالح.

﴿وَصَرَّفْنَا اَلايَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ترجية للرجوع عَمَّا هم فيه من الضلال، أو للتعليل، ولم نكرِّرها عبثًا ولا لعجزنا عن الكلام بلا تكرير، فويل لمن كفر مع التكرير الذي نراه في القرآن، أو آمن وقصَّر في الامتثال.

﴿فَلَوْلاَ﴾ تحضيض على النصرة بسبيل الإعجاز ﴿نَصَرَهُمُ﴾ منعهم من الهلاك ﴿الذِينَ اَتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللهِ قُرْبَانًا ـ الِهَةَ﴾.

(نحو) «الذِينَ» واقع على الأصنام، لأنَّها عندهم بمنزلة العقلاء، والرابط محذوف، أي: اتَّخذُوهم، وهذه الهاء المقدَّرة عائدة للأصنام، وهي مفعول أوَّل، وواو «اتَّخذُوا» للْكُفَّارِ العابدين لها، و«ءَالِهَةً» مفعول ثان، و«قُرْبَانًا» حال، بمعنى متقرَّبًا بها، كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ, إلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ (سورة الزمر: ٣) ، و﴿هَؤُلآءِ شُفَعَآؤُنَا عندَ اللهِ﴾ (سورة يونس: ٣) .

(نحو) وأولَى من ذلك أن يجعل «قُرْبَانًا» مفعولاً من أجله، لسلامته من كون الحال مصدرًا مُؤَوَّلاً. ويجوز أن يجعل «قُرْبَانًا» مفعولاً به ثانيًا و«ءَالِهَةً» بدلاً منه، وفيه تأويل «قُرْبَانًا» بمتقرَّبا به. أو يقدَّر مضاف أوَّلاً، أي: اتَّخذُوا عبادهم تقرُّبًا، و«من دُونِ اللهِ» على هذا حال من «ءَالِهَةً». [وَإنَّمَا قلت ذَلكَ لأَنـَّهُ لا يَتَصَوَّرُ اتِّخَاذهم الله قربانا إِلَيْه ولا إلَى غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل يتقرَّب بغيره إِلَيْه. وإذا علَّقنا «من دُون» بـ«اتَّخَذُوا» أو بمحذوف حالا من «قُرْبَانًا» أَوْهَمَ أَنـَّهُ يُتَصَوَّرُ اتِّخَاذ الله

قربانا إِلَيْهِ أو إِلىَ غيره فنُفي، اللَّهُمَّ إلاَّ أن يعتبر جواز التقرُّب بالله إِلىَ الله، بمعنى التوسُّل به إِلَيْهِ، أو بعبادته، فحينئذ يعاب عَلَيْهِم أنـــَّهُم تقرَّبوا إِلىَ الله بغيره، والواجب أن يتقرَّبوا إِلَيْهِ به][1].

﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ ضلَّ عنهم الأصنام الذين عبدوهم، أي: غابوا، وفيه تهكُّم ثان بأنَّهم لو لم يغيبوا لنصروهم، والأوَّل في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ...﴾ بأنَّهم مِمَّن يمكن منهم النصر لكن لا يقدرون على ردِّ أمر الله عَزَّ وَجَلَّ. أو «ضَلُّوا» ضاعوا عنهم إذ كانوا يُؤمِّلون نصرهم فلم يجدوه، كمن ضاع منه آلة عمله.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ الضلال منهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أثرُ كذبهم إذ زعموا أنَّها آلهة تشفع، ولولا اتِّخاذها آلهة شافعة لم يفتضحوا بضلالها عنهم وبطلانها، بل يجدون الله منجِّيا ولا يتَّكِلون عليها، لأنَّهم أعرضوا عنها لأنَّها لا تنفع.

﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، والعطف على «إِفْكُهُمْ»، أي: وأثر كونهم يكذبون على الله بأن لا بعث ولا رسالة، أو «إِفْكُهُمْ»: صرف الشياطين وأنفسهم لهم عن الحقِّ باتِّخاذ الآلهة، وافتراؤهم: كذبهم على الله. أو «ما» اسم، أي: والذي كانوا يفترونه.

(سيرة) روي أنَّه ﷺ لَمَّا اشتدَّ عليه تكذيب قومه له، عمد إلى رؤساء الطائف عبد ياليل ومسعود وحبيب، إخوة ثلاثة أبوهم عُمَيْر، ودعاهم، فقال أحدهم: إن كان الله أرسلك ؟ والآخر: ما وجد الله من يرسل غيرك، والثالث: لا أكلِّمك إن كنت رسولاً من الله تعالى فأنت أعظم من أن أردَّ عليك، وإلاَّ فلست أهلاً للخطاب، فقال ﷺ : «**اكتموا عليَّ**» خوفًا من جرأة قريش عليه

١- ما بـــين معقوفين إضافة من الطبعة العمانية.

فلم يفعلوا، بل صاحوا عليه، وأغروا عليه السفهاء، ورجموه حتَّى التجأ إلى شجرة عنب في حائط شيبة وعتبة ابني ربيعة.

(دعاء الفرج) فقال ﷺ : **«اللهمَّ أشكو إليك ضُعف قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس، فأنت رَؤُوفٌ، وأنت أرحم الراحمين، وأنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربِّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهَّمني، أو إلى عدوٍّ ملَّكته أمري، إن لم يكن لك عليَّ غضب فلا أُبالي، وَلَكنَّ عافيتك أوسع لي، أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصَلُحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة من أن ينزل عليَّ غَضَبُكَ، أو يحِلَّ عليَّ سخَطُكَ، لك العتبى حتَّى ترضى، لاحول ولا قوَّةَ إلاَّ بك»**.

(سيرة) وتحرَّكت له رحم عتبة وشيبة، وأرسلا إليه عنبًا في طبق مع عدَّاس غلام نصرانيٍّ، فقال: «بسم الله» وأكل، فنظر إلى وجهه فقال: والله ما يقول أهل هذه البلاد هذا الكلام، فقال ﷺ : من أيِّ بلد أنت؟ وما دينك؟ فقال: نصرانيٌّ من نينوى، فقال: من بلد الرجل الصالح يونسً بن مَتَّى، فقال: ما أدراك به؟ فقال: هو أخي نبيء وأنا نبيء، فقبَّل رأسه وقدميه ويديه، فقالا له: ويْلكَ ما لك؟! فقال: هو نبيء أخبرني بأمر لا يعرفه إلاَّ نبيء، فقالاَ: دينك أفضلُ من دينه، فقال: بل دينه أفضل.

وانصرف آيسًا من خير ثقيف، حتَّى إذا كان ببطن نخلة قام من جوف الليل يصلِّي، فمرَّ به نفر من جنٍّ نصيــبين، قاصدين اليمن إذ منعوا من استراق السمع، كما قال الله عز وجل :

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا

بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

إيمان الجنّ بالقرآن

﴿وَإِذْ﴾ اذكر إذ، ولا مانع من عطفه على «أَخَا عَادٍ» ﴿صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾ وجَّهنا إليك ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ هم هنا سبعة، أو تسعة عشر، أو تسعة، أو اثنا عشر ألفًا، روايات، ولعلَّ صرف الجنِّ وقع مرارًا بحسب هذا العدد، تارة سبعة، وتارة تسعة، وتارة تسعة عشر، وتارة اثني عشر ألفًا.

(لغة) وشهر أنَّ النفر ما بين الثلاثة والعشرة، من النفير، وهم من يسرع عاجلاً إلى مهمٍّ دُعُوا إليه، ويسهل وجودهم، وذلك على الغالب، وقد يستعمل في غيره، فإنَّه يطلق على العشرة في الفصيح، وذكر بعض اللُّغويِّين أنَّه يستعمل إلى الأربعين، وفي كلام الشعبيِّ: حدَّثني بضع عشرة نفرًا، أي: رجلاً، ولا يَخْــتَصُّ بالرِّجال ولا ببني آدم، كما أطلق في الآية على الجنِّ، فنقول: حقيقة فيهم لا مجازٌ، كما هو حقيقة في الناس.

قيل: الجنُّ ثلاثةٌ: صنف بأجنحة يطيرون، وصنف على صورة الحيَّات والكلاب، وصنفٌ يحلُّونَ ويرحلون، وبقي قسم رابع يسكنون مع الناس في بيوتهم وديارهم وفي البيوت الخالية، فالأصناف أربعة، وفيهم الثلاث والسبعون فرقة التي في بني آدم. وقد قيل: المصروفون في الآية يهود وأنَّهم أسلموا.

وقيل: الجنُّ وهم عند مشاهدتهم لا يتحوَّلون، فإذا مال بصرك عنهم تحوَّلوا إلى صورة أخرى إن شاؤوا، وذلك بقدرة الله تعالى.

(نحو) و«مِنَ الْجِنِّ» نعت «نَفَرًا». و«مِنْ» للتبعيض، أو متعلِّقٌ بـ«صَرَفْنَا» و«مِنْ» للابتداء. ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ﴾ حال مقدَّرةً من «نَفرًا» على نعته بقوله: ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾، على جواز كون التقدير من غير صاحب الحال، فإنَّ النفر حين الصرف غير مقدرين الاستماع، وهو مشكل، أو حال من فاعل «صَرَف»، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الصارف مقدِّرًا استماعهم، وهو مشكل أيضا، لأنَّه ليس فاعلاً للاستماع، فلعلَّ الجملة نعت لـ«نَفَرًا»، أي: نفرًا يستمعون القرآن.

عاب الله عَزَّوَجَلَّ قريشًا بأنَّهم كفروا بمن هو آدميٌّ مثلهم ومن نسبهم، وشرفُه شرفٌ لهم، وآمن به الجنُّ، وهم بخلاف ذلك. وأمَّا اللغة فالجنُّ كغيرهم في لغة العرب، ويوصفون بالقُوَّةِ كعاد، وقصَّة عاد تضمَّنت ذكر الريح وهذه القصَّة تضمَّنت ذكر الجنِّ، فتناسبت القصَّتان، وذكرتا لغرابتهما.

وهؤلاء النفر من جنٍّ نصيبين من ديار بكر، قريبة من الشام، وقيل: من نينوى، وهي من ديار بكر، لكن قريبة من الموصل، ويقال: إنَّهُم من الشِّيصَبَان، وهم أكثر الجنِّ عددًا، وعامَّة جنود إبليس منهم.

والقرآن الذي يستمعون هو سورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ (سورة العلق: ١) ، قرأها عليهم رسول الله ﷺ . وعن جابر بن عبد الله وابن عمر: إنَّها سورة الرحمن، كلَّما قرأ ﷺ : ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (سورة الرحمن: ١٣) ، قالوا: لا بشيء من آيات ربِّنا نكذِّب، ربَّنا لك الحمد. وبعض القرآن يسمَّى قرآنًا، أي: قراءةً، أو مقروءًا.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: حضروا القرآن لذكره في قوله: ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ﴾ أي: حضروا عند تلاوته، وهو الظاهر، ولا مجاز فيه، تقول: حضرت القرآن عند فلان، كما تقول حضرت فلانًا، وقيل: الهاء لرسول الله ﷺ لذكره

بقوله: ﴿إِلَيْكَ﴾، إلاَّ أنَّه هنا بالخطاب بالغيبة على طريق الالتفات، ويدلُّ له قراءة «قَضَى» (بفتح القاف والضاد).

﴿قَالُواْ﴾ قال بعض لبعض ﴿أنصِتُواْ﴾ اسكتوا لتسمعوا، وفيه تأدُّبٌ عامٌّ لحال الاستماع مطلقًا، لأنَّهم حال القول لم يعلموا أنَّه علم حتَّى سمعوا وفهموا، وإن فهموا أوَّلاً وقالوا بعد ذلك: «أَنصِتُوا» ففيه تأدُّبٌ مع العِلم والإرشاد إلى كَيفيَّة تعلُّمه.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ فرغ ﷺ من قراءة ما أراد قراءته، كما قرئ «قَضَى» (بفتح القاف والضاد) ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ وهم الجنُّ، أو المراد الجنس، أي: أقوامهم، كلٌّ ذهب إلى قومه من الجنِّ، ﴿مُّنذِرِينَ﴾ حال مقدَّرة، أي: ناوين إنذارهم وإنذار من رأوا من الجنِّ. وكان الحضور بوادي نخلة على نحو ليلة من مَكَّة المكرَّمة.

(سيرة) انطلق النبيء ﷺ في طائفة من أصحابه إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وخبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حيل بينكم وبين خبر السماء إلاَّ لشيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا، فتوجَّه نفرٌ نحو تهامة، ووافوا النبيء ﷺ بنخلة يصلِّي بأصحابه صلاة الفجر، فاستمعوا له في صلاته، فلمَّا سلَّم رجعوا إلى قومهم منذرين، وقد آمنوا وقالوا: «هذا واللهِ الذي حال بيننا وبين خبر السماء»، فرجعوا إلى قومهم منذرين. رواه البخاري ومسلم والترمذي عن ابن عبَّاس، ثمَّ رأيته للنسائي أيضًا.

وروى ابن المنذر أنَّهم استعموا حتَّى فرغ من الصلاة فولَّوا مؤمنين منذرين، و لم يعلم ﷺ بهم حتَّى نزل: ﴿قُلْ اوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ...﴾ (سورة الجن: ١) ، وهذه السورة نزلت بعدها.

(سيرة) وفي البخاري ومسلم عن ابن مسعود ﷺ أنّه أعلمته بهم شجرة، وقيل: علم حال الاستماع، كما روي أنّه ﷺ قال: «إنّي أمرت أن أقرأ على الجنِّ الليلة فأيُّكم يتبعني؟» كرَّر ذلك ثلاثًا، فلم يتبعه إلاَّ ابن مسعود، قال: لم يحضر أحد معي غيري، انطلقنا حتّى إذا كنّا بأعلى مكّة دخل رسول الله ﷺ شعب الحجون، وقال: اجلس، وخطّ عليَّ خطًا وقال: لا تخرج حتّى أعود إليك، فافتتح القرآن، فجعلت أرى أمثال النسور تهوي، وسمعت لغطًا شديدًا حتّى خفت عليه ﷺ ، وغشيه أسودة كثيرة حتّى لا أراه ولا أسمع صوته، ثمّ رأيتهم يذهبون كالسحاب قطعًا بعد فراغه مع الفجر، فقال لي: نمت؟ فقلت: لا والله يا رسول الله، وقد هممت أن أستغيث لك الناس حتّى سمعتك تقرعهم بالعصا، وتقول: اجلسوا، ثمّ قال: لو خرجت لم آمن أن يخطفك أحدهم، وهل رأيت شيئًا، قلت: رأيت رجالاً سودًا بيض الثياب، قال: هم جنُّ نصيبين سألوني الزّاد فمتّعتهم بالعظم والروث والبعر، فقالوا: ينجسهما الناس علينا، فنهى ﷺ عن تنجيسها، فلا يجدون عظمًا إلاّ كان لهم كيوم أكل، ولا روثًا أو بعرة إلاّ كان لهم كما كان حبًّا، فقلت: ما ذلك اللغط؟ قال: تخاصموا في قتيلٍ فقضيت بينهم. ورأى شيوخًا شمطًا في الكوفة، فقال: هم أشبه بالجنِّ الذين رأيتُهم عند قراءته ﷺ على الجنِّ.

وقال ابن عبَّاس: هم سبعة، وهم من جنِّ نصيبين قاصدون اليمن لأجل معرفة سبب منع استراق السمع، وجنُّ نصيبين أشراف وسادتهم، وقيل: أوَّل من بعث إبليس في ذلك جنَّ نصيبين، بعثهم إلى تهامة وذكر زر بن حبيش[1] أنَّ

١-زر بن حبيش بن حباشة بن أوس الأسدي، تابعيٌّ أدرك الإسلام وَالْجَاهِلِيَّة، ولم يدرك النبيء ﷺ ، كان عالما بالقرآن فاضلا، وكان ابن مسعود يسأله عن العَرَبِيَّة، سكن الكوفة، وعاش ١٢٠ عاما، تُوُفِّيَ بوقعة دير الجماجم عام ٨٣هـ. الزركلي: الأعلام، ج٣.

من السبعة زوبعة، وعن مجاهد: ثلاثة من حرَّان، وأربعة من نصيبين، حسى مسى وشاسر وماضر والأرد وأنيان وسرق والأحقم بالميم، وقيل: بالباء. وذكر السهيلي: منشيء وناشيء بدل حسى ومسى. وذكر الطبري والطبراني عن ابن عبَّاس أنَّهم تسعة عشر من نصيبين، وأنَّه ﷺ علم بهم وأرسلهم إلى قومهم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : ما صحب رسول الله ﷺ منَّا أحد ليلة الجنِّ، كُـنَّا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل، فبتْنا بشرِّ ليلة بات بها قوم، فلمَّا أصبحنا جاء من جهة حراء فأخبرناه، فقال: أتاني داعي الجنِّ فأتيتُهم فقرأت عليهم القرآن، فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيراهم. رواه أحمد ومسلم والترمذي وأبو داود[1].

وروى أحمد عن ابن مسعود: قمت مع النبيء ﷺ ليلة الجنِّ، وأخذت أداوة حتَّى إذا كنَّا بأعلى مَكَّة رأيت أسودة مجتمعة، فخطَّ لي رسول الله ﷺ فقال: أَقِمْ هنَا حتَّى آتيك، ومضى رسول الله ﷺ إليهم فرأيتهم يتثوَّرون إليه، فسمَرَ معهم ليلاً طويلاً، حتَّى جاءني مع الفجر، فقال لي: هل لك من وضوء؟ قلت: نعم، ففتحت الأدواة فإذا هو نبيذ، فقلت: ما كنت أحسبها إلاَّ ماءً، فقال ﷺ : «**ثمرةٌ طيِّبة وماءٌ طهورٌ**»، فتوضَّأ منها، ثمَّ قام يُصَلِّي، فأدركه شخصان منهم، فصفَّهما خلفه، ثمَّ صلَّى بنا، قلت: مَن هؤلاء يا رسول الله ؟ فقال: جنُّ نصيبين[2].

[قلت:] ويجمع بين الأحاديث بتعدُّد واقعة الجنِّ. وذكر الطبرانيُّ عن ابن عبَّاس أنَّه صرفت الجنُّ إلى النبيء ﷺ مرَّتين، وذكر أنَّه ستُّ مرات. وعن

١- رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (٤٧) باب ومن سورة الأحقاف، رقم٣٢٨٥. ورواه **أحمد** في مسنده، ج٢، ص٧، رقم٤١٣٨، من حديث ابن مسعود.

٢- رواه **أحمد**، ص٤٤، ج٢، رقم٤٣٦٨. من حديث ابن مسعود.

كعب الأحبار: انصرف النفر التسعة من أهل نصيبين من بطن نخلة، وأنذروا قومهم، فجاء ثلاثمائة إلى الحجون، فسلَّم الأحقبُ على رسول الله ﷺ فقال: إنَّ قومنا حضروا الحجون، فوعده لساعة من الليل بالحجون. وعن عكرمة: في الآية أنَّهم اثنا عشر ألفًا من الموصل، وذلك في ابتداء الوحي. وفي مسلم: اختار أنَّهم من جنِّ الجزيرة.

﴿قَالُواْ﴾ عند رجوعهم إلى قومهم ﴿يَا قَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا﴾ جليلاً هو القرآن ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ وبعد عيسى، وخصُّوا موسى بالذكر لاتِّفاق أهل الكتاب عليه وعلى التوراة، ولكثرة أحكامها، ولأنَّ عيسى يجري بمعظم ما فيها، وقيل: بكُلِّها، ويردُّه ﴿وَلْيَحْكُمَ اَهْلُ الاِنجِيلِ...﴾، وعن عطاء أنَّهم يهود، لم يذكروا عيسى لكفرهم به، ويحتاج إلى نقل، ولا يصحُّ عن ابن عبَّاس أنَّهم لم يعرفوا عيسى، لأنَّ أمر عيسى أشهر من أن يخفى، ولا سيما عن الجنِّ.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة، أو منها ومن غيرها من كتب الله عزَّ وجلَّ، على أنَّهم قد عرفوا غيرها أيضًا ﴿يَهْدِي إِلَى اَلْحَقِّ﴾ من العقائد الصحيحة وهي الأَصلِيَّة ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الأحكام الفرعيَّة، أو الأصول والفروع، فيكون عطف عامٍّ على خاصٍّ.

﴿يَاقَوْمَنَآ﴾ أعادوا النداء تأكيدًا ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ اَللَّهِ﴾ هو القرآن، أو ما سمعوه منه، أو الرسول ﷺ ، سمَّوا ذلك داعي الله لأنَّه يدعو إليه، والإضافة بمعنى لام الملك، أو الاستحقاق، وذلك كمؤذِّن السلطان وقاضي السلطان. ﴿وَءَامِنُواْ بِهِ﴾ بالداعي، أو بالله تعالى.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: يغفر ذنوبكم كلَّها، على أنَّ «مِنْ» صلة عند الأخفش والكوفيِّين، والإسلام يجبُّ ما قبله من حقوق الله

وحقوق العباد، وقيل: «مِنْ» للتبعيض، والبعض الذي لا يغفر حقوق العباد، ولا يصحُّ هذا.

.وقيل: الكتابيُّ إذا أسلم لم تغفر له حقوق العباد. وقد مرَّ عن عطاء أنَّ النفر كانوا قبلُ يهودًا، وذلك تنزيلاً لهم منزلة الموحِّد الفاسق. وقيل: تغفر ذنوب الحربيِّ، ولو كانت حقوق العباد إذا أسلم، وقد يقال: الذي لا يغفر ما حظر حال الإسلام كخمس زوجات، واستعباد مسلم، ووجود خمر عنده، ولا إشكال في هذا.

ومقام الكفر قبض لا بسط، فلم يذكر المغفرة للكافر إلاَّ مبعَّضة غالبًا ومن غيره يغفر لهم ما قد سلف، فإنَّه شامل لحقوق الخلق، وجاء البسط في قوله تعالى: ﴿وَقُولاَ لَهُ, قَوْلاً لَّـيِّـنًا﴾ (سورة طه: ٤٥) ، وقيل: البعض الآخر ما يفعله بعد إسلامه، فذكر «مِنْ» دفعًا لتوهُّم إسقاطه بمجرَّد إسلامه، وقيل: جاء بـ«مِنْ» لأنَّ الجنَّ لم يعلموا أنَّ الاسلام جبٌّ لما قبله كلِّه.

﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ اَلِيمٍ﴾ معدٌّ للكفرة، ومعلوم أن لا دار للمكلَّف بعد البعث إلاَّ الجنَّة والنار، ومن لم يكن في إحداهما كان في الأخرى، فكما يجير الجنَّ المؤمنين بالعذاب يثيبهم بالجنَّة.

(أصول الدين) ولا فرق بينهم وبين الآدميِّين في دخول الجنَّة والتنعُّم بأكلها، وشرابها، وأزواجها، وغير ذلك، هذا مذهبنا ومذهب مالك بن أنس والحسن البصريِّ والضحَّاك وغيرهم، وهو الحقُّ، وعليه الأكثر، واستدلَّ له ضمرة بن حبيب[1] بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ

١-ضمرة بن حبيب بن صهيب الزُّبيدي، تابعيٌّ شاميٌّ ثقة، روى له أصحاب السنن، تُوُفِّيَ سنة ١٣٠هـ. ابن حجر: تقريب التهذيب، ج١، ص٣٥٦.

جَآنٌّ﴾ (سورة الرحمن: ٥٦) ، قال : الإنسيَّات للإنس، والجنِّـيَّات للجنِّ، وإنَّما اقتصر في الآية على ذكر العذاب لأنَّ المقام للإنذار، نعم قيل: يكونون في فيافي الجنَّة وأطرافها، وهو مرويٌّ عن مالك وطائفة.

وقيل: هم أصحاب الأعراف، قيل: ونراهم فيها ولا يروننا. وزعم اللَّيث أنَّهم يجارون من النار، فيقال لهم: كونوا ترابًا، لقوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُم وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ اَلِيمٍ﴾ وليس كذلك، ونسب لأبي حنيفة، وروى عنه الوقف. وعن عمر بن عبد العزيز: يكونون حول الجنَّة لا داخلها، وقيل: يدخلون الجنَّة ويلهمون التسبيح، ويلتذُّون به مكان الأكل والشرب وغيرهما، وهو قول الحارث المحاسبي[1]. وفي اليواقيت: الخواصُّ منهم يروننا فيها، كما أنَّ الخواصَّ منَّا يروهم في الدنيا. وقيل: يروننا فيها ونراهم لا كالدنيا. وعن أبي حنيفة: يدخلون الجنَّة ولا ثواب لهم فيها زائد على دخولها، وعنه: لا يكونون في الجنَّة ولا في النار، ولكن في معلوم الله تعالى.

(أصول الدين) ومن زعم أنَّ الله يُرى في الآخرة ــ وذلك خطأ ــ يقول: لا تراه الجنُّ كما لا تراه الملائكة، إلاَّ جبريل فإنَّه يراه مَرَّة، وصحَّحوا أنَّ الجنَّ تراه كما يراه الآدميُّون، والحقُّ أنَّ الله لا يراه أحد.

﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ﴾ الجواب محذوفٌ، أي: يعذِّبه، وناب عنه قوله عَجَلَّ : ﴿فَلَيْسَ﴾ لأنَّه ليس ﴿بِمُعْجِزٍ﴾ لله عَجَلَّ ﴿فِي الاَرْضِ﴾ بهروبه فيها مع سعتها، أو بدخوله فيها، أو ليس تلاشيه وتلفه فيها بمعجز له عن بعثه، وأظهر

١-الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله، من أكابر الصوفيَّة، كان عالما بالأصول والمعاملات، وله تصانيف في الزهد والردِّ على المعتزلة وغيرهم، له كتاب: الرعاية لحقوق الله. تُوُفِّيَ ببغداد سنة ٢٤٣هـ. الزركلي: الأعلام، ج٢، ص١٥٣.

لفظ الجلالة ولفظ «دَاعِيَ»، ولم يقل: ومن لا يجبه، ولم يقل: ومن لا يجب داعيه، لتأكيد التخويف.

﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ جمع وليًّا مراعاة لمعنى «من»، فإنَّ المراد: لا يوجد لواحد وليٌّ ولا للآخر وليٌّ، وهكذا فهؤلاء أولياء منفيُّون، فقابل جمع معنى «مَنْ» بالجمع لانقسام الآحاد على الآحاد، كما قرأ ابن عبَّاس: «ولَيْسَ لَهُم من دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءُ».

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين تصوَّرنا أنَّهم لا يجيبون داعي الله ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر، حيث أعرضوا عن إجابة القادر القاهر، الذي لا يُردُّ عمَّا أراد، وهنا تمّ كلام منذر الجنّ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

إثبات البعث وأمره عليه السلام بالصبر

﴿أَوَلَمْ يَرَوا﴾ ألم يتفكَّروا ولم يروا؟ أو الاستفهام إنكارٌ وتوبيخٌ، وهذا كلام مستأنف من الله عز وجل، والرؤية علميَّة، أي: أو لم يعلموا؟ ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ مع أنَّهنَّ سبع غلاظ واسعات جدًّا لم يصبه عياءٌ، أي: فتورٌ وتعبٌ.

(نحو) ﴿بِقَادِرٍ﴾ الباء صلة للتأكيد لتقدُّم النفي بـ«لَمْ»، كما تُزادُ في خبر «ما» النافية، وخبر «ليس»، وهو مقصور على السماع، وأجازه الزجَّاج قياسا في باب ظنَّ، نحو: ما ظننت أحدًا بقائم أو قائمًا كأنَّه قيل: أليس الله بقادرٍ.

﴿عَلَىٰٓ أَنْ يُّحْيِيَ اَلْمَوْتَىٰ﴾ولذلك أجيب عنه بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقريرًا للقدرة على وجه عامٍّ كالبرهان، كأنَّه قيل من الشكل الأوَّل: إحياء الموتى شيء، وكلُّ شيء مقدور له، فإحياؤهم مقدور له، فهو قادر.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذينَ كَفَرُواْ عَلَى اَلنَّارِ﴾ متعلِّق بقول محذوف، ناصب لقوله تعالى: ﴿أَلَيسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ يقال: يوم يعرض الذين كفروا على النار: أليس هذا العرض وسائرُ ما شاهدتم من أحوال البعث والموقف؟ أو أليس هذا العذاب بشيء ثابت قد أنكرتموه؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إنَّه لحقٌّ، فحذف جواب القسم، أكَّدوا الإقرار بالقسم لومًا لأنفسهم، وتشديدًا للعتاب عليها، حتَّى قيل عن الحسن: إنَّهم ليُعذَّبون في النار وهم راضون بذلك لأنفسهم، لاعترافهم أنَّه العدل، أو أكَّدوا لذلك، وللطمع في الخلاص، ولا ينفعهم ذلك، كما قال الله عزَّ وجلَّ :

﴿قَالَ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كونكم تكفرون، عطف على محذوف، أي: أصررتم على الكفر فذوقوا...إلخ، عطف إنشاء على إخبار. والأمر للإهانة والتهكُّم، أو على ظاهره من الذوق بعد الذوق، أو إيجاب عذاب آخر غير ما هم فيه.

﴿فَاصْبِرْ﴾ إذا رَسَخَ ما ذُكر من عقاب الكفرة وقدرة الله في قلبك يا محمَّد فاصبِرْ على ما يُصيبُك من الكفرة من الضرِّ ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ اَلرُّسُلِ﴾ على ما أصابهم من ضرِّ الكفرة. والعزمُ: الاجتهادُ في الشيء، والصبرُ

عليه. و«مِنْ» للبيان، أي: وهم الرسل، [قلت:] فالرسل كلُّهم أولو العزم، لأنَّهم كلَّهم اجتهدوا في التبليغ والجدِّ والقوَّة في الدين، والصبر على الأذى والمصائب وقضاء الله تعالى.

(أولوا العزم من الرسل) والجمهور على أنَّ «مِنْ» للتبعيض، فأولوا العزم بعضهم، قال الحسن بن الفضل: ثمانية عشر، ذُكِرُوا في سورة الأنعام، ذكرهم الله تعالى وقال: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [من الآية ٨٤ إلى الآية ٩٠] . وقيل: نوح صبر على أذى قومه ألف سنة إلاَّ خمسين، وإبراهيم ألقي في النار، وإسماعيل صبر على الذبح، ويعقوب على فقد ولده يوسف، ويوسف على البئر والسجن، وأيُّوب على بلائه، وموسى إذ قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فقال: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (سورة الشعراء: ٦١) ، وداود بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى على فقره وإعراضه عن الدنيا بالكلِّـيَّة، وقال: «إِنَّهَا مَعْبَرٌ فَاعْبُرُوهَا وَلاَ تَعْمُرُوهَا».

وقيل: أولوا العزم سبعة: آدم ونوح وإبراهم وموسى وداود وسليمان وعيسى. وقيل: ستَّة: نوح وهود وصالح وداود وموسى وسليمان، وهو رواية ابن عبَّاس. وقيل: نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيُّوب. وقيل: المذكورن على نسق في سورة الأعراف والشعراء، لمكاثرتهم على أعداء الله عَزَّوَجَلَّ: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى، أمروا بالجهاد، وهو قول الكلبيِّ. وعن قتادة: نوح وهود وإبراهيم وشعيب وموسى.

وقيل: الأنبياء كلُّهم أولوا العزم إلاَّ يونس لعجلته، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ (سورة القلم: ٤٨) . وقال عبد الرزاق: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، قيل: وهو أصحُّ الأقوال، وصححَّ السيوطيُّ أنَّهم الأربعة وسيِّدنا محمَّد ﷺ وعليهم أجمعين:

أولوا العزم نوح والخليل كلاهما ... وموسى وعيسى والنبيُّ محمَّــد[١]

وفي لفظ:

أولوا العزم نوح والخليل الممجَّد ... وموسى وعيسى والحبيب محمَّد[٢]

لَمَّا أمر الله تعالى سَـيِّدنَا مُحَمَّدًا ﷺ أن يصبر كما صبر أولوا العزم صبر وكان في عدادهم. وأولوا العزم في الآية غيره ثمّ التحق بهم، وهم المخصوصون بعد تعميم في قوله تعالى: ﴿وإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيئِينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ (سورة الأحزاب: ٧) ، وتلك الأقوال كلُّها على الآية، ويزاد على ما فيها رسول الله ﷺ. وروى البيهقيُّ أنَّهم نوح وهود وإبراهم ورابعهم رسول الله ﷺ.

وشهر حديث: «**إنَّ الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً**»، وروي: «**مائتا ألف وأربعة وعشرون ألفًا**». واعترض اليهود والنصارى على المسلمين في هذه الكثرة، وزعموا أنَّ عددهم لا يجاوز خمسين، ويردُّ عليهم بأنَّه لا حجر على الله في تكثيرهم، وله تعالى أن يجعلهم ألوفًا من الملايين، وله أن يجعل ذلك رسلاً، فكيف بالأنبياء؟.

وفي "فتوحات" ابن العربي: في كلّ عصر من الأمَّة المحَمَّديَّة مائة ألف وليٍّ لله تعالى وأربعة وعشرون ألف وليٍّ، عدد الأنبياء، **والله أعلم بصحَّة ذلك.** ولعلَّ اليهود والنصارى المنكرين لكثرة الانبياء توهَّموا أنَّهم رسل وأخطأوا، ولا حجر على الله تعالى، وزعموا أنَّ كثرهم من عجائب دين الإسلام.

١- البيت لصاحب العقيدة عمرو بن جميع.

٢- البيت بلا نسبة. كذا أورده **الألوسي** في تفسيره: مج٩، ص٣٥.

وزعم بعض النصارى أنّه قال بعض المسلمين: إنّ الأنبياء ألف ألف وأكثر، وهو كذب لا قائل بذلك، وإن قيل لم يقبل. وقال اللقّاني[1] في شرح الجوهرة: الأَوْلى أن لا يعترض لحصرهم، لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (سورة غافر: ٧٨) ، وفيه أنّ عدم القصّ لا ينافي الإيحاء بعددهم، قال: وحديث: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا...» في بعض سنده ضعف.

﴿**وَلاَ تَسْتَعْجِل**﴾ بالدعاء أو التمنّي ﴿**لَّهُمْ**﴾ لكفّار مَكّة عذابًا، فإنّه قريب منهم ﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ**﴾ من العذاب. و«يَوْمَ» حال من الهاء، ولو كان أصلها مبتدأ لوجود معنى الحدث بـ«كَأَنَّ»، وهو التشبيه، وأجيز تعليقها بـ«كَأَنَّ» مع أنّها حرف لذلك.

﴿**لَمْ يَلْبَثُواْ**﴾ في الدنيا ﴿**إِلاَّ سَاعَةً**﴾ يسيرةً ﴿**مِّن نَّهَارٍ**﴾ قصير لشدَّة العذاب وطوله ﴿**بَلاَغٌ**﴾ هذا الذي وعظوا به بلاغ، وهو كلام من الله تعالى، أو يقدَّر: قل لهم هذا الذي وعظتم به بلاغ.

والبلاغ: الكفاية، أو اسم مصدر هو التبليغ، أي: تبليغ عظيم لا عذر لكم معه، ويدلّ له قراءة «بَلِّغْ» (بشدّ اللام مكسورة وإسكان الغين) وقراءة: «بَلَّغَ» (بفتح الكلّ وشدّ اللام). وقيل: الإشارة إلى القرآن، أو ما ذكر من السورة، ويجوز أن تكون الإشارة المقدَّرة إلى اللبث، أي: هذا اللبث الذي لبثتم بلاغ، أي: شيء قليل، كما قال: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ (سورة آل عمران: ١٩٧) ، ﴿**فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ الخالون عن الاتّعاظ والطاعة.

١-هو عبد السلام بن إبراهيم اللقّاني المصري، شيخ الْمَالكيَّة في وقته بالقاهرة، له شرح الجزريَّة، وله: إتحاف المريد شرح جوهرة التوحيد في العقائد، تُوُفِّيَ سنة ١٠٧٨هـ. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٣٥٥.

(دعاء النجاح) قال أنس قال رسول الله ﷺ : «إذا طلبت حاجة وأحببت أن تنجح فقل: «لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له العليُّ العظيم، لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له الحليم الكريم، بسم الله الذي لا إله إلاَّ هو الحيُّ الحليم، سبحان الله ربِّ العرش العظيم، الحمد لله ربِّ العالمين ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [سورة النازعات: ٤٦] ، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ اللهمَّ إِنِّي أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كلِّ إثم، والغنيمة من كلِّ برٍّ، والفوز بالجنَّة، والنجاة من النار، اللهمَّ لا تدع لي ذنبًا إلاَّ غفرته، ولا همًّا إلاَّ فرَّجته، ولا دينًا إلاَّ قضيته، ولا حاجةً من حوائج الدنيا والآخرة إلاَّ قضيتها برحمتك، يا أرحم الراحمين»[1] يعني يذكر بعد ذلك حاجته أو يقصدها فيما يصلح لها من ألفاظ هذا الدعاء، مثل أن يقصدها عند قوله: «لا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلاَّ قضيتها».

والله الموفِّق
ما شاء الله لا قوة إلاَّ بالله
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

١-رواه **الطبراني** في الأوسط، ج٤، ص٢٣٧، رقم٣٤٢٢. **والهيثمي** في المجمع، ج١٠، ص١٥٧. **والطبراني** في الصغير، ج١، ص١٢٣. من حديث أنس.

تفسير سورة محمَّد ﷺ وآياتها ٣٨

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ① وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ② ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ③﴾

بيان الفرق بين الكفَّار والمؤمنين

﴿الذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالقرآن عمومًا وبرسول الله ﷺ ﴿وَصَدُّواْ﴾ من الصدود، وهو لازم، ومعناه: الإعراض أي أعرضوا ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ لم يعملوا بما أُمروا بعمله، و لم ينتهوا عمَّا نُهوا عنه من الأقوال والأفعال، ويدلُّ على أنَّه من الصدود وهو لازم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُواْ إِلَى اللهِ﴾ (سورة يوسف: ١٠٨) ، أي فأجيبوني إليها، أي لا تعرضوا عنها، مع قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ أي لم يعرضوا فآمنوا.

(بلاغة) و«عَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ» مقابل «عَن سَبِيلِ اللهِ»، و«ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ» مقابل «الذِينَ كَفَرُوا».

(نحو) ويجوز أن يكون متعدِّيًا، من الصَدِّ، فحذف المفعول للعموم، أي صدُّوا كلَّ من وجدوا، أي دعوه إلى الإعراض عن سبيل الله، سواءً طاوعهم أو لم يطاوعهم. ويدلُّ على التعدِّي قول الضحَّاك ومقاتل: ﴿سَبِيلِ

الله﴾: بيت الله، كانوا يصدُّون من قصد بيت الله عنه مِمَّن كرهوا، أو أرادوا أخذ شيء عنه، فإذا أعطاهم خلَّوا بينه وبين البيت.

والأولى **العموم** لا خصوص البيت، والآية عَامَّة لكلِّ من اتَّصَفَ بالكفر والصدِّ عن سبيل الله.

(سيرة) هم اثنا عشر رجلاً يصدُّون الناس عن الإسلام، وقول بعضهم: إنَّهم شياطين من الجنِّ من أهل الكتاب، صدُّوا عن الإسلام من أراده من الجنِّ وغيرهم، وأمَّا الإطعام يوم بدر الكبرى تقوية للمشركين فلا يقوِّي التعدية كما توَهَّم بعض المحقِّقين.

وابن عباس فسَّر ﴿الذينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ بالمطعمين يومئذ. وقيل: اليهود وقيل: كُفَّار قريش، **والأولى عموم من كفر وصدُّوا**، وإنَّما لم يكن الإطعام مقوِّيا للتعدِّي لأنَّ الذين أكلوا من ذلك الطعام كافرون من قبل الإطعام، يستمرُّون على الكفر، ولو لم يطعَموا، نعم المطعمون أشدُّ كفرا وصدودًا من غيرهم، ويجاب بأنَّ تعميم الآية فيمن أطعم ومن لم يطعم أعظم فائدة.

بل لو فسِّرت بالصدود بلا إطعام أو بالصدِّ بدونه لدخل المطعم بالأولى، فلا يخفى أَنَّ الضالَّ بنفسه دون الضالِّ المضلِّ، والضالُّ المضلُّ دون الضالِّ المطعم، لأنَّه يضلُّ الناس بنفسه وماله، وفيه أنَّه لا إضلال في الإطعام كما مرَّ إلاَّ أن يراد بالإضلال في جانبهم التجسير على السفر لغزوة بدر.

وأوَّل من أطعم أبو جهل، أطعم المشركين يوم خرجوا من مَكَّة إلى بدر نحو عشرا من الإبل، ثمَّ صفوان بن أميَّة تسعًا بعسفان، ثمَّ سهل بن عمرو بقديد عشرًا، ثمَّ شيبة بن ربيعة وقد تاهوا تسعًا، ثمَّ عتبة بن ربيعة عشرًا، ثمَّ مقيس الجمحي بالأبواء تسعًا، ثمَّ العبَّاس عشرًا، قبل إسلامه أو بعد إسلامه.

(فقه) ومن أسلم قبل نسخ الهجرة ولم يهاجر فاسق، وقيل: مشرك، وكأنَّ العباس خرج وأطعم بصورة القهر ولا يقدر، وكأنَّه فعل ليشفع فيه ﷺ إن كان مغلوبًا، وفي رواية أنَّه ﷺ وَصَّى به أن لا يقتل، وأنَّه خرج مغلوبًا وأنَّه لم يطعم.

والحارث بن عامر تسعًا، وأبو البختري على ماء بدر عشرًا، ومقيس الجمحي تسعًا، ثمَّ شغلتهم الحرب فأكلوا من أزوادهم، وقيل: المطعمون ستَّة: نبيه ومنبه ابنا الحجَّاج، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل والحارث ابنا هشام، وزاد مقاتل: ستَّة عامر بن نوفل، وحكيم بن حزام، وزمعة بن الأسود، والعبَّاس، وصفوان بن أميَّة، وأبو سفيان، كلٌّ يطعم يومًا.

﴿أَضَلَّ﴾ أبطَلَ، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ (سورة الفرقان: ٢٣) ، أو جعل أعمالهم ضلالاً غير هدًى، أو جعلها ضالَّة أي غير مهتدية، على التجوُّز في الإسناد، **﴿أَعْمَالَهُمْ﴾** مِنَ الكيد لرسول الله ﷺ بهذا الإطعام، فلم يؤثِّر، بل قتلوا وأُسروا، ومِنَ العمل الصالح، لم ينجوا بها من ذلك في الدنيا، ولا يثابون عليها يوم القيامة، كصلة الرحم، وقِرى الضيف، وفكِّ الأسير، وإجارة المستجير، وإطعام اليتيم، والهدي، وغير ذلك من المكارم.

﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بكلِّ ما يجب الإيمان به **﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾** ﷺ وعلى آله وصحبه، هم الأنصار عند ابن عبَّاس، وقال مقاتل: ناس من قريش، وقيل: مؤمنو أهل الكتاب، **والتعميم في هؤلاء وغيرهم أولى**. وخصَّ ما نزل على محمَّد وهو القرآن، أو القرآن وسائر الوحي بعد العموم تنويهًا بالقرآن، كما أكَّده أيضًا بقوله تعالى:

﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ الجملة معترضة، أو حال من «مَا»، أو من ضمير «نُزِّلَ». و«مِن رَّبِّهِمْ» متعلّق بنعت محذوف، أي النازل من ربِّهم، أو من المستتر في الحقِّ. ﴿كَفَّرَ﴾ بإيمانهم وعملهم الصالح ﴿عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ لم يؤاخذهم بها كأنّها لم تكن.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ حالهم في الدين والدنيا، والبال: الحال المكترث بها، يقال: ما باليت بكذا أو ما أبالي به، أي ما أكترث به، وفي الحديث: «**كلّ أمر ذي بال...**»[1] أو بالهم قلبهم، معبَّرا به عَمَّا يخطر في القلب تسمية للمحلّ باسم الحالّ، لأنّ البال الفكر يخطر فيه، وصلاح القلب صلاح لكلّ الجوارح، وصلاح القلب صلاح الاعتقاد الخاطر فيه. وعن ابن عبَّاس: عصمهم، أي: عصمهم عن أن يموتوا مصرِّين. وقال بعضهم: عصمهم عن أن يعصوا، وهو بعيد.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإضلال وتكفير السيِّئات والإصلاح ﴿بِأَنَّ الذِينَ﴾ بسبب أنَّ الذين ﴿كَفَرُواْ اتَّبَعُواْ الْبَاطِلَ﴾ الضلال. وعن مجاهد: هو الشيطان وما يأمر به، وعنه: الشيطان، وقيل: ما لا ينتفع به فهو الضلال، والمباح الذي لم يصرف للآخرة.

[قلت:] ولم أر أجهل بطرق الجدال من النصارى، يعيبون القرآن بما هو ظاهر البطلان، راجع عليهم، ولا يستحيون، فهم كناموسة نفخت على جبل عظيم لتزيله بنفختها، وكأحمق بال في المحيط لينجِّسه، وككلب عوى على البدر ليحطّه من سمائه.

١- رواه **ابن ماجه** في كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، رقم١٨٩٤. ورواه **ابن حبَّان** في المقَدِّمَة، باب في الابتداء بحمد الله تعالى، رقم١. كما أورده **القطب** في جامع الشمل، ج١، ص١٦٠، رقم٤٩١. وتمامه «...لا يبدأ فيه باسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر، أقطع، أجذم». من حديث أبي هريرة.

لو نبح البدر كلاب الورى ما وصل النبح إلى البدر

ينكرون المحسوسات والبديهيَّات، ويدَّعون وقوع المحالات، وكلّما زادوا جدالا زادوا افتضاحا.

لا تبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

ويقاربهم اليهود، إلاّ أنّ ذلّهم دعاهم إلى اللين فتستَّروا به، بخلاف علماء الإسلام وحججهم، فكما قيل:

أعد ذكر نعمان لنا إنّ ذكره هو المسك ما كرَّرته يتضوَّع

وما أرى النصارى مع المسلمين إلاّ كما روي أنّ جاهلا جادل عالما فعجز وبصق في وجه العالم، فقال: ما أضعف حجَّتك أيُّها العالم.

﴿وَأَنَّ الذِينَ ءامَنُواْ اتَّبَعُواْ الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ الهدى، وقال مجاهد: الرسول والشرع **﴿كَذَالِكَ﴾** مثل ذلك البيان المخصوص **﴿يَضْرِبُ﴾** يُبَيِّنُ **﴿اللهُ﴾** تبيينا بديعا كضرب المثل الغريب **﴿لِلنَّاسِ﴾** مطلقا، أو للفريق المؤمن والفريق الكافر، واللام للتعليل أو الاستحقاق **﴿أَمْثَالَهُمْ﴾** أحوال المؤمنين والكافرين الشبيهة بالأمثال في الغرابة، وهي اتِّباع المؤمنين الحقَّ وفوزهم، واتِّباع الكفرة الباطل وخسرانهم.

أو المراد بالأمثال تمثيلاتهم، جعل اتِّباع الباطل مثلا لعمل الكفّار، والإضلال مثلا لخسرانهم، واتِّباع الحقِّ مثلا لعمل المؤمنين، وتكفير السيِّئات مثلا لفوزهم، وقال الزجَّاج: يضرب الله أمثال حسنات المؤمنين وأمثال أعمال الكافرين.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ

وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾

كيف يعامل المشركون في الحرب، وجزاء المجاهدين والمسلمين

﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الذينَ كَفَرُواْ﴾ إذا كان صلاح المؤمنين وفوزهم وضلال الكفرة وخسرانهم ممَّا يوجب ترتيب الأحكام عليهم، كلٌّ بما يليق به، فإذا لقيتم الكفرة في المحاربة إلى قوله: ﴿بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ ورتَّب على الفريق الآخر قوله: ﴿وَالذِينَ قَاتَلُواْ...﴾.

وبدأ بالذين كفروا لأنَّ التكليف يكون بمعالجتهم، وشأن الخلق والدنيا التكليف، وباتِّباعه يحصل الدين والدنيا والعبادة، ودون ذلك ما هو إخبار بالثواب على ذلك، فأخَّر ذكر الثواب. واللقاء: الملاقاة أو اللقاء المعبِّر عن الحرب.

(نحو) ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ فاضربوا الرقاب منهم أولهم، أورقابهم ضربا، فحذف "اضربوا" وأضيف «ضرب» للمفعول. ومثل هذا المصدر نائب عن عامله، ولم يزد فائدة عليه فليس فيه توكيد، ولا بيان نوع بإضافته إلاَّ بحسب ظاهر اللفظ، لأنَّه ترجمة عن نصب المضاف إليه بالعامل المحذوف قبل الحذف والتأخير، خلافا لمن ادَّعَى التأكيد.

وضرب الرقاب كناية عن القتل مطلقا، وخصَّت الأعناق بالذكر لأنَّه أشنع قتلة وأسرع للموت، إذا أطير الرأس، أو بقي ملصقا بقليل مائلا، وكَأَنَّهُ غير صورة آدمي. وفي الرأس مجمع حواسِّ الإنسان، وهكذا ينبغي أن يكون القتل، وفيه تشجيع المؤمنين إلى هذه القتلة بحسب الإمكان.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أفشلتموهم بشدَّة القتل وكثرته إفشالا كإثخان المائع عن الحركة بضبطه في إناء، ومنعه عن الحركة، يقال: ثخن المائع، أي: سكن عن الحركة.

﴿فَشُدُّواْ الْوَثَاقَ﴾ فاربطوا من بقي منهم في الحبال، وجوامع الحديد ربطا شديدا، والباقي إِمَّا مقبوض عليه وهو صحيح أو ضعيف بالجروح، أو ملقى على الأرض لا يستطيع النهوض، والوثاق: ما يربط به أو يحبس به من حبل أو جامعة.

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ إِمَّا تمنُّون منًّا عليهم بعد الشدِّ، وإمَّا تفادون فداء، والمفاداة هنا قبول الفداء أو طلبه، ولا قتل بعد الإثخان بل يمنُّ عليهم بالإطلاق أو بالاستعباد وترك القتل، أو بالفداء، ثمَّ نسخ ذلك بقوله تعالى في سورة براءة، وهي آخر ما نزل في هذا الشأن: ﴿اقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (سورة التوبة: ٥) ، وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ...﴾ الآية (سورة الأنفال: ٥٧) ، قال مجاهد: «ليس اليوم منٌّ ولا فداء لكن القتل أو الإسلام».

وقيل: آية سورة براءة في غير الأسرى، بدليل أنَّه يجوز الاسترقاق، قيل: إِمَّا الإسلام وإمَّا القتل لا فداء ولا أسر.

(فقه) وجاء الحديث بما يفيد أنَّ جريح المشركين وهاربهم يتبع فيقتل ولو لم يكن له ملجأ ولا من يستعينون به، وأنَّ جريح الموحِّدين الذين حلَّ قتالهم لا يقتل، وهاربهم لا يتبع إن لم يكن له ملجأ.

وقيل: المنُّ والفداء في أسرى بدر فقط، وإنَّ الآية فيهم، وَأَمَّا غير بدر فلا فداء ولا أسر بل القتل، وقيل: يجوزان ويجوز القتل.

وقيل بظاهر الآية: إِمَّا فداء وَإِمَّا منًّا، لا نسخ في ذلك، وبه قال الحسن وابن عمر، كما روي أنَّ الحجَّاج أتي بأسرى فدفع لابن عمر واحدا يقتله، وقال: ما أمرنا بهذا، وتلى الآية، ويدلُّ لجواز القتل أنَّه ﷺ قتل عقبة بن أبي معيط وطعيمة بن عديٍّ، والنضر بن الحارث بعد القبض عليهم.

(فقه) ومذهبنا جواز قتل الأسير وهو أولى لدفع شرِّه، واسترقاقه ومفاداته، لأنَّ فيهما نفعا للإسلام، وإطلاقه بحسب رأي الإمام، وعليه الأكثرون. ومن المنِّ أن يسترقَّ، ومنه أن يترك على إعطاء الجزية إن كان كتابيًّا أو مجوسيًّا.

(فقه) والقول بالنسخ قول ابن عبَّاس والضحَّاك وقتادة ومجاهد، ويكاد يجمع عليه، ولكن إن أسلم الأسير أو الجريح لم يقتل، ويجوز أن يستعبد لأنَّ العبد إذا أسلم جاز بيعه، وهو باق على العُبُوديَّة، وإذا جاز استعباده جاز مفاداته يتخلَّص بها عن الاسترقاق، إلاَّ مشركي العرب والمرتدِّين منهم، فإمَّا أن يسلموا أو يقتلوا.

(فقه) ولا يقتل الرجل أسيره أو أسير غيره بلا إذن من الإمام، وإلاَّ عزَّره الإمام إن وقع على خلاف مقصود الإمام، لكن لا ضمان عليه، إلاَّ إن قتله خوف أن يضرَّه فلا ضمان ولا تعزير. ومن أسلم قبل الأسر خلِّي سبيله وهو حرٌّ مسلم.

(حادثة تاريخية) ومن الخطأ الفاحش الذي لا يخفى على العاقل ما نسب ليعقوب المنصور إذ منح الله عَزَّ وَجَلَّ له النصر في أندلس على أدفنوش وجنوده، وهزمهم الله هزيمة عظيمة وقتل منهم مائة ومائة ألف، وأسر أربعة وعشرين ألفا، وأطلقهم كلَّهم، وأدفنوش من الجلالقة، وهم المسمُّون الآن إسبنيول.

(فقه) ولا يفادى بالأسير مسلم في رواية عن أبي حنيفة، لأنَّ في ردِّ أسير المشرك إليهم، فيكون حربا مضرَّة لجميع المسلمين، **والصحيح الجواز**، وهو رواية عنه، وهو قول محمَّد وأبي يوسف والشافعيِّ ومالك وأحمد لحرمة المسلم وتخليصه من أهل الشرك، وتمكينه من عبادة الله، ومضرَّة ذلك المشرك للمسلمين غير لازمة لَعَلَّهَا لا تقع.

(سيرة) وأيضا فدى ﷺ رجلين مسلمين بأسير كافر كما في مسلم وأبي داود والترمذي وغيرهما عن عمران بن حصين، وتجوز المفاداة بالنساء على الصحيح، كما روي أنَّه ﷺ أمَّر الصدِّيق ﷺ على غزوة، فأعطى من الغنيمة سلمة امرأة، فسأله ﷺ أن يهبها له، فلم يفعل، وقال: إنَّها أعجبتني يا رسول الله ما كشفت لها ثوبا، ولقيه غدا في السوق، فقال: هبني المرأة فقال: هي لك يا رسول الله، والله ما كشفت لها ثوبا ففدى بها رجالا مسلمين من مَكَّة.

(فقه) وفي المفاداة بالصبيِّ قولان. ويجوز فداء مسلم بأسير مسلم إن طابت نفسه، وأُمن على إيمانه أن لا يرتدَّ، وقيل: لا. ويجوز فداء المسلم بمال لعظم حرمته، ولا عبرة بما يتوقَّع من تقوِّي المشركين بذلك المال. ولا يحسن إطلاق الأسير المشرك إلى أهله بلا عوض، ولا رجاء مصلحة في ذلك للإسلام.

(سيرة) وأطلق ﷺ جماعة من أسرى بدر، منهم: أبو العاصي بن أبي الربيع، وأجاز فداء بنته ﷺ لأبي العاصي زوجها بقلادة أعطتها إِيَّاهَا خديجة رضي الله عنهما، وسألهم ﷺ أن يطلقوه وَيَرُدُّوا لها قلادتها ففعلوا فرحين.

(سيرة) وأطلق ﷺ ثمامة بن أثال بن النعمان، وأسلم بعد، كما في مسلم، بعث رسول الله ﷺ خيلا قبل نجد، فأتوا بثمامة، وهو رجل من بني حنيفة، فربطوه في المسجد على سارية، فقال له رسول الله ﷺ : ما عندك يا ثمامة ؟ فقال: خير، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن

أردت المال فلك ما تريد، وقال له مثل ذلك من الغد، فأجاب بذلك، وكذا في الثالث، وقال: أطلقوا ثمامة فأطلقوه، وذهب إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل وجاء فقال: «أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ مُحَمَّدًا عبده ورسوله، ولا وجه أحبُّ إليّ من وجهك بعد أن كان أبغض الوجوه إليّ، ولا دين أحبُّ إليّ من دينك بعد أن كان أبغض الأديان إليّ، ولا بلد أحبُّ إليّ من بلدك بعد أن كان أبغض البلاد إليّ يا رسول الله، أخذتني خيلك وأنا أريد العمرة»، فأمره أن يعتمر، فقال له أهل مَكَّة: أصبوت ؟ فقال: لا بل أسلمت، والله لا يأتيكم حبة حنطة من اليمامة حتَّى يأذن رسول الله ﷺ فيها. وأسرت ثقيف مسلمين وفداهما ﷺ بكافرين، وقال ﷺ : «**لو كان مطعم بن عديٍّ حَيًّا وسئلت إطلاقه لفعلت**»، فهذه إجازة لإطلاق بلا عوض، ويجوز الفداء ولو بعد قسمة.

﴿**حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**﴾ حتَّى تنقضي الحرب، وحتَّى فيها غاية راجعة إلى ضرب الرقاب أو إلى الشدِّ أو إلى المنِّ أو الفداء أو إليهما أو إلى الكلّ، بمعنى امتداد ضرب الرقاب وشدِّ الوثاق والمنِّ والفداء جار حتَّى تزول شوكة المشركين، أو ينزل عيسى عليه السلام، ويخرج ياجوج وماجوج، عن سلمة بن نفيل قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنّ الخيل سيِّبت، ووضع السلاح، وزعم أقوام أن لا قتال، وأن قد وضعت الحرب أوزارها، فقال ﷺ : «**كذبوا، فالآن جاء القتال، ولا تزال طائفة من أُمَّتِي يقاتلون في سبيل الله، لا يَضُرُّهم من خالفهم، يزيغ الله تعالى قلوب قوم ليرزقهم منهم، وتقاتلون حتى تقوم الساعة، ولا تزال الخيل معقودا في نواصيها الخير حَتَّى تقوم الساعة، ولا تضع الحرب أوزارها حَتَّى يخرج يأجوج ومأجوج**»[1].

١-روى **مسلم** جزءا منه في كتاب الإمارة (٥٣) باب لا تزال طائفة من أُمَّتِي... رقم١٩٦.
كما أورده **الألوسي** في تفسيره: مج٩، ص٤٩، من حديث سلمة بن نُفَيْل.

و«ال» للجنس، وإن جعلنا الحرب حرب بدر فـ«ال» للعهد، وأوزار الحرب آلاتها من السلاح وغيره، وأصل الوزر: الحمل أو الثقل، استعير لآلات الحرب، أو شبِّه الحرب بإنسان حامل لشيء ثقيل، ورمز لذلك بإثبات ما هو ثقيل على التخييل، أو ذلك استعارة تمثيليَّة، وأضيفت الأوزار للحرب تجوُّزا في النسبة الإضافيَّة، وفي ذلك تغليب على حيوان الحرب كالخيل، وما يحتاج إليه فيها من الإبل وغيرها، وقيل: حتَّى يضع أهل الحرب أوزارها، أي: أسلحتها. وقيل: الحرب اسم جمع مثل الركب، أي: المحاربون المسلمون.

وقيل: المحاربون المشركون، وأوزارهم: ذنوبهم، ووضعها: تركها بالتوبة والإيمان، **وذلك ضعيف**، ويضعف ما قيل: إنَّ الأوزار الشرك والمعاصي، وتضع بمعنى تترك، وإسناد الترك إليها مجاز، أو يقدَّر مضاف، أي: حتَّى يضع أهل الحرب أوزارها، والمعنى: حتَّى تضع حربكم أوزار المشركين، بأن يسلموا أو يسالموا، ووجه الضعف أنَّه لا يحسن إضافة الذنوب إلى الحرب.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من ضرب الرقاب وشدِّ الوثاق والمنِّ والفداء بعد الإثخان، خبر لمحذوف، أي: الأمر ذلك، أو مفعول، أي: الزموا ذلك، فإنَّ الحكمة أو المشيئة اقتضت تكليفك به ﴿**وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ**﴾ الانتصار لكم بلا قتال ﴿**لَانتَصَرَ مِنْهُمْ**﴾ انتقم لكم بخسف أو رجفة أو غرق أو موت جارف ﴿**وَلَٰكِن لِّـيَبْلُوَاْ**﴾ أي: أَمَرَكم بالقتال ليبلُوَ ﴿**بَعْضَكُم بِبَعْضٍ**﴾ يبلو المؤمنين بجهاد الكافرين لنيل الأجر، والكافرين بالمؤمنين ليقتلهم انتقاما بهم وليتَّعظ بعض ويرتدع آخرون.

﴿**وَالذِينَ قَاتَلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ الكُفَّار، أراد العموم، فـ«الذينَ» كاسم الشرط، ولذا قرن خبره بالفاء، كما قال: ﴿**فَلَنْ يُّضِلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ لن يضيِّعها بل يثيبهم عليها، وهي قتالهم وسائر أعمالهم الصالحات، والمراد اعتبارها وأن لا

يتركها، وأما نفس الثواب فقد ذكره بعد بالعموم أوَّلا وبالذات من نزلت فيهم، إذ نزلت في يوم أحد ورسول الله ﷺ في الشعب.

(سيرة) وقد فشت فيهم الجراحات والقتل، حتَّى قيل: إنَّه قتل من المسلمين سبعون وأسر سبعون كما فعل بهم المسلمون يوم بدر، ونادوا: «أعل هبل»، ونادى المسلمون: «الله أعلى وأجل» ونادوا: «يوم بيوم بدر، والحرب سجال، لنا عزى ولا عزَّى لكم».

أرادوا بذكرها تغييظ المسلمين، والإشعار بالثبات على الكفر، والتلويح بأنَّها نصرتهم، فقال رسول الله ﷺ : «الله مولانا ولا مولى لكم، قتلانا أحياء مرزوقون وقتلاكم في النار يعذَّبون»، فالقتلى مختلفة، رواه الطبري وغيره.

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ يوصلهم إلى ثواب أعمالهم يوم القيامة ومبدأها يوم الموت، لما يرون من الخير في قبورهم، وتنعم أرواح الشهداء بالأكل وغيره في الجنَّة، لأنَّه لا يضيِّع أعمالهم، فالسين للاستقبال، أو هدايتهم حفظهم عمَّا يبطل أعمالهم، حتَّى يموتوا على الوفاء، ويأتوه بأعمالهم الصالحات، فالسين للتأكيد.

﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ حالهم بعد الموت، لا يعذَّبون في قبورهم، ولا ييأسون فيها ولا بعدها، وقيل: لا تشوَّه خلقتهم فيها ولا بعدها، ولا يصيبهم ما يصيب الكافرين في ذلك من التوبيخ والندم الكلِّي.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ تصريح بغاية الثواب ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ حال من «الْجَنَّةَ»، أو من هاء «يُدْخِلُهُمْ»، والمعنى: بيَّنها لهم، وجعلهم عارفين بها، والمراد: تعريف مساكنهم فيها وما لهم بلا دلالة أحد، ولا ملك لهم عليها، ولا كتابة عليها باسمه، كأنَّهم سكنوها منذ خلقوا، كما روى الطبريُّ عن مجاهد.

وعنه ﷺ : «**لأحدكم بمترله في الجنَّة وأهله وأزواجه وخدمه أعرف بمترله في الدنيا**»[1] بإلهام منه ﷻ ، أو بارتباط حسناته به كالدليل.

وأمَّا قول مقاتل: بلغنا أنَّ الملك الموكَّل بعمل الشخص في الدنيا يمشي بين يديه في الجنَّة، ويتبعه الشخص حتَّى يأتي أقصى مترل له، فيعرِّفه كلَّ شيء أعطاه الله تعالى في الجنَّة، فإذا انتهى إلى أقصى مترله في الجنَّة، دخل إلى مترله وأزواجه وانصرف الملك، فالمراد به ـــ والله أعلم ـــ صورة التعريف لا حقيقته، فقد عرف ذلك بلا تعريف ملك، وإنَّما ذلك تشييع من الملك وتكريم له، وقد دلَّته عليه حسناته، كما ورد في الأثر، وذلك داخل في الحديث السابق.

وكذا نقول: التكريم والتحقيق في ما روي أنَّ الله تعالى رسم على كلِّ مترل اسم صاحبه، أي: وعلى كلِّ ملك من أملاكه، وقيل: تعريف منازلها تحديد بحيث لا تهمل ولا تختلط بغيرها، ولا تلتبس. وقيل: ﴿عَرَّفَهَا﴾: رفعها كما يقال للجبال: أعراف، وِلكُلِّ مرتفعٍ. وعن ابن عبَّاس: ﴿عَرَّفَهَا﴾: طيَّبها، والعرف الريح الطيِّب، وقيل: المراد **تعريفها في الدنيا بذكر أوصافها، وصفها لهم فاجتهدوا لينالوها.**

يا قوم أذني لبعض الحـــيِّ عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهوى؟ فقلت لهم الأذن كالعين تؤتي القلب ما كانا[2]

١-رواه **البخاري** في كتاب الرقاق (٤٨) باب القصاص يوم القيامة، رقم ٦٥٣٥. وَأَوَّلُ الحديث عندهما: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنَّة والنار...». ورواه **التبريزي** في المشكاة، كتاب صفة القيامة: الجنَّة والنار (٤) باب الحوض والشفاعة، رقم ٥٥٨٩، من حديث أبي سعيد.

٢-البيت لبشار بن برد.

ولا عشق إلاَّ بالقلب ولكن الأذن والعين وسائط.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ﴾ نصر الله: السعي فيما أمر به فعلا، وفيما نهى عنه تركا، وذلك نفس نصره تعالى، ولا تحتاج إلى تقدير نصر دينه، أو نصر رسوله ﷺ، كما أنَّ نصر الإنسان السعي فيما ينفعه، ويُغضب عدوَّه ويضرُّه. ولو قدَّرت: «تنصروا دين الله أو رسوله» لم يزد على ما قبل التقدير، وإن شئت فنصر الله تعالى نصر دينه لا لتقدير المضاف، بل نصره اسم لنصر دينه، وليس ذلك مجازا بل حقيقة شَرعيَّة، وإن اعتبرنا أنَّ النصر دفع ما يضرُّ من العدوِّ كان هنا مجازا لغويًّا، لأنَّه تعالى لا يناله ضرٌّ ولا نفع، وهو المعين الناصر، ينصركم على أعدائكم.

﴿وَيُثَبِّتَ اَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب فلا تخرجوا عنها انهزاما، ففي ذلك استعارة تمثيليَّة، وكذا إذا فسَّرناه بيقوِّيكم على طريق الإسلام الواضحة، أو يديمكم على الطاعة. ﴿وَالذِينَ كَفَرُواْ﴾ على تقدير «أمَّا»، بدليل الفاء في خبره إذ قال: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾.

(نحو) والفاء العموميَّة كاسم الشرط، وذلك بصيغة الدعاء، كويلا وسقيا ورعيا على تقدير القول، وهو مفعول مطلق. و«لَهُمْ» متعلِّق بالقول المقدَّر، أي: فيقال لهم تعسا، أي: تعستم تعسا. ويجوز أن يكون مفعولا لمحذوف على الإخبار لا على صيغة الدعاء، أي: فقضى لهم تعسا. ويجوز تعليق «لَهُمْ» بمحذوف نعت لـ«تَعْسًا»، وشهر تعليقه بـ«تَعْسًا» وسمَّوها "لام البيان"، وعلَّقه كثير بـ"أعني"، وفيه أنَّه يقال: «أعنيه» لا «أعني له»، وأمر الفاء ظاهر على تقدير «أمَّا».

وأمَّا إن لم تقدَّر وجعل الكلام إخبارا لا على طريق الدعاء فالمبتدأ لا يستحقُّ الفاء، ولو عمَّ كالشرط، لأنَّ فعل الخبر يصلح شرطا، فنخرج الآية على

جواز الفاء في الخبر مطلقا، أو مفعول مطلق اسم مصدر هو الإتعاس، ناصبه محذوف، ناصبٌ لــ«الذين» على المفعوليَّة، معطوف على «يُثبِّت»، لكن فيه زيادة الفاء، أي: ويتعس الذين كفروا إتعاسا، أو هي عاطفة على هذا المقدَّر، أي: ويتعس الذين كفروا فتعسوا تعسا لهم.

(لغة) ومعنى «تَعْسًا» عثورا وانحطاطا على الوجه، أو الرأس انحطاطا في الحرب، فيكون معاكسا لقوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ أَقْدَامَكُمْ﴾. وعن ابن عبَّاس: قتلا .وتردِّيا في النار، وهو تفسير بالواقع لا بوضع اللغة. وقيل: قبحا، وقيل: رغما، وقيل: شتما، وقيل: شقاء، وقيل عن ابن عبَّاس: بعدا، وقيل: حزنا، وقيل: شرًّا، **والمشهور: هلاكا**، ومع شهرته أنَّ الهلاك يعمُّ ذلك كلَّه ويصلح له، فهو أولى.

وما للمؤمنين في الآية بصيغة الوعد، والله تعالى لا يخلف الوعد، وما للكافرين فيها بصيغة الدعاء عليهم، فلا يخفى ما في الآية من الترغيب والترهيب.

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ عطف على القول المقدَّر أو الناصب المقدَّر على الإخبار لا الإنشاء، مثل قضى، ومثل يتعس الذين كفروا، وإن جعلنا «أَضَلَّ» إنشاء جاز عطفه على الإنشاء السابق.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من التعس والإضلال **﴿بِأَنَّهُمْ﴾** ثابت بسبب أنَّهم...إلخ [قلت:] وإذا ذكرت لفظ سبب بعد الباء في مقام تفسير باء السببيَّة فليست عبارتي للسببيَّة، لأنِّي ذكرت لفظ سبب بعدها، بل هي لمجرَّد إيصال الفعل.

﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن لفظا وحكما لمخالفته ما ألفته أنفسهم من الإشراك وما دونه من المعاصي واللَّذَّات، وَلَمَّا كرهوه أنكروه إنكارا متسبِّبا للتعس وإضلال أعمالهم، وهو إبطال ما عملوا من الحسنات، أو إبطال كيدهم لرسول الله ﷺ فلم يؤثِّر فيه، والأوَّل أولى، لأنَّ الكلام في إثابة المؤمنين.

[قلت:] ومؤالفة النفس للشيء جند من جنود إبليس، يستعين بها على ترك الطاعات المألوف تركها، وعلى فعل المعاصي المألوف فعلها، فالواجب جهاد النفس في ذلك، وعن مؤالفة الجاه حتَّى يعرض عنها، كما قيل:

تجرَّد من الدنيا فإنَّك إنَّمَا خرجت إلى الدنيا وأنت مجرَّد

﴿فَأَحْبَطَ﴾ لذلك ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ كقري الضيف وفكِّ العاني، والإحسان إلى اليتيم والجار والضعيف. وذكر الإحباط مع ذكر الإضلال إيذانا بأنَّه لا ينفكُّ عن الكفر بالقرآن.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾﴾

أخذ العبرة من آثار الأمم السابقة
ومن أحوال المؤمنين والكافرين

﴿أَفَلَمْ﴾ الهمزة ممَّا بعد العاطف، فهي من جملة المعطوف، وهي داخلة على جملة معطوف عليها، أي: أقعدوا في أرضهم فلم ﴿يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ﴾ حتَّى يصلوا إلى أرض الأمم المهلكة، أو أرض بعضهم، و«ال» للجنس صالحة لذلك. ﴿فَينظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المهلكة

لتكذيبهم، فإنَّ خراب ديارهم بلا إجلاء سلطان، ولا قتل أحد، ولا قحط، ولا شيء يوجد الإخبار عنه منبئ عن أخبارهم[1].

﴿دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ كأنَّه قيل: ما عاقبتهم؟ فأجاب بقوله: ﴿دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: أهلك ما يختصُّ بهم من النفس والأهل والمال، فهو أعمُّ من «دمَّرهم»، أي: أهلكهم، وهو متعدٍّ جعل مفعوله نسيا منسيًّا، استغنى عنه بـ«عَلَى»، والأصل: دمَّر الله أنفسهم وأهلهم وأموالهم عليهم، وحذفه مبالغة، كأنَّه قيل: أهلكوا من كلِّ وجه ممكن، و«عَلَى» لمعنى الاستعلاء عليهم بكلِّ مضرٍّ، أو كأنَّه قيل: شدَّد عليهم غضب عليهم وعلى أنَّه لا مفعول له.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ من سائر الأمم المهلكين بغير خراب ديارهم ﴿أَمْثَالُهَا﴾ أمثال عاقبتهم، أو عقوبتهم، لدلالة ما سبق عليها، كما أهلك فرعون وقومه مع بقاء مصر.

وجمع الأمثال للتعدُّد باعتبار وقائع متعدِّدة بحسب تعدُّد الأمم المكذِّبة المعذَّبة، كلُّ أمَّة عذِّبت بعذاب يشبه عذاب من عذِّبوا وخرِّبت ديارهم، وليس المراد أنَّ كلَّ أمَّة اجتمع عليها أمثال عذاب هؤلاء الذين خربت ديارهم، إلاَّ أن يقال: العذاب بأيدي من استخفُّوا به من القتل والأسر أشدُّ عليهم من العذاب بسبب عامٍّ من الله عز وجل.

ويجوز أن تكون «ال» للعهد، وفُهِم الكافرون المذكورون قبل، فالأصل: «ولهم أمثالها في الآخرة بعد ما أصابهم في الدنيا»، فوضع الظاهر موضع المضمر لتصريحه بالكفر الذي هو موجب العقاب، وليس في سائر كتب الله عز وجل من **كثرة تكرير الإنذار جدًّا ما في القرآن.**

١- كذا في النسخ تأمل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من ثبوت أمثال عقوبة الأمم السابقة، أو أمثال عاقبة الأمم السابقة، وهذا أولى من أن يقال: الإشارة إلى النصر، ويجوز أن تكون الإشارة إلى ذلك كلّه ﴿بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ متولّي أمرهم لإيمانهم، فهو ينصرهم ويثيبهم بالجنَّة، ويخزي أعداءهم.

﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمُ﴾ لا وليّ لهم يدفع عنهم العذاب، والله مولاهم بمعنى مالكهم لا دافع عنهم، كما قال: ﴿ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾ (سورة الأنعام: ٦٢) ، أي: مالكهم، فلا تناقض بين الآيتين.

وبيَّن ولايته تعالى للمؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ﴾ هذا في الآخرة بعد مالهم في الدنيا وفي القبور، وبيَّن نفي ولاية الله للكفرة في الخير وأنَّه يتولاَّهم بالشرِّ في قوله: ﴿وَالذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَاكُلُونَ كَمَا تَاكُلُ الاَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ يتمتعون في الدنيا قليلا. والصحيح تعليق الكاف، فهي متعلّقة بـ«يَاكُلُونَ»، أو بمحذوف نعت لمفعول مطلق، أي: أكلا ثابتا كأكل الأنعام، فـ«مَا» مَصدَرِيَّة، أكلهم يشبه أكل الأنعام في الكثرة، وقصر غالب الهمَّة عليه، وسواء من حلال أو حرام، وفي عدم الشكر عليه، وأنَّه لا فائدة فيه للآخرة.

والمثوى: موضع الإقامة، فهم مقيمون في النار لاتّباع الشهوات، كما أنَّ المسلمين يقيمون في الجنَّة لترك الشهوات.

(بلاغة) وحذف في شأن المؤمنين التمتُّع والمثوى المذكورين في شأن الكافرين، وذكر فيه الأعمال الصالحة ولم يذكر في شأن الكُفَّار الأعمال الفاسدة، فذلك احتباك، وأسند إدخال الجنَّة إلى الله تعالى تنويها بشأن المؤمنين.

﴿وَكَأَيِّن﴾ كم ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ تمييز، وقوله: ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ نعت «قَرْيَة»، والمراد بقرية في الموضعين أهلها على حذف مضاف، أو على تسمية الحالّ باسم المحلّ، ومرَّ كلام في ذلك، وعلى الوجه الثاني أنّث وأفرد الضمير في قوله تعالى: ﴿الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ نظرا للفظ «قَرْيَة»، والأصل إذ كان اسما لأهلها أن يقال: الذين أخرجوك، كما جمع نظرا لمعناه في قوله: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ وهذا الجمع نظرا للمضاف المحذوف في الوجه الأوَّل، وهو حذف مضاف، وإسناد الإخراج إلى القرية على أنَّها اسم لأهلها حقيقة، وعلى تقدير مضاف مجاز، من إسناد ما للحالّ إلى المحلّ، وما للحالّ الذي هو سبب إلى المحلّ، لأنَّهم عاملوه بالسوء، فأذن الله تعالى له في الخروج. والمراد بـ«قَرْيَتِكَ» مَكَّة، ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يدفع عنهم الإهلاك.

روى الطبريُّ عن ابن عبَّاس أنَّ النبيء ﷺ لَمَّا خرج من مَكَّة إلى الغار التفت إلى مَكَّة فقال: «**أنت أحبُّ بلاد الله تعالى إلى الله، وأنت أحبُّ بلاد الله تعالى إليَّ، ولولا أنَّ أهلك أخرجوني منك لم أخرج منك**»[1]. فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى في حرمه، أو قتل غير قاتل، فأنزل الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ...﴾، فالآية تسلية لرسول الله ﷺ.

﴿أَفَمَن كَانَ﴾ أيستوي الخير والشرُّ، أو أيستوي الإحسان والإساءة؟ فمن كان ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ «مَنْ» واقعة على النبيء ﷺ والمؤمنين، والبيِّنة: دلائل الدين من القرآن والمعجزات والعقليَّات ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ

١- ورواه **الترمذي** في كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في فضل مَكَّة، حديث رقم ٣٩٢٦، ج٥، ص٧٢٣، بلفظ: «ما أطيبك من بلد وأحبك إليَّ ولولا أنَّ قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»، عن ابن عبَّاس.

﴿عَمَلِهِ﴾ من الإشراك واعتقاده، وسائر المعاصي، ومنها إخراجك من مَكَّة، و«مَنْ» واقعة على المشركين، والمزيِّن لهم الشيطان. ويجوز أن يراد بالآية الأنبياء كلِّهم وأتباعهم وحججهم والمشركون لا خصوص هذه الأمَّة.

﴿وَاتَّبَعُواْ أَهْوَآءَهُم﴾ بلا حجَّة في ذلك العمل بسبب التزيين ذلك. والجمع باعتبار معنى «مَنْ»، والإفراد في «كَانَ» و«لَهُ» باعتبار لفظها.

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُواْ مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾

صفة نعيم الجنَّة وعذاب أهل النار

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ التِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ صفتها العجيبة، كبعض الأمثال الغريبة، وهو مبتدأ خبره محذوف، أي: فيما يتلى عليكم مثل الجنَّة، أو فيما قصصنا عليك مثل الجنَّة، وقيل: فيما يتلى عليكم ما تسمعون. وفسَّره بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِيهَآ أَنْهَارٌ﴾ وقدَّره بعض هكذا ظاهر في نفس من وعى هذه الأوصاف، وقيل: الخبر هو قوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَارٌ﴾، ولا تحتاج لرابط، لأنَّها نفس المبتدأ في المعنى، أو الخبر هذه الجملة، و«مَثَلُ» زائد، أي: الجنَّة فيها أنهار، وهو ضعيف، وقيل: الخبر ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾.

وإنَّما لم يذكر الاستفهام في «مَثَلُ الْجَنَّة» لظهور أنَّ من اشتبه عليه حال المتمسِّك بالبيِّنة وحال التابع هواه اشتبه عليه أنَّ مثل الجنَّة...الخ ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾، وكأنَّه قيل: مثل ساكن الجنَّة كمن هو خالد في النار، كقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ...﴾ (سورة التوبة: ١٩) .

﴿مِن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ متغيِّر الطعم أو الريح، لنحو طول المكث، والفعل كنصر، وضرب يضرب، وعلم يعلم، وهو لازم. و«مِنْ» متعلِّق بمحذوف نعت لـ«أَنْهَارٌ» للبيان، أو للتبعيض، أو للابتداء. وكذا في قوله: ﴿وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ في معاني «مِنْ»، وفي كون ما بعد النكرة نعتا لها.

وتغيُّر الطعم في اللبن بالحموضة، وتغيُّر الريح لا يفارق تغيُّر الطعم.

(صرف) و«لَذَّة» صفة مشبَّهة هنا، ويستعمل مصدرا، ومذكَّره لَذٌّ، تقول: طعام أو شراب لَذٌّ، ويجوز كونه هنا مصدرا للمبالغة، كأنَّها نفس الالتذاذ، واحترز به عن كراهة ريح خمر الدنيا، والسكر بها، وحموضتها، ولا لذَّة في نفس شرب خمر الدنيا، ولذلك قيَّدها بلذَّة. ومعنى وصفه العسل بالتصفية: خلوصه من شمع وفضلات النحل وغيرها، وذلك شرب، وما يجري مجرى الشراب.

(بلاغة) وبدأ بالماء لأنَّه أفضل المشروبات لذَّة إذا احتيج إليه في الدنيا، وتعالج به الأطعمة فيها، ولا يغني عنه شراب، وهو يغني عن سائر الأشربة، وأيضا هو مركِّب للطعام، وبه يسري الطعام في العروق، ثمَّ باللبن لأنَّه يجري مجرى الطعام، ولا سيما عند البدويِّين، ولأنَّه يتولَّد منه غيره كالزبد والسمن والإقط، وغير ذلك، ثمَّ بالخمر لأنَّه إذا حصل الريُّ والشبع تشوَّقت النفس إلى ما تلتذُّ به، وأخَّر العسل لأنَّه شفاء، ولا مرض في الجنَّة.

وذلك الماء لم تَمَسَّه يد، ولا عالجت خروجه، بل يروى أنَّه يجيء الفم، وذلك اللبن لم يعالج بيد ولا جرى من بين فرث ودم، وتلك الخمر لم تعصرها يد ولا رجل، ولا أصلها شيء عصرت منه، وذلك العسل لم يخرج من نحل، وكلٌّ ذلك خلقة من الله.

وَمِمَّا ذكر في الأخبار ما روي عن الكلبي أنّ نهر دجلة نهر الخمر في الجنَّة، وأنّ عليه إبراهيم عليه السلام ، وجيحون نهر الماء فيها، ويسمَّى نهر الربِّ، والفرات نهر اللبن لذرِّية المؤمنين، والنيل نهر العسل. وفي البيهقيِّ عن كعب الأحبار: النيل نهر العسل، ودجلة نهر اللبن، والفرات نهر الخمر، وسيحان نهر الماء في الجنَّة. وعن كعب الأحبار: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنَّة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم، وهذه الأنهار تخرج من الكوثر. **كذا قيل.**

ولفظ مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**سيحان وجيحان والفرات والنيل كلُّها من أنهار الجنَّة**»، فيقال: ذلك على حقيقته، وأنّ الجنَّة مخلوقة الآن، والمعنى: أنَّها تصير في الجنَّة ماء الجنَّة وخمرها ولبنها وعسلها، أو هي الآن فيها على تلك الأوصاف، وَلَمَّا خرجت إلى الدنيا تغيَّرت.

وعنه ﷺ : «**إنَّ في الجنَّة بحر العسل وبحر الماء وبحر الخمر وبحر اللبن ثمَّ تشقَّق الأنهار**»[1] رواه الترمذي. وسيحان وجيحان من بلاد الأرمن نهران عظيمان جدًّا سيحان في أدرنه وجيحان في المصيصة، وأكبرهما جيحان، وهما غير سيحون وجيحون، **والله أعلم بصحَّة ذلك وعلى صحته يكثِّر الله ماء تلك الأنهار** ويفرِّقها على أهل الجنَّة، وينبعها من حيث شاء، ويعلي منها ما زاد، والله على كلِّ شيء قدير.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ مع الأنهار المذكورة **﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾** يتعلَّق بمحذوف نعت المبتدأ محذوف مخبر عنه بـ«لَهُمْ»، أي: لهم نوع ثابت من كلِّ الثمرات،

١- رواه **الترمذي** في كتاب صفة الجنَّة (٢٧) باب ما جاء في صفة أنهار الجنَّة، رقم ٢٥٧١، **والتبريزي** في كتاب صفة القيامة: الجنة والنار (٥) باب صفة الجنَّة وأهلها، رقم٥٦٥٠، ٥٦٥١، من حديث حكيم بن معاوية عن أبيه.

وقدَّر بعض: زوجان من كلِّ الثمرات، لقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ (سورة الرحمن: ٥٢) . و«مِنْ» للتبعيض، ومن أجاز زيادة «مِنْ» في الإيجاب والتعريف أجاز كون «كُلُّ» مبتدأ.

وَمِمَّا يقال ــ ولا مانع منه ــ : إنَّ فيها كُلَّ تمرة ولو حامضة أو مرَّة أو قاتلة، أو لا يرغب فيها يصيِّرها الله غير حامضة وغير قاتلة وغير مرَّة، بل مرغوبا فيها، ففيها الحنظل حلوًا، أو زنجبيلا، أو على سائر الأوصاف المحمودة.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة، مبتدأ محذوف الخبر، أي: ولهم مغفرة، عطف سابق على لاحق، ولم أعطفه على المبتدأ المخبر عنه بــ«لَهُمْ» لأنَّه مقيَّد بقوله: «فِيهَا»، والمغفرة قبل دخول الجنَّة لا في الجنَّة.

(نحو) أو يراد بها رضوان الله مجازا، أو يراد بها أن لا تذكر لهم ذنوبهم لِئَلاَّ يلحقهم وجع الحياء ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ نعت مؤكِّد للمغفرة بعد توكيدها بالتنكير المفيد للتعظيم.

﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ خبر لمحذوف مقرون باستفهام محذوف للتقرير، أي: أمن هو خالد في تلك الجنَّة الموصوفة كمن هو خالد في النار؟ أو يقدَّر مؤخَّرا لنكتة. ويقدَّر الاستفهام في الخبر، أي: أكمن هو خالد في النار من هو خالد في تلك الجنَّة ؟. ويبعد كونه بدل كلٍّ من قوله: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ وَما بينهما اعتراض جيء به لبيان ما يمتاز به في الآخرة من هو على بَيِّنَة من ربِّه في الدنيا، تقريرا لإنكار المساواة.

﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا﴾ حارًّا مكان أشربة المؤمنين اللذيذة المذكورة، وفي تسمية ذلك سقيا بعد ذكر ما يسقى به المؤمنون تهكُّم بهم، فإنَّ السقي موضوع لما هو لذيذ للشارب، واستعمل لمطلق الإساغة ولو مع كراهة.

والجمع باعتبار معنى «مَنْ». والجملة فِعْلِيَّة عطفت على اسْمِيَّة هي قوله: ﴿هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾.

﴿فَقَطَّعَ﴾ شدِّد للمبالغة، كأنَّه قيل: تفتَّت ثمَّ ترجع بإذن الله **﴿أَمْعَآءَهُمْ﴾** من شدَّة الحرارة. والمفرد: «معىً» بفتح الميم وكسرها، وهو ما ينتقل الطعام إليه بعد المعدة. إذا أدني إلى وجوههم ذلك الماء شوى وجوههم حتَّى يسقط لحمها وجلدها، فيبقى العظم، ثمَّ يردُّ كما كان، فإذا شربوه قطَّع أمعاءهم.

روى الترمذيُّ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : إنَّ الحميم ليصبُّ على رؤوسهم، فينفذ إلى الجوف، فيسلت ما فيه حتَّى يخرج من قدميه، وهو الصهر، ثمَّ يعاد كما كان. وروى الترمذيُّ عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ : «**يسقى من ماء صديد يتجرَّعه، يقرَّب إلى فيه فيكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه، ووقعت عليه فروة رأسه، فإذا شربه قطَّع أمعاءه حتَّى تخرج من دبره، قال الله تعالى: ﴿مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ ويقول: ﴿وَإِنْ يَّسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾**»[1] وقال: **حديث غريب.**

﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَّسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ الذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَيٰهُمْ تَقْوَيٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَاتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَيٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَٰتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَيٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

١- رواه **الترمذي** في كتاب صفة جَهَنَّم (٤) باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، رقم٢٥٨٣. و**التبريزي** في كتاب صفة القيامة (٧) باب صفة النار وأهلها، رقم ٥٦٨٠. من حديث أبي أمامة.

حال المنافقين وحال المؤمنين عند سماع القرآن

﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَّسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ إلى متلوِّك. الإفراد للفظ «مَنْ»، وهم المنافقون كما في الآية الأخرى: «يَسْتَمِعُونَ» [سورة يونس الآية ٤٢] بالواو ومراعاة للمعنى، كما في قوله تعالى: **﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ﴾** يحضرون في المدينة مجلس رسول الله ﷺ يسمعون كلامه بصورة من يعالج السمع للإيمان والعمل، وفي قلوبهم تهاون به **﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ﴾** الصحابة، المؤمنين من قلوبهم وألسنتهم، المراعين لحقِّه **﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾** زمانا قريبا من وقتنا هذا؟ وبتضمُّن هذا المعنى فيه صحَّ أنَّه ظرف، كأنَّه وصف نعت به زمان.

(صرف) وأصله اسم فاعل تغلَّبت عليه الاسمِيَّة، من "استأنف" بوزن استفعل، أو "ائــتــنف" بوزن افتعل، بحذف الزوائد: همزة الوصل والتاء والألف بعدها، إذ لم يسمع له ثلاثيٌّ، وأجاز بعض المحقِّقين كونه من "استأنف" بدون اعتبار حذف الزوائد شذوذا.

(لغة) ومعنى الاستــئناف والائــتناف الابتداء، ويقال: أخذت أنفه، أي: مبتدأه، أي: مقدَّمه حسًّا أو معنى، ومن ذلك سمِّيت الأنف في الوجه. والساعة قبل وقتك متقدِّمة على وقتك، ومن ذلك النوع ما قيل: إنَّه وصف، وإنَّه حال من ضمير «قَالَ»، أي: مبتدأ لوقتنا هذا.

ومراد المنافقين بهذا السؤال نفاق آخر، إذ سمعوا بلا رعاية ولا إيمان، وتصوَّروا للصحابة بعد الخروج بصورة طلب العلم، وفي ضمنه استهزاء، وقيل: مرادهم طلب فهم ما قال ﷺ، لكن لا للإيمان والعمل بل كما يطلب الإنسان معرفة القصص والأخبار.

ومن الذين أوتوا العلم المذكورين في الآية ابن مسعود رضي الله عنه ، وابن عبَّاس رضي الله عنهما، سألهم المنافقون: ماذا قال آنفا ؟. وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: إنَّ بعض الصحابة أخبرني أَنَّك من الذين أوتوا العلم المذكورين في الآية الذين سئلوا، سألوه مع صغر سنِّه، وخاف أن لا يدخل في العلماء المذكورين، ولو سئل فأخبر أَنَّه مراد فيهم فهو مِمَّن أخبر القرآن بأَنَّه من العلماء.

﴿اوْلَئِكَ﴾ المنافقون الموصوفون بما ذكر ﴿الذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أطبق عليها عن الخير فلا يحصل منهم. والحصر إضافيٌّ معتبر فيه من استمع له مراعيا لحقِّه ﴿وَاتَّبَعُواْ أَهْوَآءهُمْ﴾ لا يتركون منه إلاَّ ما لم يجدوه، وأعرضوا عن الحقِّ البَتَّة، وازدادوا بالسمع ضلالا، ألا ترى أنَّ قولهم: «مَاذَا قَالَ ءَانفًا» استهزاء ونفاق ؟ ألا ترى أنَّ حضورهم مع الإنكار بقولهم نفاق ؟ وكلُّ آية نزلت و لم يؤمنوا فعدم إيمانهم بها نفاق، مع ما لهم في ذلك من كلام سوء.

﴿وَالذِينَ اهْتَدَوْاْ﴾ بالاستماع والرعاية ﴿زَادَهُمْ﴾ متلوُّك ﴿هُدًى﴾ عظيما، مفعول ثان. وَمِمَّا غفلوا فيه أن يجعل «الذينَ» من باب الاشتغال بلا دليل ولا داع إليه ﴿وَءَاتَاهُمْ تَقْوٰيهُمْ﴾ الهاء مفعول ثان مقدَّم، و«تقوى» مفعول أوَّل مؤخَّر لأنَّه الفاعل في المعنى، أي: صيَّروا التقوى آتية، بخلاف أعطاهم تقواهم، فإنَّ الهاء مفعول أوَّل لأَنَّه الفاعل في المعنى، أي: صيَّرهم عاطين التقوى، أي: آخذيها.

(أصول الدين) والتقوى: حذر الإنسان مثلا مخالفة الله تعالى في أمره ونهيه، وإيتاؤها خلقها فيه كسائر أفعال العباد، فإنَّها مخلوقة لله تعالى، بأن خلق فيهم قدرة عليها مؤثِّرة فيها، وهذا التأثير مخلوق لله، وصدورها منه مخلوق لله تعالى، ولفاعل التقوى اختيار إذ لا إجبار.

قال بعض الأَشعَرِيَّة: إيتاء التقوى خلقها فيهم، وبعض الأَشعَرِيَّة: إيتاء التقوى خلق القدرة عليها، والقولان أيضا في إيتاء سائر الأفعال، ونقول: القولان لا بدَّ فيهما من عدم القصد إلى الإجبار، ومن عدم استقلال العبد في شيء، فإنَّ كُلَّ شيء مستأنف من الله تعالى.

أو معنى إيتاء التقوى: توفيقهم وإعانتهم، وأمَّا مجرد البيان فلا يَختصُّ بالمؤمنين، أو يقدَّر مضاف، أي: جزاء تقواهم. أو «تَقْوَاهُمْ» مجازا عن لازمها ومسبَّبها، وهو الجزاء. وإيتاء التقوى مقابل لـ«اتَّبَعُوا أَهْوَآءَهُمْ»، وزيادة التقوى مقابل للطبع.

﴿فَهَلْ﴾ عطف قصَّة على أخرى، أو عطف على محذوف، أي: ما لهم داموا على الإصرار فهل...الخ ؟ وإنَّما سمِّيت ذلك الاستفهام قصَّة مع أنَّ القصَّة في الإخبار لأنَّ المراد به النفي. ﴿يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون بتأخير التذكُّر بأحوال الأمم المهلكة قبلهم، مع إقامة الحجج عليهم ﴿إِلاَّ السَّاعَةَ﴾ يوم القيامة ﴿أَن تَاتِيَهُمْ﴾ المصدر منه بدل اشتمال، أي: هل ينظرون إلاَّ إتيان الساعة، وما فيها من عظائم الأهوال ﴿بَغْتَةً﴾ إتيان بغتة، أو باغتة بغتة.

﴿فَقَدْ جَآءَ اشْرَاطُهَا﴾ علاماتها، والمفرد شَرَط، بفتح الشين والراء، تعليل لقرب الساعة، الذي دلَّ عليه ما قبله، وما جاء علامات قرب الساعة لا يعدُّ بعيدا، وقيل: تعليل لانتظار الساعة، وفيه أنَّه لا يسلِّمون أشراطها فكيف يعلَّل بها انتظارهم؟ فيجاب بأنَّ المراد ما بقي لهم لمجيء أشراطها إلاَّ انتظارها لو أثبتوها، وظهور أمارات الشيء سبب لانتظاره.

وقيل: تعليل للبغتة، لكن على معنى: أثبتنا البغتة لمجيء الأشراط كبعث سيِّدنا محمَّد ﷺ ، فإنَّه في الكتب السالفة نبيء آخر الزمان.

وفي حديث البخاري ومسلم والترمذي عن أنس ومثله عن سهل بن سعد أنّه قال رسول الله ﷺ : «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[١] وأشار بالسبَّابة والوسطى تشبيها لقربها بقرب السبَّابة أن تساوي الوسطى طولا. وفي مسند أحمد عن بريدة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بعثت أنا والساعة جميعا وإن كادت لتسبقني**»[٢].

(علامات قرب الساعة) وكانشقاق القمر على عهده ﷺ ، وكالدخان لأهل مكّة على عهده ﷺ ، وكخروج المهدي ويموت سريعا، وقالت الشيعة: يعيش مدَّة صالحة، وكنزول عيسى عليه السلام ، وخروج الدجَّال، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدَّابَّة، وكترؤُّس الحفاة الرعاة، والتطاول في البنيان، وكثرة الغيبة، وأكل الربا، وشرب الخمر، وتعظيم ربِّ المال، وقلَّة الكرام، وكثرة اللئام، والتباهي في المساجد، وَاتِّخَاذها طرقا، وسوء الجوار، وقطع الأرحام، وقلَّة العلم، وأن يوسَّد الأمر إلى غير أهله.

وفي رواية البخاري ومسلم عن أنس عن رسول الله ﷺ : «**بعثت أنا والساعة كهاتين كفضل أحدهما على الأخرى**» وضمَّ السبابة والوسطى، وفي رواية: «**بعثت في نفس الساعة فسبقتها كفضل هذه على الأخرى**»[٣]، والمتبادر وهو المشهور التفاوت في التمثيل في طول الإصبعين، وقيل: في قرب المجاورة.

١-تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٥، ص٢٤٨.

٢-رواه **أحمد** في مسنده، ج٥، ص٣٤٨، رقم ٢٢٩٩٧. وأورده **الألوسي** في تفسيره، مج٩، ص٥٣. وقال: أخرجه أحمد عن بريدة.

٣-رواه **مسلم** في كتاب الفتن وأشراط الساعة (٢٧) باب قرب اساعة رقم ٢٩٥١. **وأبو يعلى** في مسنده كتاب بقية مسند أنس ج٦ ص٢٧ رقم٣٢٦٣. من حديث أنس.

خطب ﷺ حين كادت الشمس تغرب و لم يبق منها إلاَّ شِفٌّ (بكسر الشين وشدِّ الفاء) أي: قليل، قال: «**والذي نفس محمَّد بيده ما مثل ما مضى من الدنيا فيما بقي منها إلاَّ مثل ما مضى من يومكم هذا، فيما بقي منه**»[١]، وفي الترمذيِّ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**بادروا بالأعمال سبعا، فهل ينتظرون إلاَّ فقرا مُنسيًا، أو غنى مُطغيًا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجَّال شرَّ غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمرُّ**»[٢].

وفي البخاري ومسلم عن أنس وأبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**من أشراط الساعة: رفع العلم، وظهور الجهل، وشرب الخمر، وفشوُّ الزنى، وكثرة النساء، وقلَّة الرجال، حتَّى يكون لخمسين امرأة قيِّم واحد، وتقارب الزمان، وظهور الفتن، والشحّ، وكثرة القتل**»[٣]. وقال أعرابي: متى الساعة؟ فقال ﷺ : «**إذا ضيِّعت الأمانة فانتظر الساعة**» فقال: ما إضاعتها؟ قال: «**أن يوسَّد الأمر إلى غير أهله**»[٤].

وينسب إلى السيوطي أنَّه لا تَتِمُّ خمسمائة بعد الألف، ومثله ما في رسالة له: «تقوم الساعة في نحو الألف وخمسمائة»، بنى ذلك على أنَّ مدَّة الدنيا سبعة آلاف سنة وأنَّه ﷺ بعث في آخر الألف السادسة، وأنَّ الدجال يخرج على

١- أورده **الطبراني** في التاريخ: ج١، ص١١. **والهيثمي** في المجمع: ج١٠، ص٣١١. من حديث أبي هريرة.

٢- رواه **الترمذي** في كتاب الفتن (٣٥) باب منه، رقم٢٢٠٦. من حديث أنس.

٣- رواه **البخاري** في كتاب العلم (١٠٩) باب يقلُّ الرجال ويكثر، رقم٤٩٣٣، من حديث أنس مع اختلاف في اللفظ.

٤- رواه **البخاري** في كتاب الرقاق (٣٥) باب رفع الأمانة، رقم٦١٣١، من حديث أبي هريرة.

رأس مائة، ويترل عيسى فيقتله، ويمكث بعده أربعين سنة، وأنَّ الناس يمكثون بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة.

قلت: وقد مضى من البعثة إلى زماننا ألف وثلاثمائة واثنان وعشرون سنة وشهر وأيام سبع[1]، ويتبادر لك اختلال ما ذكر، **ولا يعلم الغيب إلاَّ الله، إلاَّ أنَّ علامات قرب الساعة ظاهرة.**

﴿**فَأَنَّى**﴾ من أين، وهو خبر لـ«ذِكْرَى» ﴿**لَهُمْ**﴾ متعلِّق باستقرار، أنَّى بمعنى أين، أو بـ«أنَّى» لنيابته عن الاستقرار ﴿**إِذَا جَآءَتْهُمْ**﴾ الساعة، وجواب «إِذَا» أغنى عنه جملة «أنَّى لهم ذكراهم» والإضافة في قوله: ﴿**ذِكْرَىٰهُمْ**﴾ للاستحقاق، أي: الذكرى التي من شأنهم أن يحصلوها لوجوبها عليهم، وقيل: «ذِكْرَاهُمْ» فاعل «جَآءَتْ»، أي: أنَّى لهم الخلاص إذا جاءهم الذكرى بما كانوا يخبرون به في الدنيا فينكرونه.

﴿**فَاعْلَمَ اَنَّهُ, لآَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**﴾ إذا علمت أنَّ الأمر كما ذكر، من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء فدم على اعتقاد أنَّه لا إله إلاَّ الله، والعمل بمقضاه، فإنَّ ذلك من موجبات السعادة، كما تقول للجالس: اجلس، تريد أبق جالسا كما أنت، أو زد من ذلك شدَّة عمل واعتقاد وعلم، وقيل: الخطاب لمن يصلح له.

وقيل: معناه: إذا جاءهم فلا مالك إلاَّ الله. وعن أبي العالية وسفيان بن عيينة: إذا جاءهم فلا ملجأ لهم إلاَّ الله عَزَّ وَجَلَّ. وإنَّما أوَّلت الآية بالدوام دفعا لتحصيل الحاصل، لأنَّه ﷺ عالم بالتوحيد عامل به من أوَّل نشأته، وقيل: الدوام على ذلك حاصل له إلاَّ أنَّه أمر به تذكيرا للنعم، ويبحث بأنَّه لم تمض مدَّة

١- يوافق سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م، باعتبار أنَّ التاريخ الهجري يبدأ بعد ٢٣ سنة من بعثته ﷺ. وعمر الْمُؤَلِّف: ٦١ سنة في ذَلِكَ التاريخ.

يصدق بها أنّه دام، فإنّ الدوام هو بتمام عمره، والموعود به للمعصوم يؤمر ذلك المعصوم بالتمسُّك به.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ﴾ ذنبه ﷺ ما هو جائز إلاّ أنّ الأولى تركه، أو ما الأولى الانتقال عنه إلى ما هو أعلى منه، وربَّ شيء حسنة من شخص سيِّئة من آخر، أو مباح لشخصه مكروه لآخر، وجاء: «إنّ حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين».

ويذكر أنّ لنبيئنا ﷺ في كلّ لحظة عروجا إلى مقام أعلى مِمَّا قام فيه، فقد يعدُّ ما عرج منه ذنبا بالنسبة إلى ما عرج إليه فيستغفر منه، وفي ابن ماجه والنسائيِّ والترمذيِّ وأبي داود: «كُنّا نعدُّ لرسول الله ﷺ أنّه يقول في المجلس: "ربِّ اغفر لي وتب عليَّ إنَّك أنت التواب الرحيم" مائة مرَّة»، وفي رواية: «التوَّاب الغفور».

وفي النسائي وابن ماجه عن أبي موسى قال رسول الله ﷺ : «**ما أصبحت غداة قطُّ إلاَّ استغفرت الله فيها مائة مرَّة**»[1]. وروى مسلم وأبو داود والنسائيُّ وغيرهم عن الأغرِّ المزنيّ عنه ﷺ : «**إنّه ليغان على قلبي، وإنِّي لأستغفر الله كلّ يوم مائة مرَّة**»[2] ومعنى الغين على قلبه ﷺ التغطية عليه بالفترة عن العبادة للعياء بها، أو بغيرها، أو بالاقتصار على الشيء عَمَّا هو أولى منه، أو وسوسة الشيطان له بما جزم بانتفائه، أو ذلك اشتغاله بالحزن لأحوال

١-أورده **الألوسي** في تفسيره مج٩ ص٥٥. وقال: أخرجه النسائي وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري.

٢-رواه **البيهقي** في شعب الإيمان (٤٧) باب في معالجة كُلِّ ذنب بالتوبة، ج٥، ص٣٨٠ رقم٧٠٢٣. وراه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، رقم ١٥١٥. من حديث الأغرِّ المزنيّ.

أمَّته بعده حتَّى كان يستغفر لهم مزيد استغفار، أو باشتغاله في النظر في أمور المؤمنين ومصالحهم، وذلك عبادة، لَكِنَّ حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين، وشبَّه الهمَّ في ذلك كلِّه بالغين الذي هو السحاب الرقيق.

أو ذلك الاستغفار نتيجة السكينة، وإظهار للعبوديَّة لله تعالى، وإظهار للافتقار إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ، أو ذلك فترته التي من شأن البشر عن بعض ما كان يشتدُّ فيه، وقيل: يحتمل أنَّ الغين حالة حسنة يستغفر شكرا [كما قال عليه السلام :] «أفلا أكون عبدا شكورا ؟ » .

فإذا كان يستغفر فأمره بالاستغفار أمر بالثبات عليه، أو بالزيادة، أو كناية عَمَّا يلزمه من الدوام على التواضع، أو توطئة لما بعده من الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات، على حذف مضاف، أي: ولذنوب المؤمنين والمؤمنات، أو عبَّر عن التواضع بالاستغفار للمشاكلة. وفصل بلام الجرِّ للفرق بين ذنبه وذنب المؤمنين والمؤمنات، وفي حذف المضاف تلويح إلى كثرة ذنوبهم وعظمها كأنَّ نفس أبدانهم ذنوب.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ذكر علمه تعالى تحذيرا من عقابه وترغيبا في الامتثال ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ مصدر ميميٌّ بمعنى التقلُّب ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ اسم مكان الرجوع، أو مكان الإقامة، أو مصدر ميميٌّ بمعنى الرجوع أو الإقامة، والمراد: حركاتكم في الدنيا لتجركم ومصالحكم، وانتقالكم إلى الآخرة بمضيِّ الأزمان، وانتقالكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأُمَّهَات، يعلم الله ذلك ومواضعه ورجوعكم إلى الآخرة والقبر وإقامتكم فيهما، ومنامكم ومستقرَّكم في الدنيا، على أنَّ كلاًّ من التقلُّب والمثوى في الدنيا.

(بلاغة) وفي ذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز، واستعمال المشترك في معنييه، ويتخلَّص عن ذلك باستعمال اللفظين في المعنيين المتقابلين، أو

«مُتَقَلَّبَكُمْ» نهارا في شغلكم و«مَثْوَاكُمْ» ليلا، أو «مُتَقَلَّبَكُمْ» في الدنيا و«مَثْوَاكُمْ» في النار أو الجنَّة أو إليهما.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾

حال المنافقين والمؤمنين عند نزول الآيات العمليَّة امتحانا لهم

﴿وَيَقُولُ الذِينَ ءَامَنُوا﴾ في إخلاص وصدق ورغبة في ثواب الجهاد ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ﴾ صورة تحضيض على الإنزال ﴿سُورَةٌ﴾ يؤمر فيها بالجهاد. ولا حاجة إلى جعل «لَوْ» شرطا و«لاَ» زائدا وتقدير جواب، أي: لخلصنا، ولا دليل على ذلك، وإذا كان الداعي إليه أنَّ الله لا يناله تحضيض فقد علمت أنَّ ذلك لفظه لا حقيقته، وإنَّما المراد: الطلب برغبة شديدة.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ لا إشكال في معناها أو لا تُنسخ، ولا قتال في القرآن منسوخ، وقيل: محكمة بالحلال والحرام ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ على طريق الإيجاب ﴿رَأَيْتَ الذِينَ فِي قُلُوبِهِم﴾ هم غير الذين آمنوا المذكورين وإنَّما هم المنافقون ﴿مَّرَضٌ﴾ اعتقادُ شرك، شبيهٌ بالمرض، وهم المنافقون بإضمار الشرك، فالمؤمنون يحِبُّون الجهاد والمنافقون يكرهونه، وهو أَشَدُّ القرآن عليهم.

ويجوز أن يراد بـ«الذِينَ ءَامَنُوا» الذين آمنوا في الظاهر وأشركوا في الباطن، وهم المنافقون الذين في قلوبهم مرض، فمقتضى الظاهر: رأيتهم بالإضمار، ولكن أظهر ليصفهم بمرض القلب.

وقيل: ﴿الذِينَ ءَامَنُواْ﴾: في إخلاص وصدق، و﴿الذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من ضعف إيمانهم، فيجوز أن يراد به الذين آمنوا، فأظهر لما مرَّ، ولو أريد بـ«الذِينَ ءَامَنُوا» المخلصون وأنَّهم الموصوفون بالمرض حادثًا فيهم ـ كماقيل ـ لقيل: رأيتهم، وقد مرضت قلوبهم ينظرون...إلخ.

﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ اَلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ «عَلَيْهِ» نائب فاعل اسم المفعول، وهو «المغشيُّ» أصله مغشويٌ مثل مضروب قلبت الواو ياءً وأدغمت في الياء، والضمَّة كسرة. و«مِنْ» للتعليل. والغشاوة: ما يغشى العقل من ضعف الحادث، والمراد: نظر الذي حضره الموت لا ينقل بصره إلى موضع آخر، وذلك لجبنهم، أو شدَّة عداوتهم له ﷺ، أو لخوف أن يظهر نفاقهم للناس إن لم يحضروا القتال.

(نحو) ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ «أَوْلَى» اسم تفضيل بمعنى أحسن، و«لَهُمْ» متعلّقٌ به، وخبره «طَاعَةٌ»، أو «طَاعَةٌ» مبتدأ ولو نكرةً لعطف النكرة الموصوفة عليه، و«أَوْلَى» خبر، أي: أولى من النظر إليك طاعة...إلخ، أو المعنى: العقاب أحقُّ بهم، فحذف المبتدأ.

ويجوز أن يكون من باب قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ...﴾ (سورة القيامة: ٣٦) ، من الوَلْي (بإسكان اللام) بمعنى القرب، وهو اسم تفضيل يستعمل في معنى قرب الهلاك، فيكون صفة لمصدر محذوف أقيمت مقامه، و«لَهُمْ» متعلّق به، يقال: أولى له، قارَبه ما يهلكه. وقيل: هو فعل من هذا المعنى، وفيه ضمير الهلاك. وقيل: ضمير الله، واللام صلة في المفعول به، أي:

أَوْلَاهُم اللّٰهُ العذاب أو ما يكرهون، أو غير صلة، أي: أدنى الله الهلاك لهم. وقيل: اسم فعل بمعنى وليهم شرٌّ بعد شرٍّ، واللام للتقوية. وقيل: وزنه "فَعْلَى" من آل بمعنى رجع، على صورة الدعاء برجوع أمرهم إلى الهلاك، و«لَهُمْ» خبره.

وقال الرضي: عَلَم للشرِّ، و«لَهُمْ» خبره على أنَّه صفة مشبَّهة، كأرمل وأرملة، كما سمع: "أولاة" بزيادة تاء التأنيث، و«طَاعَةٌ» خبر لمحذوف، أي: أمرنا طاعة، أو مبتدأ لمحذوف، أي: طاعة وقول معروف خيرٌ لهم، أي: الصوابُ أن يقولوا ذلك.

والقول المعروف: ما وافق الشرع، وقيل: معروفٌ أنَّه خداع منهم، أي: قول حقٍّ إلاَّ أنهم قالوه خداعًا، وقرئ: «يقولون طاعة وقول معروف» وهذه القراءة تدلُّ على أنَّه من كلامهم الذي قالوه قبل الأمر بالجهاد.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الاَمْرُ﴾ اشتدَّ الأمر، وهو واحد الأمور، والمراد: أمر القتال، أو ضدُّ النهي، والإسناد مجاز عقليٌّ، فإنَّ العازم الإنسان لا الأمر، كقوله: قد جدَّت الحربُ بِكُم فجدُّوا.

﴿فَلَوْ صَدَقُواْ اللّٰهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ المجموع جواب «إِذَا»، وقيل: جوابها محذوف، أي: كرهوا، وقيل: فاصدق يا محمَّد أو يا من يصلح للصدق.

والمعنى: لو عاملوا الله بالصدق في دعوى الإيمان ودعوى الحرص في الجهاد وقولهم: «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ»، لكان الصِّدْق خيرًا لهم، أي: نفعًا لهم، بخلاف ما هم عليه، فإنَّه مضرَّة عليهم، أو كان الصدق أفضل لهم مِمَّا يدَّعون فيه خلاصًا وهو فساد.

﴿فَهَلْ عَسِيتُمُ﴾ خطاب للذين في قلوبهم مرض، على طريق الالتفات من

الغيبة إلى الخطاب زيادة في توبيخهم، والاستفهام والترجّي مصروفان إلى غير الله، أي: هل يتقرَّب بكم وينتظر، وقيل: يفعل بكم فعل المترجّي المبتلى، وقيل: المعنى من ينظر إليهم يتوقّع بهم ذلك، وهذا كما قيل: إنّكم أحِقّاء بأن يقول لكم من عرف أحوالكم: «فَهَلْ عَسِيتُم...»إلخ.

و«عسى» إنشاء، والاستفهام إنشاء، ولا يتسلّط إنشاء على إنشاء، فَلاَ بُدَّ من تأويل «عسى» بالإخبار، مثل: هل يتقرَّب بكم، أو هل تنظرون.

﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أمور الناس بأن صرتُم وُلاَةً عليهم، أو يقدَّر: تولّيتم على الناس ﴿أَن تُفْسِدُواْ فِي الاَرْضِ وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ﴾ هذا خبر «عسى»، وهي وما دخلت عليه مستغنً بهما عن جواب «إِنْ»، والمستفهِمُ والمتوقّع غير الله من الخلق، مِمَّن يقف على أحوالهم الدَّالّة على الحرص على حبِّ الدنيا، إذ كرهوا الجهاد والحقَّ وأمر الشرع، فإنَّ ذلك يتوقّع منه الإفساد في الأرض بالظلم، والكبر وقطع رحم من خالفكم على ذلك من المسلمين.

وفسَّر بعضهم التولّي بالإعراض عن الإسلام إلى أمر الجَاهليَّة، من الإفساد في الأرض بالنهب للأموال، وقطع الأرحام، ووأْدِ البنات، ورُدَّ بأنَّ الواقع شرطا في مثل هذا المقام لا يكون مِمَّا يحذر لذاته، بل لما يتبعه من المفاسد، مثل: «لعلّك إن أعطيت مالا واسعا تطغى به»، والإعراض عن الإسلام يحذر بالذات.

ويؤيِّد ما مرَّ قراءة «وُلِّيتُم» بالبناء للمفعول، أي: جُعلتم ولاة، وقراءة: «تُوُلِّيتُم» بالبناء للمفعول، أي: تولاّكم الناس وأجمعوا على موالاتكم، وقيل: في تفسير هذه القراءة الآخرة تولاكم ولاة غشمة تتبعوهم فيما يفعلون من السوءِ.

ويضعف تفسير بعضهم التولّي في قراءة الجمهور بالإعراض عن امتثال

الشرع في القتال، والإفساد بعدم إعانة أهل الإسلام، وبتقطيع أرحام المسلمين على إسلامهم، لأنّ الظاهر من الافساد إنشاؤه، لا مجرَّد عدم إعانة المسلمين، ولا مجرَّد حصول التقطيع بترك الإعانة، ولأنّ الإفساد بذلك المعنى محقّق فلو أريد لجيء بإذا لا بـ«إنْ».

﴿أوْلَئِكَ﴾ الأراذل المخاطبون قبل هذا، الذين ترك خطابهم ــ ولو بالتوبيخ ــ إلى الغيبة إيذانًا بأنّ قبائحهم أوجبت ترك خطابهم ﴿الذينَ لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ أبعدهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحقِّ لسوء اختيارهم ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَارَهُمُ,﴾ أبصار القلوب عمَّا يشاهدون من الآيات، والدلائل النفسيَّة والأفقيَّة.

(بلاغة) ولم يقل: أصمَّ آذانهم، كما قال: ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَارَهُم﴾، ولم يقل: أعماهم كما قال: ﴿أَصَمَّهُمْ﴾ لأنّ الآذان لو أصيبت بقطع أو قلع لم ينقطع السمع، فلم يحتج الكلام إلى ذكر الآذان، والبصرُ وهو العين المعبَّر بها عن بصر القلب لو أصيب لم يكن النظر، فَلِلْعَين مدخل في الإبصار، ولا مدخل للأذن في السمع، ويبحث بأنّ المراد بالأذن موضع السمع منه، ولو قطع لامتنع السمع، وبالبصر موضع الإبصار منه، ولو أصيب لامتنع الإبصار.

وقيل: العمى حقيقة في بصر الوجه، وظهور إصمامهم في أمر القتال أشدُّ من ظهور عماهم فيه، فكفى شدَّة ظهوره فيه عن ذكر الأذن، وفي الآيات السابقة ما يؤذن بعدم انتفاعهم بالمسموع، وهو الآيات المتلوَّة، وليس فيها ما يؤذن بعدم انتفاعهم بالدلائل المبصرة في النفوس والآفاق.

(لغة) والرحم موضع الجنين من المرأة، سمي به القرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة، ويقال أيضا: ذو رحم وذوو رحم، ويقال: أرحام وذُوو أرحام، ذكر بعض أنّ الرحم كلّ من يجمع بينك وبينه نسب، ويطلق في الفرائض على الأقارب من جهة النساء، ويطلق أيضًا على كلِّ قريب ليس بذي سهم ولا

عصوبة، وعدُّوا من ذلك أولاد الأخوات لأبوين، أو لأب، وعمَّات الآباء.

(فقه) وقوله ﷺ : «**من ملك ذا رحم محرمٍ عتق به**» شامل للأبوين والأجداد والأبناء وأبنائهم، ويعتقون إجماعًا للحديث المذكور، واختلفوا في غيرهم، والمذهب العتق، وذكر ابن حجر أنَّ الأولاد من الأرحام.

(فقه) وعطفُ الأقربين على الوالدين [في سورة البقرة آية ١٨٠] يقتضي عدم دخولهما في الأقارب، فلا يدخلون في الأرحام، وحقُّهما واجبٌ إجماعًا، ومذهب الْحَنَفِيَّة أنَّ الوالدين والأولاد لا يدخلون في القرابة والأرحام، فلو أوصى للأقارب أو للأرحام لم يدخلوا، ودخل غيرهم الأقرب فالأقرب، ولكلٍّ مقام استعمال، فمن عبارة المذهب قول أصحابنا في حقوق القرابة: الأرحام أو القرابة إلى أربعة آباء، وقيل: صحَّح بعض الْحَنَفِيَّة دخولهم، وعلَّل عدم الدخول بأنَّ القريب من يتقرَّب إلى غيره بواسطة غيره، وتكون الجزئية بينهما منعدمة.

وأدخل محمَّد صاحبُ أبي حنيفة الجدَّ وولد الولد، وهو ظاهر أبي حنيفة وأبي يوسف صاحبه، وذكر أنَّ الجدَّة كالجدِّ.

وقد يقال: عدم دخول الوالدين والولد للعرف لا للغة، وكذا الجدُّ والجدَّة، على القول بعدم دخولهما، وَالحَنَفِيَّة يجرون على العرف في الوَصِيَّة، وكذا في **المذهب أنَّ الوصية تجري على العرف**.

وفي الخبر: من سمَّى والده قريبًا عقَّه، فنقول ذلك لشعوره بالحطِّ لا للغة، كما لا ينادى باسمه، وأمَّا عطف «الأقربين» على «الوالدين» فتعميم بعد تخصيص في قول الدخول، واختار بعض المحقِّقين أنَّ القرابة غير الأجانب، فيدخل الفروع والأصول والحواشي من قبل الأب، أو من قبل الأمِّ.

(فقه) وقطع الرحم كبيرة فسق وكفر، دون شرك، والعجب مِمَّن

توقَّف في كونه كبيرة كالرافعي[1] والنووي بعده من الشَّافعيَّة، والمذهب: لزوم لعن المخصوص.

قال بريدة: كنت جالسًا عند عمر إذ سمع صائحًا فسأل؟ فقيل : جارية من قريش تباع أمُّها، فدعى المهاجرين والأنصار فامتلأت الدار والحجرة بغتة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: «أَمَّا بعد، فهل تعلمون ممَّا جاء به محمَّد ﷺ قطع الرحم؟» قالوا: لا، قال : قد فشت فيكم وقرأ: ﴿فَهَلْ عَسِيتُم,...﴾، وأيُّ قطيعة أقطع من أن تُباع أمٌّ امرئ فيكم، قالوا: فاصنع ما بدا لك، فكتب في الآفاق أن لا تباع أمُّ حرٍّ فإنَّه قطيعة رحم، وأنَّه لا يحلّ.

وزعم جمهور قومنا أنَّه لا يلعن الشخص المعيَّن ولو مشركا، إلاَّ إن نصَّ عليه في القرآن، إذ لا يدرى بم يختم له، [قلت:] وهو خطأٌ واعتبارٌ للغيب وتركٌ للظاهر بلا دليل، وتركٌ للحديث، مثل قوله ﷺ : «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان، لعنتها الملائكة حتَّى تصبح**»[2] وأيضًا معنى لعن الشخص الدعاء عليه لا الإخبار.

وروى مسلم أنَّه ﷺ مرَّ بحمار وسم في وجهه فقال: «**لعن الله من فعل هذا**»[3]، ودعوى أنَّه عالم بشقوته تكلُّف، وأيضا كثرت أحاديث: لعن الله من

١-هو عبد الكريم بن محمَّد بن عبد الكريم الرافعي نسبة إلى رافع بن خديج الصحابي القزويني، فقيه من كبار الشَّافعيَّة، ولد سنة ٥٥٧هـ كان له مجلس بقزوين للتفسير والحديث، وله كتاب المحرَّر في الفقه وغيره، تُوُفِّيَ سنة ٦٢٣هـ. الزركلي، ج٤، ص٥٥.

٢-رواه **البيهقي** (الكبرى) في كتاب القسم والنشوز (٢) باب ما جاء في بيان حقِّه [الزوج] عليها، رقم ١٤٧٠٨. **والتبريزي** في كتاب النكاح (١٠) باب عشرة النساء وما لكلٍّ واحدة من الحقوق، رقم٣٢٤٦، من حديث أبي هريرة.

٣-رواه **مسلم** في كتاب اللباس (٢٩) باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه، رقم١٠٧. **والتبريزي** في كتاب الصيد والذبائح، رقم٤٠٧٨. من حديث جابر.

فعل كذا...، ولا خصوص فيه بالشقوة فقد يتوب الفاعل ولا يناله الدعاء، قال ﷺ: «**ستَّة لعنهم الله، وكلُّ نبيء مجاب الدعوة: المحرِّف لكتاب الله، والمكذِّب بقدر الله، والمتسلِّط بالجبروت ليعزَّ من أذلَّ الله ويذلَّ من أعزَّ الله، والمستحلِّ من عترتي، والتارك لسنَّتي، والمستحلُّ لحرم الله**»[1] وأشار بالمستحلِّ من عترتي إلى نحو يزيد القاتل للحسين بن عليٍّ.

﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ**﴾ أكلِّفوا بالتدبُّر في أمر الدين فلا يتدبَّرون القرآن، فيتَّعظون به، فينجوا من الهلاك؟ والتدبُّر فيه يحصل بحضور القلب، وتقليل الأكل من الحلال، وخلوص النية ﴿**أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ**﴾ معلوم أنَّ المراد بـ«قُلُوبٍ» قلوبهم، ولكن نكَّرها لعظمها في القسوة عظمة لا يعلم قدرها إلاَّ الله.

ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ التنكير للتبعيض أو للتنويع، وإنَّ المراد المنافقون، إذ لا يوبَّخ غير القاسي بقسوة القاسي، ولا يوبَّخ القاسي بقسوة قاسٍ آخر، وكذا التقرير، فالكلام في: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ...﴾ لمن الكلام له في ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ...﴾.

و«أَمْ» منقطعة، أي: بل أعلى قلوب؟ أو بل على قلوب، وقيل: متَّصلة اكتفاء بالاستفهام المذكور، ولو أُدْخل على محذوف، أي: أفلا يتدبَّرون القرآن إذا وصل إلى قلوبهم أم لا يصل إليها؟ فإنَّ قوله: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ بمنزلة أن يقال: أم لم يصلها لغطاء عليها؟.

وإضافة الأقفال إليها للدَّلالة على أنَّها أقفال مخصوصة بها، مناسبة لها. وعن عروة بن الزبير: تلا رسول الله ﷺ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ

١- أورده **المنذري** في المجمع: ج١، ص١٧٦ ص٢٠٧. من حديث أبي هريرة.

﴿أَقۡفَالُهَآ﴾ فقال شابٌّ من أهل اليمن: بل على قلوب أقفالها، حتَّى يكون الله يفتحها أو يفرجها، فما زال الشاب في نفس عمر حتَّى ولِّي فاستعان به، والحديث مرسل سقط فيه الصحابي، لأنَّ الصحيح أنَّ عروة من التابعين لم يدرك النبيء ﷺ، إذ ولد عام اثنين وعشرين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾﴾

حال المنافقين بعد ردَّتهم وعند قبض أرواحهم والتذكير بحكمة الجهاد

﴿إِنَّ الذينَ ارْتَدُّوا﴾ ردَّهم الشيطان وأنفسهم إلى الشرك والمعاصي، فطاوعوا ورجعوا إلى ما كانوا عليه كما قال: **﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِهم﴾** فإنَّ الشرك والمعصية ممَّا يستخبث، ويعرض عنه، ويلقى وراء الظهر، **﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾** بالقرآن وسائر المعجزات.

قال ابن عبَّاس والضحَّاك والسدِّي: نزلت في قوم أسلموا بلا نفاق، ثمَّ نافقت قلوبهم، ولو كانوا من أوَّل على النفاق لم يطلق عليهم الارتداد، ولا يقال: ارتدُّوا

إلى الإظهار، لأنَّهم لا يظهرون بل ينافقون إلاَّ فيما بينهم. وقال بعض العلماء: المراد المنافقون الموصوفون بمرض القلوب، وقبائح الأحوال فيما مرَّ.

[قلت:] ولا ينبغي قول عالم في التفسير مع الرواية عن ابن عبَّاس إذا صحَّت، إلاَّ لدليل قويٍّ، وقد سُمِّيَ "ترجمان القرآن".

وعن قتادة: المراد اليهود والنصارى، ارتدُّوا عن الإيمان بآيات التوراة والإنجيل المثبتة لرسالة سَـيِّدنَا محمَّد ﷺ، بعد إرساله. وعن ابن جريج: المراد اليهود ارتدُّوا بعد رسالته ﷺ بما آمنوا به قبلها من آيات التوراة الدَّالَّة عليها، ويحتمل إرادة المنافقين واليهود والنصارى، والمتبادر الأوَّل.

قلت: أو المراد كلُّ مشرك أدرك الحقَّ وكفر عنادًا، فإدراكه كالإيمان والإعراض عمَّا أدرك كالرِّدة.

﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ الشيطان جنس الشياطين، أو إبليس، لأنَّ كلَّ ما فعل الشياطين فقد ارتضاه، وأمرهم به في الإجمال. و«سَوَّلَ» من السَّوَل (بفتح السين والواو) مصحَّحا معتلاً غير معلٍّ، وهو التسهيل، وأصله الاسترخاء، استعير للتسهيل، والتشديد للتعدية، أي: عدَّه لهم سهلاً لا يبالي به.

(صرف) وقيل: من السوْل بمعنى التمنِّي، أي: حملهم على سوْلهم، أي: متمنَّاهم، فالتشديد للحمل على معنى المصدر، مثل غرَّبه إذا حمله على الغربة، وهو من معاني "فعَّل" بالشدِّ، كما بسطته في "شرح لامية الأفعال". وحملوا السوْل على معنى المسؤول، ولا يعترض بأنَّ السوْل بمعنى التمنِّي مهموز، لأنَّا نقول: أخذ منه «سَوَّلَ» بالشدِّ على لفظه، من قلب الهمزة فيه واوًا لا من المشهور فيه، وهو إبقاء الهمزة بل قد يقال من المهموز المسهّل الهمزة إلى الواو، وحقِّقت الواو تخفيفًا، والتزم ذلك كما يلتزم القلب، ويلغي الأصل في ألفاظ مقصورة على السماع، كـ "تديَّر" بمعنى: اتَّخَذَ دارًا، أخذ من لفظ ديار جمع

دار، وألِفُ دار عن واو، وتحيُّزًا أخذ من الحيز، ومن الحوز، وواويُّ العين، وقد سمع «يتساولان» بالواو، بمعنى كلٌّ واحد يتمنَّى من الآخر، **وما تقدَّم أولى لخلوِّه عن التكلُّف.**

﴿**وَأَمْلَىٰ لَهُمْ**﴾ بسط الشيطان لهم في تمنِّي كثرة ما يشتهون، وطول البقاء فيه مدَّةً طويلة، وأصل الإملاء: الإبقاء مُلاوة، أي: مدة من الدهر، والمراد طويلة، وقيل: وعدهم بالبقاء الطويل، وعلى كلٍّ حال شغَلَ بذلك قلوبهم عن الإيمان بجوارحهم عن العمل، وسمَّى ذلك إملاءً، أي: تأخيرًا على التجوُّز، والمملِي حقيقة هو الله تعالى.

وقيل: الضمير لله، وفيه تفكيك الضمائر، ولكن يتقوَّى بقراءة الأعمش بضمِّ الهمزة وكسر اللام بعده ياء ساكنة، وأصلها الضمُّ، وهو فعل مضارع، وهو لله تعالى بهمزة التكلُّم بمعنى الإمهال لهم.

وقد يقال بأنَّه ماضٍ مبنيٌّ للمفعول، سُكِّن آخرُه تخفيفًا كما يقال في رضي بفتح الياء رضي بإسكانها، ويناسبه قراءة أبي عمرو وغيره بالبناء للمفعول مفتوح الياء. والمملي الشيطان، أو الله ﷻ، على ما مرَّ من التفسير، ويجوز أن يكون أمهل الله لهم الشيطان بجعله من المنظرين.

.﴿**ذَٰلِكَ**﴾ الارتداد إلى ما كانوا عليه، وقيل: ذلك الإملاء، وقيل: ذلك التسويل، ويردُّ القولين أنَّ التسويل والإملاء ليس أحدهما مسبَّبا عن قولهم «سَنُطِيعُكُمْ...» بخلاف الارتداد فإنَّه مسبَّب عنه، كما أفادته باء السببيَّة في قوله تعالى: ﴿**بِأَنَّهُمْ**﴾ أي: المنافقين ﴿**قَالُواْ لِلذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ اللهُ**﴾ هم قريظة والنضير من اليهود الكارهين ما أنزل الله تعالى من القرآن، حسدًا له ﷺ، وطمعًا في أن ينزل على أحدهم بعد أن وجدوا نعته الشريف في كتبهم، وقد عرفوه كما عرفوا أبناءهم.

﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾ «ال» للجنس، أي: في بعض أموركم، وهو الخروج وعدم إطاعتهم لغيرهم، ونصرهم في القتال إن ملككم محمَّدٌ أو غيره، كما قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ...﴾ (سورة الحشر: ١١) ، وقيل: القائلون اليهود، و«الذِينَ كَرِهُوا»: المنافقون، يَعِدُون المنافقين بالنصرة إن أعلنُوا بِعَدَاوَته ﷺ .

وقيل: القائلون اليهود، و«الذِينَ كَرِهُوا» المشركون، يَعِدُ اليهود المشركين بالنصرة إن قاتلوه ﷺ ، ويردُّ القولين أنَّ كفر اليهود ليس بسبب قول: «سَنُطِيعُكُمْ»، ولو فرض صدوره عنهم بل لإنكارهم رسالته ﷺ ، وبهذا أيضًا يردُّ عَلى من قال: القائلون اليهود والمنافقون، والكارهون المشركون.

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ﴾ جمع سرٍّ، بمعنى مسرور، أي: ما يقول المنافقون لليهود أو اليهود لهم، أو المنافقون للمشركين أو لهم ولليهود، أو المنافقُون واليهود للمشركين، **والأوَّل أولى، كما هو الصحيح في تفسير ما قبلُ**، ولأنَّ المعروفين بالإسرار هم المنافقون.

أو المراد بالإسرار ما يشمل كلَّ قبيح، فيدخل ما مرَّ أوَّلاً وبالذَّات، وقيل: «أَسْرَارهُمْ»: ما عرفوه في قلوبهم من رسالته ﷺ ، وأنكروها بألسنتهم، وهذا معروف في اليهود، وهذا القول لا يتبادر.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلآئِكَةُ﴾ الفاء للترتيب والعطف على محذوف ناصب لـــ«كَيْفَ» و«إِذَا» الخارجة عن الشرطيَّة، أي: يفعلون ما يفعلون في حياتهم من الحيل، فكيف يفعلون إذا توفَّتهم الملائكة ملك الموت وأعوانه؟ وإن قدَّرنا: هذه حالهم قبل الموت فكيف حالهم إذا توفَّتهم؟ كان من عطف جملة اسْمِيَّة على جملة اسْمِيَّة محذوفة، فينصب «إِذَا» بحالهم، لأنَّه بمعنى مفعولهم، أو قدِّر: هذا مفعولهم قبل الموت فكيف مفعولهم بعد الموت؟.

ويجوز أن يكون المراد حال التوفِّي وما بعده تابع له. وقد تخرج «إِذَا» عن الظرفيَّة فيصحُّ أنَّها مبتدأ، و«كَيْفَ» خبر، أي: هذا زمانهم فكيف وقت توفِّيهم؟ وذلك خلاف الأصل، والحذف أولى منه، وقيل: توفِّيهم سوقهم إلى النار يوم القيامة كاملاً عددُهم. و«الْمَلاَئِكَةُ» ملائكة العذاب، وقيل: قتلهم بحساب ما يقتل يوم بدر، وتضرب وجوههم إن ثبتوا، وأدبارهم إن هربوا نصرة للمؤمنين، والقولان ضعيفان.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ قدَّامهم ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ خلفهم، أو أدبارهم أستاههم ووجوههم، الوجه في الرأس، أوقعهم الله عَزَّ وَجَلَّ على حال يخافون القتال بها، وهو ضرب قدَّامهم وخلفهم فيه، وهذا الضرب يوم القيامة، وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «لا يموت أحد على معصية إلاَّ ضربت الملائكة وجهه ودبره».

﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفِّي البعيد في شأن ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ بسبب أنَّهم ﴿اتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ من الشرك وما دونه، وترك الجهاد مع رسول الله ﷺ ﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُۥ﴾ ما يرضاه من الإيمان والطاعة، حتَّى ارتدُّوا وعاقدوا اليهود أو المشركين أو كليهما على مضرَّتك. وإن فسَّرنا ما مرَّ باليهود فـ«مَا أَسْخَطَ اللَّهَ» كَتْمُ نَعْتِ رسول الله ﷺ بالرسالة في التوراة، ورضوانه إظهار نعته بالرسالة في التوراة، **ومرَّ ردُّه.**

(بلاغة) واتِّباع ما أسخط الله مقتض للتوجُّه، فقوبل بضَرب الوجه، وكراهة رضوانه مقتض للإعراض فقوبل بضرب الدبر.

﴿فَأَحْبَطَ﴾ أبطل لداع الاتِّباع والكراهة ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: التي عملوا في حال الإيمان قبل الردَّة، وبعدها من الحسنات.

﴿أَمْ حَسِبَ﴾ بل أحسب أو بل حسب ﴿الذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾

المنافقون ﴿ان﴾ أنَّه، أي: الشأن ﴿لَّنْ يُّخْرِجَ اللهُ﴾ يظهر للنبيء ﷺ وللمؤمنين ﴿أَضْغَانَهُمْ﴾ أحقادهم مطلقا، أو الضغن الحقد الشديد، وقيل: الضغن العداوة، وهو في معنى الحقد. وعن ابن عبَّاس: الحسد. قيل: أصله من ضغن الدَّابَّة وهو اعوجاج في قوائم الدَّابَّة، كقوله: «كذات الضغن تمشي في الرقاق».

أو في الرمح، كقوله:

إنَّ قناتي من صليبات القنى   ما زادها التثقيف إلاَّ ضغنا[1]

ووجه شبه الحقد بذلك الاعوجاج شدَّة التمسُّك، وعسر الزوال، كما هو شأن ما التوى.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ إراءتك إيَّاهُم، ضمير العظمة هنا وفيما بعد على طريق العناية بالإراءة، وكأنَّه وعده الإراءة، وإلاَّ فـ«لَوْ» للامتناع، ويدلُّ على الوعد قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فعن أنس ما خفي عنه لحن منهم بعد نزول ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ وعرفهم بسيماهم أيضا ﴿لأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ عرَّفناكهم، أو أريناكهم بعينيك.

﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ الفاء للعطف والتفريع، واللام صحَّت لأجل العطف على جواب «لَوْ» المقرون باللام، كرِّرت للتأكيد، وكأنَّها في جواب «لَوْ»، لأنَّ المعطوف على الجواب جواب.

والإراءة بمعنى التعريف، ولا يلزم في الجملة من التعريف حصول المعرفة، فقد يكون منك تعريف لأحد بشيء ولا يعرفه ولا يفيده تعريفك، فزاد الله تعالى قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُم﴾، فلو شاء الله تعالى لم يعرفهم ولو جعل لهم سيما

١- أورده صاحب اللسان بلا نسبة، ج٨، ص٦٩. مادة «ضغن».

﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ علاماهم، والمراد الجنس إضافتها للجنس، وكأنَّه قيل: بعلامات نسمهم بها، وأفردت إشارة إلى أنّ علاماهم متَّحدة الجنس، كأنَّها شيء واحد.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ فوالله لتعرفنَّهم، والقسم وجوابه جملة إنشائيَّة معطوفة على خبريَّة، هي لو وشرطها وجوابها **﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾** الإضافة للجنس، وكأنَّه قيل: في طرف القول إذا جاءوك بواحد فهمته.

(لغة) أو لحن القول: الطريق المائلة عن الطريق المعروفة، كالتعريض والكناية والإبهام المائلات عن التصريح، كما يسمَّى الخطأ في النطق من حيث الإعراب لحنا، لأنَّه عدول عن الصواب، تقول: لحنت له إذا قلت له قولا يفهمه عنك، ويخفى عن غيره، لنحو البلاغة في العبارة، كما قال ﷺ : «**لعلَّ بعضكم ألحن بحجَّته من بعض**»[1].

وقيل: «لحن القول» هنا الذهاب عن الحقِّ. ويقرب منه قول ابن عبَّاس: اللحن هنا قولهم: ما لنا من الثواب إن أطعنا، ولا يقولون ما علينا من العقاب إن عصينا، والصواب أن يقولوه، ولم يقولوه لشدَّة رغبتهم في ما ينفعهم من الخيرات، ولكثرة ما يذكر من عقابهم في القرآن، وقلَّة ما يصرَّح له به: لكم كذا إن فعلتم كذا.

وتفسير اللحن بالميل أولى، وهو الأكثر في الكلام، كما فسَّرتُ به أوَّلاً، كما قيل: إنَّهم يصطلحون على ألفاظ يخاطبون بها النبيء ﷺ ممَّا ظاهره حسن غير مراد، بل أرادوا قبحا، أو غيره ممَّا ليس حسنا، ومن ذلك قولهم إذا دعوا إلى النصر: إنا معكم، فيريدوا: إنَّا معكم الساعة، أو في المدينة، أو معكم في

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج١، ص٤٠٧.

القتال بلا إعانة.

والسيمة: بالكتابة، قال أنس: كُـنَّا في غزوة ومعنا تسعة من المنافقين يشكوهم الناس، فأصبحوا وفي وجه كلّ واحد مكتوبا: هذا منافق.

ولا تختصُّ السيماء في الآية بالكتابة، بل تعمُّ كلَّ ما يعلم به في أحواله. وفي حديث مرفوع: «**اتَّقوا فراسة المؤمن فإنَّه بنور الله يبصر**»[1]، ولفظ البخاري والترمذي عن أبي سعيد: «**اتَّقوا فراسة المؤمن فإنَّه ينظر بنور الله عزَّ وجلَّ** »[2].

(فقه) والتعريض بالقذف لا يوجب حدَّ القذف، كقولك: أنا لا أزني، تعريضا لفلان أنَّه يزني، والآية لا تدلُّ على الحدِّ به.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ خطاب للمؤمنين بالجزاء على أعمالهم الحسنة، أو للمنافقين بالجزاء على أعمالهم القبيحة، **والأولى عمومهم، فهو وعد ووعيد،** كما يدلُّ له قوله تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾ والبلاء: الأمر بما يشقُّ، كالجهاد والصبر، وهو الصبر على مشاقِّ التكليف، أي: حتَّى نعلم الجهاد والصبر واقعين بعد علمهما في الأزل وبعده، أنَّهما يقعان أو لا يقعان، كأنَّه قيل: حتَّى يظهر علمنا، والشيء لا يعرف أنَّه وقع حتَّى يقع، ومن قبل وقوعه علم الله أنَّه سيقع لا أنَّه وقع.

١-تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٦، ص١٩٦.

٢-رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (١٦) باب: ومن سورة الحجر، رقم٣١٢٧، من حديث أبي سعيد. وتمام الحديث عنده: «ثم قرأ {إِنَّ فِي ذَالِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ}» قال أبو عيسى: هذا حديث غريب.

أو العلم هنا عبارة عن لازمه، ومسبَّبه وهو الجزاء، أي: حسنهما، ومعنى «نَبْلُو أَخْبَارَكُمْ» نظهر حسنها وقبيحها، وحسن الخبر وقبحه على حسب المخبر عنه، والمراد: عموم الإخبار، فيدخل فيها الإخبار أوَّلا عن الإيمان وموالاة المؤمنين، وقيل: الإخبار عن الإيمان، وأنَّ الإضافة للعهد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

حال بعض كفار أهل الكتاب وبعض المؤمنين في الدنيا والآخرة

﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أعرضوا عن سبيل الله سبحانه وتعالى وصدُّوا الناس عنه **﴿وَشَآقُّواْ الرَّسُولَ﴾** صاروا في شقٍّ غير الشقِّ الذي هو فيه، وهو دين غير دينه، والجملة مؤكِّدةٌ لما قبلها، أو المعنى عادَوْه، وذلك أيضًا كونهم في شقٍّ غير شقٍّ فيه لزومًا، فإنَّ من عاديته لا تُتابعُه.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ بآيات القرآن والتوراة والإنجيل والمعجزَات، وهم بنو قريضة والنضير، وقيل: المطعمون يوم بدر. والآيات في حقِّهم القرآن والمعجزات، وقد يخبرهم أيضًا أهل التوراة والإنجيل ببعض نعته صلى الله عليه وسلم في كتبهم، وكذا في قول من قال: المراد أناسٌ آمنوا ثمَّ نافقوا.

﴿لَنْ يَضُرُّواْ﴾ بكفرهم وصدِّهم **﴿اللَّهَ﴾** إذ لا يناله ضرٌّ ولا نفعٌ، وهو خالق النفع والضرِّ، ولا يحتاج، وإنَّما ضرُّوا أنفسهم، أو يقدَّر: لن يضرُّواْ

رسول الله ﷺ ، فحذف المضاف لتكون صورة الكلام أنّ مضرّة رسوله مضرّة له تعالى، وهو منزّهٌ عن المضرّة، وفي ذلك تفظيع مشاقّة رسول الله ﷺ ﴿شَيْئًا﴾ مفعول مطلق، أي: ضرًّا مّا من الإضرار، ولايصحُّ أن يقال شيئًا من الأشياء.

﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ يبطل ما عملوا من المكائد في قتله أو بدنه أو عقله، وفي إبطال دينه، و لم يؤثّروا في ذلك بل أجلاهم وقتلهم، أو يُظْهِر بطلانَ ما عملوا من حسنات فلم يثابوا عليها.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾ أي: دُوموا على الطاعة، أو زيدوا فيها، و لا تكتفوا بكلمة الشهادة، أو أجمعوا الطاعة مع ترك ما يحبطها، كما قال: ﴿وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ﴾ كالصدقات بفعل الكبائر، ومنها الإصرار على المعاصي، كما قال الحسن: ولا بالمنِّ بالإسلام، كما قيل: نزلت في بني أسد أسلموا وقالوا لرسول الله ﷺ منًّا عليه: «قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا»، والمعتبر عموم اللّفظ.

وإن تاب المذنب رجع إليه عمله الحسن وأثيب عليه، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنَ اَسْلَمُواْ﴾ (سورة الحجرات: ١٧) ، فالأعمال الحسنة تبطل بالرياء والسمعة والشكِّ والعجب، إذا عمل به، مثل أن يتكبّر أو يأمن المكر، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب قال الله ﷻ : ﴿لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالاَذَى﴾ (سورة البقرة: ٢٦٤) .

والحاصل: لا تبطلوا طاعاتكم بمعاصيكم، فتعاقبون بها، ولا تثابون على طاعاتكم. قال قتادة في معنى الآية: «من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحًا بعمل سوء فليفعل».

(فقه) ولا يبطل العمل بالإفطار من النفل موافقةً للأخ في الله تعالى، أعلمه بِأَنّـهُ صائم أو لم يعلمه. روى أبو سعيد الخدريُّ أنَّ رجلاً أضاف رسول الله ﷺ مع أصحابه رضي الله عنهم، وكان فيهم رجل صائمٌ، فقال له رسول الله ﷺ : «**أجب أخاك وأفطر واقض يومًا مكانه**»، وذلك ندب.

وعنه ﷺ : «**إذا دعي أحدكم لطعامٍ فليجب، فإن كان مفطرًا فليأكل، وإن كان صائمًا فليصلِّ له**»[1]، أي: يدع بالبركة، ولعلَّه يندب إذا كان للمضيف اعتناء بإفطاره، وإلاَّ فالبقاء على الصوم والدعاء له أفْضلُ. ووُضِعَ الطعامُ بعد أن دُعي عمر وهو صائم فمَدَّ يده وقال: «خُذُوا باسم الله»، ثمَّ قبض يده وقال: إنِّي صائم. فالإفطار جائز، والإخبار بالصوم ليس رياءً، إن لم يقصد الرياء.

وأخرج عبد بن حميد ومحمَّد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة وابن أبي حاتم عن أبي العالية، كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضرُّ ذنبٌ مع لا إله إلاَّ الله، كما لا ينفع عمل مع الشرك، حتَّى نزلت: ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ﴾ فخافوا أن يبطل الذنبُ العمل وشَدَّدُوا وخافوا أن لا يغفر ذنب بعد التوبة، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُواْ...﴾ (سورة الزمر: ٥٣) . ولفظ عبد بن حميد: «فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم».

والآية دليل لنا وللمعتزلة أنَّ الكبيرة الواحدة أو الصغيرة المصَرَّ عَليها تحبط الأعمالَ ولو كانت بعدد نجوم السماء، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَّرَهُ﴾ (سورة الزلزلة: ٧) ، ومعناه: ما لم يحبطها بالإصرار، وقوله تعالى:

١-رواه **مسلم** في كتاب النكاح (١٦) باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة، رقم ١٠٦، ورواه **الترمذي** في كتاب الصوم (٦٤) باب ما جاء في إجابة الصائم الدعوة، رقم٧٩٠. من حديث أبي هريرة.

﴿وَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَّرَهُ﴾ معناه: ما لم يمحها بالتوبة. وإعادة «أَطِيعُوا» مع «الرَّسُول» للتأكيد.

﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ مثل ما مرَّ ﴿فَلَنْ يَّغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ الفاء في الخبر لشبه اسم «إنَّ» باسم الشرط في العموم، ولو نزلت في الخصوص، والعبرة بعموم اللفظ، فيدخل الخصوص بالعموم أوَّلاً وبالذات، وإن أريد من اللفظ العامِّ الخصوص استدلَّ به من أجاز زيادة الفاء في الخبر مطلقًا. والخصوص: أهل القليب المقتولون في بدر، أبو جهل وغيره، فيقاس عليهم غيرهم، ولا يخفى أنَّه مِمَّن ضلَّ في نفسه وأضلَّ غيره.

(أصول الدين) [قلت:] ولا دليل في الآية على إمكان جواز الغفران للموحِّد المصرِّ للآي الأخر الدَّالَّة على أنَّه من لم يتب مطلقًا فهو في النار.

﴿فَلاَ تَهِنُواْ﴾ عطف على ﴿أَطِيعُواْ اللهَ﴾ أو على ﴿إِنَّ الذِين كَفَرُواْ﴾ وعليه فيكون عطف فِعْلِيَّة إنشائيَّة على اسْمِيَّة خبريَّة. أو الفاء في جواب شرط محذوف [هكذا:] إذا علمتم أنَّ الله مبطلٌ كيدهم ومعاقبُهم وخاذلهم في الدنيا والآخرة فلا تهنوا، أي: تضعفوا لهم مبالاةً بهم.

﴿وَتَدْعُواْ﴾ عطف على «تَهِنُوا»، فالنهي منسحب عليه، كأنَّه قيل: ولا تدعوا، أو منصوب بأن محذوفة في تأويل مصدر معطوف على مصدر من تهن، أي: فلا يكن منكم وهن للمشركين ولا دعاء لهم ﴿إِلَى السَّلْمِ﴾ الصلح ﴿وَأَنتُمُ الاَعْلَوْنَ﴾ عليهم بالغلبة.

والعلوُّ بمعنى الغلبة مجاز، والجملة حال من واو «تَهِنُواْ» أو واو «تَدْعُواْ»، [قلت:] ويؤخذ من الآية أنَّه لا تجوز مهادنة المشركين وترك القتال إلاَّ عند الضرورة، وتحريم ترك الجهاد إلاَّ عند العجز.

﴿وَاللهُ مَعَكُمْ﴾ عطف على «أَنتُمُ الاَعْلَوْنَ» فالجملة حال إذ عطفت على الحال، والمعنى: الله ناصركم، كيف تميلون إلى الذلّ للمشركين وأنتم الأعلون عليهم؟ والله ناصركم في الحال، وبعد الحال.

والأعلى خارج عن معنى التفضيل، أي: وأنتم العالون.

[قلت:] ومن معية الله قول بني مضاب إذا ظنوا: «مَهَلّ» (بفتح الميم والهاء واللام وهي مشدَّدة ومفخَّمة)، والأصل: «معي الله»، بمعنى: أستعين بالله أن يكون الأمر كما ظننت، فحرَّفوا عين «مع» إلى الهاء، وحرَّفوا كسرها إلى الفتح، وحرَّفوا لفظ الجلالة بحذف الهاء والألف قبلها، وهو حرام لكن لم يقصدوا ذلك، ولا عرفوا معناه.

كما حرَّفت نساؤهم «يا هذا» أو «يا هذه» إلى «يا أهَّ» بشدِّ الهاء مفخَّمة وحذف الذال وما بعدها، وكما حرَّفوا «إي والله» بحذف لفظ الجلالة وإبقاء واو القسم، وهذا يشاركهم فيه أهل مصر، وذلك أنّ «إِي» بكسر الهمزة وإسكان الياء بمعنى نعم، تستعمل قبل القسم.

﴿وَلَنْ يَّتِرَكُمُ, أَعْمَالَكُمُ,﴾ لن ينقصكم أعمالكم، عدَّاه لاثنين لتضمُّن ما يتعدَّى إليهما، وهو النقص يقال: وتره، ضيَّعه، ووتره سلب ماله، أو قتل له ولدا، أو أخا أو حميما أو قريبا له وكلّ ذلك من الوتر بمعنى الفرد.

والمعنى: أفرده عن ماله أو قريبه أو حميمه ففي الآية تشبيه إفرادهم عن عملهم بإفراد الإنسان عن مال أو ولد، قال ﷺ : «**من فاتته صلاة العصر فكأنَّما وُتِر أهله وماله**»[1].

١-رواه **الربيع** في كتاب الصلاة (٤٨) باب جامع الصلاة، رقم٣٠٤. ورواه **النسائي** في كتاب الصلاة (١٧) باب صلاة العصر في السفر، رقم ٤٧٨. من حديث أنس.

(نحو) وإن جعلناه لازما فـ«أَعْمَالَ» بدل من الكاف بدل اشتمال، وإذا جعلنا الجمل قبلُ غيرَ أحوالٍ فلا إشكال في العطف، وإن جعلناها أحوالا فعطف هذه على جملة الحال موقع في تصدير جملة الحال بـ«لَنْ» المنافية للحال، لأنَّها للاستقبال، فنقول: حال مقدَّرة، ولا نحتاج في تصديرها بـ«لَنْ» إلى السماع مع التأويل بالمقدَّرة.

(نحو) والحال المقدَّرة راجعة إلى المقارنة، والتخريج على أن يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع لا يكفي، لأنَّه تبقى المنافاة بين الحال والاستقبال، فهذا التخريج غير مستغن عن جعلها مقدَّرة، وإنَّما يفيد لو احتجنا إلى السماع، فنقول: لم يرد استعمالها بـ«لَنْ» لكن هنا بالتبع فتغتفر، بل الذي أقول به: إنَّ «لَن تَفْعَلُواْ» حال مقدَّرة، أي: فإن لم تفعلوا فيما مضى ناوين أن لا تفعلوا في المستقبل، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ (سورة البقرة: ٢٤) .

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ٣٦ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ٣٧ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ٣٨﴾

تأكيد الحثّ على المجاهدة بالتزهيد في الدنيا

﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ أمورها ﴿لَعِبٌ﴾ شبه اللعب، وهو ما لا نفع فيه ولا لذَّة ﴿وَلَهْوٌ﴾ هو ما فيه لذَّة غير نافعة للدين ولا للدنيا، لا ثبات لها، ولا نفع

معتدًّا به إلاَّ ما استعمل منها للآخرة، وهي عارية في يد كلِّ من هي في يده، يحفظها لمن بعده.

﴿وَإِنْ تُومِنُواْ﴾ بالله ورسوله **﴿وَتَتَّقُواْ﴾** تحذروا المعاصي **﴿يُوتِكُمُ, أُجُورَكُمْ﴾** ثواب إيمانكم وتقواكم **﴿وَلاَ يَسْئَلْكُمُ, أَمْوَالَكُمُ,﴾** كلَّها، والضمير المستتر لله عَزَّ وَجَلَّ، وهو الظاهر، أو لرسوله ﷺ، والعطف على «يُوتِكُمُ»، والإضافة للاستغراق، والنفي لسلب العموم كما هو الأصل في لفظ العموم بعد أداة السلب، نحو: لا أكرِّم الناس كلَّهم، أي: أكرِّم بعضهم فقط.

(فقه) فالمعنى: لا يسألكم أموالكم كلَّها بل بعضها، وهو المقدار الواجب في زكاة الذهب والفضَّة، ومال التجر وزكاة الأنعام، والثمار، ويلتحق بذلك واجب الكفَّارات وفداء المحرم بالحجِّ أو العمرة، ونحوه ممَّا يجوز لصاحبه إنفاده بنفسه، أو المراد ذلك ونفقة الغزو والضيف والعيال، والقرابة واليتيم ونحو ذلك، وما ذكر وما تعقله العاقلة.

(بلاغة) وفي ذلك مقابلة لقوله تعالى: ﴿يُوتِكُمُ, أُجُورَكُم﴾، أي: يؤتكم أجوركم كلَّها لا بعضها ويسألكم بعض أموالكم لا كلَّها.

ويجوز أن يكون النفي لعموم السلب، أي: لا يسألكم شيئا ما من أموالكم، بل كلُّ ما سألكم فهو مال لله حقٌّ له تعالى في أموالكم، وذلك الزكاة وما التحق بها.

وكذا هو لعموم السلب إذا قلنا المعنى: لا يسألكم الله أموالكم لحاجته عَزَّ وَجَلَّ، بل لينفقها عليكم، ويثيبكم عليها، أو قلنا المعنى: لا يسألكم الرسول أموالكم لحاجته، أو لأجل تبليغه الوحي، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اجْرٍ﴾ (سورة ص: ٨٦)، **والأوَّل أولى.**

وفي الأخير تفكيك الضمائر، ولا يظهر عليه ولا على ما قبله تعليق نفي السؤال على الإيمان والتقوى في قوله عز وجل : ﴿وَإِن تُومِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾، ويدلُّ على أنَّ ضمير «يَسْئَلُ» لله عز وجل قراءةٌ عن ابن عبَّاس: ﴿نُخرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ بالنون.

﴿إِنْ يَّسْئَلْكُمُوهَا﴾ الضمير المستتر لله أو لرسوله، والصحيح أنَّه لله سبحانه وتعالى، وكذا في «يُحْفِ» و«يُخْرِج». و«هَا» للأموال. **﴿فَيُحفِكُمْ﴾** يستأصلكم في أموالكم فلا يبقى لكم شيء، والإحفاء في كلِّ شيء بلوغ الغاية في إزالته. والعطف على «يَسْأَل» **﴿تَبْخَلُواْ﴾** عن ذلك الإحفاء فلا تقبلوه، وعن إعطاء شيء مَّا بعده **﴿وَيُخرِجَ اَضْغَانَكُمْ﴾** أحقادكم لشدَّة حبِّكم المال، وقد علمت أنَّ الضمير في «يُخْرِج» لله أو لرسوله، وأجيز أن يكون للإحفاء أو للسؤال، أو للبخل، فإنَّ من لم يبخل بل رضي لا يخرج ضغنه، وإسناد الإخراج إلى البخل أو السؤال أو الإحفاء مجاز عقليٌّ، ومن الإسناد إلى السبب.

﴿هَآنتُمْ﴾ «هَا» حرف تنبيه دخلت على غير الإشارة لوقوع الإشارة بعده، وهي للتأكيد **﴿هَؤُلَآءِ﴾** خبر «أَنتُمْ»، أو الخبر قوله تعالى: **﴿تُدْعَوْنَ﴾** يدعوكم الله أو رسوله **﴿لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾** فينصب «هَؤُلَآءِ» على التخصيص، أو هو منادى لمحذوف، والإنفاق في سبيل الله تعالى نفقة العيال والأقارب والغزو، والضيف واليتيم، وليس المراد خصوص الغزو كما قيل، أو الزكاة كما قيل.

والجملة مستأنفة لتأكيد أنَّ السؤال ليس لاحتياج الله حاشاه، ولا ليتملَّك المال صلى الله عليه وسلم لنفسه، وتأكيد لقبح البخل. وعلى مذهب الكوفيِّين يجوز جعل الإشارة موصولا، فالجملة صلة، أي: ها أنتم الذين تدعون لتنفقوا في سبيل الله.

﴿فَمنكُم مَّنْ يَّبْخَلُ﴾ عن الإنفاق المأمور به **﴿وَمَنْ يَّبْخَلْ﴾** عنه **﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾** يتجاوز عن خير نفسه، ويعرض عنه، ولا يخفى أنَّ البخل صرف للخير عن نفسه، ويجوز أن يكون المعنى البخل صادر عن نفسه الأمَّارة بالسوء، التي هي منبع البخل فلا ينبغي اتِّبَاعها.

﴿وَاللهُ الْغَنِيُّ﴾ حصر للغنى في حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ ، ولو ملك مخلوق الدنيا كلَّها والسماوات لكان أشدَّ احتياجا لكثرة ما يحتاج إلى إبقائه، وإلى مزيد الشكر، وإنَّما كان له ذلك من الله، وهو محتاج إلى إبقاء ذاته ومنافعها كالإبصار والسمع.

﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ﴾ حصر للفقر فيهم، إضافيٌّ بالنسبة إلى الله تعالى، لأنَّ غيره من سائر الناس والمخلوقات كلِّها فقيرة إلى الله تعالى، في إيجادها وإبقائها ومصالحها ومنها منافع الإنفاق فإنَّه يحصل به ثواب لا يحصل بغيره لحكمة الله تعالى، فإن امتثلتم نلتم ذلك.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ عن الامتـثال، والعطف على «إِن تُومِنُوا» **﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾** كقوله تعالى: ﴿وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (سورة إبراهيم: ١٩) ، أي: قوما يمتثلون، كما قال الله تعالى: **﴿ثُمَّ لاَ يَكُونُوا﴾** أي: هذا القوم المستبدل منكم **﴿أَمْثَالَكُم﴾** في التولي عن الامتثال، بل يرغبون فيه بالإيمان والتقوى.

(بلاغة) و«ثُمَّ» للتراخي في الزمان، أو في الرتبة، أو فيهما، على جواز استعمال اللفظ في معنيين، ووجه تراخي الزمان أنَّه روى عبد الرزَّاق والطبريُّ والطبرانيُّ والبيهقيُّ والترمذيُّ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ تلا ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا...﴾ فقالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولَّينا استبدلوا بنا ثمَّ لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان ثمَّ قال: «**هذا وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريَّا لناوله رجال من**

فارس»[١] ويروى: «من أبناء فارس»، ويروى: «هذا وذووه»، وروى ابن مردويه عن جابر: «لو كان الدين» بدل «لو كان الإيمان».

[قلت:] فإنَّ القوم هم عبد الرحمن بن رستم الفارسي الإمام الذي ملك من الإسكندرية إلى طنجة، وأجراهم على كتاب الله ﷻ وسنَّة نبيئه ﷺ، وبينه وبين الآية زمان مديد، كثُرت الفِرقُ والاختلاطُ في الدين، وذلك تولٍّ فجاء الله الرحمن الرحيم به، ولم تُعرف طائفة من الفرس قامت بذلك، وإن كان فأفراد، فبه علمنا أنَّ الشرط واقع.

وهب أنَّه غير واقع ولم يكن استبدال كما قال الكلبي: «لم يتولَّوا فلم يستبدل تعالى قومًا غيرهم» لكن لنا ذلك الإمام الصادق مع أنَّ مَنْ عَرَفَ اختلاف الأمَّة ـــ اختلافًا باطلاً إلاَّ من عصمه الله تعالى ـــ جزم بأنَّها استبدلت، لكن لا بالارتداد بل باعتقاد الباطل كالرؤية، وكون صفاته تعالى غيره، وخلق الفاعل فعله، ونحو ذلك من الأباطيل الاعتقاديَّة، وبالحكم بالجور وسائر البدع.

وقيل: القوم الأنصار وقيل: أهلُ اليمن، وقيل: كندة والنخع، وقيل: مسلمون من العجم، وقيل: مسلمون من الروم، ويبعد ما قيل: إنَّهم الملائكة، فإنَّه لم يشهر إطلاق القوم عليهم، وأنَّ المتبادر الاستخلاف من جنس المخاطبين، وأنَّه ظهور في الأرض. والخطاب لقريش، أو لأهل المدينة، أو للمخاطبين قبلُ، والله أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

١-رواه **التبريزي** في كتاب تفسير القرآن (٦٣) باب ومن سورة الجمعة، رقم٦٣٣١. وتمام الحديث عنده: «لتناوله رجال من هؤلاء». من حديث أبي هريرة.

تفسير سورة الفتح وآياتها ٢٩

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾

صلح الحديبية

وعظم شأنه على النبيء ﷺ والمسلمين

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ هذا الفتح هو صلح الحديبية عند الجمهور، وهو قول ابن عبَّاس وأنس، أخبر الله تعالى به مؤكِّدًا بـ«إنَّ»، وبأنَّه فتح مبين، أي ظاهرًا، أو مظْهِرًا للحقِّ لوجوه:

(سيرة) منها: أنَّ بعض الصحابة قال: والله ما هذا بفتح، صُدِدْنا نحن وَهَدْيُنا عن البيت. وردَّ رسول الله ﷺ إلى مكَّة رجلين مسلمين هجَرَا منها حين أقام بالحديبية كارهًا، فقال ﷺ : «بل هذا أعظم الفتح، رأى المشركون منهم ما كرهوا، وأذعنوا للصلح، ورغبُوا في الأمان إليكم، أنسيتم يوم أُحد ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ...﴾، أنسيتم يوم الأحزاب ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ...﴾؟» فقال المسلمون: صدق الله ورسوله، هو أعظم الفُتُوح، والله يا رسول الله ما فكَّرنا فيما قلت، ولأنْتَ أعلم بالله وبالأمور مِنَّا.

ومنها: أنَّه تعالى أخبر به امتنانًا.

ومنها: أنَّ بعض الصحابة وغيرهم بعدُ لم يحضر الفتح، ففي هذا إخبارٌ لهم.

ومنها أنَّ الحاضِرين في الحديبية علموا الصلح و لم يعلموا أنَّه فتح، أو علموا أنَّه فتح و لم يعلموا عِظم شأنه، فأخبرهم الله تعالى بعظم شأنه، ألا ترى إلى ضمير العظمة؟.

ومنها: أنَّه تعالى أخبر بذلك ليدُلَّهم على أنَّه للمغفرة، وإتمام النعمة، والنصر العزيز، المذكورة بعدُ. ولا يصح ما قيل: إنَّه لازم الفائدة، كقولك: قام زيد، ليعلم سامعك أنَّك عالم بقيامه.

وَسُمِّيَ الصلح فتحًا لاشتراك الصلح والفتح في الظهور، لأنَّ المشركين ابتدؤوا به وسألوه، وذلك ذُلٌّ منهم. قال الكلبي: ما سألوه الصلح إلاَّ بعد أن ظهر المسلمون عليهم. وعن ابن عبَّاس: رماهم المسلمون بالنبل والحجارة حتَّى أدخلوهم ديارهم.

وأيضًا سُمِّيَ فتحًا لأنَّه سبب لفتح مَكَّة. قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، سمعوا كلام المسلمين، وتمكَّن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين من يومها خلقٌ كثيرٌ.

(سيرة) قال مجمِّع بن حارثة الأنصاري: شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ، فلمَّا انصرفنا عنها إذ النَّاس يهُزُّون الأباعر، فقال بعض: ما بال الناس؟ فقيل: أوحي إلى رسول الله ﷺ ، فخرجنا نوجف، فوجدنا النبيء ﷺ واقفًا على راحلته عند كراع الغميم، فلما اجتمع الناس قرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، فقال عمر: أهو فتح يا رسول الله؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده». قال القرطبيُّ: فتحوا مَكَّة بعشرة آلاف في السنة الثالثة، أي بعد الحديبية.

وليس المراد فتح خيبر، لأنَّه ذُكِرَ بعدُ، ولا فتح مَكَّة لذكره بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا...﴾ (سورة الفتح: ٢٧) . وقيل: فتح فارس والروم

وما يفتح بعده على أيدي الصحابة ومَنْ بعدَهم، كالمغرب الأدنى والأوسط والأقصى، إلاّ أنَّه ما دخل أندلس من الصحابة إلاّ واحدٌ اسمه المنيذر.

(بلاغة) فالمضي لتحقُّق الوقوع ومزيد التبشير، أو على ظاهره باعتبار ثبوته عند الله ﷻ في الأزل، وفي اللوح، وهكذا كلُّ مضيٍّ في القرآن بحسب الإمْكانِ.

(سيرة) وقال مجاهد: إِنَّهُ فتح خيبر، وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام، وفتحُها على أيدي من حضر الحديبية وحْدهم، بعد حصرها بضع عشرة ليلة، في بَقِيَّة المحرم سنة سبع، وقال مالك: آخر سنة ستٍّ، وعليه ابن حزم، وجمع [بين القولين] بأنَّه في آخرها وأوَّل سنة سبع، أو من قال: سنة ستٌّ ابتدأ الحساب للسنة من شهر ربيع.

(سيرة) وقيل: هو فتح مَكَّة، وعليه الجمهور، وهو الفتح الأعظم الذي استبشر به أهل السماء، ودخل به الناس أفواجًا في دين الله، وكان بعشر الآف، وقيل: باثني عشر، ويجمع بِأَنــَّهُ خرج لليلتين مضتا من رمضان بما دون الاثني عشر، فتلاحق به ألفان في الطريق، وحين أقام على حصارها. وفتحت لثلاث عشرة ليلة من رمضان، وقيل: في عشر بقيت منه.

وفتحُها صُلحٌ، لقوله في مرِّ الظهران: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن**» رواه أحمد، نادى بذلك أبو سفيان بإذن رسول الله ﷺ ، ولَمَّا قال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» أخذت امرأة بشاربه أو امرأته، فقالت : ما تغني عنَّا دارك ؟ فقال: لا تغرنَّكم هذه. وفي رواية زيادة: «**ومن أغلق بابه على نفسه فهو آمن**»، وذلك عند الشافعي.

وقيل: فتحت عنوة للتصريح بالأمر بالقتال ووقوعه من خالد، وشهر أنَّه نهى عنه ولام خالدًا، فأجاب بأنَّه تعرضوا لي. وعنه ﷺ : «**أحِلَّت لي ساعة من نَّهار**».

قلت: ولا نسلِّم أنَّ التأمين صلح، لأنَّه على خصوص، فهو دليل على العنوة على غير الخاصِّ وعدم القسمة للعفو عنهم.

(سيرة) وأقام بعد الفتح خمس عشرة ليلة، أو سبع عشرة، أو ثماني عشرة، أو تسع عشر، روايات. ويروى أنَّه فتح مَكَّة وغنم، وأصابوا أضعاف ما أنفقوا، ولو بخلوا ما أصابوا ذلك، و لم يهنوا وهم الأعلون بفتح مَكَّة، و لم يدعوا إلى السلم بل المشركون دعوا إليه والله معهم.

ويجوز تقدير الإرادة، أي: إنَّا أردنا لك الفتح فتحا مبينًا، فيصدق بما استقبل، أي: أردنا لك فتح مَكَّة بفتح الحديبية، وأخَّر المفعول المطلق مع أنَّه يتقدَّم إذا اجتمع مع غيره لطريق الاهتمام بخطاب رسول الله ﷺ وتبشيره، ولأنَّه قُطب رحَا الفتحِ ونصرِ الدِّين.

قال ابن عربي في الفتوحات الْمَكِّيَّة[1] ما نصُّه: «ولقد كنت بفاس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وعساكر الموحِّدين قد عبرت إلى أندلس لقتال العدوِّ حين استفحل أمرُه على الإسلام، فلقيت رجلاً من رجال الله ولا أزكِّي على الله أحدًا، وكان من أخصِّ أودَّائي فقال: ما تقول في هذا الجيش، هل يفتح له

١- كتاب ضخم في ١٠ أجزاء في التصوُّف لمحمَّد بن علي بن العربي الْمُتَوَفَّى سنة ٦٣٨هـ. فيلسوف من أَئِمَّة الْمُتَكَلِّمِينَ في كُلِّ فنٍّ، ولد بمرسية بالأندلس سنة ٥٦٠هـ، وقد أنكر عليه بعض أهل مصر آراءه، فأفتى بعضهم بقتله، فنجا من السجن، وَاسْتَقَرَّ بدمشق ومات بها. الزركلي: الأعلام، ج٦، ص٢٨١.

وينصر في هذه السنة؟ فقلت: ما عندك؟ فقال: إنَّ الله قد ذكره في كتابه لنبيئه ﷺ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ عدد «فَتْحًا مُّبِينًا» بحساب الجمل فوجدت الفتح سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، ثمَّ جزت إلى أندلس وقد نصر الله تعالى جيش المسلمين، وفتح الله تعالى قلعة رباح، والأرْكُو، وكركرا، وما انضاف إلى هذه القلاع من الولايات. هذا عاينته من الفتح مِمَّن هذه صفته، فأخذت للفاء ثمانين، وللتاء أربعمائة، وللحاء ثمانية، وللألف واحدًا، وللميم أربعين، وللباء اثنين، وللياء عشرة، وللنون خمسين، وذلك إحدى وتسعون وخمسمائة، وهي سِنُو الهجرةِ إلى هذه السنة، فهذا من الفتح الإلهي لهذا الشخص» انتهى.

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وللمؤمنين.

(أصول الدين) مذهبنا ومذهب الأَشعَرِيَّة والمعتزلة وأكثر الفقهاء أنَّ أفعال الله لا تعلَّل بالأغراض، لأنَّه عَزَّوَجَلَّ وتبارك وتعالى، لا يحتاج إلى شيء، وقادر على فعل ما يشاء بغير شيء، **لكن إن أريد بالأغراض الحِكم ومصالح الخلق صحَّ تعليلها بالأغراض.**

وعلى المنع فاللام للعاقبة حيث توهم التعليل بالغرض، أو يشبَّه مدخولها بالعلَّة الغائية، في الترتيب على متعلَّقها الذي هو هنا الفتح الذي له ﷺ، فيه سَعْيٌ لإعْلاءِ كلمة الله سبحانه بمكابدة الحروب.

(أصول الدين) وقال متقدِّمو الأَشعَرِيَّة: تعلَّل بالأغراض لا بمعنى الاحتياج، ولا بأس به، وهو ظاهر الكلام. قال بعض المحقِّقين وجد التعليل فيما يزيد على عشرة آلاف آية وحديث، وتأويل الكثير لا يحسن. وقال السعد: مراد الأشاعرة ومن معهم من المعتزلة عموم السلب، بمعنى: لا فِعْلَ له تعالى يُعَلَّل

بالغرض في بعض أدلّتهم، وأفاد بعضها سلب العموم، أي: ليست كلُّها تعلل بالأغراض بل بعضها، واختار أنَّ بعض أفعال تعلّل بها، قال: والحقُّ أنَّ بعض أفعاله تعلّل بالحكم والمصالح، وذلك ظاهر، والنصوص شاهدة به، فأمَّا تعميم أنَّ كُلَّ فعل له تعالى لا يخلو من غرض فمحلُّ بحث، ويجاب بأنَّ المراد: لا يخلو عن حكمة، وكثيرًا ما يكون التعليل في الثاني لا في الأوَّل، كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾ (سورة البقرة: ٢٨٣) ، فإنَّه في التذكير، ونحو: "أعددت الخشبة ليميل الحائط فأدعِّمه"، والتعليل في "أُدَعِّمه"، ويكون في الأوَّل لا في الثاني نحو: "لازمت غريمي لأستوفي حقّي وأخلّيه"، والتعليل في الاستيفاء، وقد يكون بمجموعهما. وإذا كان في بعض فقط فالبعض الآخر لشدَّة الارتباط.

وتقدَّم بيان تعليل الفتح بالمغفرة، وقد يقال: المراد بالتعليل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾. وقيل: التعليل للمجموع، فهو الهيئة الاجتمَاعِيَّة، ومدخول اللام علّة، ومتعلّقها معلول بحسب التعقُّل، وعلّة بحسب الوجود. وتقديم «فَتْحًا» على «لِيَغْفِرَ» آت على الأصل من تقديم المفعول المطلق على سائر المعمولات، فقدَّم ما قدَّم على طريق الاهتمام بالمتقدِّم، والتشويق إلى المتأخِّر.

ومرَّ أنَّ ذنوب الأنبياء ترك ما هو أولى، والاقتصار على جائز لهم دونه. وقيل: المغفرة كناية عن عدم المؤاخذة، وفيه أنَّ عدمها مشعر بالعفو، والعفو إنَّما هو عن نحو ذنب أو عن ذنب. وقيل: «لِيَغْفِرَ لَكَ» استعارة تمثيليَّة.

وقيل: «مَا تَقَدَّمَ» في الجَاهِلِيَّة، و«مَا تَأَخَّرَ» في الإسلام، وفيه أنَّه لا جَاهِلِيَّة له، ويجاب بأنَّ المراد: ما قبل الوحي ولو في أدنى شيء، وقد مرَّ الكلام على ذنبه في الإسلام ما هو. وقيل: «مَا تَقَدَّمَ» من حديث تحريمه "مارية"، و«مَا تَأَخَّرَ»

من حديث امرأة زيد، ولا يصحُّ ذلك، مع أنَّ الكعس أولى، لتقدُّم حديث امرأة زيد.

(سيرة) وَلَمَّا نزلت الآية صام وصلّى حتَّى انتفخت قدماه، وتعبَّد حتَّى صار كالشَّنِّ البالي، فقالت له عائشة رضي الله عنها: أتفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**».

وقال عطاء الخرساني: «مَا تَقَدَّمَ» من ذنوب أبويك آدم وحوَّاء ببركتك، و«مَا تَأَخَّرَ» من ذنوب أمَّتك بدعائك لهم، وقال النووي: «مَا تَقَدَّمَ» قبل النبوءة، أي: ممَّا يعدُّ ذنبًا في حقِّ الأنبياء، وقيل: من الصغائر على أنَّها تصدر من الأنبياء، وهو ضعيف، و«مَا تَأَخَّرَ» ممَّا لم يكن، وذلك تأكيد، كقولك: اقتل من العدوِّ من لقيت ومن لم تلق، وأعط من لقيت ومن لم تلق. وعبارة بعض: إنَّ الفتح لم يجعل سببا للمغفرة، بل لاجتماع المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز.

وَلَمَّا نزل أوَّل السورة إلى ﴿عَزِيزًا﴾ قالت الصحابة: هنيئًا لك يا رسول الله فما لنا؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُومِنِينَ... فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

﴿**وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ, عَلَيْكَ**﴾ دينيَّة وَدُنيَويَّة، ومنها ــ وهو أعلاها ــ إعْلاءُ الدِّين ونشرُه في البلاد ﴿**وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**﴾ بزيادة ما لم يكن قبلُ، وتقوية ما كان قبل.

(بلاغة) ﴿**وَيَنصُرَكَ اللَّهُ**﴾ أظهر لفظ الجلالة بعد الإضمار لكون النصر خاتمة العلل، على أنَّ اللام للتعليل، وخاتمة الغايات على أنَّها ليست للتعليل، بل للعاقبة ولإظهار كمال إظهار شأنه، كما يدلُّ له إرْدَافُه بذكر النصر العزيز. أو أظهر الاسم في الصدر وهنا لأنَّ المغفرة تتعلّق بالآخرة، والنصر بالدنيا، وكأنَّه قيل: هو

الذي يتولّى أمرك في الدنيا والآخرة. أو أظهر الاسم هنا إشارة إلى قوله ﷻ : ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ﴾ (سورة آل عمران: ١٢٦) ، والنصر بالصبر والصبر بالله، قال سبحانه: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ (سورة النحل: ١٢٧) ، وهو باطمئنان القلب، وهو بذكر الله، قال الله تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (سورة الرعد: ٢٨) .

﴿**نَصْرًا عَزِيزًا**﴾ العزيز هو المنصور، ووصْفُ النصر بالمنصوريَّة مبالغةٌ، والعِزُّ الغلبة، وتجوُّزٌ في الإسناد، فإنَّ المنصور حقيقة هو رسول الله ﷺ ، وذلك كما يقال: كلامٌ صادقٌ، والأصل: متكلِّمٌ صادقٌ. ويجوز تقدير مضاف، أي: عزيزًا صاحبُه. وَأَمَّا جعله للنسب كلابن فعلى معنى نصرًا فيه عِزَّة، ومُنِعَ، وأمَّا قولك: نصرًا ذا عِزَّة فلا يكفي تفسيرًا، لأنَّ فيه إضافة النصر إلى العزَّة، فيحتاج إلى تفسير كما احتاج «عَزِيزًا» إلى تفسير. أو «عَزِيزًا» بمعنى ذو قُوَّة، فكأنَّه قيل: نصر ناصِر لك، ولا نسلِّمُ أنَّ هذا قليل الفائدة، وأنَّه غير مناسب، لأنَّ المقام في شأن المخاطب المنصور، لأنَّا نقول الكلام في نصره فذلك تقوية لنصره.

[قلت:] والواقع في قلبي أوَّلاً أنَّ معنى «عَزِيزًا» عظيما شريفًا، قليل الوجود، وعديم النظير، فلا حذف ولا تأويل، ثمَّ رأيته لمحقِّقين اثنين قبلي من غيرنا.

وفي البخاري عن أسلم: سأل عمر رسول الله ﷺ عن شيء ثلاثًا فلم يجب، فخشي أن يكون قد نزلت فيه آية، فلحق بأوَّل الركب فسمع صريخًا به، فرجع إليه ﷺ فقال ﷺ : «**لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحبُّ إليَّ ممَّا طلعت عليه الشمس**» ثمَّ قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾[1]. زاد الترمذيُّ: إنَّ ذلك في الحديبية في رجوعه منها.

١- رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (٤٩) باب ومن سورة الفتح رقم٣٢٦٢. من حديث زيد بن أسلم. وأورده **الربيع** في مسنده، باب ذكر القرآن، رقم١٠، من حديث عمر.

﴿هُوَ الذي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُومنِينَ﴾ الطمأنينة والثبات بعد الخوف بالفتح المذكور، فلا تضطرب النفس حتَّى تذعن لصلح الحديبية، ولا يفرُّوا في الحرب، ولا تعرض عن حقٍّ. وعن ابن عباس: «كلُّ سكينة في القرآن طمأنينة، إلاَّ التي في سورة البقرة» [آية ٢٤٨].

(بلاغة) وفي التعبير بالإنزال إيماء إلى عُلُوٍّ شأن الطمأنينة، وذلك إنزال من علوٍّ للشيء أو لأسْبَابِه، ويجوز أن يكون الإنزال بمعنى الإسكان، كما تقول: أنزلت الضيف في داري.

وقيل : السكينة ملك يسكن قلب المؤمن ويؤمِّنه، كما قال عليٌّ: «إن السكينة لتنطق على لسان عمر». وعن ابن عبَّاس: السكينة الرحمة. وقيل: السكينة العقل، لأنَّه يسكن عن الميل إلى الشهوات وعن الرعب. وقيل: العظمة لله ورسوله. وقيل: السكون إلى الشرع، كما قال:

فيم الإقامة بالزوراء لا سكنى فيها ولا ناقتي فيها ولا جملي.

(أصول الدين) ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ بأنْ يقوى [الإيمان] في قلوبهم، وهو واحد في نفسه، كالعقل التَّامِّ يقوى وينقص، فالإيمان يزداد وينقص وهو في نفسه واحد، ولو كان ازدياده بكثرة الأدلَّة والنظر، كشجرة تنمو بالماء، ونورُ مصباح ينمو بالزيت، وكذا النقص، وكذا فهم ابن عمر، فقال: «يارسول الله، الإيمان يزيد وينقص؟» فقال ﷺ : «**نعم يزيد حتَّى يدخل صاحبه الجَـنَّة، وينقص حتَّى يدخل صاحبه النار**».

(أصول الدين) وعن عمر وجابر عنه ﷺ : «**لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمَّة لرجح به**»[1]. وأمَّا اعتبار الإيمان قولاً وعملاً فيزداد بزيادة

١- رواه **البيهقي** في شعب الإيمان كتاب ذكر الحديث الذي ورد في شعب الإيمان باب القول في زيادة الإيمان... رقم٣٦. من حديث عمر رضي الله عنه .

العمل، وينقص بنقص العمل أو تركه، وزيادته بزيادة ما يؤمن به، وزيادة نُزُول ما يعمل به، وكلّما نزل شيء زاد إيمانًا به، وكلّما حدث فعل بالوحي عمل به، وكذا حدوث علم بعمل فلاينبغي الخلاف في ذلك.

(أصول الدين) وإنّما كلامي في التصديق ينمو وينقص، وإلاّ لزم أن يكون إيمان الملائكة والأنبياء والأولياء وإيمان الفاسق سواء، وليس كذلك، بل الإنسان الواحد يقوى تصديقه في مسألة تارة، وينقص فيها أخرى. وقال جما عة: والإيمان بمعنى التصديق لا يزيد ولا ينقص، وبه قال أبو حنيفة وإمام الحرمين، لأنّه لو نقص لم يكن تصديقًا. قلنا: لا بل ينقص مع بقاء أصله، كشجرة تذبل، ونور ينقص بنقص الزيت، توقن أنّ لك على عمرو ألفًا من جهة كذا، وتنسى الجهة ويبقى اليقين، وتوقن أنّ الله تعالى قديم إذ لو حدث لكان بمحْدِث، وتذهل أو تنسى اللوية[1] فينقص.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ فهو قادر أن ينصرك بما شاء، ولو مع قلّة عددكم، ومن جنوده الصاعقة والصيحة، أو المراد: إنّ في ملكه الجنود السَّمَاوِيَّة والأرضيَّة، وهم الملائكة، أو جنود السماوات: الملائكة، وجنود الأرض: الحيوانات، وجنود السماوات: الصاعقة والصيحة والحجارة، وجنود الأرض: الخسف والزلزلة والغرق.

أو المراد: إنّ في ملكه الجنود، خلقها وابتلى بعضًا ببعض، فقتل بعض بعضًا تارة، فيكون النصر بأيديكم، فلكم الأجر وعلى عدوِّكم العقاب، واصطَلَحُوا تارة أخرى كما اصطلحوا يوم الحديبية بحسب الحكمة.

١-كذا في النسخ، قال في اللسان: «اللَّوِيَّة: ما خبأته عن غيرك وأخفيته». ج١٥، ص٢٦٥. تأمَّل.

﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا﴾ بجميع الأجسام والأعراض ﴿حَكِيمًا﴾ فيها بالإيجاد والإعدام، والزيد والنقص، وسائر التَّصرُّفات، أو «عَلِيمًا» بما في قلوبكم، وبجميع الجنود، «حَكِيمًا» في تدبيرها، وفي نصركم لتشكروه فيثيبكم كما قال:

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ ﴾

آثار صلح الحديبية

﴿لِّـيُدْخِلَ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ﴾ ذكرهُنَّ لِئَلاَّ يتوهَّم عدم دخولهنَّ لذكر الجهاد وهنَّ لا يجاهدن، وكذا كلٌّ ما ذكرن في القرآن مع الرجال، وإنَّما ذكرن دفعًا لتوهُّم، وحيث لم يذكرن فلعدم توهُّم، كذا قيل، قلت: لعلَّه لا يطَّرد فاستقصه.

﴿جَنَّات تَجْرِي من تَحْتِهَا الاَنْهَارُ خَالدِينَ فِيهَا﴾ «خَالدِينَ» حال مقدَّرة، واللام في قوله ﷻ: ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ متعلِّق بمحذوف، أي: دبَّر ما دبَّر ليدخل، أو أراد بالإدخال سببه وملزومه، وهو شكر النعم، وقيل: متعلِّق بـ«فَتَحْنَا» أو بـ«أَنزَلَ» على أنَّ هذا تعليل لأحدهما، ولتعليله كأنَّه قيل: فتحنا وعلَّلنا الفتح بالمغفرة ليدخل، أو أنزلنا السكينة وعلَّلنا الإنزال لازدياد الإيمان ليدخل.

(نحو) فلا يرد تعليق حرفي جرٍّ لمعنى واحد في عامل واحد بلا تبعيَّة، أو الثاني تعليل للعِلَّة، أي: ليغفر لك وللمؤمنين ليدخل، لأنَّه لا يدخلهم الجنَّة بلا

مغفرة، وقيل: متعلِّقٌ بـ«يَزْدَادُوا» وقيل: بـ«يَنصُرُكَ»، أو فيهما على التنازع، أو على مجرَّد الحذف لدليل، ويبحث بأنَّ الإدخال يكون بلا نصر وبلا ازدياد نفس التصديق. أو [مُتَعَلِّقٌ] بمحذوف، أي: فعل ذلك ليدخل.

أو بدل اشتمال من قوله: ﴿لِيَزْدَادُوا﴾، لأنَّ بين الازدياد والإدخال ملابسة بغير الجزئيَّة والكليَّة، وقد مرَّ لك أنَّه قد يكون بدل الاشتمال بلا رابط، إلاَّ أنَّ الازدياد ليس شرطا للإدخال كما مرَّ، إلاَّ إن فسِّر الازدياد بتعدُّد الإيمان بتعدُّد النزول، أو بتعدُّد الأعمال.

ويقوِّي تعليقه بفعل محذوف ما روي أنَّه نزل عليه بعد رجوعه من الحديبية ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا...﴾ إلى: ﴿...عَزِيزًا﴾ فقال: «**لقد أنزلت عليَّ آية هي أحبُّ إليَّ ممَّا على الأرض**»، فقرأها، فقالوا :«هنيئًا مريئًا قد بيَّن الله لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا ؟ فنزل: ﴿لِيُدْخِلَ...﴾ إِلَى: ﴿...فَوْزًا عَظِيمًا﴾، لكن لا مانع من تعليقها بما مرَّ بأوْجُهه.

(بلاغة) ﴿**وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ**﴾ لا يؤاخذهم بها، لا يظهرها بالعقاب، كَأَنَّهَا لم تكن. وقدَّم الإدخال على التكفير في الذِّكر مع أنَّه متأخِّر في الوجود مسارعةً إلى المطلوب الأعلى، قيل: أو قدِّم لأنَّ التكفير في الجنَّة، أي: يسترها فيها لا تخطر ببالهم، ولا يذكرها أحد، لِئَلاَّ ينغصوا، وهو غير متبادر.

﴿**وَكَانَ ذَٰلِكَ**﴾ الإدخال والتكفير ﴿**عِندَ اللهِ**﴾ متعلِّق بـ«كَانَ»، أو حال من قوله: ﴿**فَوْزًا**﴾ أي: فلاحًا وربحًا ممتازًا به عن الغير ﴿**عَظِيمًا**﴾ لا يحيط به إلاَّ الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ**﴾ قدِّم أهل النفاق في القرآن كلِّه لأنَّ ضررهم على المسلمين أكثرُ، لأنَّه خَفِيٌّ، بخلاف

المشرك فإنَّه ظاهر يحذر ويقاتل، ويحترز عنه، فكان في تقديم تعذيبهم تعْجيلُ المسرَّة للمؤمنين ﴿الظَّآنِّينَ بِاللهِ﴾ الباء للإلصاق مجازًا، أو بمعنى في مجازًا، سُبحان الله، أو يقدَّر في نبيء الله، أو دين الله على حذف مضاف، ﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾ ظنَّ الأمرِ الفاسد المذموم، وهو وصف، ويجوز أن يكون مصدرًا، وذلك أنَّهم ظنُّوا أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لا ينصر رسوله ﷺ والمؤمنين، وظنُّوا أنَّه ليس رسولاً، وأنَّه لا بعث، وأنَّ لله شركاء، وظنُّوا أنَّ القرآن ليس من الله عَزَّ وَجَلَّ، وغير ذلك.

(صرف) و الإضافة إضافة المصدر إلى مفعوله، والأصل فيه وفي مضموم السين المصدر، وهما بمعنى واحد، ومعنى قول بعض المحقِّقين: إنَّه مصدر والمضموم اسم مصدر، أنَّه باق على المَصدَرِيَّة، والمضموم بمعنى الحاصل من المصدر لا اسم المصدر الذي فيه معنى المصدر، مع إسقاط حرف بلا عوض عنه، ويقال: الأصل في المفتوح أن يضاف إليه ما يراد ذمُّه، والمضموم جرى مجرى لفظ الشرِّ.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ﴾ عقاب يدور عليهم، ويحيط لذلك الظنِّ، وأضيف للسوء المعهود لأنَّه سبب لهذا العقاب. و«ال» للعهد، أو المراد مطلق السوء، فـ«ال» للجنس. و«دَائِرَةُ» اسم فاعل تغلَّبت عليه الاسميَّة، فكان اسمًا للعقاب أو العذاب أو نحو ذلك. والجملة إخبارٌ، أو على طريق الدعاء مجازًا، والله منزَّه عن الدعاء.

﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ كتب لهم العذاب، أو أوعده لهم، أو ألقى عليهم الخذلان ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أبعدهم عن الخير ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ هيَّأها لهم ﴿وَسَآءَتْ﴾ جهنَّم ﴿مَصِيرًا﴾ لا يقدَّر مخصوص هنا، لأنَّ الفاعل هنا ليس اسم جنسٍ يُبْهَمُ ثمَّ يفسَّر ليحصل فائدة الإجمال والبيان بعده.

﴿وَلِلَّه جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ﴾ مرَّ مثله. وذيَّله بقوله: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لأنَّ المراد أنَّه مدبِّر المخلوقات بمقتضى علمه وحكمته، وذكرهُ هنا للتهديد والانتقام، فناسب أن يذيِّله بالعزَّة والحكمة، كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ كما قال: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ (سورة الزمر: ٣٧) ، أو الجنود هناك جنود رحمة وهنا جنود عذاب، كما دلَّ له لفظ العزَّة، وعلى كلِّ حالٍ لا يخلو التكرير من تأكيد.

وعبارة بعضٍ: قدَّم ذكرَ الجنود على ذكر إدخال المؤمنين الجنَّة ليكون مع المؤمنين جنود الرحمة يثبِّتونهم عند الحساب، وإذا دخلوا الجنَّة أفضُوا إلى رحمة الله تعالى، فلا يحتاجون بعدُ إليهم. وذكر الجنود بعد تعذيب المنافقين والمشركين لأنَّهم لا يفارقونهم في التعذيب.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾

مهامُّ النبيء ﷺ وجزاء المبايعين

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ على أمَّتكَ بإيمان وكفر، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (سورة البقرة: ١٤٣) ، قال قتادة: وعلى الأنبياء أيضًا أنَّهم قد بلَّغوا ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنَّة على إيمانهم وأعمالهم، والعفْو عن ذنوبهم ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين بعكس ذلك.

﴿لِّتُومِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ الخطاب له ﷺ ولأمَّته حقيقة، لا بتغليب لخطابه على غيبتهم، ولا لتغليب خطابهم على غيبته الحاصلة بلفظ «رسول»، من حيث

إنَّ الاسم الظاهر من قبيل الغيبة. وحاصل ذلك أنَّ الآية ككتاب كُتِب إلى قوم غائبين، أو حضر بعض خوطبوا فيه.

ومعنى إيمان الرسول إيمانُه ﷺ بنفسه، فإنَّه يجب على كلِّ نبيء أن يؤمن بنفسه. ولذكر لفظ «رسول» قال غير واحد: إنَّ الخطاب للأمَّة وحدها، فعلَّق اللام بمحذوف، أي: فعل ذلك الإرسال لتؤمنوا... وإن اعتبرنا أنَّ الخطاب في «أَرْسَلْنَاكَ» مُنزَّلٌ منزلة خطاب أمَّته، وجعنا الخطاب في «تُومنُوا» لهم صحَّ التعليق بـ«أَرْسَلْنَا» فكأنَّه خاطب في الموضعين الأمَّة، فتخلَّصنا من لزوم خطاب اثنين في كلام واحد بلا تبعيَّة أو تثنية أو جمع، وأمَّا قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي﴾ (سورة يوسف: ٢٩) ، فـ«أَعْرِضْ» كلامٌ، و«اسْتَغْفِرِي» كلامٌ آخر فلا ضير، ولاسيما أنَّه بالعطف، كما أنَّ هنا كلامين إذا جعلنا اللام للأمر.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تنصروا الله تعالى، كما رواه جابر بن عبد الله عنه ﷺ ، وقاله قتادة، وتقدَّم معنى نصر الله بأوجه، منها أنَّه **نصر دينه ورسوله** ﷺ ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تُعظِّمُوا الله ﷻ . وعن ابن عبَّاس: الضميران لرسول الله ﷺ ، وأوْجبَهُ بعضٌ في الأوَّل هُروبًا من إطلاق التعزير في حقِّ الله تعالى، وفي ردِّهما أو أحدهما إليه ﷺ تفكيك الضمائر، لأنَّ الضمير لله تعالى إجماعًا في قوله تعالى:

﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ عن صفات الخلق وصفات النقص ﴿بُكْرَةً﴾ غدْوةً ﴿وَأَصِيلاً﴾ عشيًّا، والمراد عموم الأوقات، في النهار أو فيه وفي الليل، كما يكنَّى عن الشيء بما لا يشمله اللفظ، وذلك [التسبيح] بغير الصلاة مطلقًا، أو بالصلاة في وقتها، وقيل: المراد خصوص البكرة وصلاة الفجر، وخصوص العشيِّ وصلاة الظهر والعصر.

﴿إنَّ الذينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يوم الحديبية على الموت عند سلمة بن الأكوع، وعلى أن لا يفرُّوا عند ابن عمر وجابر. وفي البخاري ومسلم عن يزيد بن عبيد: قلت لسلمة بن الأكوع: على أيِّ شيء بايعتم رسول الله ﷺ؟ قال: على الموت.

وفي مسلم عن معقل بن يسار: لقد رأيتُني يوم الشجرة والنبيء ﷺ يبايع الناس وأنا رافعٌ غصنًا من أغصانها عن رأسه ﷺ، ونحن أربع عشرة مائة، لم نبايعهُ على الموت، بل على أن لا نفرَّ.

ويجمع بين الحديثين بأنَّ جماعة بايعته على الموت يقاتلون حتَّى يموتوا أو ينصروا أو يكون أمر من الله عزَّ وجلَّ منهم سَلَمَة، وجماعةٌ على أن لا يفرُّوا منهم معقل. والمضارع للحال الماضية المحكيَّة، وقيل: نزلت قبل الحديبية، فالمضارع للاستقبال، كذا قيل، وليس كذلك بل لحكاية الحال الماضية، لأنَّ الآية بعد المبايعة. والمبايعة: الانقياد للطاعة، وفي ذلك تلويحٌ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُومِنِينَ أَنفُسَهُمْ...﴾ (سورة التوبة: ١١١)، إذا بايعوه على الموت، وهذا في قول ابن الأكوع.

(سيرة) وبيعته في الحديبية هذه بيعة الرضوان، والياء مشدَّدة عند عامَّة المحدِّثين، وتخفيفها أفصح، وهي قرية ليست كبيرة، بينها وبين مَكَّة مرحلةٌ أو أقلُّ، سمِّيت ببئر هنالك، وجاء في الحديث أنَّ الحديبية بئر، ويقال: شجرة حدباء، ولعلَّها حدبت عليه ﷺ، وقيل: كانت حدباء قبل نزوله.

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ يطيعون الله، وسمَّى إطاعته مبايعة لمشاكلة قوله تعالى: ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾، أو سَمَّاهَا مبايعة تسمية للمسبَّب أو اللازم بلفظ السبب أو الملزوم، فإنَّ المبايعة تستلزم الطاعة وتتسبَّب لها، وإنَّما كانت مبايعته ﷺ مبايعة لله تعالى لأنَّ المقصود من مبايعته امتِثَالُ أوامره تعالى.

﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ منَّةُ الله تعالى بالهداية فَوْق نِعَمِهِم التي هي مبايعة كلٍّ واحد منهم رَسول الله ﷺ، فإنَّه الذي وفَّقهم للمبايعة. قال الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيكُمْ أَنْ هَدَاكُم لِلاِيمَانِ﴾ (سورة الحجرات: ١٧).

وقال الزجَّاج: يد الله في الوفاء فوق أيديهم فيه، أو يد الله في الثواب فوق أيديهم في الطاعة، كما قال الزجاج، أو قوَّته تعالى ونصرتُه فوق قوَّتهم فيها، فَثِقْ بنصره تعالى لا بنصرهم، ولو بايعوك.

(بلاغة) وذكر ذلك بـ«يَد اللَّه» مشاكلة لقوله: ﴿أَيْدِيهِمْ﴾، أو «أَيْدِيهِمْ» على شاهدها و«يَد اللهِ» نعمته، أو ما مرَّ، وعلى كلِّ حالٍ ﴿مَنْ يُّطِعِ الرَّسُولَ فَقَدَ اَطَاعَ اللهَ﴾ (سورة النساء: ٨٠)، كما قال الله ﷻ. قيل: وفي اليد استعارة تخييليَّة مبنيَّة على استعارة مكنيَّة، هي أنَّه شبَّه الله تعالى بإنسان مبايع، ورمز لذلك بلازم الإنسان، وهو اليد.

(أصول الدين) قلت: يقبح أن يقال: شبِّه الله بكذا، ولو كان المعنى على غير التشبيه، وإلاَّ فقل: شبَّه فِعلَهُ تعالى ـ وهو نصرُه ـ لأنَّ فعله تعالى مخلوقٌ له تعالى بالإنسان، ورمز باليد. والحاصل مطلقًا أنَّ عقد الميثاق معه ﷺ عقد له مع الله تعالى، والله منزَّهٌ عن الجوارح، وأخطأ من أثبت اليد وقال: بلا كيف، فما يفيده قوله: بلا كيف؟!.

والجملة مستأنفة أو خبر ثان لـ«إنَّ». ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نَقَض العهد ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ يجني على نفسه بالنكث، وضررُه عليه.

(سيرة) قال جابر بن عبد الله: ما نكث البيعة إلاَّ جدُّ بن قيس، وكان منافقًا، وقيل: لم يبايع اختبأ تحت بطن بعيره. ففي مسلم سئل جابر: كم كانوا

يوم الحديبية ؟ قال: «كُـنَّا أربع عشرة مائة، وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ آخذ بيده صلوات الله تعالى وسلامه عليه تحت الشجرة، وهي سمرة، فبايعناه غير جدٍّ بن قيس الأنصاريِّ اختفى تحت بطن بعيره». وهذا أوْفق بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُومِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ (سورة الفتح: ١٨) ، فأسند المبايعة إلى المؤمنين وليس جد بن قيس مؤمنًا بل منافقا، إلاّ أنَّه يحتمل الجمع بأنَّه وافَقَ أوَّلاً على المبايعة وَلَمَّا كان إنجاز المبايعة بعدُ تحت الشجرة لم يبايع.

(أصول الدين) والآية تدلُّ على وجوب الإمامة الكبرى، ونصح الناس، وَكُلُّ آية أوجبت الإقامة بالعدل أو إقامة الدِّين فهي موجبة للإمامة، فهي من القرآن استنباطًا، وكذا في الأحاديث، وكذا ذكره ﷺ إمامة الصديق وإمامة عمر لعائشة وحفصة، وأوصَى الصدِّيق بها على عمر، وجعلها عمر شورى، وكان ﷺ يأمر باتِّباع الأئمَّة ما داموا على الحقِّ، فوجوبها بشرع.

(أصول الدين) وزعم أبو حظ والبلخي والبصري من المعتزلة، أنَّ نصب الإمامة واجب على الله تعالى، وهو خطأ، فإنَّه لا واجب على الله ولا محرَّم. وكذلك قالت الإماميَّة من الشيعة كالمعتزلة، وإنَّما يجب الشيء أو يحرم من الأعْلَى على الأدنى، ولا أعلى من الله ولا مساوي. ومعنى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُومِنِينَ﴾، وقوله تعالى: «**حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي**»[1]، أي: حكمْت بذلك.

(أصول الدين) وقالت الخوارج ــ والأصحُّ من المعتزلة ــ أنَّه لا يجب على الناس نصب الإمام، ومنهم من قال بوجوب نصبه عند ظهور

١- رواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم٢٥٧٧. في حديث قدسيٍّ، وَأَوَّلُه قوله تعالى: «يا عبادي إِنِّي حرَّمت الظلم على نفسي، وجعلته مُحَرَّما بينكم فلا تظالموا...»، من حديث أبي ذرٍّ.

الفتن، ومنهم من عكس، والحقُّ وجوب نصب الإمام إذا أمكن، لأَنـّــا أمرنا بإقامة الدين، ولا سبيل إلى إقامته إلاّ بوجود الأمان على أنفس الناس وأهلهم وأموالهم، ومنع تعدِّي بعض على بعض، وذلك لا يصحُّ إلاّ بوجود إمام يخافون سطوته ويرجون رحمته، ويرجعون إليه، ويجتمعون عليه، **وما لا يتمُّ الواجب إلاّ به فهو واجب.**

(فقه) فنصب الإمام واجب، ويجب أن يكون واحدا لئلاّ يختلفا فيكون الفساد، ولا يجب أن يكون الإمام أفضل القوم خلافًا للإسماعيليَّة ــ المنسوبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق[1]، المدفون بالقرب من البقيع ــ المسمَّاة بالباطنيَّة، لقولهم: لكلِّ ظاهر باطن، وبالصلاحات لعُدُولِهم قصدًا عن ظواهر الشرع إلى بواطن يدَّعونها في بعض الأحوال، وذلك تحريف وخروج عن الدين. وليس ذلك تصوُّفًا، لأنَّ المتصوِّف يثبت الظاهر ويستنبط منه معنى بإشارة.

ويكون الإمام من قريش إذا وجد وصلح للإمامة، وإلاّ فمن غيرهم، لا يجب أن يكون من بني هاشم. وزعم الرافضة أنّه لا بدَّ أن يكون علويًّا، وقيل: إن لم يوجد قريشيٌّ فمن كنانة.

(فقه) وينعزل بالفسق إن أصرَّ عليه، خلافًا للأشعريَّة. وذكر ابن العربي أنّه إذا كان الإمام لا ينظر في أحوال الناس ولا يمشي فيهم بالعدل فقد أزال نفسه من الإمامة، في نفس الأمر دون الظاهر، واختار أنّه إذا فسق انعزل فيما فسق فيه، لأنّه لم يحكم فيه بما أنزل الله تعالى، وقد أثبت لهم في الحديث اسم الإمامة ولو جاروا.

١- تَقَدَّمَ التعريف به، انظر: ج٧، ص٣٥٨.

ولا يكون الإمام بدويًّا، أو عبدًا، أو طفلاً، أو جبانًا، أو أعمى، أو أصمَّ، أو أبكم، أو لا رأي له. وإن لم يجدوا إلاّ بدويًّا نصبوهُ.

﴿وَمَنَ اَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَنُوتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ «مَنْ» اسم شرط. و«أَوْفَىٰ» فعل ماض لا اسم تفضيل، وهو مرادف لوفى. والأجر العظيم: الجنَّة وما فيها مِمَّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولاخطر على قلبْ بشر.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلَاعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَّمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا اِنْ اَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا اَوَ اَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمُۥٓ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَالْمُومِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمُۥٓ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُومِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَّشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَّشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمُۥٓ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَاخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُّبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلَاعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ اُوْلِے بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمُۥٓ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُوتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا اَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلَاعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلَاعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُّطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ نُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِے مِن تَحْتِهَا ٱلَانْهَٰرُ وَمَن يَّتَوَلَّ نُعَذِّبْهُ عَذَابًا اَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

أنواع المتخلفين عن الحديبية، وجزاؤهم

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين تركتموهم خلفكم و لم يخرجوا معكم إلى مَكّة عام الحديبية معتمرين ﴿مِنَ الاَعْرَابِ﴾ عرب البدو، لا واحد له من لفظه إلاّ بالنسب، تقول: جاء أعرابيٌّ، وقيل: مفرده عرب على العموم، ثمّ خصّ بأهل البدو منهم.

(سيرة) والمخلّفون منهم: جهينة ومزينة وغفار وأشجع والصمايل وأسلم وذيل ونخع، طلبهم رسول الله ﷺ ليخرجوا معه للعمرة حذرًا من قريش أن يتعرّضوا له بحرب، أو يصدُّوه عن البيت، وأحرم هو ﷺ وساق معه الهدي ليعلم الناس أنّه ما أراد حربًا، فامتنعوا لَمَّا رأوا أنّه استقبل ﷺ عددًا عظيمًا من قريش، وثقيف وكنانة والأحابيش، وهم القبائل المجاورون حول مكّة، وقالوا: كيف نذهب إلى قوم غزوه في داره، وقتلوا أصحابه؟ وقالوا ــ ولم يتمكّن الإيمان في قلوبهم ــ : لن يرجع محمَّد وأصحابه من هذه السفرة، فأوحى الله تعالى إليه بما قالوا، فأخبرهم بما قالوا قبل أن يصل إليه رسولهم به، وباعتذارهم المذكور في قوله تعالى: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ عن السفر معك إلى مَكّة للعمرة ﴿أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ إذ لاحافظ لها بعدنا، وأخّروا ذكر الأهل للترقّي بأن يذكروا شيئًا فشيئًا، فيختموا بما يكون حجّة لا تردُّ، وإن ردَّ ما قبلها لا للإهانة، لأنّ المحافظة على النسوة والمماليك والأولاد أهمُّ عند ذوي الغيرة من المحافظة على الأموال، وذلك مطبوع في القلوب ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ادع الله أن يغفر لنا تخلُّفنا عنك، فإنّه لم يكن لتكاسل أو لحبٍّ خذلان لك، بل لذلك الشغل.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مستأنف لتكذيبهم، إذ قالوا: تخلّفنا لذلك الشغل، وفي قلوبهم أنّهم تخلّفوا لخذلانه، ولخوف أن

يقتلوا، وبُخلاً بمؤونة السفر، ومشقّته. وإذ طلبوا الاستغفار طلب المعترف بالذنب، وفي قلوبهم أنّهم لم يذنبوا في تخلّفهم. وأطلت الكلام على الكذب عند النظّام من المعتزلة وغيره في موضع آخر.

﴿قُلْ﴾ ردًّا عليهم ﴿فَمَنْ يَّمْلكُ﴾ الفاء عاطفة في الأصل على كلامهم، وأمّا في الحال فممّا نصب بالقول، كأنّه قيل: اعطف على كلامهم بقولك، ﴿فَمَنْ يَّمْلكُ﴾ أو في جواب شرط محذوف، والكلّ وما بعده منصوب بقول، أي: قل: إن كان ذلك فمن يملك...إلخ. والملك التغلّب على الشيء بقُوَّة وضبط. قال شيخ من العرب: «أصبحت لا أملك رأس البعير إن نفرا»[1]، أو يقال: ملكت العجين إذا شددتُّ عجنه، فمعنى الآية: من يستطيع لكم إمساك شيء من قدرة الله تعالى إن أراده بكم؟. ﴿لَكُم﴾ هذه اللام صلة للفعل قبلها، وهي للتمليك والنفع، والقول بأنّها للبيان، أي: أعني لكم تخليطٌ، وزيادة معنًى غير مراد.

﴿مِّنَ اللهِ﴾ «مِنْ» للابتداء، متعلّق بـ«يَمْلكُ»، كما تعلّقت به اللام، أو بمحذوف حال من قوله: ﴿شَيْئًا﴾ نفعًا أو دفع ضرٍّ، ودفع الضرّ نفع، فصحّ أنّ اللام للتمليك والنفع، ولا ينافي هذا النفع عموم قوله: ﴿شيئًا﴾ للضرّ لِمَا علمت أنّ دفعه نفع.

﴿اِنَ اَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ إيقاع الضرّ ﴿اَوَ اَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ إيقاع النفع، والضرُّ والنفع باقيان على المعنى المصدريّ، ويجوز تفسيرهما بمعنى الوصف، أي: الأمر الضارُّ أو النافع، كأنّه قيل: ما يضرُّ وما ينفع، وقدّر بعض: «من يملك لكم

١- البيت من المنسرح، وهو للربيع بن ضبع كما في اللسان، ولفظه في الشواهد: ج٣، ص١٣٢:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا   أملك رأس البعير إن نفرا.

شيئًا إن أراد بكم ضرًّا، أو من يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعًا»، وهذا تفسير لـ«يَمْلِكُ» بدفع المضرَّة هنا، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَّمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا اِنَ اَرَادَ أَنْ يُّهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ...﴾ (سورة المائدة: ١٧) ، وقوله: ﴿وَمَنْ يُّرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ (سورة المائدة: ٤١) ، وأنت خبير أنَّ دفع الضرِّ نفع، ولا نسلِّم أن قولهم: «ملك له كذا» مختصٌّ بدفع الضرِّ. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا الذي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ اِنَ اَرَادَ بِكُمْ سُوءًا اَوَ اَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ (سورة الأحزاب: ١٧) ، والمراد عموم كلِّ نفع وكلِّ ضرٍّ لا خصوص إضاعة الأهل والمال وحفظهما، كما زعم بعض، لأنَّ العموم يفيدهما وزيادة، ولا دليل لذلك الزعم في تهديدهم بقوله:

﴿بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الخذلان وسائر المعاصي ﴿خَبِيرا﴾ فيجازيكم عليه، والإضراب بـ«بَلْ» انتقاليٌّ، وكذا في قوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمُ, أَن لَّنْ يَّنقَلِبَ﴾ يرجع ﴿الرَّسُولُ...﴾الخ والإضرابان مقصودتان كلٌّ واحد عمَّا قبله، قيل: الأخير[1] بدل من قوله :﴿بَلْ كَانَ اللهُ...﴾ وتفسيرٌ لما فيه من الإبهام، وإن شئت فإضرابات ثلاثة والثالثة ﴿وَزُيِّنَ ذَلِكَ﴾، أو الثالثة: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ على أنَّ المراد ظنُّهم السوء عمومًا، لا خصوص ظنِّ «أن لن ينقلب الرسول»، وقيل: هو بيان للعلَّة في تخلُّفهم.

والمعنى لأنَّ اعتذاركم بالأموال والأهلين كذبٌ، ليس ذلك مرادًا، بل خفتم أن يقتل النبيء ﷺ والمؤمنون فتقتلوا معهم، كما قال : ﴿أَن لَّنْ يَّنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُومِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمُ,﴾ عشائرهم وقربائهم ومن جاورهم ﴿أَبَدًا﴾ بأن

١- في الطبعة العمانيَّة: «والإضرابتان مقصودتان، كلٌّ واحدة عمَّا قبلها، قيل: وفي الأخيرة بدل...»إلخ.

يقتلهم المشركون، أو يقتلوا بعضًا ويأسروا بعضًا، وقالوا: محمَّد ومن معه أَكَلة رأس، بفتح الهمزة والكاف، أي: عدد قليل، كمقدار عدد يشبعه رأس ناقة أو بعير، بالنظر إلى من في مكَّة وحولها، أو بِضَمٍّ فإسكان، أي: كرأس مأكول. وجمعٍ أهل جمع السلامة لمذكَّر فصيحٌ استعمالاً شاذٌّ قياسًا، لأنَّه ليس عملاً ولا وصفًا، ولا يخرجه عن الشذوذ تأويله بالوصف، و«أَبَدًا» تأكيد لمعنى «لَنْ»، وهو التأبيد في النفي على أنَّ «لن» للتأبيد.

﴿وَزُيِّـــنَ ذَٰلِكَ﴾ زين الشيطان، أو الله بخذلانه ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ذلك الظنَّ المدلول عليه بـــ«ظَنَنتُم»، أو ذلك المظنون الذي هو انتفاء انقلاب الرسول والمؤمنين إلى أهليهم أبدًا، والأوَّل أنسب بقوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أي: استمررتم عليه، فاشتغلتم بأموالكم وأهليكم، ولم تبالوا برسول الله ﷺ والمؤمنين.

وإنَّما أوَّلتُ الظنَّ بالاستمرار لِئَلاَّ يتكرَّر مع ما قبله، أو كُرِّر للتأكيد، أو ليجمعه تأكيدًا مع ما بعده من كونهم قومًا بورًا، كقولك قبَّح الله عمرا يزني، يزني ويسرق، بذكر يزني مرَّة ثانية، ليكون كقولك تصريحًا: قبَّحه الله يزني ويجمع مع الزنى السرقة. و«الْ» في ذلك كلِّه للعهد في ظنِّ انتفاء انقلاب الرَّسول والمؤمنين، وإن جعلناها للجنس كان الظنُّ مع السوء تعميمًا بعد تخصيص، بأن يراد ذلك الظنُّ وسائر ظنونهم الفاسدة.

﴿وَكُنتُمْ﴾ في أحوالكم أو في علم الله، أو في اللوح المحفوظ، أو صِرتُم ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ هالكين لفساد اعتقادكم، أو فاسدين في أنفسكم وقلوبكم واعتقادكم، وأصله مصدر ضُمِّن معنى الوصف، وهو بائر، وأجيز أنَّه جمع بائر، لأنَّ فاعلاً قد يجمع على فُعل بضمٍّ فإسكان، كحائل وحول، وعائذ وعوذ، وبازل وبزل.

﴿وَمَن لَّمْ يُومِنۢ بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ كهؤلاء المخلَّفين ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ هيَّأنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: لهم، وأظهر ليصفهم بالكفر، وليبين أنَّه من آمن بالله دون رسوله كافر مستوجب للعذاب، وأنَّ كفرهم سبب عذابهم بالسعير، والرابط لفظ الكافرين، لأنَّه في مقام الضمير، وإن فسَّرنا الكافرين بالعموم فالرابط هو العموم الشامل للمخلَّفين.

﴿سَعِيرًا﴾ التنكير للتعظيم، أي: نارا عظيمة مسعورة، أي: موقدة يعذَّبون بها، أو للتنويع، أي: نوعًا من النار المسعورة، يختصُّ بها المخلَّفون، وإذا فسَّرنا الكافرين بالعموم وجعلنا التنكير للتنويع فالمراد نوع ممَّا يقدر الله عليه، أو نوع غير نوع نار الدنيا.

قلت: ومن العجيب إجازة جعل «مَنْ» موصولة مع إمكان الشرطيَّة الأَصليَّة في الفاء، المغنية عن دعوى زيادة الفاء في خبر الموصولة، نعم إذا تعيَّن أنَّ المراد المخلَّفون تعين أنَّها موصولة، ولم تحمل على الشرطيَّة.

﴿وَلِلهِ﴾ وحده ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ يتصرَّف فيهما، فهو الذي له المغفرة والتعذيب ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَّشَآءُ﴾ أن يغفر له ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَّشَاءُ﴾ أن يعذِّبه، لا دخل لأحد في الغفران أو التعذيب، كما أنَّ له وحده ملك السماوات والأرض ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لمن اقتضت الحكمة المغفرة والرَّحمة له ممَّن آمن بالله ورسوله لا غيرهم، وذَكَر المغفرة بصيغة المبالغة وذيَّلها بالرحمة كذلك، ولم يذكر معذِّبًا، لأنَّ «رحمته سبقت غضبه»، كما قال ﷺ : «**قال عزَّ وجَلَّ جلاله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾** [سورة الأنعام: ٥٤] **بيده** ـــ أي بتكوينه قبل أن يخلق الخلق ـــ : **رحمتي سبقت غضبي**»[1].

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٤، ص٢٢٣.

(أصول الدين) وهذا السبق ذاتيٌّ، فالمغفرة والرحمة بحسب الذات، والتعذيب بالعرض، بمعنى أنَّه لا يتصوَّر إلاَّ بالذنب، بخلاف الرحمة فتتصوَّر بلا عمل كما في الأطفال، وكما في البلّغ المجنونين من الطفوليَّة، وكما لو يعصي إنسان كعصيان إبليس فيموت تائبًا في آخر عمره ــ ولو كان عمره الدنيا ــ لأدخله الجنَّة، إلاَّ أنَّ هذا مقابل بأنَّه لو أطاعه تلك المدَّة مثلاً ومات على معصية مصرًّا آخر عمره لأدخله النار. وليس المراد أنَّ العقاب حدَثَ لله سبحانه، وقد غفل عنه حين القضاء، ولا أوَّل لقضائه الأزليِّ، ولقضائه بعد ذلك أَوَّل، وهو كَتْبُه في اللَّوح، أو الإخبار به.

وقيل: السبق بمعنى الكثرة، وكذا الغلبة في رواية: «غلبت رحمتي غضبي». وإن فسَّرنا الرحمة بالإنعام فالسبق بالوجود خارجًا، كما يخلق الإنسان ويطعمه ويسقيه، وينفعه بجوارحه. والآية **ترجية للمخلَّفين على أن يؤمنوا برسول الله** ﷺ.، أو حاسمة لأطماعهم في الاستغفار لهم تلويحًا بأنَّهم ليسوا مِمَّن يغفر لهم ويرحمُ، ما لم يتوبوا.

[قلت:] أو المغفرة والرحمة مقيَّدتان بالتَّوبة في الآي الأخر، مقدَّرة حيث لم تذكر.

﴿**سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ**﴾ المذكورون ﴿**إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَاخُذُوهَا**﴾ مغانم خيبر عند الجمهور، لأنَّها أوَّل المغانم بعد الرجوع من الحديبية، وجاء في الأخبار الصحيحة أنَّ الله تعالى وعد أهل الحديبية أن يعوِّضهم من مغانم مَكَّة خيبر ومغانمها، إذا قفلوا من الحديبية موادعين لا يصيبون شيئًا. وأمَّا السين فلا تدلُّ على أنَّ المراد مغانم خيبر، كما قيل: إنَّها للقرب فدلَّت على مغانمها للقرب، ولا نسلِّم أنَّ السين تدلُّ على القرب. و«إِذَا» متعلِّق بـــ«يَقُولُ» خارج عن الشرط، ومفعول «يَقُولُ» هو قوله:

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر، ونشهد معكم قتال أهلها، يريدون الأخذ من مغانمها، لم يخافوا من قتالهم لأنّه دون أهل مَكّة، فتحقّقوا النصر ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُواْ كَلاَمَ اللهِ﴾ قضاءه بأن لا يشارك في غنائمها أحدٌ أهلَ الحديبية، أي: يريدون أمرًا هو في نفس الأمر مخالف لقضائه تعالى، وذلك قبل أن يخبرهم ﷺ بأنّ الله خصَّها لأهل الحديبية، وأمّا بعد أن أخبرهم فقد لا يصدِّقونه أنّه قال عن الله، وقد يصدِّقونه ويطمعون في التبديل لجهلهم، وقد قضى الله أن لا يؤمنوا فلا يشاركوهم، ويحتمل أنّهم لا شيء لهم فيها ولو آمنوا واتّـبَعوهم.

أو المراد بتخصيص أهل الحديبية بها أنّه لا يشاركهم هؤلاء المخلّفون، وأمّا غيرهم فيجوز.

(سيرة) وقد قدم جعفر وجماعة من الحبشة حال حصار خيبر، أو حال فتحها فأعطاهم من غنائمها، وأعطى بعض الدوسيِّين وبعض الأشعريِّين، فقيل: برضى أهل الحديبية، وقيل: مِمّا صالح عليه بعض أهل خيبر، على أنّه صالح بعضها وقاتل بعضها، لكن الصحيح أنّه قاتلها كلّها، ولم يصالح شيئًا منها، وقيل: أعطاهم من الخمس الذي هو حقُّه ﷺ .

(سيرة) وقد غزت مزينة وجهينة من هؤلاء المخلّفين، بعد هذه المدَّة معه ﷺ ، وفضَّلهم ﷺ على تميم وغطفان وغيرهم من العرب، وذلك بعد أن أخلصوا وخرجوا عن النفاق، وقيل: تبديل كلام الله عز وجل تبديل أمره تعالى أن لا يسير منهم أحد إلى خيبر، وبه قال مقاتل. وقال ابن زيد: كلامُ اللهِ هو قوله تعالى: ﴿لن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبدًا﴾ (سورة التوبة: ٨٣) .

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ إخبارٌ، أي: قضى الله أن لا تتَّبعونا إلى خيبر، وقيل: بمعنى النهي، جاء بصورة الإخبار مبالغةً، وقيل: لا تتبعوننا ما دمتم على

النفاق، وقيل: لا تتَّبعونا إلاَّ إن كُنتم لا تأخذون من الغنيمة شيئًا بل تتَّبعونا محتاطين.

﴿**كَذَٰلِكُمْ**﴾ أي: مثل ما ذكر من انتفاء الاتِّباع، أو النهي عنه ﴿**قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ**﴾ قبل طلبكم الاتِّباع وتهيُّئِكم، قاله حين قفلتم من الحديبية ﴿**فَسَيَقُولُونَ**﴾ إذا سمعوا هذا النفي أو النهي ﴿**بَلْ تَحْسُدُونَنَا**﴾ أن نأخذ معكم من الغنائم، ما نهانا الله عن الاتِّباع، ولا نَفَاهُ عنَّا.

﴿**بَلْ**﴾ إضرابٌ إبطاليٌّ، أبطل به الحسد عمَّن نسبوه إليه، ﴿**كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ إلاَّ فقهًا قليلاً، وهو علمهم بأمور الدنيا، وذلك ردٌّ عليهم بجهلهم المركَّب المفرط، إذ أثبتوا الحسد للمؤمنين البريئين منه، لسوء فهمهم الذي هو أقبح من الحسد، بل هم الحاسدون للمؤمنين فيما اختصَّهم الله عز وجل به.

﴿**قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ**﴾ لم يضمر لهم ليصفهم بوصف قبيح وهو التخلُّف ﴿**سَتُدْعَوْنَ**﴾ يدعوكم الله عز وجل على لسان رسوله، أو يدعوكم رسوله ﷺ ﴿**إِلَىٰ قَوْمٍ**﴾ إلى قتال قوم ﴿**أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ**﴾ هم الروم الذين خرج إليهم ﷺ عام تبوك، والذين بعث إليهم في غزوة مؤتة عند كعب الأحبار، وفارس والروم عند الحسن، كما رواه سعيد بن منصور.

وقيل: سيدعوكم الصِّدِّيقُ إلى قتال بني حنيفة وهم مسيلمة الكذَّاب وقومه أهل اليمامة وهومشهور، وعليه جماعة، منهم الزهريُّ، كما أخرجه الطبرانيُّ، وروي عنه وعن الكلبيِّ: بنو حنيفة وأهل الرِّدة.

قال رافع بن خديج: كُــنَّا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم حتَّى دعا أبو بكر رضي الله عنه إلى قتال بني حنيفة، فعملنا أنَّهم أريدوا بها.

وقيل: يدعوكم عمر إلى قوم هم فارس، وقيل: دعاهم إلى فارس والروم، وفي ذلك دليل على صحَّةِ خلافتهما، لأنَّ الله تعالى وعد على طاعتهما الجنَّة وعلى مخالفتهما النار.

[قلت:] وإنَّما دعاهم أبو بكر وعمر مع قوله تعالى: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾، وقوله ﷻ: ﴿لن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾ لأنَّ المراد ما دمتم كُفَّارًا، وما دعاهم أبو بكر وعمر إلاَّ بعد إسلامهم وتركهم النفاق، وأجمعوا أنَّه من أسلم وجب عليه الجهاد ووجب دعاؤه إليه، ولا يُمنَعُ منه.

(سيرة) والخطاب للمخلَّفين من الأعراب الذين دعاهم ﷺ للخروج إلى مكَّة، وهم جهينة ومزينة كما روى ابن جريج، وكذا في جميع الأقوال الخطاب للمخلَّفين بنصِّ الآية، وكذا قال ابن عبَّاس كما رواه الطبريُّ والبيهقيُّ، وكذا قال عطاء بن أبي رباح وعطاء الخراساني، وابن أبي ليلى، وهو رواية عن مجاهد.

وقال عكرمة وسعيد بن جبير وقتادة: هم هوازن، ومن حارب رسول الله ﷺ في حنين، وعن قتادة: هوازن وثقيف، وروى ابن مردويه عن ابن عبَّاس: هوازن وبنو حنيفة، وروى الطبرانيُّ عن مجاهد أنَّهم أعراب فارس والأكراد، وفي هذه الأقوال الدعاء بعده للنبيء ﷺ .

ويجوز أن تكون هذه الروايات تمثيلات، والأكراد معروفون بالشدَّة، والمشهور أنَّهم عجم، وقيل: عرب، وقيل: منهم عجم وعرب، وذكر أبو عمرو بن عبد البرِّ أنَّهُم من نسل عمرو مُزَيْقِيًّا بن عامر، وعامر هذا هو الملقَّب "ماء السماء"، وأنَّهم وقعوا إلى أرض العجم فتناسلوا وجدُّهم من العرب، قال شاعر:

لعمرك ما الأكراد أبناء فارس ولكنَّه كردُ بنُ عمرو بن عامر[1].

﴿تُقَاتِلُونَهُمُ﴾ إن أصرُّوا ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ فلا تقاتلوهم، ولا ثالث، إمَّا القتال وإمَّا الإسلام، و«أو» للتنويع والحصر، كما يَدُلُّ له قراءة أُبيٍّ وزيد بن عليٍّ بحذف نون «يُسْلِمُونَ» على أنَّ «أَوْ» بمعنى إلاَّ أو إلى، كقوله:

.... كسرت كُعُوبَها أو تَستقيما[2]

والجملة مستأنفة، وهي مفسِّرة للدعاء إلى القوم. والحصر المذكور ينافي رواية تفسير القوم بالروم، وهم نصارى، أو فارس وهم مجوس، أو صابون.

(فقه) والنصارى والصابون والمجوس تقبل منهم الجزية، فالمراد مشركو العرب غير هؤلاء، ومرتدُّون، فإنَّهم هم الذين لا يقبل منهم إلاَّ الإسلام أو القتل، واختلف في مشركي العجم، والمذهب أن لا تقبل منهم الجزية، وقال أبو حنيفة: لا تقبل عن الصابين أيضًا.

﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ داعيكم إلى قتال القوم ﴿يُوتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنَّة في الآخرة، ولا غنيمة لكم، وقيل: الجَـنَّة والغنيمة، وهو أولى فيما قيل، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ عن قتال القوم ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا اَلِيمًا﴾ لمزيد تولٍّ بعد تولٍّ، وذلك في الآخرة، وقيل: فيها وفي الدنيا، وهو أولى فيما قيل، والمتبادر في الموضعين عذاب الآخرة.

وَلَمَّا أكَّد عليهم في القتال استثنى من لا يجب عليه الخروج من الوجوب، وإن خرج بلا إلقاء لنفسه في الهلاك أثيب، كما قال: ﴿لَيْسَ عَلَى الاَعْمَىٰ

١- البيت من الشواهد ولم ينسب لشخص حسب المراجع. انظر: اللسان، مَادَّة: «كرد».

٢- البيت من الوافر، وهو لزيادة الأعجم. في ديوانه ص١٠١، وأوَّله : «وكنت إذا غمرت قناة قوم...». انظر: المعجم المفصَّل في الشواهد: ج٧، ص١١٤.

﴿حَرَجٌ﴾ ضيقٌ أو إثمٌ في تخلُّفه، وذلك نفيٌ للوجوب، كما عبَّر بعلى، وإن خرج الأعمى بقائد جاز، كما غزا ابن أمِّ مكتوم وكان أعمى، وحضر في بعض حروب القادسيَّة، وكان يحمل الراية.

﴿وَلاَ عَلَى الاَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ في التخلُّف، وإن خرج جاز **﴿وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾** في التخلُّف، وإن خرج جاز، ومثل المريض المقعد، وصاحب السُّعال الشديد، وصاحب الطحال الكبير، والفقير الذي لا يجد زادًا أو سلاحًا أو ما لا بدَّ له منه، أو لا يجد من يقوم بالكسب لأهله، ومن لا يجد من يقوم بمريضه، ممَّن لا بدَّ له من قائم عليه.

(فقه) والجواز في ذلك كلِّه في رجاء نفعٍ مَّا بلا إلقاء نفسٍ في التهلكة، فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (سورة البقرة: ١٩٥) ، ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة النساء: ٢٩) .

(بلاغة) وقدَّم الأعمى في العذر لأنَّه لا يبصر العدوَّ، ولا إلى أين يضْرب ولا قدرة له على الحرَس، بخلاف الأعرج فله قدرة على الحَرَس والنظر وغيره، وقدَّم الأعرج على المريض لأنَّ المريض قد يتحامل ويشفى.

﴿وَمَنْ يُّطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأمر والنهي **﴿نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ وَمَنْ يَّتَوَلَّ﴾** عن الإطاعة **﴿نُعَذِّبْهُ عَذَابًا اَلِيمًا﴾** لا يُدرِك قدره غيرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والمراد بالمطيع والمتولِّي هنا ما يعمُّ المخلَّفين والخارجين إلى الحديبية وغيرهم، وفيما قبل هذا المتخلِّفون والخارجون فقط، وقال: ﴿نُعَذِّبْهُ﴾، ولم يقل ندخله نارًا كما يناسب ﴿نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ على طريق الاعتناء بالعذاب، فإنَّ التعذيب يستلزم إدخال النار، وإدخال النار لا يستلزم التعذيب في الجملة، فإنَّ الملائكة تدخلها، كذا قيل، وفيه أنَّ التعذيب لا يستلزم النار لإمكانه بلا نار، وما هنا مؤكِّدٌ لما قبله.

وذكر المؤمنين الخلّص يوم الحديبية بقوله:

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾

جزاء أهل بيعة الرضوان

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُومِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ هم السائرون يوم الحديبية، إلاَّ جدَّ بن قيس من بني سلمة، فلم يبايع لنفاقه كما مرَّ، استتر ببطن بعيره.

(سيرة) وقال جابر بن عبد الله: كأنّي أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته مستترا من الناس. وتسمَّى بيعة الرضوان لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ﴾. لما نزل رسول الله ﷺ في الحديبية بعث خراش بن أميَّة الخِزاعي ـــ بكسر الخاء ـــ على جمل له ﷺ ، يقول عنه ﷺ : «إنَّه جاء للعمرة لا للقتال» فعقروا جمله وأرادوا قتله فمنعه الأحابيش، فدعا عمر ليبعثه إليهم فقال: يا رسول الله عرفت عداوتهم لي ولا أحد من بني عديٍّ يمنعني، ولكن ابعث عثمان فإنَّه محبوب فيهم، وفيهم عشيرته، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، وقال: «أخبرهم أنّي لم آت لقتال بل للعمرة، وادعهم للإسلام»، وأمره أن يبشِّر رجالاً ونساء مؤمنات فيها بقرب الفتح، ولقيه أبان بن سعيد فنزل عن دابَّته، وحمله عليها وأجاره، وأخبر قريشًا، وقالوا له: إن شئت فطف بالبيت ولا سبيل لدخولكم علينا، فقال: لا أطوف حتَّى يطوف رسول الله ﷺ ، وحبسوه وشاع أنّه قتل، وقال ﷺ : «لا نبرح حتَّى نناجر القوم»، ونادى مناديه: ألاَ إنَّ الله أوحى إلى رسول الله ﷺ أن تبايعوه، فبايعوه كلُّهم بسرعة، إلاَّ جدَّ بن قيس، ثمَّ أتى الخبر أنَّه لم يقتل عثمان.

قال جابر بن عبد الله: بايعناه على أن لا نفرَّ، كما في مسلم، وقال سلمة ابن الأكوع: بايعناه على الموت، كما في البخاري. وأوَّل من بايعه أبو سنان، وهو وهب بن محصن، أخو عكاشة، وقيل: سنان بن أبي سنان، قال: أبسط يدك أبايعك، قال ﷺ : علام تبايعني؟ قال: على ما في نفسك، قالوا: علام نبايعك يا رسول الله؟ فقال بكير بن الأشج: بايعوه على الموت، فقال ﷺ : «بل على ما استطعتم»، قال جابر: بايعناه وعمر آخذ بيده، كما في مسلم.

وقال البخاري عن نافع: إنّ عمر أرسل ابنه عبد الله يوم الحديبية إلى فرس له عند رجل من الأنصار ليقاتل به ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، ولا يدري عمر بذلك، فبايع ابنُه، وذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر، ووجده يستلئم[1] للقتال، فأخبره بالمبايعة، فذهب معه ليبايع تحت الشجرة، فضرب ﷺ بيده اليمنى على يده الأخرى، وقال: هذه بيعة عثمان، وسمع المشركون فخافوا وبعثوا عثمان وجماعة من المسلمين.

وجُمع بين حديث مسلم وحديث البخاري بأنّ ما في مسلم في مبدأ البيعة، والمؤمنون ألف وأربع مائة عند الجمهور، ورواه البخاري عن جابر، وحدَّث سعيد بن المسيب عن جابر أنّهم ألف وخمسمائة، وكذا روى أبو داود عن عبد الله بن أبي أَوْفَى أنَّهم ألف وثلاثمائة، وعند ابن أبي شيبة عن سلمة بن الأكوع: ألف وسبعمائة، وذكر موسى بن عقبة أنَّهم ألف وستُّمائة، وعن ابن سعد أنَّهم ألف وخمسمائة وخمسة وعشرون، ويجمع بالازدياد، وبعدَّة الأصاغر وإسقاطها.

و«الشجرة» سمرة، وكان الناس يأتونها ويصلُّون عندها بعد رسول الله ﷺ ، فأمر عمر بقطعها خشية الفتنة لقرب الجَاهليَّة، ولخوف أن تعظَّم حتّى

١- استلأَم: إذا لبس اللَّأْمَة، وهي السلاح. انظر: اللسان، ج١٢، ص٥٣٢، مَادَّة: «لأم».

كأنَّها تُعبد. وعن ابن عمر: رجعنا من العام المقبل فما اجتمع مِنَّا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها، وكانت رحمة الله تعالى، أي: كان ذهابها رحمةً من الله تعالى لئلاَّ يفتن بها. ويروى أنَّ الناس اتَّخذوا عندها مسجدًا، وأخبر سعيد بن المسيب أنَّ أبي أخبرني بها وهو ممَّن بايع، ومن قابل نسيناها، قال: أينساها الصحابة وتعلمونها أنتم؟ ويجمع بأنَّه لَمَّا قطعها عمر توهَّموا أنَّهم نسوها. وروي أنَّ عمر قال: أين كانت الشجرة؟ فبعض يقول: هاهنا، وبعض هاهنا، وكثر اختلافهم، فقال: سيروا ذهبت الشجرة.

وعن عمرو بن دينار: سمعت جابر بن عبد الله يقول: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: أنتم اليوم خير أهل الأرض، وَكُنَّا ألفًا وأربعمائة، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة. وعن سالم عن جابر: كُنَّا خمس عشرة مائة.

وأفادت الآية أنَّ من لم يبايع سخط الله عليه، وهو ضدُّ الرضا، وذلك جدُّ بن قيس لعنه الله. و«إِذْ» للتعليل، ولابأس بالتعليل لما هو أزليٌّ، وهو الرضى بالحادث، وهو المبايعة. والمضارع لحكاية الحال الماضية على كلِّ حال.

(أصول الدين) ومعنى الرضى الأزليِّ: علمه بسعادة السعيد وإعداد التوفيق له، ولك جعل الرضى صفة فعل حادثة، كالمدح وإثبات الجنَّة والتوفيق، ونحو ذلك، وذلك كإثابة من رضي عَمَّن تحت يده، ثمَّ قيل: مفيد التعليل هو «إِذْ» وقيل: هي ظرف زمان ومفيده ما بعدها، كإفادة العلَّة بتعليق الحكم بمضمون المشتقِّ.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق في المبايعة عند قتادة وابن جريج والفرَّاء، ومن الإيمان والحرص على الدين وحبِّه عند ابن جرير ومنذر بن سعيد، ومن بغض المشركين ومصالحتهم ورغبتهم في القتال، لولا أنَّه ﷺ قد قبل الصُّلح.

أو من كراهة البيعة على الموت، لكن أنزل الله سكينته فبايعوا، بل من كلّ ذلك. والعطف على «يُبَايِعُونَكَ»، لأنّ المعنى: بايعوك، فعبّر عنه بالمضارع كما مرَّ، أو على «رَضِيَ»، على أنّ معنى «عَلِمَ» ظهر علمه، فعلٌ لله تعالى، وإلاّ فَعِلْمُهُ أزليٌ لا حادث.

﴿**فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ**﴾ سكون القلب بالتشجيع فلا يضطربوا بخوف، أو المراد: سكون القلب بالصلح الواقع، والأوّل أظهرُ، أو المراد: سكون القلب خضوعُه لقبول أمر الله مطلقًا، ومنه الصلح، وعن مقاتل: عَلِمَ الله منهم كراهة البيعة على الموت فأنزل سكينته فبايعُوا عليه.

﴿**وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ أمّا الفتح ففتح خيبر عند ابن عبّاس وعكرمة وقتادة، لأنّها عقب انصرافهم عن الحديبية، وقال الحسن: فتح هجر، يعني هجر البحرين، وقد كتب إلى عمر بن حزم فيها بالصدقات والديات، وفي البخاري أنّه صالح أهل البحرين وأخذ الجزية من مجوس هجر و لم يغزهم.

وإطلاق الفتح على الصلح غير مشهور، وهو مجاز عرفيٌّ خاصٌّ، وحقيقة لغويّة، لأنّها كانت ممتنعة فانفتحت بالصلح. وقيل: المراد فتح مكّة، وبُحِثَ بطول المدّة، وأجيب بأن فتحها قريب بالنسبة إلى ما بعد فتحها.

﴿**وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَاخُذُونَهَا**﴾ ولو من خير ذلك الفتح القريب، مثل أن يكون الفتح فتح مَكّة. وأمّا المغانم فمغانم خيبر قبل فتح مكّة.

والأولى أنّ الفتح فتح خيبر والمغانم منها أيضًا، وفيهم ثلاثمائة فارس للفارس سهمان وللراجل سهم، رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن مجمع بن جارية الأنصاري، وقيل: مغانم هجر.

﴿**وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا**﴾ غالبًا، فهو يعطيكم الغلبة على من يشاء ﴿**حَكِيمًا**﴾ يفعل بحسب ما اقتضته حكمته تعالى.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

بشارة المؤمنين بما سيفتح الله به عليهم

﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ في أوقاتها المقدَّرة لها، وهي ما يكون من الغنائم إلى يوم القيامة، فالخطاب للأمَّة المؤمنين الحاضرين والغائبين، فنصب الإمام واجب، ويجب أن يكون واحدًا، وغلَّب الحاضر بالخطاب، أو الخطاب للحاضرين، لأنَّهم ومَنْ بعدَهم من المؤمنين كجماعة واحدة.

وقال زيد بن أسلم: المغانم الكثيرة الموعودة مغانم خيبر، وهو رواية عن ابن عبَّاس، والجمهور على ما مرَّ أوَّلاً من أنَّها الغنائم إلى يوم القيامة، ولَمَّا أخرجوا غنائم خيبر عند فتحها تبايع الناس فيها، وكانت كثيرة. وجاء رجل فقال لرسول الله ﷺ : يارسول الله ربحت اليوم ما لم يربحه أحد من أهل هذا الوادي، فقال: ويحك ماهو؟ قال: ثلاثمائة أوقية، فقال ﷺ : «**ألا أنبئك بأفضل منها؟**» قال: ماهو يارسول الله؟ قال: «**ركعتان بعد الصلاة**».

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ غنائم خيبر، وقيل: غنائم هجر، وقيل: هذه هي البيعة، والتخلُّص من قريش والأحابش بالصلح. ذكر بعض أنَّ قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أنَّه نزل بعد فتح خيبر كما هو الظاهر، فبعض السورة في

الطريق من الحديبية إلى المدينة، وبعضها بعد وصول المدينة. وإن كان قبل فتح خيبر فذلك إخبار بالغيب، بأنْ نزَّل الغائب منزلة الحاضِر المشاهدَ فقال: «هَذِهِ»، والمضيُّ لتحقُّق الوقوع.

واختير أنَّه نزل قبل فتح خيبر أكثر السورة في الطريق، وظاهر الإخبار أنَّ السورة كلّها بين الحديبية والمدينة، فالمعجَّلة: البيعة والتخلُّص من قريش ومن معهم.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان، إذ جاءوا لنصرة أهل خيبر، فقذف في قلوبهم الرعب ورجعوا، وذلك قبل سفر الحديبية، وقال مجاهد: أيدي أهل مَكّة كفّها بالصلح وهم أقوى منكم وأكثر عددًا، وفي بلدهم، مع أنّكم ما جئتموهم بأهبة القتال بل للعمرة.

وقال ابن جرير: كفَّ أيدي أهل خيبر وسائر اليهود عن المدينة بعد سفر الحديبية، وأيدي سائر اليهود عن المدينة بعد الذهاب إلى غزو خيبر، كما قيل: إنَّ قبائل من أسد وغطفان همَّت أن تغير على العيال بالمدينة إذا اشتغل ﷺ بحصار خيبر.

﴿وَلِتَكُونَ﴾ أي: الكفُّ المعلوم من قوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾، وأنّثه لتأنيث الخبر، أو لتكون الكفّة وهي مرة من الكفِّ، أو لتكون مغانم خيبر. واللام متعلِّقٌ بمحذوف تقديره: فَعَلَ ذلك لتكون، أو يقدَّر مؤخَّرًا، أي: ولتكون آية فعل ذلك، أو متعلِّقٌ بمحذوف مع علّةٍ أخرى، أي: فعل ذلك لتنتفعوا ولتكون، أو كفَّ أيديهم لتنتفعوا ولتكون.

وزعم الكوفيُّون في هذا ومثله أنَّ الواو زائدة واللام متعلِّقٌ بما قبله، وهو هنا «كَفَّ» أو «عَجَّلَ»، وهو مردود، والأصل عدم الزيادة، ولاسيما زيادة حرف

غير معتاد في التأكيد. ﴿ءايَةً﴾ أمارة ﴿لِّلْمُومِنِينَ﴾ على أنّهم عند الله الرحمن الرحيم مرضيُّون، أو على أنّ ما وعدهم ﷺ به من فتح خيبر ومكّة والغنائم ودخول المسجد الحرام حقٌّ يقعُ ولا بدَّ، وإخبارٌ بالغيب، وأنّ ذلك بالوحي من الله عز وجل.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هو تقوية الثّقة بفضل الله تعالى، والتوكُّل عليه، وإدامتها.

(سيرة) رجع ﷺ من الحديبية بقيَّة ذي الحجَّة، وخرج إلى خيبر بَقيَّة الْمُحَرَّم سنة سبع، وقاتل عامرٌ مرْحبا اليهودي وهو مَلِكُهم، فانقلب عامر على سيف نفسه فمات، وقالوا: قتل نفسه وبطل عمله، فقال ﷺ : «**كذب من قال ذلك، بل له أجران**»، وأرسل إلى عليٍّ وهو أرمد، فثفل في عينيه فشفي، وحمل راية وقتل مرحبًا، فكان الفتحُ. وقيل: أخذ الراية الصِّديق ولم يفتح له، ثمّ عمر كذلك، وكان الفتح على يد عليٍّ، ضرب مرحبًا على مِغفرٍ من حجر فشقّه بالسيف إلى أضراسه، وخرج أخوه ياسر وقتله الزبير، فكانَ الفتح، ثمّ فتح حصن ناعم، وفيه قتل محمود بن مسلمة بحجر ألقته اليهود عليه، ثمّ حصن القصوص حصن ابن أبي الحقيق، ومنها صفيَّة بنت حيي بن أخطب جاء بها بلال، واصطفاها ﷺ ، وقد رأت قمرًا في حجرها فعبَّرها زوجُها بأنّها تتمنّى ملك الحجاز، فلطمها لطمة بقى أثرها في وجهها، فأخبرته ﷺ به بعد ما سألها عن سببه، وأتي بزوجها كنانة بن الربيع لكتر بني النضير عنده، وأنكر ووجد بعضه عنده، وعُذِّب ليخبر بالباقي وأبى، فقتله محمد بن مسلمة بأخيه محمود.

وروي أنّ دحية سأل جارية فقال: خذ ما شئت فشاء صفيَّة فأعطاها قبل أن يأخذها ﷺ ، فقيل له: أنت أحقُّ بها هي بنت سيِّد قريضة والنضير، فقال له: دعها وخذ غيرها، فجاءته يهوديَّة بشاة مصليَّة مسمومة، وهي زينب بنت الحارث، فأخذ

منها لقمة و لم يبلعها، وأخبره اللحم الذي قطع منها أنّه مسموم، و لم يبلعها، وقيل: قد بلعها، فقال لها: ما حملك على ذلك؟ قالت: ما فعلت برجالنا، وأنّك إن كنت نبيًّا لم يضرّك أو يخبرك، وأكل منها بشر بن البراء بن معرور ومات بها، وأخبر ﷺ عند موته أنّه ما زالت تلك الأُكلة تثور عليه وأنّه يموت بها.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ عطف على «هَٰذِهِ»، أي: مغانم أخرى، وهي غنائم هوازن في غزوة حنين، أي: تكون لكم بعدُ عند ابن عبّاس في رواية مولاه عكرمة، وعنه أيضًا: غنائم فارس والروم وغيرُها مِمّا فتحه المسلمون إلى يوم القيامة، وهو غير ظاهر، وأيضًا لم يعالجها ﷺ والصحابة، والآية فيما عالجوا.

وعنه أيضًا: غنائم خيبر، ويبحث بأنّه لم يعالجها إلاّ حال فتحها، وعنه: غنائم مكّة، وقد عالجها يوم الحديبية، وفيه أنّه لم يصحّ أنّه غنم من مكّة، وإن أريد بغنائمها فتحها، فهو خلاف الظاهر، وبهذا القول يقول الحسن وقتادة. وقيل: خيبر قبل أن يفتحها و لم يكونوا يرجون فتحها.

ومعنى التعجيل في قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ أنّ الله عزّ وجلّ كتبها مِمّا لا يبطأ، فالمعجَّل متعدِّدٌ شيءٌ فشيءٌ. أو مفعول لمحذوف، أي: وقضى أخرى، واعترض بأن القضاء قد ذكر بقوله: «وَعَدَكُم».

[قلت:] والتأسيس أولى، وإنّما الفائدة في الإخبار بتعجيل الأخرى، والتعجيل يحصل بالعطف على هذه، وأجيب بأَنّ المغانم الموعودة لم تعيَّن فضلا عن أن تزاد عليها الأخرى، فبَانَ أنّ المقصود تعجيلُ الأخرى.

(نحو) أو «أُخْرَى» مبتدأ موصوف بما بعده، والخبر «قَدَ اَحَاطَ اللهُ بِهَا». أو مبتدأ مجرور بعد واوِ «رُبَّ» [المقدَّر] خبره ما بعده. أو ما بعده نعتٌ، والخبر «قَدَ اَحَاطَ اللهُ بِهَا»، ونَعَتَ «أُخْرَى» بقوله:

﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ بعد معالجتكم تحصيلها، وفي هذا ترغيب في تحصيل إنجاز ما عالجوه ولم يقدروا عليه، وعلى أنَّه لم يعالجوها قبلُ يكون معنى ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ﴾: اعتقدتم أنَّكم لا تقدرون عليها.

﴿قَدَ اَحَاطَ اللهُ بِهَا﴾ نعت ثان، أو حال من مجرور «عَلَى». ومعنى إحاطة الله عَزَّجَلَّ بها الاستيلاء عليها بقدرته، فهو يسهِّلها لكم بعد صعوبتها عليكم، لأنَّ ضبط الشيء مجاز عن الاستيلاء عليه، إذ هو سبب الاستيلاء، أو معنى إحاطته بها حفظُها لكم مجازًا فلا تفوتكم، لأنَّ ضبط الشيء سبب لحفظه. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أنسب بتفسير الإحاطة بالاستيلاء.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ أهل مكَّة يوم الحديبية عند قتادة، وأسد وعطفان عند ابن جُريج، ويضعف القول بأنَّهم اليهود ﴿لَوَلَّوُاْ الاَدْبَارَ﴾ كناية عن الانهزام، وأصله أنَّهم تألون لتوجيه أدبارهم نحو من فَرُّوا عنه، وفي هذا نوع تصديق له ﷺ أنَّ الحديبية فتح، وردٌّ على من قال له من الصحابة: «أيُّ فتح وقد صدُّونا». ﴿ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يدفع عنهم المسلمين بلطف، كحيلة وشفاعة أو دافعًا عنهم من قرابتهم، أو حارسًا لهم ﴿وَلاَ نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم بعنف وليًّا أو غير ولي.

﴿سُنَّةَ اللهِ التِي قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الأمم، أي: سنَّ الله السنَّة التي قد خلت من قبلُ، أي: عامَلَكم بها، وهي أنَّ الرسل ليست غالبةً كلَّما قاتلت، بل تارة، وَلَكنَّ العاقبة نصرهم، أو هي أنَّ الرسل يحصل لها الغلبة، كقوله تعالى: ﴿لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِيَ﴾ (سورة المجادلة: ٢١) ، فَحُذف الناصبُ وهو "سنَّ" وأضيف مفعوله المطلق إلى فاعله. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ تغييرًا.

﴿وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أيدي أهل مكّة عنكم، وهو شامل للأحابيش، أو أيدي الناس المذكورين في الآية قبلُ، على أنّهم أهل مَكّة ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ عطف معمولَيْن على معمولَيْ عاملٍ واحد، وكأنّه قيل: وكفَّ أيديكم عنهم. وفي التعبير بـ«كَفَّ» التلويح بأنّه رَدَّ بعضًا عن بعض بأمر لطيف، ولو قال: منع لكان ظاهرًا في الردِّ بأمر شديد، كقتل في جانب ونحو صاعقة في جانب، أو قتل فيهما، أو التلويح بأنّه ردَّ بعضًا عن بعض بعد شُروع في قتال، والله أعلم.

﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ هو الحديبية كما روى الطبري عن قتادة، وذلك مبالغة في قربها إلى بطن مكّة، كأنّها بطن مَكّة، كـ«زيدٌ أسد»، ولا سيما أنّه قال بعض: إنّ بعضَها من الحرم. وفي ذلك تأكيد لقوله ﷺ : «**صلح الحديبية فتحٌ**»، وردٌّ على من قال من الصحابة: أيُّ فتحٍ وقد صدُّونا ؟ وأيضًا حلقوا فطارت شعورهم بالريح حتّى وقعت في الحرم.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَنَ اَظْفَرَكُمْ﴾ صيّركم ظافرين ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عدّي الإظفار بـ«عَلى» لتضمُّنه الإعلاء. والإظفار: تخويفُ أهل مكّة من المسلمين حتّى طلبوا الصلح منهم، بأن قالوا: ارجعوا الآن وأْتوا من قابل.

(سبب النزول) وأيضًا روى أحمد وأبو داود والترمذي ومسلم وغيرهم عن أنس أنّه قبض ﷺ على ثمانين رجلاً جاءوا من التنعيم ليغدروه فعفا عنهم، وذلك كفٌّ للأيدي بينهم وبينه ﷺ لم يقتلوه ولم يقتلهم بعد الإظفار عليهم، وأنّ الآية فيهم.

(سبب النزول) وأيضًا قال عبد الله بن معقل: كُنّا تحت الشجرة فخرج علينا ثلاثون شابًّا فثاروا علينا، فدعا رسول الله ﷺ فأخذ الله

سمعهم، ورُوي أبصارهم فأخذناهم، فقال ﷺ : «**هل جئتم في عهد أحد أو أخذتم أمانًا من أحد؟**» قالوا: لا، فخلاَّهم، وفيهم الآية، رواه الحاكم والنسائي وغيرهم.

(سبب النزول) وأيضًا قال سلمة بن الأكوع: لَمَّا اصطلحنا اختلط المشركون بنا، واضطجعت في ظلِّ شجرة، وجاء مشركون أربعة يشتمون رسول الله ﷺ ، فتحوَّلت إلى أخرى لبغضي لهم على ما سمعت منهم، ونادى مناد: ما للمهاجرين؟ قُتِل ابن زنيم، فأخذت سلاح الأربعة وقد علَّقوها على الشجرة الأولى، واضطجعوا وسللْت سيفي فقلت: «والذي كرَّم وجه محمَّد ﷺ لئن رفع أحدكم رأسه لأقتلنَّه»، فسقتهم إلى رسول الله ﷺ . وجاء عمِّي عامر بمشرك يسمىَّ مكرزًا، ووقفنا عليه ﷺ بسبعين رجلاً من المشركين، فنظر إليهم فقال: «أطلقوهم يكون عليهم بدء الفجور»، وفيهم الآية. رواه أحمد وغيره.

وأخرج الطبريُّ عن ابن أبزى: لَمَّا انتهى إلى ذي الحليفة ﷺ قال عمِّي: يا رسول الله تدخل على قوم حرب لك بلا سلاح ولا كراع؟ فبعث إلى المدينة، فما بقي فيها سلاح ولا كراع إلاَّ جيء به إليه. وقيل: هذا الفتح يوم فتح مكَّة، والصحيح الأوَّل.

﴿**وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ كلِّه، ومنه العفو بعد الظفر ﴿**بَصِيرًا**﴾ فيجازيكم.

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

ذمُّ المشركين، وحكمة المصالحة يوم الحديبية

﴿هُمُ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ مستأنف للذمِّ ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أن تصلوا إليه وتطوفوا به ﴿وَالْهَدْيَ﴾ عطف على الكاف، أي: وصدُّوا الهدي، وهو ما يهدى إلى البيت لينحر في منًى، وهو هنا سبعون بدنة على المشهور، وقيل: مائة. ﴿مَعْكُوفًا﴾ حال من «الْهَدْيِ»، أي: محبوسًا للنحر، و"عكف" متعدٍّ كما رأيت في الآية، يقال: عكفت الرجل: حبسته، كما قال ابن سيده والأزهريُّ، ومنعه الفارسيُّ، وعليه فالأصل: معكوفًا به، فكان الحذف والإيصال.

(نحو) ﴿انْ يَّبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ في تأويل مصدر بدل اشتمال من «الْهَدْيِ»، أو بتقدير "عنْ" متعلِّقة بـ«مَعْكُوفًا»، وعاكف الهدي المشركون. أو تعليل متعلِّق بـ«مَعْكُوفًا»، أي: معكوفا ليبلغ محلّه، **وعاكفه المسلمون، ويترجَّح هذا** أو تقدير "عنْ"، ووجه كونه حالاً ــ مع أنَّ المشركين عكفوه ــ أنَّه حال مقدَّرة في قول من أجاز تقديرها من غير فاعل ناصبها، لأنَّه حال الصدِّ غير معكوف، وإنَّما يعكف بالصدِّ لا حال الصَّدِّ، إلاَّ أن يجعل القرب جدًّا اقترانا.

(فقه) ومَحِلُّ الهدْيِ منًى، أو موضع سقوطه على الأرض بالذكاة، وهو مِنًى أيضًا، وقال الشافعي: مَحِلُّه إذا مُنِع هو الموضع الذي وصله. وقال أبو حنيفة: مَحِلُّه الحرم وبعضُ الحديبيةِ حرمٌ عنده، ومحطُّ رسول الله ﷺ الحلُّ من الحديبية، ومصلاَّه الحرم، ونحر هديه في الحرم، فهديه ﷺ بلغ محلّه. والظاهر أنّه

معكوف عن محلِّه المعهود وهو منًى، والصحيح ـــ وعليه الجمهور ـــ أنَّه لا شيء من الحديبية من الحرم، وكلُّها حلٌّ، والحرم محدود بحدود معروفة.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّومِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّومِنَاتٌ﴾ مستورون في المشركين، قال أبو جمعة جندب بن سبع: «هم سبعة رجال وأنا منهم، وامرأتان» رواه أبو نعيم، ففيه إطلاق نساء على امرأتين، وهو جائز، كما يطلق الجمع على اثنين مجازًا على الصحيح، وقيل: حقيقة.

﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ ثمَّ علموهم بالوحي. والجملة نعت «رجال ونساء»، وغلَّب ضمير الذكور ﴿أَن تَطَئُوهُمْ﴾ تمشوا عليهم بأرجلكم، وهو استعارة للإهلاك، كقوله ﷺ : «**اللهمَّ اشدد وطأتك على مضر، فإنَّهم آذوْا رسولك وكفروا بدينك**»[1]، أي: إهلاكك.

(نحو) والمصدر بدل اشتمال من «رجال ونساء» على حذف مضاف، أي: كراهة أن تطؤوهم، وجواب «لَوْلَا» يقدَّر بعد قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هكذا: لَمَا كَفَّ أيديكم عنهم، أو لَعَجَّل ما يستَحقُّون.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ من جهتكم بوطأتكم إيَّاهم، أو يقدَّر مضاف، أي: فتصيبكم من وطأتهم.

(لغة) ﴿مَّعَرَّةٌ﴾ عيب أو مكروه ومشقَّة، وأصله قيل: العرُّ والعرَّة، وهو الجرب الشديد اللازم، والمراد قيل: تعيير الكُفَّار للمؤمنين بأنَّهم يقتلون أهل

١- رواه **البخاري** في كتاب الأذان (١٢٨) باب يهوي بالتكبير حين يسجد، رقم٨٠٤. وأَوَّلُ الحديث عنده هو: «وكان رسول الله ﷺ حين يرفع رأسه يقول: سمع الله لمن حمده...». **وأبو داود** في كتاب الصلاة، باب القنوت في الصلاة، رقم١٤٤٢. من حديث أبي هريرة.

دينهم. أو المعرَّة: التأسُّف عليهم، وقيل: الإثم بقتلهم، وقيل: الديَّة، وهما تفسيران بالمعنى لا باللغة.

(فقه) وأيضا نقول: لا إثم في قتل مسلم مستور بين أهل الحرب أسلم من قبل أو أسلم في الحرب، وعلى القاتل الدِّية، أو العَاقِلَة، أو في بيت المال، أو لا دية أيضًا كما لا إثم. وقال الطبري: المعرَّة الكفّارة، وهو قول، وهو كسائر قتل الخطأ، وقيل: لا كَفَّارَة. وبالكفّارة قال أبو حنيفة وأبو يوسف. وقال صاحبهما محمد: على قاتله الديَّة. وقال الشافعيُّ: عليه القصاص، وهو خطأ، كيف يكون القصاص على قتل الخطأ ؟! وفسَّر بعضهم المعرَّة تفسير معنًى بالدِّية وَالكَفَّارَة، وقولِ المشركين: إنَّ المؤمنين يقتلون أهل دينهم، ولا إثم إن جرى بعض تقصير.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلِّق بـــ«تَطَئُوا»، أو «تُصيب»، أو حال من هاء «مِنْهُمْ» أو حال من الواو، ولا تكرار لهذا مع قوله: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُم﴾، لأنَّ ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُم﴾ بمعنى لم تميِّزوهم فتتركوا قتلهم، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أنَّ المعرَّة تصيبكم و لم تعلموا بوقوعها، أو لم تعلموا بموجبها الذي هو قتل هؤلاء المستورين.

والعلم في ذلك كلِّه من المسلمين، ويجوز أن يكون من المشركين، بمعنى أنَّهم لا يعلمون أنَّكم معذورون، ويجوز أن يكون المعنى: إنَّ الله سبحانه منَّ على المشركين فكفَّ أيديكم عنهم بسبب من تستَّر فيهم من المؤمنين.

﴿لِّيُدْخِلَ اَللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَّشَآءُ﴾ متعلِّقٌ بـــ«كَفِّ» محذوفًا، دلَّ عليه الجواب، أي: وَلَوْلَا رِجَالٌ ... لَمَا كفَّ أيديكم عن المشركين، لكن كفَّها ليدخل بذلك الكفِّ المؤدِّي إلى الفتح بلا محذور في رحمته الواسعة من يشاء.

وهم إِمَّا هؤلاء المستورون يظهرون ويعبدون الله جهرًا، ويزدادون طاعةً ولا يبقون في الضيق بأيدي المشركين فيرتدُّوا، وإمَّا بعض المشركين يؤمنون بعد الفتح وفي الحديبية بعد الصلح إذ اختلطوا بالمؤمنين، فقد يعجبهم ما يرون من المؤمنين، وإمَّا كلُّ ذلك.

﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ﴾ لو تميَّز هؤلاء المؤمنون والمؤمنات المستورون عن المشركين ﴿لَعَذَّبْنَا اَلذينَ كَفَرُواْ﴾ بتسليطكم عليهم، وهذا جواب «لَوْ»، ويجوز أن يكون «لَوْ تَزَيَّلُواْ» بدل «لَوْلاَ رِجَالٌ...» و«لَعَذَّبْنَا» جواب «لَوْلاَ». ﴿مِنْهُمْ﴾ من جملة المختلطين الذين هم المؤمنون المستورون وَالكُفَّار، و«مِنْ» للتبعيض. ﴿عَذَابًا اَلِيمًا﴾ أسرا أو قتلاً أو سبيًا.

(نحو) ﴿اِذْ جَعَلَ الذينَ كَفَرُواْ﴾ اُذكرْ إذ جعل، أو هي ظرفٌ لـ«عَذَّبْنا»، أو [مُتَعَلِّق] بـ«صَدُّوكُمْ» أو بـ«أحسن» محذوفًا، أي: أحسن الله تعالى إليكم أيُّها المؤمنون إِذْ جَعَلَ الذينَ كَفَرُواْ... ومحطُّ الإحسان قوله: ﴿فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ,...﴾. و«الذينَ» فاعل «جَعَلَ». وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ مفعول ثان، وقوله: ﴿الْحَمِيَّةَ﴾ مفعول أَوَّل، أي: صيَّروا في قلوبهم الحميَّة، أو «جَعَلَ» متعدٍّ لواحد بمعنى: أَلقى، يتعلَّق به «في»، ولا بأس بتسمية كسب الحميَّة إلقاء، أو تصييرًا.

(نحو) ومن التخليط قول بعض: إنَّه يجوز جعل فاعل «جَعَلَ» ضميرا لله، و«فِي قُلُوبِهِم» بيان لمحلِّ الجعل، وإنَّ مرجع المعنى: إذ جعل الله في قلوب الذين كفروا الحميَّة، نظرًا إلى معنًى جائز في الجملة، وغفل عمَّا فيه من فساد الإعراب ومخالفة المعنى المراد، أو تكلُّف تقدير «في» داخلة على «الذينَ».

و«الحميَّة»: المعاونة على الباطل لصحبة أو قرابة أو منفعة، ولو لم يكن غضب. ﴿حَمِيَّةَ﴾ بدلٌ أو بيان ﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي: المِلَّة الجَاهِلِيَّة، وأجيز أن تكون الإضافة بيانيَّة، أي: حميَّة هي الخصلة الجَاهِلِيَّة.

ومن الحميَّة الجَاهليَّة قول قريش يوم الحديبية: «لا يدخل محمَّد علينا أبدًا»، وامتناعُهم من ترك آلهتهم. وليس من الإعراب في شيء قول بعض: الحميَّة الناشئة من الجَاهليَّة.

[قلت:] وتجوز الحميَّة الإسلاَميَّة بل تجب، وهي الإعانة علىدين الله عَزَّوَجَلَّ ، وَالْجَاهِلِيَّة نسب إلى الجاهلين، أو الجهلاء، بحذف علامة الجمع.

﴿فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ, عَلَىٰ رَسُولِه وَعَلَى الْمُومِنِينَ﴾ الوقار الذي هو ملك لله تعالى، ومنها حلم المؤمنين عن أن يبطشوا بالمشركين يوم الحديبية، إذ منعوهم عن البيت بعد أن همُّوا بالبطش.

(نحو) والجملة عطفت على «جَعَلَ» أو «صَدُّوكُم»، أي: اذكر إذ جعل فأنزل، أو صدُّوكم فأنزل، وإن علّقنا «إِذْ» بـ«عَذَّبْنَا» كان العطف على محذوف، أي: لم يتزيَّلوا فلم نعذِّب فأنزل الله، وإن علِّق بـ«أحسن الله إليكم» [المقدَّر] كان العطف على «أحسن الله إليكم».

(سيرة) لَمَّا وصل رسول الله ﷺ ذا الحليفة قلّد الهدي وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث بين يديه عينًا من خزاعة يخبره عن قريش، ورجع إليه في غدير الأشطاط، قريبًا من عسفان، فقال له: إنّ قريشًا أجمعوا أن يقاتلوك بالأحابيش، وجموعِ جمعوها، وصادُّوك عن البيت، فاستشار أن يغير على ذراري من يعينهم، فقال الصدِّيق: يارسول الله ما جئنا إلاّ للعمرة، ولا نقاتل حتَّى يمنعونا عن البيت، فقال ﷺ : «سيروا على اسم الله تعالى».

وقال له بديل بن ورقاء الخزاعي وجماعة جاءوا معه إذ نزل أقصى الحديبية: تركنا كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا قريبًا ليقاتلوك ويصدُّوك عن البيت، فقال ﷺ : «جئنا للعمرة لا للقتال، وإنّ قريشا نهكتهم الحرب فليخلوا بيني

وبين سائرالعرب، فإن أصابوني فذلك أرادوا، وإن ظهرت عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإلاَّ قاتلتهم وبهم قُوَّة، فوالله لا أزال أقاتل على دين الله حتَّى يظهره الله أو أموت»، فبلَّغهم بديل ذلك، فأتاه منهم عروة بن مسعود الثقفي فقال له ما قال لبديل، فرجع إليهم فأخبرهم بما قال، وبما رأى من تعظيم الصحابة له ﷺ ، وقال: عرض عليكم صوابًا فاقبلوه، فجاءه رجل من كنانة، فلمَّا أشرف قال ﷺ : هذا من قوم يعظِّمون البدن، فابعثوها إليه، فبعثوها ملبِّين، فقال: سبحان الله؟ ما يصدُّ مثل هؤلاء عن البيت، فرجع وأخبرهم، وأتاه مكرز بن حفص، ولَمَّا أشرف قال ﷺ : هذا مكرز رجل فاجر، فبينما هو يكلِّمه إذ جاء سهيل بن عمرو من بني عامر بن لؤي، فقال ﷺ : قد سُهِّل لكم، وكان قد بعثه قريش أن يصالح محَمَّدًا ولا يدخل علينا عامنا هذا لا يتحدَّث الناس أنَّه دخل علينا عنوة، فتكلَّم، فكان الصلح.

فقال ﷺ لعليٍّ: «اُكتب بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فقال سهل: لا أعرف هذا، اُكتب: «باسمك اللَّهمَّ»، فقال ﷺ : «اُكتب باسمك اللهمَّ»، فكتبه فقال: «اُكتب: هذا ما صالح عليه محمَّد رسول الله سهيل بن عمرو»، فقال: «لو علمناك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، اُكتب اسمك واسم أبيك»، فقال ﷺ : «والله إنِّي لرسول الله وإن كذَّبتوني، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو صُلحًا على وضع الحرب عشر سنين، من أتى محَمَّدًا من غير إذنِ وليِّه ردَّه إليهم، ومن أتاه ممَّن معي لم يردُّوه، ومن شاء دخل عقد محمَّد، ومن شاء دخل عقد قريش، ولا يدخل محمَّد مكَّة عامَه هذا، ومن قابل يأتي، ويقيم بها ثلاثًا مع أصحابه بالسيوف فقط في قرابها».

وروي أنَّه ﷺ قال لعليٍّ: أمح رسول الله، فقال: ما أنا بالذي أمحوه، فقال ﷺ : أرني موضعه فأراه فمحاه.

[قلت:] فإنَّه ﷺ مات و لم يعرف الكَتْبَ قطُّ، لا كما قال أبو الوليد الباجي وشيخه أبو ذرٍّ الهروي وأبو الفتح النيسابوري[1] وجماعة من أهل إِفْرِيقيَّة: ما مات حتّى يعرف الكتب. وأمَّا قول أحمد والنسائي في روايتهما في هذه القصَّة أنَّه أخذ الكتاب ولا يحسن الكتابة، فكتب مكان «رسول الله»: «هذا ما قاضى عليه محمَّد بن عبد الله»، فمعناه أنَّه أمر عليًّا أن يكتب.

(بلاغة) وقدَّم الإنزال على الرسول لأنَّه أفضل، والإمام المقتدى به حتَّى إن ذكرهم بعده كالتأكيد لإنزال عليهم سابق.

(سيرة) وقد كره الصحابة كلُّهم ذلك الصلح إلاَّ قليلاً كأبي بكر. قال عمر: يا رسول الله أنت نبيء الله، وأنت على الحقِّ وهم على الباطل، وقد أخبرتنا أنَّا نطوف بالبيت، فقال ﷺ : فهل أخبرتك أنَّك تطوف به العام؟ فإنَّك تطوف به بعدُ، وقال مثل ذلك لأبي بكر، فأجابه بجواب النبيء ﷺ ، وبأنَّه نبيء الله لا يعصى ولا يعصي الله.

(سيرة) وكان الناس قد خرجوا ولا يشكُّون في الفتح لرؤيا رءاها ﷺ ، قال عمر: «والله ما شككت منذ أسلمت إلاَّ يومئذ، ولَمَّا فرغ من كتب الصلح نادى: قوموا فانحروا ثمَّ احلقوا ثلاثًا، و لم يقم أحد، فشكا لأمِّ سلمة، فقالت: انحرْ واحلقْ يتبعوك، ففعل فبعض حلق وبعض قصَّر، وقال: «**رحم الله المحلِّقين**» مَرَّتينِ، وفي الثالثة زاد: «**والمقصِّرين**»، فقيل له، فقال: «**لأنَّ المحلِّقين لم يشكُّوا**»[2].

١-انظر التعريف بالباجي في ج١١، ص٧٩. وأبو ذرٍّ الهروي هو عبد بن أحمد بن محمد أبو ذرٍّ الأنصاريُّ، عالم بالحديث ومن الحفَّاظ، من فقهاء الْمَالكيَّة، يقال له ابن السماك، أصله من هراة، نزل بِمَكَّةَ، ومات سنة ٤٣٤هـ. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٢٦٩.

٢-رواه **البخاري** في كتاب الحجِّ (١٢٦) باب الحلق والتقصير عند الإحلال، ١٦٤٠.
=

ومن هديه ﷺ يومئذ ناقة كانت لأبي جهل في أنفها بُرة[1] يغيظ بها الكُفَّار، وذلك في الحديبية. وهي من الحلِّ، لَكِنَّ الريح أدخلت الحرم شعورهم، وقيل : من الحرم، وبه قال مالك. وقال ابن القصار[2]: بعضها من الحرم، بينها وبين مَكَّة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل.

وجاءت نسوة مؤمنات ولم يردهنَّ، وتَزَوَّجَ معاوية واحدة، وصفوان بن أميَّة واحدة، وأمرهم أن لا يرُدُّوا من جاء من النساء مسلمة. وجملة الهدي سبعون بدنة. وقال بعض من نافق: والله ما طفنا وما رأينا البيت.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ ألزم محَمَّدًا والمؤمنين كلمة التقوى، أوجب عليهم الإيمان بها، والنطق بها، والعمل بمقتضاها، والأمر بها، وهي «**لا إله إلاَّ الله**»[3] رواه الترمذي والدارقطني وعبد الله بن أحمد عن أُبي بن كعب عن رسول الله ﷺ ، وابن مردويه عن أبي هريرة، وسلمة بن الأكوع عنه ﷺ ، وعبد الرزَّاق والحاكم والبيهقيُّ عن عليٍّ موقوفًا مع زيادة: «**الله أكبر**»[4]، وعن ابن عمر مثله، وروى الدارقطني وابن أبي حاتم عن المسور بن مخرمة موقوفًا «**لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له**».

=

ومسلم في كتاب الحجِّ، باب تفضيل الحلق على التقصير وجواز التقصير، رقم١٣٠٤. من حديث ابن عمر.

١-أي حلقة من فضَّة. انظر: السيرة لابن هشام، ج٣، ص٣٤٩.

٢-هو علي بن عمر بن أحمد البغدادي المالكي، فقيه من القضاة، وكان أصوليًا نظَّارا، من آثاره كتاب: «عيون الأدلَّة وإيضاح الملَّة» في مسائل الخلاف، تُوُفِّيَ سنة ٣٤٧هـ. عمرو رضا كحالة: معجم الْمُؤَلِّفين، ج٢، ص٤٨٠.

٣-رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (٤٩) باب ومن سورة الفتح، رقم٣٢٦٥. من حديث أُبي.

٤-رواه **الحاكم** في كتاب التفسير (٤٨) باب ومن سورة الفتح، رقم٣٧١٧. من حديث عليٍّ.

قال عثمان بن عفّان: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّي لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقًّا من قلبه إلاّ حرم على النار**»، قال عمر: أنا أحدّثكم ما هي، هي كلمة الإخلاص، التي ألزمها الله محمّدًا وأصحابه، وهي كلمة التّقوى التي ألاَصَ ــ أي أدار ــ عليها نبيء الله ﷺ عمّه أبا طالب عند الموت، شهادة أن لا إله إلاّ الله.

وذكر الطبريُّ عن عطاء أنّها «**لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله**». وعن عطاء بن أبي رباح ومجاهد أنّها «**لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير**»، وعن الزهري: «**بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، **وعن بعض**: «**بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ محمّد رسول الله**». وعلى القولين يكون ألزمهم اختيارها لهم بدل «باسمك اللّهمَّ»، و«محمّد بن عبد الله».

وقيل: الثبات والوفاء بالعهد، لأنّه يتوصّل بهما إلى الغرض، أطلقت الكلمة عليهما كما أطلقت على عيسى، وأيضًا هما سبب التقوى. والعهد: عهد صلح الحديبية، أو عامٌّ، وقيل: قول الناس في الأصلاب: «أنت ربُّنا». وقيل: قول المؤمنين: «سمعًا وطاعة» على أنّ الهاء لهم، وإن قلنا: لهم وللنبيء كما في سائر الأقوال فالنبيء ﷺ يقول لله تعالى سمعًا وطاعة، وتلك الأقوال بعضها أبعد من بعض.

والصحيح ما عليه الجمهور، وهو المرويُّ أنّ كلمة التّقوى «لا إله إلاّ الله»، ولا بدّ في قبولها من قول: «محمّد رسول الله ﷺ». وأضيفت للتقوى لأنّه بها يتّقى الشرك، قال ابن عبّاس: هي رأس كلّ تقوى.

﴿**وَكَانُوا**﴾ رسول الله ﷺ والمؤمنون، كما عاد الهاء إليه وإليهم من قوله: «أَلْزَمَهُمْ» في كلام عمر، ولزم رسول الله ﷺ الإيمان بنبوءته نفسه ورسالته،

وقول عمر حجَّة، فإن رددنا واو «كَانُوا» إلى المؤمنين ــ كما قال بعض ــ لزم تفكيك الضمائر بلا داعٍ، وإن ردَّ الهاء إلى «الْمُومِنِينَ» خالف كلام عمر، وليسَ ذكر المؤمنين آخرًا لكونه أقرب مرجِّحًا للعود إليهم، لأَنَّهم عطفوا عليه في كلام واحد متَّصلين، وكأنَّه راعى الفصل بــ«على» مع ما يتبادر من أنَّ المراد مدح الأمَّةِ.

﴿أحَقَّ بِهَا﴾ أي: بكلمة التَّقوى. و«أَحَقَّ» اسم تفضيل خارج عنه، وكان بصورته تأكيدًا، وكأنَّه قيل: أحقَّاء، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ صيغة التفضيل لزيادة الحقِّـــيَّة في نفسها، بمعنى: مُتَّـــصِفين بمزيد استحقاق اتِّصَاف بها، لأنَّ اسم التفضيل لم يوضع لمثل ذلك. ويجوز أن يكون على التفضيل، أي: أحقَّ بها من كُفَّار مَكَّة، بمعنى أَنَّهم أحقَّاء بقولها لوجوبها عليهم، لَكِنَّ المؤمنين أَشَدُّ استحقاقًا، لأَنَّهم المختارون لدينه وصحبة نبيئه ﷺ .

وكذا قيل: أَحَقَّ بِهَا من اليهود والنصارى، وهم أحقَّاء لأَنَّهم أهل كتاب، وكذا قيل: أَحَقَّ بهَا من جميع الأمم، لأَنَّهم خير أمَّة أخرجت للناس، وكتابهم أفضل كتاب، **وكلَّما عظمت المنَّة ازداد استحقاقُ الشكر.**

[قلت:] ولا يثبت ما رأيت في "كامل المبرِّد" أنَّ من قبلنا لا يطيقون النطق بها في اليوم مرَّتين، فإذا قالوها مدُّوا صوتهم حتَّى يفرغ، وأقدر الله تعالى هذه الأمَّة على النطق بها مرارا.

وأجيز أن يقال: أحقَّ بها من كلمة أخرى غيرها من كلمات العبادة، كقولك: زيد أعلم بالفقه من الطبِّ، وهذا لا يتمُّ ولا يخرج عليه القرآن.

﴿وَأَهْلَهَا﴾ أي: المتأهِّلين لها، حتَّى كأنَّ غيرهم أجانب عنها، فــ«أَهْلَهَا» أبلغ من «أَحَقَّ»، فالمعنى: أَشَدَّ أحقِّـــيَّة، كأنَّه اسم تفضيل على اسم تفضيل،

وقال بعض: قال: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ لدفع توهُّم أنَّهم أحقُّ مع أنَّهم ليسوا أهلاً لها، كما إذا ميَّزت اثنين لشغل وكلاهما غير صالح له، وتقول: إذا كان لا بدَّ فهذا أحقُّ، والأحقِّـيَّة والأهليَّة وردتا على شيء واحد.

وقيل: ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ في الدنيا نطقًا وعملاً، وأهل ثوابها في الآخرة، وقيل: الواو لكفَّار مكَّة، هم أحقَّاء بها، وأحقُّ بها من غيرهم، لأنَّهم أهل حرم الله، وقوم نبيئه ﷺ. وقيل: الضمير في «كَانُوا» للمؤمنين، وفي «بهَا وَأَهْلَهَا» للسكينة، وقيل: لمكَّة، والمدلول عليها بذكر المسجد الحرام والهدْيِ، وفي القولين ردُّ الضمير إلى غير قريب بلا داعٍ.

﴿وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيسوق الشيء إلى من هو به أحقُّ، وإلى من هو أهل له، ويفعل ما تقتضيه الحكمة.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

تصديق رؤيا الرسول ﷺ عام الفتح

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ﴾ يتعلَّق بمحذوف، مفعول مطلق، أي: صِدْقًا مقترنًا بالحقِّ الذي هو ضدُّ الباطل، وهو الغرض الصحيح والحكمة البالغة، وهو ظهور الشاكِّ في الدين والرَّاسخ فيه، ولذلك أخَّر الرؤيا إلى العام القابل، بعد الحديبية. أو [بِالْحَقِّ] حالٌ من الرؤيا، أي: مقترنة بالصِّدق لا أضغاث أحلامٍ، أو لفظ الجلالة، أو «رَسُولَ»، أو متعلِّقٌ بـ«صَدَقَ».

وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ جواب قسم محذوف، أي: والله لتدخلُنَّ، والوقف على «بِالْحَقِّ»، أو يوقف على «الرُّؤْيَا» ويجعل «بِالْحَقِّ» قسمًا جوابه «لَتَدْخُلُنَّ» فيكون «الحقُّ» اسمًا لله تعالى أو لدينه، ودينه مخلوق، وهو التكليف به.

(فقه) والله يجوز له القسم بخلقه، ولا يجوز لنا القسم بغير الله إلاَّ أفعاله فيجوز لنا القسم بها، وهي غير الله تعالى، بخلاف صفاته، فإنَّها هو.

(نحو) و«صَدَقَ» يتعدَّى لواحد، يقال: صَدَقَ زيد في قوله وفي فعله، ولاثنين تقول صَدَقَ الناسُ زيدًا قولَهم وفعلَهم، كما في الآية، وكذا كذب، والذي بالحرف فيهما هو الثاني، والصدق والكذب يكونان في القول والفعل، وما في الآية من الفعل، وقيل: الثاني منصوب على نزع الجارِّ.

(سيرة) رأى رسول الله ﷺ قبل الخروج إلى الحديبية أنَّه وأصحابه دخلوا مكَّة آمنين محلِّقين رؤوسهم ومقصِّرين، وهو الصحيح، وعن مجاهد أنَّه رآها في الحديبية، والجمهور على الأوَّل، ففرحوا وظنُّوا أنَّ ذلك في عامهم، أو في سفرتهم سفرة الحديبية، وقالوا: إنَّ رؤيا الرسول حقٌّ، ولَمَّا تأخَّر قال عبد الله بن أُبيٍّ وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحارث معرِّضين بكذبه ــ حاشاه ﷺ ــ : «والله ما حلَقنا ولا قصَّرنا ولا رأينا المسجد الحرام» فنزلت الآية. وقال عمر رضي الله عنه مصدِّقًا للرؤيا، لأنَّه ليس في كلامه ﷺ اشتراط المشيئة، وهو معتقد لها، وهي في الآية كما قال الله عز وجل : ﴿إِنْ شَآءَ اللَّهُ﴾ الله عالم بوقوع ما يقعُ وبعدم وقوع ما لا يقع، فالشرطيَّة تعليم للخلق أن يستثنوا فيما لا يعلمون، وإشارة إلى أنَّ دخول المسجد الحرام لمشيئته لا لجلادتهم وتدبيرهم.

وقيل: الشرطيَّة راجعة إلى المخاطبين، مثل ما قيل في صيغة الترجِّي في كلام

الله تعالى: إنَّها راجعة إليهم، وبُحث بأَنَّ تغليب الشاكِّين لا يناسب المقام، بل الأمر المناسب تغليب غير الشاكِّين، وإن أريد بالشاكِّين المؤمنون صحَّ بأن يعتقدوا أنَّ دخول المسجد الحرام يكون إن شاءه الله تعالى.

وقيل: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ كلُّكم إن شاء الله، وليس هذا مُغْنِيًا في الجواب، لأنَّه تعالى جازم بأنَّهم يدخلونه جميعًا، ولا شكَّ في المشيئة، وإن قضى أن يدخله بعض دون بعض دخله بعض فقط، ولا شكَّ.

[قلت:] ثمَّ ظهر وجه آخر لا إشكال فيه ولا حذف، هو أنَّه أجرى الأمر على الإبهام، كأنَّه قيل: إن شاء الله دخلتموه، ولا مانع فانتظروا، فما وقع فهو مشيئته الأَزَلِيَّة، كأنَّه قيل: الأمر راجع إلى مشيئته، وقد شاء دخوله، أو إن شاء دخلتم كلُّكم، وإن شاء دخل جُلُّكم، وقد شاء ما وقع من ذلك بعد وهو دخول الجلِّ، إذ مات بعض، كما قيل: إنَّ قوله: ﴿إِن شَآءَ اللَّهُ﴾ كناية عن أنَّ بعضا يموت قبل الدخول، وقيل: ذلك من كلام مَلَكِ الرؤيا ترجَّح عنده الدخول فأكَّده، واستثنى المشيئة. وكذا إن قيل: ذلك الاستثناء منه ﷺ في اليقظة، وردَّ بأنَّه لم يقل: قال محمَّد إن شاء الله، وكيف يدخل كلام غير الله في كلام الله تعالى بلا حكاية ؟.

[قلت:] ويبعد ما أجيب به من أنَّ جواب القسم بيان للرؤيا، وقائلها في المنام ملك، وفي اليقظة رسول الله ﷺ ، فهي في حكم المحكيِّ، وقول الرسول: ﴿إِن شَآءَ اللَّهُ﴾ أقلُّ بعدا من قول الملك: ﴿إِن شَآءَ اللَّهُ﴾. ولا يثبت ما قيل: إنَّ «إِنْ» بمعنى إذْ، كما قيل: في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُم الاَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٩) ، وقوله ﷺ : «**وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون**»[1].

١- جزء من حديث رواه **الربيع** في مسنده، باب في الأُمَّة أمَّة محمَّد ﷺ ، رقم٤٣. من حديث أبي هريرة، وأوَّله: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين...».

﴿ءَامِنِينَ﴾ من العدوِّ، حال من فاعل «تَدْخُلُ» المحذوف للساكن مقارنة، لأنَّ الأمنَ والدخول في وقت واحد ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ حال مقدَّرة، وكذا قوله: ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ لأنَّ التحليق والتقصير بعد الدخول لا معه، وإن جعلناهما حالين من المستتر في «آمنينَ» كانا متقارنين، لأنَّ الأمن مستمرٌّ إلى التحليق والتقصير.

(لغة) والتحليق: الحلق الشديد، لأنَّ التشديد للمبالغة، ووجهها أنَّه يحلِّق شعر رأسه كلَّه، يحلِّق بعض لبعض، ولا يحلق لنفسه لئَلاَّ يجرح رأسه. والتقصير حلق بعضٍ لبعضٍ بعضَ شعر رأسه، والشدُّ للمبالغة، لأنَّه بحلق لا بقَصٍّ، أو الشدُّ لموافقة الثلاثيِّ. وإن جعلنا التقصير قصَّ الشعر كلِّه فالمبالغة بتعميم شعر الرأس كلِّه، ولو بقليل.

والمرأة تحلق شيئًا قليلاً، وإن شاءت قَصَّت أعالي شعر رأسها كلِّه أو بعضه، وقيل: لا تحلق ولو قليلاً. وفي ذلك حذفان، والأصل: محلِّقين شعور رؤوسكم ومقصِّرين رؤوسكم، أي: مقصَّرين شعورها، وفي الحذف المبالغة بجعل الرؤوس محلَّقة ومقصَّرة.

(فقه) والآية مخيِّرة بين التحليق والتقصير، والمشهور كراهة حلق بعض الرأس، ويحرم عليها حلقه كلِّه، وما ليس قليلاً، والتحليق للرجال أفضلُ، ولذلك قدِّم، قال رسول الله ﷺ : «**اللَّهمَّ اغفر للمحلِّقين**» قالوا: يا رسول الله والمقصِّرين؟ قال: «**اللَّهمَّ اغفر للمحلِّقين**» قالوا: يارسول الله والمقصِّرين؟ قال: «**اللَّهمَّ اغفر للمحلِّقين**» قالوا: يارسول الله والمقصِّرين؟ قال: «**والمقصِّرين**»[1]، رواه أحمد والبخاري ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة، قال ﷺ : «**ليس على**

١- تَقَدَّمَ تخريجه في تفسير الآية رقم ٢٦ من هذه السورة.

النساء حلق، وإنَّما على النساء التقصير»[1] رواه أبو داود والبيهقيُّ عن ابن عبَّاس.

(سيرة) وأمر ﷺ الحالق له أن يبدأ بالجنب الأيمن ويبلغ إلى العظمين، أي: العظمين اللذين من قدَّام عند الأذنين، رواه ابن أبي شيبة عن أنس.

﴿**لاَ تَخَافُونَ**﴾ حال مؤكِّدة من فاعل «تَدْخُلُ»، ومن المستتر في «آمنِينَ». والخوف من العدوِّ، وإن كان الخوف من تباعة في التحليق أو التقصير أو نقص ثواب فَمُؤسِّسة، وإن جعلناه حالاً من المستتر في «مُحَلِّقِينَ» ويقدَّر مثله لـ«مُقَصِّرِينَ» أو بالعكس فمؤسَّسة أيضًا، إذ لا شعور للتحليق أو للتقصير بانتفاء الخوف. أو الجملة مستأنفة، كأنَّه قيل: الأمن حال الدخول فكيف ما بعده ؟ فقال: لا تخافون بعده كما لا تخافون قبله.

﴿**فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ**﴾ الفاء للترتيب الذكريِّ، وإن أوَّلنا «عَلِمَ» بمعنى ظهر علمه فالترتيب علىأصله زمانيٌّ، ولا يصحُّ ما قيل من أنَّ الترتيب باعتبار التعلُّق الفعليِّ بالمعلوم، أي: فعلم عقب ما أراه الرؤيا الصادقة ما لم تعلموا من الحكمة الداعية لتقديم ما يشهد للصدق علمًا فعْلِيًا، لأنَّا نقول: لا زائد في ذلك على العلم الأزليِّ، فإنَّ تلك الحكمة قد علمها في الأزل، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذِينَ جَاهَدُواْ...﴾ (سورة آل عمران: ١٤٣) ، فإنَّه إذا انتفى صبرهم عُلِمَ بانتفائه و لم يجهله، كما علم في الأزل أنَّه سينتفي.

١-رواه **أبو داود** في كتاب المناسك، باب الحلق والتقصير، رقم ١٩٨٤-١٩٨٥. ورواه **البيهقي** (الكبرى) في كتاب الحج (١٧٢) باب ليس على النساء حلق ولكن يقصِّرن، رقم٩٤٠٤. من حديث ابن عبَّاس.

﴿فَجَعَلَ﴾ بسبب هذا العلم كما دلّت عليه الفاء ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الدخول في أمن من العدوّ، ومابعده، أي: قبل تحقُّق ذلك المذكور ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ فتح الحديبية، وفي معناه ما قيل: صلح الحديبية، وما قيل: بيعة الرضوان. وقيل: فتح خيبر، وفيه أنّ فتحها بعد الحديبية لا قبلها، وأجيب بأنّ المراد بالجعل الوعد المنجز عن قريب، يستدلُّ به على صدق الرؤيا ويستريحون إليها.

وقيل: الفتح القريب فتح مكّة، فيكون المعنى: ما لم تعلموا من الحكمة في تأخير فتح مكّة إلى العام القابل. ومعنى ﴿دُونِ ذَٰلِكَ﴾ غير ذلك، ويردُّه أنّ الواقع فتح مَكّة في العام الثامن لا في العام القابل بعد دخولهم آمنين، إلاّ إن أراد بالعام القابل العام الثامن، أو أراد بفتح مكّة دخولهم آمنين، وذلك خلاف ظاهر عبارته، ويرُدُّه أيضًا الفاء، لأنّ علمه متقدِّم على إراءة الرؤيا، ويجاب بأنّها للترتيب الذكريِّ، وبأنّ «عَلِمَ» بمعنى ظهر علمه لكم، وهو علمه بالحكمة.

﴿هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ﴾ متعلّق بحال محذوفة مقدَّرة، أي: مقترنا بأنّه هاد للنّاس، أو مقترنة، أي: مهتدي بنفسه، أو صاحب هدًى، أي: حجّة يُستَدَلُّ بها من قرآن وغيره. أو الباء للسببيَّة متعلّق بـــ«أَرْسَلَ»، أو للتعليل ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ ضدّ الباطل، وهو دين الإسلام، أصُوله وفروعُه، أو الهدى: الأصول، ودين الحَقِّ: الفروع. ومن الأنبياء من أرسل بالأصول فقط. ويجوز أن يكون الحقُّ الله.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ شرائع الإسلام الماضية لفضْله، ولنسخه ما نسخ منها، ولِدَوَامِهِ ولا ينسخه ناسخ، ولغلبة أهله على جميع الملل في القتال، ولنُزُول عيسى، ومجيء المهدي، وتسليط أهله على شرائع الكفر. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على رسالته ﷺ، وعلى أنّ ما وعده الله حقٌّ، من إظهار دينه على جميع الأديان، وعلى أنّ الفتح يقع ولا بدَّ.

[قلت:] وفي ذلك تسلية له ﷺ عن عدم رضى سهيل بن عمرو بكتابة البسملة، وكتابة لفظ رسول الله كما مرَّ، وإظهار المعجزة من الله بشهادة منه ﷻ، على تحقُّقِ وعده وعلى رسالته ﷺ.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

أوصاف الرسول ﷺ والمرسل إليهم

﴿**مُّحَمَّدٌ**﴾ مبتدأ ﴿**رَّسُولُ اللَّهِ**﴾ نعت أو بدل ﴿**وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ معطوف على «مُحَمَّدٌ»، والخبر هو قوله تعالى: ﴿**أَشِدَّاءُ**﴾ غلاظ بالقلوب والبُغْضِ والمجانبة ﴿**عَلَى الْكُفَّارِ**﴾ المشركين ﴿**رُحَمَاءُ**﴾ خبر ثانٍ، ﴿**بَيْنَهُمْ**﴾ بالحبِّ والتودُّد والنَّفع. أو «مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ» مبتدأ وخبر، جملة مستأنفة لشهادة الله ﷻ له بالرسالة، ولتحقُّق ما وعده، لأنَّ من هو رسول الله لا يقول الاَّ صدقًا، أو خبر لمحذوف و«رَسُولُ اللهِ» نعت أو بدل، أي: هو محمد، أي: الذي أرسله الله بالهدى مُحَمَّد، فـ«الذينَ» مبتدأ أخباره ما بعد. ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾: المؤمنون مطلقًا، من شأنهم أن يتَّصفوا بالشِّدة على الكُفَّار والرحمة فيما بينهم، أو هم الصحابة، وعليه الجمهور، وقيل: أصحاب الحديبية، وعليه ابن عبَّاس.

وحاصل ذلك أنَّهم أشدَّاء في الدِّين على الأعداء، رحماءُ على الأولياء، كما قال الله ﷻ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (سورة المائدة: ٥٤)،

ومن ذلك تحرُّز المؤمنين أن تَتَّصِلَ ثياب المشركين بثيابهم، وأبدانُهم بأبدانهم، وأن لا يرى مؤمن مؤمنًا إلاَّ صافحه وعانقه كما روي عن الحسن.

قال ﷺ : «**إذا التقى المسلمان فتصافحا، وحمدا الله واستغفراه غفر لهما**»[١] رواه أبو داود عن البراء. وروى الترمذيُّ مرفوعًا: «**ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلاَّ غفر لهما قبل أن يفترقا**»[٢]، وذلك على إطلاقه ولو مع جنابة. وكذا النساء فيما بينهنَّ ولو في حيض أو جنابة أو نفاس، أو مع محرم على وجه يجوز، وبلا خوف فتنة.

(**فقه**) وكره أبو حنيفة المعانقة والتقبيل في الوجه أو اليد أو غيرهما، وأجاز أبو يوسف المعانقة، وكلُّ ذلك جائز في المذهب، وأجيز تقبيل يد المعظَّم في الدين.

وروى الترمذيُّ عن أنس أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله أينحني الرجل لآخر يلقاه ؟ قال: لا، قال: أيلتزمه ويقبِّله؟ قال: لا، قال: أيصافح يده بيده؟ قال: نعم، وزاد رزين في روايته عن أنس بعد قوله: «ويقبِّله»: «إلاَّ أن يأتي من سفره». وكذا قدم زيد بن خالد بن حارثة المدينة، وقرع الباب على رسول الله ﷺ في بيت عائشة، فقام إليه يجرُّ ثوبه فاعتنقه وقبَّله.

قال أبو ذرٍّ: ما لقيته ﷺ إلاَّ صافحني، وأرسل إليَّ يومًا فأتيته على سريره فالتزمني. **وحرِّمت معانقة الأمرد**. قال ﷺ : «**من لم يرحم صغيرنا ويعرف**

١-رواه **أبو داود** في كتاب الأدب، باب في المصافحة، رقم٥٢١١. **والبيهقي** في كتاب النكاح (٧٨) باب ما جاء في مصافحة الرجل الرجل، رقم١٣٥٦٩. من حديث البراء.

٢-رواه **الترمذي** في كتاب الاستئذان (٣١) باب ما جاء في المصافحة، رقم٢٧٢٧. **وابن ماجه** في كتاب الأدب (١٥) باب المصافحة، رقم٣٧٧٠. من حديث البراء.

حقَّ كبيرنا فليس منّا»[1]، رواه أبو داود عن عبد الله بن عمر. ولا بأس أن يحسن إلى مشرك ليتوصَّل إلى أمر دينيٍّ.

﴿**تَرَاهُمْ**﴾ بعينك أو تعلمهم ﴿**رُكَّعًا سُجَّدًا**﴾ خبر آخر لـ«مُحَمَّدٌ»، أو لـ«الذينَ» على ما مرَّ، ومستأنف الخطاب لعموم من يصلح له على البدليَّة، وإذا جعلناه خبرا لـ«مُحَمَّدٌ» صحَّ أن يعلم نفسه وأن يرى باقي جسده بعينه بعد العينين وما لا يراه. والركوع والسجود عبارة عن كلِّ الصلاة، لأنَّهما الجزءان اللَّذان تمتاز بهما، والمراد بالاستمرار الذي دلَّ عليه المضارع كثرة الصلاة لا عدم الفترة، فهو استمرار عُرفيٌّ.

﴿**يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا**﴾ خبر آخر كذلك، أو حال من الهاء، أو من ضمير «رُكَّعًا» أو «سُجَّدًا»، ويقدَّر مثله للآخر، أو جواب لقول من يقول: ما يبتغون من الاستمرار على الركوع والسجود؟. والرضوانُ: رضَا الله عنهم، وهو دوام، وليس في الفضل من ربِّهم وهو الجنَّة من حيث مفهومه دلالة على الدَّوام فأخَّر ما مدلوله الدوامُ ليختم به.

﴿**سِيمَاهُمْ**﴾ علامتهم ﴿**فِي وُجُوهِهِم مِّنَ اَثَرِ السُّجُودِ**﴾ متعلِّق بما تعلَّق به «فِي وُجُوهِهِمْ» أو بـ«وُجُوهِهِمْ» لنيابته عمَّا حذف، أو بمحذوف حال من المستتر، والمراد: ما كان في الجبهة أو الأنف هو في الوجه، وذلك حقيقة إذ لا يشترط للظرفيَّة الاستغراق.

وليس ما يحدث في الجبهة كثفنة البعير من كثرة السجود يعمُّ الوجه، وقد سمِّي كلٌّ من عليِّ بن الحسين زين العابدين، وعليِّ بن عبد الله بن عبَّاس: "ذا الثَّفنات" لكثرة سجودهما حتَّى أثَّر في الجبهة.

١-رواه **أبو داود** في كتاب الأدب باب في الرحمة رقم٤٩٤٣ من حديث بن السرح. **والحاكم** في كتاب البر والصلة: ج٤ ص١٩٧ رقم٣٧٥٣ من حديث أبي هريرة.

(فقه) ومن يتعمَّد ذلك ليحصل فصلاتُه فاسدةٌ، وذلك رياءٌ، قال ﷺ: «**لا تعلِّموا صوركم**» بمعنى لا تجعلوا فيها علامة، وكذا قال ابن عمر لرجل رأى في أنفه سيمة من أثر السجود. ومن تعمَّد الأثر لم تشمله الآية. رأى السائب بن يزيد[1] الأثر في وجه رجلٍ فقال: «أفْسَدَ وَجْهه، والله ما هي بالسيما التي ذكر الله تعالى ــ أي: لأنَّه تعمَّدها رياءً، أو لأنَّ السِّيما في الآية ما يرى من القبول في وجه المصلِّي المخلص لا لتلك الثفنة ــ لقد صلَّيت ثمانين سنة وما في وجهي ذلك».

قال بعض السلف: كنَّا نصلِّي وما يرى ذلك في وجوهنا والآن يصلِّي الرجل فترى في وجهه ركبة البعير، أخشُنت الأرضُ بعدنا أم ثقلت رؤوسهم ؟!. وعن سعيد بن جبير وسعيد بن المسيِّب: «السيما» ندى الطُّهور وتراب الأرض، وهذا من نوع ما ذكر.

[قلت:] وهذا كلُّه ذكرته إفادة لِمَا ذكر بعض، إلاَّ ما ذكرتُه من أثر القبول فإنَّه الذي يتبادر لي من حين صغَر السِّنِّ، وهو موافق لنوع ما قال مجاهد وسعيد بن منصور: «إنَّ السيما الخشوع والتواضع»، **وأمَّا الثفنة فقد تكون في وجه الرجل وقلبه أقسى من الحجر.**

وعن عكرمة والضحَّاك: السيما صفرة الوجه من السَّهر في العبادة بشرط انتفاء الرياء، ومن سهر في اللَّهو تصبح ظلمة في وجهه، ثمَّ رأيت عين ما قلت في قول عبد العزيز المكِّي: إنَّها نور يبدُو من باطن العابد على وجهه ولو زنجيًّا أو حبشيًّا. وفي قول عطاء: حُسْن يعتري وجوه المصلِّين، وفي قول بعض: هيبَةٌ في وجه العابد لقرب عهده بمناجاة سيِّده.

١- السائب بن يزيد بن سعيد الكندي: صحابيٌّ كان مع أبيه يوم حجَّ النبيء عليه السلام حجَّة الوداع، واستعمله عمر على سوق المدينة، وهو آخر من تُوُفِّيَ بها من الصحابة عام ٩١هـ.

وعن ابن عبَّاس: السمة الحسن. وعن ابن عبَّاس أيضًا والحسن: بياض في الوجه يوم القيامة يعرف به، وقيل: موضع السجود أشدُّ بياضًا وتكون كالبدر، ويبعثون غرًّا محجَّلين، وعنه ﷺ : «**النور يوم القيامة**»، رواه الطبرانيُّ عن أُبيِّ بن كعب، **فلا مانع أنَّه الآن ويوم القيامة.**

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من نعوتهم البعيدة مرتبةً وشأنًا. ولو قيل: «هذا» بدلَ «ذَلِكَ» لَتُوُهِّم أنَّ المراد ثبوت السيما في الوجوه لقربه. ﴿**مَثَلُهُمْ**﴾ وصفُهم العجيب الجَارِي مجْرَى المثل في الغرابة، ﴿**فِي التَّوْرَاٰةِ**﴾[1] حال من «مَثَلُ»، لأنَّه خبر عمَّا فيه معنى الحدث، وهو الإشارة.

﴿**وَمَثَلُهُمْ**﴾ عطف على «مَثَلُهُمْ» ﴿**فِي الانجِيلِ**﴾ حال من «مَثَلُ» الثاني لعطفه على الأوَّل المخبر به عن الإشارة. ﴿**كَزَرْعٍ اَخْرَجَ شَطْئَهُ,**﴾ خبر ثانٍ للإشارة، أو خبر لمحذوف، أي: هم كزرع، أو «مَثَلُهُمْ» الثاني مبتدأ خبره «كَزَرْعٍ». والشَّطْءُ: فروخ الزرع، لأنَّه خرج منه وتفرَّع في شاطئيْه، أي: جانبيه، يكون في البُرِّ والشعير وغيرهما، وفي الشجر والنخل، والظاهر أنَّ المراد هنا البرُّ والشعير، لأنَّهما أنسب بالشطء، وأكثر المأكول في أكثر المواضع.

(صرف) ﴿**فَئَازَرَهُ,**﴾ فعل ماض بوزن "أفعل"، أصله همزتان قلبت الأخيرة ألفًا، بمعنى: أعانه وقوَّاه، من قولك: آزرتُه بهمزة واحدة دون ألف، أي: شددت إِزَارَه، وأزرتُ البناء كذلك، وبألِف: قوَّيت أسافلُه، وليس من المؤازرة من المفاعلة بوزن "فاعل" (بفتح العين) بمعنًى المعاونة، كالوزير للذي يحمل ثقل الرأي لنحو السلطان، خلافًا لمجاهد وبعضهم.

١- انظر تفسير ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج٢٦، ص٢٠٧. فقد ذكر من التوراة «تلألأ الرب من جبل فاران»، وجبل فاران هو جبال الحجاز.

(صرف) ويحتاج ذلك قيل: إلى سماع فإنّ المسموع في معنى القُوَّة والتقوية والإعانة من هذا اللفظ: "أَفْعَلَ" بالهمزة و"فَعَلَ" بالتخفيف. قلت: لا يقوله إلاّ عن سماع فقد سمعه، أو أجازه قياسًا، إذ لا مانع من قياس، كأنَّه قيل: قوي أصله، وقوّاه أصله. ويجوز أن يكون "مفاعلة" بمعنى المساواة، كما صرَّح به السُّدِّيُّ والمازنيُّ والسرقسطيُّ، أي: ساوى الشطء أصله، كقول امرئ القيس:

بمَحنيَّة قد آزر الضَّال نَبتَهَا بجرِّ سيوف غانمين وخيَّب

وقد قُرئ بما يناسب الأوَّل ـــ وهو الصحيح ـــ : «فَئَازَرَهُ» بهمزة دون ألف، و«أَزَرَ» بهمزة وشدٍّ دون ألف.

وضمير«أَخْرَجَ» و«آزَرَ» والهاء الأولى للزرع، والثانية للشطء، فالزرع قوَّى الشطء بجذب عروقه الماء إلى الجهة. وإسناد الإخراج والإيزار إلى الزرع مجاز. ويجوز عود ضمير «آزَرَ» إلى الشطء، وهاء «آزَرَهُ» إلى الزرع. ومعنى تقوية الشطءِ الزَّرْعَ ازدياده إليه. ويجوز [عَوْدُ] ضمير «أَخْرَجَ» و «آزَرَ» إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فلا مجاز كما يناسبه عود الضمير إليه تعالى في قوله تعالى: ﴿ لِيَغِيظَ ﴾، وهو قول عكرمة.

﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ استفعل للصَّيْرُورة، نحو استحجر الطين، أي: صار حجرًا، أي: كحجر، أوَ للمبالغة، كاستعصم في وجه، فالمراد المبالغة في الغلظ، والأوَّل أولى، لأنَّ المقام للترقّي، ألاَ ترى أنَّه ذكر الزرع وذكر إخراج شطئه وهو بعد ثبوت، وذِكْر تقوية الشيء وهي بعد حصول الشيء وبعد ذلك ذكر الاستواء.

﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ استقام على أصوله، جمع "ساق"، وهو القصبة التي تكون السنبلة مثلاً أعلاها، وذلك كلابَةٍ (أي حبل) ولوبٍ، وقارةٍ وقُورٍ.

﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ يستحسنونه لقوَّته وكثافته وغلظه، ولا يرون فيه عيبًا مع أنَّهم أعرف بعيوب الزرع، فغيرهم أولى بالإعجاب به لحسن منظره، ولكون الزرَّاع أعرفَ ذَكَرَهم.

ومثل ذلك المثل المضروب لفظ الإنجيل: سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فالزرع: النبيء ﷺ، والشطء: أصحابه، وهو قول ابن عبَّاس.

وقيل: الشطء: المسلمون إلى يوم القيامة، وهو قول حسن من جهة المعنى ونفس الأمر، حتَّى إنَّه يشمل التابعين وتابعي التابعين، كأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وقيل: هو من التابعين كما قال بعض أهل عمان: إنَّه أدرك بعض الصحابة الذين روى عنهم شيخُه جابر بن زيد رحمهما الله تعالى.

(ذكر مجموعة من أئمة عمان) ودخل في ذلك أئمَّة المذهب كعبد الرحمن بن رستم ومن بعده، والمشارقة من الجلندى بن مسعود من شراة أبي يحيى [عبد الله بن يحيى طالب الحق] سنة مائة وإحدى وثلاثين، ومحمَّد بن عفَّان سنة مائة وسبع وسبعين، ووارث بن كعب سنة مائة وتسع وسبعين، وغسَّان بن عبد الله سنة مائة واثنتين وتسعين، وعبد الملك بن حميد سنة مائتين وسبع، والمهنَّا بن جيفر سنة مائتين وستٍّ وعشرين، والصلت بن مالك سنة مائتين وسبع وثلاثين، وعزَّان بن تميم سنة مائتين وسبع وسبعين، وغيرهم من المشارقة، كسعيد بن عبد الله بن محمَّد بن محبوب، وراشد بن الوليد، ومن متأخريهم: ناصر بن مرشد سنة ألف وأربع وثلاثين، وسلطان بن سيف سنة ألف وستين، **كلُّ هؤلاء أئمة عدول كبار**، ومن لم أذكر أكثر ممَّن

ذكرت، ومن أهل عصري العلامة سعيد بن خلفان[١].

واللفظ المذكور عن الإنجيل أنسبُ بما ذكر الضحَّاك وقتادة أنَّ الزرع والشطء كليهما الصحابة، قلُّوا في أوَّل الإسلام وضعفُوا، ثمَّ كثُروا وقووا حالاً فحالاً، حتَّى أعجب الناس أمرُهم. ولا مانع من أن يكون المراد في الإنجيل بالقوم النبيء وأصحابه، ضعف حاله عند الناس أوَّلاً وهو وهم شرذمة قليلون، ثمَّ تقوَّى وتقوَّوْا وكثر العدد وهو ﷺ في العدد. وحاصل ذلك أنَّ الإسلام بدأ غريبًا ثمَّ تقوَّى في الزيادة بالصحابة.

[قلت:] ولا يقال: المثل الدِّينُ، لأنَّه تعالى قال: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ إلاَّ بالحذف، والأصل عدَمُه، أي: مثل حالهم كمثل حال زرع. ﴿لِيَغِيظَ﴾ الله، متعلِّق بمحذوف، أي: فعل ذلك الترقِّي في النبيء ﷺ ودينه وأصحابه ليغيظ،

(بلاغة) وهذا أولى من أن يجعل تعليلاً لـ«وَعَدَ» بعده، إذْ هو خلاف الأصل بالتقديم وعدم التبادر. ولا نكتة للتقديم، إلاَّ الحصُر، أو طريق الاهتمام، أو الفاصلة، إذ ليس يصحُّ أن يقال: ما وعد الله الذين آمنوا... إلاَّ ليغيظ، وليس المقام مقام الصحابة في ذكر التغيُّظ. والمعنى مع تقدير المتعلَّق كما رأيت أولى من دعوى التقديم لأجل الفاصلة، وأيضًا الكُفَّار لم يُؤمنوا بالبعث ولا بوعد النصر في الدنيا، فيبعد اغتياظهم بسبب وعد المغفرة والأجر للمؤمنين، ولو أمكن اغتياظ من عرف الحقَّ منهم وجحد بلسانه.

[قلت:] وأمكن أن يغتاظوا ولو أنكروا البعث والنصر، لأنَّ من اشتدَّ عدواةً لأحد يغتاظ بذكره بخير، ولو لم يَصِحَّ الخير عنده، فقد يصحُّ أن يعلَّق بـ«مَثَّلَ» محذوفًا، أي: مثَّل الله لهم بذلك ليغيظ. ﴿بِهِمُ﴾ أي: بالمؤمنين ﴿الْكُفَّارَ﴾

١- انظر لمزيد من التوسُّع: تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان. للشيخ الإمام نور الدين السالمي.

المعتادين المقابلين من قريش وغيرهم.

﴿**وَعَدَ اللهُ الذينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنهُم**﴾ من المؤمنين المذكورين بأنَّهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ...﴾. و«مِنْ» للبيان، فإنَّها تأتي للبيان مع الضمير، كما تأتي له مع الظاهر، كأنَّه قيل: وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصلحات وهم هؤلاء الأشدَّاء، كما هو وجه في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الذينَ ءَامَنُواْ منكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ (سورة النور: ٥٥) ، وفي قوله تعالى: ﴿لَعَذَّبْنَا الذينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ (سورة الفتح: ٢٥) ، على أنَّ ضمير «تَزَيَّلُوا» بالمؤمنين.

ولم أر أحدًا أقرب إلى الشرك من بعض الشيعة، إذ جعلوا «مِنْ» للتبعيض، وحكموا بالردَّة على من لم يبايع عليًّا بعد وفاة رسول الله ﷺ ، كيف يمدح الله قومًا مرتدِّين ويذكر الله أنَّه راضٍ عنهم وهو عالم الغيب؟! وكيف يمدح قومًا أكثرهم يرتدُّون وهم أهل بيعة الرِّضوان؟! حاشاهم، وهم مذكورون في القرآن والتوراة والإنجيل بأنَّهم من أولياء الله عَزَّوَجَلَّ .

وقال الطبريُّ: الهاء في «مِنْهُمْ» عائدة إلى الشطء الذي أخرجه الزرع، وهم الداخلون في الإسلام إلى يوم القيامة.

[قلت:] ومن الفساد في التفسير ما قيل عن عكرمة: ﴿أَخْرَجَ شَطْئَهُ﴾ بأبي بكر، فآزَره بعمر، فاستغلظ بعثمان، فاستوى على سوقه بعليٍّ. وما قيل: عن ابن عبَّاس. ولا يَصحُّ عنه: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالذينَ مَعَهُ﴾ أبو بكر ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ عمر ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ عثمان ﴿تَرَاٰيهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ عليٌّ ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا﴾ طلحة والزبير ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنَ اَثَرِ السُّجُودِ﴾ عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقَّاص، وأبو عبيدة بن الجرَّاح، ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الانجِيلِ كَزَرْعٍ اَخْرَجَ شَطْئَهُ فَئَازَرَهُ﴾ بأبي بكر ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ بعمر ﴿فَاسْتَوَىَا عَلَىَا سُوقِهِ﴾ بعثمان ﴿يُعْجِبُ

الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ بعليٍّ ﴿وَعَدَ اللهُ الذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ جميع الصحابة. وما قيل: من أنَّ أصل الزرع عبد المطَّلب، شطؤه محمَّد ﷺ، ﴿فئازَرَهُ﴾ بأبي بكر ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ بعمر ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ بعثمان ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ بعليٍّ.

قلت: وفضل الصحابة لا ينكر، قال ﷺ : «**أرحم أمتِّي بأمَّتي أبو بكر، وأشدُّهم في أمر الله عمر، وأشدُّهم حياء عثمان، وأقضاهم عليٌّ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرأهم أُبَيٌّ بن كعب، ولكلِّ أمَّة أمين وأمين هذه الأمَّة أبو عبيدة بن الجراح، وما أظلَّت الخضراء وأقلَّت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذرٍّ، أشبه عيسى في ورعه**» قال عمر: فنعرف له ذلك يا رسول الله ؟ قال: نعم[1].

[قلت:] وليس في ذلك تفضيلهم على عليٍّ في العلم، فإنَّ قوله: «أقضاهم» يأتي على ذلك كلِّه لا مخصوص بالقضاء بين الناس، بل لا يكون أقضاهم بين الناس إلاَّ لاشتماله على تلك الخصال كلِّها.

ولو لم يكن فيهم إلاَّ قوله ﷺ : «**خير الناس قرني ثمَّ الذين يلونهم**» كما في البخاري ومسلم، وقوله ﷺ : «**خير الناس القرن الذي أنا فيه ثمَّ الثاني ثمَّ الثالث**» لكفى[2].

ومن خصائص الإمام عليٍّ بعد قرابته أنَّه أَشَدُّ الصحابة حفظًا على عورته من أوَّل أمره، وأشدُّهم غَضًّا لعينه، ولذلك تَوَلَّى غسل رسول الله ﷺ بأمره ﷺ . وَلَمَّا قصده داهية العرب عمرو بن العاص للقتال بقهر معاوية له على

١-رواه **ابن ماجه** في المقدمة (١١) باب في فضائل الصحابة، رقم١٥٣. **والبيهقي** في كتاب الفرائض (٢) باب ترجيح قول زيد بن ثابت على قول غيره... رقم١٢١٨٦. من حديث أنس.

٢-تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٦، ص١٢٧.

ذلك تحرَّك إلى جهة عليٍّ بصورة القتال، فلمَّا قصده عليٌّ ليقتله كشف عورته، فأدبر عنه عليٌّ فذهب ونجا، وقد امتثل أمر معاوية.

﴿مَّغْفِرَةً﴾ مصدر ميميٌّ، أي: غفرانًا عظيمًا لا تذكر لهم، ولا توجد في صحائفهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ بعد البعث، وهو تسهيل المحشر والجنَّة، وما لهم فيها.

والله الموفِّق للصواب

اللهمَّ ببركة ما هو اسمك الأعظم اجعلنا من أهلها.

تفسير سورة الحجرات وآياتها ١٨

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ② إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ③ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ④ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑤ ﴾

التأدُّب في حضرة الرسول ﷺ وفي خطابه

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءامَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ ختم السورة [الفتح] بالرحمة ترغيبًا فيها وترجية للمذنبين ليتوبوا، وبدأ [سورة الحجرات] بعد الرحمة بالنداء إشارة إلى عظمة ما نودوا إليه، ليزدادوا اعتناء به. ووصفهم بالإيمان تنشيطا لهم وتنبيهًا على أنَّ من شأن من اتَّصَفَ به أن يجتهد فيما دُعيَ إليه، وعن ابن مسعود: «كلُّ ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا﴾ في المدينة، وكلُّ ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في مكَّة» قلنا: قد يتخلَّف ذلك.

(نحو) و«تُقَدِّمُ» متعدٍّ إلى مفعول واحد بنفسه، وإلى الآخر بعلى، تقول: قدَّمت زيدًا على عمرو، لكن استعمل هنا على طريق عدم تعلُّق الغرض بالمفعول، فنزِّل منزلة اللاَّزم، كقولك: الله يعطي ويمنع، وينفع ويضرُّ، وقوله تعالى: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٨) .

فالمعنى: لا تفعلوا التقديم ولا سبيل لكم إليه، فهو سلب لحقيقة التقديم، فيلزم منه أن لا مقدَّم ولا مقدَّمًا عليه (بفتح الدالين). أو هو متعدٍّ إلى مفعول به مقصود حذف للعموم، أي: لا تقدِّموا أمرًا مًّا من الأمور على الآخر.

وهذا أكثر استعمالاً، وفيه السلامة من تنزيل المتعدِّي منزلة اللازم الذي هو خلاف الأصل، لكن فيه الحذف الذي هو خلاف الأصل.

[قلت:] وعندي الأوَّل، وهو تنزيله منزلة اللازم أولى، وهو كثير، ولو كان الثاني أكثر وهو الحذف، لأنَّ أبلغيَّه الكلام بسلب التقديم البتَّة أقوى من أبلغيَّته بحذف المفعول على طريق قصده للعموم، والوجهان من معنى التقديم.

ويجوز أن يكون من معنى التقدُّم (بضمِّ الدَّال) وهو لازم، كقولك: مقدِّمة الجيش، ومقدِّمة جناحي الطائر، ويدلُّ له قراءة ابن عبَّاس وأبي حيوة والضحَّاك ويعقوب وابن مقسَّم بفتح التاء والدال، والأصل عليه: «لاَ تَتَقَدَّمُوا» فحذفت إحدى التاءين.

(بلاغة) ولفظ «بَيْنَ» مجاز مرسل أصليٌّ، لأنَّ حقيقته ما بين اليد اليمنى واليُسْرى، واستعمل في معنى ما أمر الله تعالى به، وما أمر به رسوله ﷺ، ويجوز أن يكون الكلام استعارة تمثيليَّة، شُبِّهَ إثبات الحكم من غير اقتداء بالله ورسوله ـــ لجامع البشاعة ـــ بتقدُّم الخادم بين يدي سيِّده في السير بلا أمرٍ منه، حيث لا مصلحة. أي: لا تجزموا بأمر قبل حكم الله تعالى ورسوله ﷺ فيه، وذلك تشبيه للمعقول بالمحسوس.

ويجوز أن يكون المرادُ: بين يدي الرسول، وذَكَر لفظ الجلالة قبل الرسول تعظيمًا له ﷺ ولشأنه، بأَنَّ مقوله مقول الله ﷻ فكيف يعرض عنه ؟ قال ابن عبَّاس: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنَّة. وعنه: نهوا أن يتكلَّموا بين يدي رسول

الله ﷺ ، وأُمِروا أن يصغوا. فهذا في التلفُّظ، وما مرَّ في إثبات الأحكام بدون الله ورسوله، كما قال مجاهد: لا تفتاتوا على الله ورسوله بشيء حَـتَّى يقضي الله، ورُوِي: حتَّى يقصَّه الله على رسوله ﷺ .

وسواء في ذلك قراءة التقديم وقراءة التقدُّم، أو قراءة التقدُّم على التشبيه لعجلتهم في الحكم، أو التلفُّظ بعجلة المسافر من سفره بجامع الرغبة، وقد رغبوا في الحكم أو القول.

(سبب النزول) والآية على عموم لفظها، ولو خصَّ سبب النزول، كما أخرج البخاريُّ عن عبد الله بن الزبير: قدم وفد من تميم على رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : أَمِّر القعقاع بن معبد بن زرارة، وقال عمر رضي الله عنه : بل أمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر رضي الله عنه : ما أردتَ إلاَّ خلافي، فقال عمر رضي الله عنه : ما أردت خلافك، فتماريا حتَّى علت أصواتهما، فأنزل الله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ...﴾.

وعن جابر بن عبد الله: الآية في قوم ذبحوا الضحايا قبل رسول الله ﷺ ، فنهوا عن ذلك، وأمِروا أن يُعيدوا. وفي الترمذيِّ عن البراء بن عازب: خطبنا النبيء ﷺ يوم النحر وقال: «**إنَّ أوَّل ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلِّي ثمَّ نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنَّتَـنا، ومن ذبح قبل أن يصلِّي فإنَّما هو لحم عجَّله لأهله، وليس من النسك في شيء**» وكذا في البخاري ومسلم، إلاَّ أنَّهما لم يذكرا قوله: «خطبنا النبيء ﷺ يوم النحر».

وفي أبي داود والترمذي عن عَمَّار بن ياسر: «من صام في اليوم الذي يشكُّ فيه فقد عصى أبا القاسم». وأخرج الطبريُّ عن الحسن: ذبح ناس قبل رسول الله ﷺ يوم النحر، فأمرهم النبيء ﷺ أن يعيدوا ذبحًا، فأنزل

الله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ...﴾، أي: تصديقًا له في الأمر بإعادة الذبح.

[قلت:] ومراد الحسن أنَّه نزل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَحْمَنِ الرَّحِيمِ يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ لاَتُقَدِّمُواْ﴾، وكذَا في حديث البخاري وما يأتي وغيره، إذَا ذَكرَ الراوي ما هو أوَّل السورة بعد البسملة أنَّه نزل في كذا ولم يذكر البسملة، أو قال: نزلت السورة وذكرها بأوَّلها لا باسم السورة ولم يذكر البسملة، فالمراد أنَّه نزل ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وما بعده، ولكن لم يذكروها لاشتراك السور فيها[١] وفي رواية: «**ذبحوا قبل الصلاة فأمرهم...**».

(فقه) والذبح قبل الصلاة ذبح قبله ﷺ، كما في الرواية الأولى، لأنَّه لا يُذْبح قبلها، فهي ذبيحة لا تجزي عندنا وعند أبي حنيفة كما تراه في الحديثين. وكما روى البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي عن البراء: ذبح بردة بن نيَّار قبل الصلاة فقال النبيء ﷺ: «**أبدلها**» قال: يا رسول الله ليس عندي إلاَّ جدعة، فقال ﷺ: «**اجعلها مكانها ولن تجزي عن أحد بعدك**»[٢] وعنه ﷺ: «**من ذبح قبل الصلاة فَإِنَّمَا ذبح لنفسه، ومن ذبح بعدَ الصلاة فقد تَمَّ نسكه وأصاب سنَّة المسلمين**»[٣].

(سبب النزول) وعن الحسن: كثرت الوفود إلى رسول الله ﷺ وأكثروا السؤال، يعني يقولون: يجوز كذا ؟ أيجوز كذا ؟ لو أُنزل الوحيُ في كذا لكان كذا ؟ فنزلت الآية: لا تبتدؤوا بالسؤال، وظاهر كلام الحسن هذا مع ما

١- وهذا على قول من يرى البسملة آية من كلِّ سورة.

٢- رواه **البخاري** في كتاب العيدين (١٠) باب التكبير إلى العيدين، رقم ٩٦٨. ورواه **البيهقي** في كتاب الضحايا (٩) باب وقت الأضحية، رقم١٩١١٥. من حديث البراء.

٣- رواه **البخاري** في كتاب الأضاحي باب سنَّة الأضحية... رقم٥٢٢٦. من حديث أنس.

تقدَّم عنه أنَّ الآية نزلت في جميع ما يروى، أو يأتي بعد وقوعه، ومجموعُه سبب النزول لا خصوص ما يذكر رواة الحديث.

(سبب النزول) كما روي أنَّه بعث رسول الله ﷺ سريَّة سبعين رجلا إلى تهامة وأمَّر عليهم المنذر بن عمرو السَّاعدي فقتلهم بنو عامر وعليهم عامر بن الطفيل إلاَّ ثلاثة نَجوا، فلقوا رجلين من بني سليم قرب المدينة فانتسبا لهم إلى بني عامر لأنَّهم أعزُّ من سليم، فقتلوهما فسلبوهما، فقال رسول الله ﷺ : «**بئسما صنعتم، الرجلان من سليم كانا من أهل العهد، وما سلبتم عنهم من ثياب هو ما كسوهما**» فأعطى ﷺ ورثتهما ديَّتهما، ونزلت الآية.

(سبب النزول) وعن عائشة كان قوم يصومون قبله ﷺ فنزلت، أي: يصومون يوم الشكِّ من شعبان، أو يومين من آخره، أو مثل ذلك قبل رجب، أو قبل شعبان، إذْ رأوه يصوم فيهما. ودخل مسروق على عائشة يوم الشكِّ آخر شعبان، فأمرت جارية أن تسقيَهُ عسلاً، فقال: إنِّي صائم، فقالت رضي الله عنها: «نهى رسول الله ﷺ عن صوم هذا اليوم، وفيه نزل: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءامَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ...﴾»، أي: فيه وفي غيره، أو أرادت لا يخرج عن الآية، أو هذا مثل قول ابن مسعود ـــ للتي قالت له: «قرأت القرآن وما وجدت فيه ما قلت من لعن الواشمة» ـــ : إن قرأتِهِ فقد وجدتِّه، ألا ترين قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ...﴾ ؟ (سورة الحشر: ٧) .

وأدخل بعضٌ في الآية المشي قدَّامه ﷺ .

ويلتحق بما قال رسول الله ما يقول المجتهد **المتأهِّل للاجتهاد**.

(حادثة تاريخية) وقد أمر عبد المؤمن[1] بتخريق كتب الفروع، وردِّ الناس إلى قراءة كتب الحديث واستنباط الأحكام منها، وكتب بذلك وهو في المغرب الأقصى إلى جميع طلبة العلم من بلاد أندلس والعُدْوة.

قلت: ذلك حسن لولا أنَّه لا يقدِر الطلبة كلُّهم على الاستنباط، وليس يوجد في كلِّ قطر طالب يستنبط، فقد يتعطَّل أمر العَامَّة بذلك، وليس يوجد في كلِّ موطن مجتهد. وكذا أمر بنوه من بعده الناس بأن تؤخذ الأحكام الشَّرعيَّة من الكتاب وَالسُّنَّة مباشرة على طريق الاجتهاد المطلق، وحرَّقوا كثيرًا من كتب الفروع الحادثة، واستحسنه بعضُ علماء عصرهم، ومنهم ابن العربي استحسنه[2].

﴿**وَاتَّقُواْ اللَّهَ**﴾ في كلِّ ما تأتون وما تذرون من الأقوال والأفعال التي من جملتها ما نحن فيه ﴿**إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ**﴾ لأقوالكم وأقوال غيركم ﴿**عَلِيمٌ**﴾ بكلِّ شيء من الأفعال والاعتقادات فاحذروه فيما تقولون وما تفعلون.

﴿**يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيءِ**﴾ أعاد النداء مع قرب النداء قبله للتأكيد في النهي عن رفع الصوت فوق صوته ﷺ ، وللتنبيه على أنَّ تحريم ذلك الرفع أمر آخر عظيم يستقلُّ بالاعتناء به، وذِكْرِ وجوب أن لا يساووا بأصواتهم صوتَه ﷺ كما يفعل بعضهم ببعض، بل يخفضوا أصواتهم عن صوته وجوبًا في قوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿**وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ, بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ**﴾ عقب كلامه، ولا في سكوته، بل دونه كمن يكلِّم جبَّارًا مهيبًا،

١-عبد المؤمن بن علي بن مخلوف: مؤسِّس دولة الموحِّدين، ولد بالمغرب سنة ٤٨٧هـ وعندما حجَّ التقى بابن تومرت، فتصادقا، وجعله قائد للجيوش، وعندما مات بويع لعبد المؤمن سنة ٥٢٤هـ، وخضع له المغرب والأندلس، وتُوُفِّيَ سنة ٥٥٨هـ.

٢-انظر: كتاب تاريخ الجزائر، ج٢، ص٣٣٩ لمحمَّد مبارك الميلي نقلا عن المعجب في تخليص أخبار المغرب، لعبد الواحد المراكشي.

احترامًا له، وإن خفض صوته فاخفضوا أنتم تحت خفضه، وإنْ جهر كثيرًا أكثر ممَّا يجهر في عادته فلا تقتصروا على جهره المعتاد، بل اخفضوا تحت جهره المعتاد.

وقيل: قوله عز وجل : ﴿لَا تَرْفَعُواْ﴾ فيما إذا نطق ونطقتم، وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ﴾ فيما إذا سكت وتكلَّمتم. قال أبو هريرة عن الصدِّيق بعد نزول ذلك: «والذي أَنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلِّمك إلاَّ كأخي السرار حتَّى ألقى الله تعالى»، وفي رواية: «يارسول الله لا أكلِّمك إلاَّ السرار أو أخا السرار حتَّى ألقى الله تعالى».

وكان رضي الله عنه إذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفودُ أرسل إليهم من يعلِّمهم كيف يكلِّمونه صلى الله عليه وسلم ، وكيف يسلِّمون، ويأمرهم بالسكينة والوقار، وعن عبد الله بن الزبير: كان عمر إذا تكلَّم عند النبيء صلى الله عليه وسلم لم يسمع كلامه حتَّى يستفهمه، وذلك كلُّه حذر من الآية.

وقيل: المعنى: لا تقولوا يامحمَّد كما ينادي بعضكم بعضًا باسمه، بل قولوا: يا نبيء الله، أو يا رسول الله، وبُحث بأنَّه لو كان المعنى هذا لقال لا تخاطبوه كخطاب بعضكم لبعض، ولا يذكر الجهر، وهو ظاهر.

[قلت:] وما ذكر من الجهر المنهيِّ عنه فوق صوته إنَّما هو إذا لم يحتج إلى الرفع، أمَّا إذا احتيج إليه فيجوز، كما إذا دعت ضرورة، وكما إذا كان بأمره صلى الله عليه وسلم ، كما أمر العبَّاس يوم حنين أن ينادي: يا أصحاب السمرة، فنادى بأعلى صوته، قيل نادى: «الغارة أتت ياصباحاه»، فأسقطت الحوامل. قيل: يزجر السبع عن الغنم فتنفتق مرارته. وسئل ابنه عبد الله بن عبَّاس: لم لا تنفتق الغنم؟ فقال: لأنَّها ألفت صوته.

وأيضًا إنَّما يشدِّد الجهر في الموضع الذي يحتاج إلى ذلك، وكما إذا دعا إلى الرفع والجهر حال قتال في حضرته ﷺ ، أو جدال كافر أو منافق، أو إرهاب عدوٍّ، أو نحو ذلك مِمَّا ليس إهانة له ﷺ .

(فقه) والنهي عن الجهر والرفع محرَّمان في حضرته، ولو غير خطاب له، إلاَّ لداعٍ كما مثَّلتُ قبلُ، وكما إذا كان داخل البيت ونادوه من خارج في بعيد من الباب، أو قريب فيجهروا له: يارسول الله، أو يانبيء الله، ويعترض عليه بقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَلَوَ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: كراهة أن تحبط أعمالكم الصالحة، بتقدير مضاف، أو لئلاَّ تحبط أعمالكم بتقدير اللام ولا النافية، وهذه اللام المقدَّرة لام العاقبة، لأنَّهم ليسوا يجهرون أو يرفعون قصدًا لحصول الحبوط، بل عاقبة الجهر والرفع الحبوط.

ويجوز تقدير لام التعليل ولا النافية، فيؤدِّيان ما يؤدِّي تقدير «كراهة» من المعنى، ولام العاقبة متعلِّقة بـ«تَجْهَرُوا»، ويقدَّر مثله لـ«تَرْفَعُوا»، وأمَّا «كراهة» ولام التعليل فمتعلِّقان بأنهاكم أو نهيتكم عن الرَّفع والجهر لئلاَّ تحبط أعمالكم.

﴿وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ الجملة حال من «أَعْمَال»، والمفعول محذوف، أي: لا تشعرون أنَّها ــ أي: أعمالكم ــ محبطة.

(أصول الدين) والآية دليل على أنَّ الكبائر محبطة للأعمال الصالحة، كما يحبطها الشرك، فلو جهر له ﷺ أحد أو رفع صوته بعد نزول الآية جهالة بلا قصد إيذَاءٍ أو زلَّةً بلا قصد إيذاء لم يكن شركًا بل كبيرة دون الشرك تحبطُ العمل. يحتملُ أنَّ المعنى: إنَّكم لا تعلمون أنَّها محبطة، ولو سمعتم

النهي، فهذه فائدةُ ذكر «لاَ تَشْعُرُونَ».

[قلت:] ولا حاجة إلى دعوى أنّ الإحباط بلا قصد الإيذاء متزّل مترلة قصد الإيذاء، وقصده شرك، إذ لا دليل على ذلك.

(سيرة) وَلَمَّا نزلت الآية احتبس ثابت بن قيس في بيته، وأغلق عليه بابه وطفق يبكي، فقال ﷺ لسعد بن معاذ: ما شأن ثابت، وهل مرض؟ فقال: إنّه جاري وما سمعت عنه مرضًا، فقال له سعد: ما شأنك ؟ قال: نزلت الآية وقد علمتم أنّي أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ فأنا من أهل النار، فأخبره ﷺ سعدٌ بما قال ثابت فقال ﷺ : «**بل هو من أهل الجنَّة**». رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية: فكنَّا نراه رجلاً من أهل الجَـنَّة يمشي بين أظهرنا، فأرسل إليه وجاء فقال: ما شأنك؟ فقال: «يارسول الله أنزل الله عليك هذه الآية وأنا شديد الصوت، فأخاف أن يكون قد حبط عملي»، فقال ﷺ : «**بل تعيش بخير، وتموت بخير، ولست ممَّن يحبط عمله**»، ولا ينافي قوله: «فأنا من أهل النار» قوله: «أخاف»، لأنَّ مراده بأنَّه من أهل النار الظنُّ لا الجزم، أو أراد: إنِّي من أهلها، وعبَّر عن هذا الجزم بالخوف تفنُّنا في العبارة.

وعلى كلِّ حال خاف بعد نزول الآية عمَّا صدر منه من الجهر والرفع قبل نزولها، لغلبة الخوف، أو لظنِّه أنَّه مؤاخذ بما قبل نزولها، مع أنَّه لا مؤاخذة بما قبل نزولها، مع أنَّه لا قصد له في الإهانة بل الجهر طبع له، كما هو شأن الأصمِّ. ويروى أنَّه أمر زوجه جميلة بنت عبد الله بن أُبيِّ بن سلول أن تسمِّر عليه باب فراشه على أن لا يخرج حتَّى يموت، أو يرضى عنه رسول الله ﷺ ، فأخبر ﷺ بذلك فقال: مالك تبكي؟ فقال: يا رسول الله إنِّي صيِّتٌ أخافُ أن تأكلني النار لهذه الآية، فقال ﷺ : «**أما ترضى أن تعيش حميدًا، وتقتل شهيدًا، وتدخل الجنَّة؟**»فقال: رضيت ببشرى رسول الله ﷺ ، لا أرفع صوتي على رسول الله

ﷺ أبدًا، قال أنس: فكنَّا ننظر إلى رجل من أهل الجنَّة يمشي بين أيدينا.

وشهد حرب اليمامة لمسيلمة الكذَّاب، وانهزمت طائفة هو فيهم مع سالم مولى حذيفة، فقال: تبًّا لهؤلاء ما كُـنَّا نقاتل أعداء الله مع رسول الله ﷺ مثل قتالنا هذا، وثبت حتَّى قتل وعليه درعٌ، فقال في المنام لصحابيٍّ: إنَّ فلانا نزع درعي وهو في ناحية من العسكر عند فرس يستن في طيله، وقد وضع عليه برمته، فأَخبِرْ خالدًا يستردُّه، وأْتِ خليفة رسو ل الله ﷺ ، وقل له: إنَّ عليَّ دينًا حتَّى يقضيه، وفلان من رقيقي عتيق، فاستردَّ خالد الدرع، وأخبر خالد الصدِّيق فأنفذ وصيَّته، حكم بعتق العبد، وأنفد دينه، قال أنس: لا أعلم وَصيَّةً من مَيِّــت أجيزت بعد موت صاحبها إلاَّ هذه. وقال: يا رسول الله لا أرفع صوتي عليك أبدًا، فقيل عنه: قد يسَّر الله له ترك هذه العادة.

[قلت:] واعلم أنَّه لا يرفع الصوت ولا يجهر عند قبره ﷺ ، لأنَّه حيٌّ، ولا عند قراءة حديثه احترامًا له، ومن ذلك أن لا يستدبر قبره زائره بل يذهب على جنب.

وَلَمَّا نزل ذلك كان عمر وثابت بن قيس يغضَّان أصواتهما جدًّا وكذا غيرُهما فترل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الذينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ**﴾ مدح لمن غضُّوا أصواتهم عند رسول الله قبل نزول الآية. والمضارع لحكاية الحال الماضية المستمرَّة قبل الترول، ومعلوم أنَّهم يستمرُّون على الغضِّ بعد نزولها، وذلك مراعاة للأدب معه ﷺ ، وما كان بعد نزولها فلذلك، ولئلاَّ يخالفوا الآية. أو المراد مطلق من يغضُّ بقطع النظر عمَّا قبل الترول أو بعده، ويضعف التفسير بما بعده، وعليه فذلك إمَّا مدح لقوم غضُّوا بعد الترول فالمضارع للحكاية أيضًا، وإمَّا حظٌّ على أن يغضُّوا فيتَّصفوا بما في قوله عزَّ وجلَّ :

﴿**أُولَئِكَ**﴾ إشارة البعد مع قرب العهد تفخيم، وقد قيل: المراد أبو بكر

وعمر وثابت بن قيس، كما روى ابن مردويه عن أبي هريرة أَنَّ النبيء ﷺ لَمَّا نزلت الآية قال: « **منهم ثابت بن قيس بن شماس**». والآية على العموم. ﴿**الذِينَ اَمْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى**﴾ أدَّبَها وجعَلها قابلةً للتَّقوى، فالامتحان التمرين، والله منزَّهٌ عنها، فالمراد لازمه على التجوُّز الإرساليِّ الأصليِّ، واشتقَّ منه «امْتَحَنَ» على التجوُّز الإرساليِّ التبعيِّ.

(بلاغة) ومع ذلك فإسناد التمرين المعبَّر عنه بالامتحان إلى الله مجاز عقليٌّ، وحقيقته لأولئك المؤمنين، وحاصل المعنى: امتحنوا قلوبهم للتَّقوى بتمكين الله عَزَّ وَجَلَّ لهم.

وزعم بعض أنَّ الامتحان مجاز عن الصبر لعلاقة اللزوم، أي: إنَّهم صبروا على التقوى أقوياء على مشاقِّها، والصواب أن يقال: مجاز عن التصيير، وقيل: الامتحان المعرفة، إطلاقًا للسبب على المسبَّب، أي: عرف الله قلوبهم للتَّقوى، لجواز إطلاق معنى المعرفة على الله تعالى، واختلف فيه بلفظ المعرفة، واللام صلة لـــ«امْتَحَنَ».

أو أريد بالامتحان الضرب بالمِحَنِ، فتكون اللام للتعليل، أو أريد به إخلاص الله تعالى قلوبهم للتقوى، وهو قول مجاهد وأُبيٍّ بن كعب، وأبي مسلم. والامتحان مستعار من امتحان الذهب، بمعنى تجريبه بالنار وإخراج خبثه.

﴿**لَهُم مَّغْفِرَةٌ**﴾ عظيمة لذنوبهم في الآخرة ﴿**وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ هو الجنَّة وتوابعها، قبلها وبعد دخولها، على غضِّ الصوت عند رسول الله ﷺ وسائر أعمالهم الصالحات. والجملة خبر ثانٍ لـــ«إنَّ».

﴿**انَّ الذِينَ يُنَادُونَكَ**﴾ المضارع لحكاية الحال الماضية لغرابتها، لأنَّ النداء من وراء الحجرات متقدِّم على نزول هذ الآية، لكنَّه حكي بالمضارع الذي هو

للحال استحضارًا له كأنّه وقع النداء حال النزول.

(سيرة) والمنادُون وفدُ تميم، سبعون رجلاً، أو ثمانون، منهم الزبرقان بن بدر، وعطارد بن حاجب بن زرارة، وقيس بن عاصم، وقيس بن الحارث، وعمرو بن الأهتم، ومعهم عيينة بن حصن بن بدر الفزاري، وكان رجل سوء يحضر في كلّ سوء، نادوا بصوت جهير جاف: يا محمَّد اخرُجْ إلينا، ثلاثا، ولم يقولوا: يا رسول الله، ثمّ خرج إليهم رسول الله ﷺ، فقالوا: يامحمد إنّ مدحنا زينٌ، وذمّنا شينٌ، نحن أكرم العرب، فقال رسول الله ﷺ: «**كذبتم، بل مدح الله الزين، وشتمه الشين، وأكرم منكم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**».

(سيرة) وذكر ابن إسحاق منهم الأقرع بن حابس، وذكر أنّه وعيينة شهدا مع رسول الله ﷺ فتح مَكّة وحنينًا والطائف، و أنّ عمرو بن الأهتم خلّفه القوم في ظهرهم، وأنّ خطيبهم عطارد بن حاجب، وخطيبه ﷺ ثابت بن قيس بن شماس، وشاعرهم الزبرقان بن بدر، وشاعره ﷺ حسّان بن ثابت، ولَمَّا فرغ حسان من الشعر قال الأقرع: إنّ هذا الرجل لَمُوتًى له، خطيبه أخطبُ من خطيبنا، ولَشاعِره أشعرُ من شارعنا، ولأصْواتهم أعلى من أصواتنا، وإنّه لَمَّا فرغوا أسلموا، فأحسن ﷺ جوائزهم، أعطى كلّ واحد اثنتي عشرة أوقية وكساء، ولعمرو بن الأهتم خمس أواق لحداثة سنّه. وكان عاصم بن قيس يبغض عمرًا، فقال: يارسول الله، إنّه كان رجلاً منّا في رحالنا، وهو غلام حدث، ونقصه رسول الله ﷺ بعد أن أعطاه مثلهم اثنتي عشرة أوقية، فبلغه فقال:

ظللت مفترش الهلباء تشتمني عند الرسول فلم تصدق ولم تصب
سدناكم سُؤْدَدًا رَهْوًا وسُؤدُكُمْ بَادٍ نَواجذُهُ مُقْعٍ عَلَى الذَّنبِ

وروى ابن مردويه عن سعد بن عبد الله أنّ النبيء ﷺ سئل عن هؤلاء

المنادين، فقال: «هم الجفاةُ من بني تميم لولا أنَّهم من أشدِّ الناس قتالاً للأعْوَر الدجَّال لدعوت الله تعالى عليهم ليهلكهم»، وجعل ذلك أبو هريرة أحد أسباب حبِّهم.

(سيرة) والمشهور أنَّ سبب وفودهم المفاخرة، وقيل: سببه أنَّهم شهروا السلاح على خزاعة، فبعث ﷺ عيينة بن بدر في خمسين ليس فيهم أنصاريٌّ ولا مهاجريٌّ، فأسر منهم أحد عشر رجلاً وإحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبيًّا، فقدم رؤساؤهم لأسراهم في سبعين أو ثمانين، منهم عطارد والزبرقان، وقيس بن عاصم وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد، والأقرع بن حابس، ورباح بن الحارث، وعمرو بن الأهتم، ودخلوا المسجد وقد أذَّن بلال للظهر، والناس ينتظرون خروجه للصلاة فنادوه من وراء الحجرات، وأجازهم بما مرَّ آنفًا، قال الأقرع:

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا إذا خالفونَا عند ذكر المكارم
وأنَّا رؤوس الناس من كلِّ معشر وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
وأنَّ لنا المرباع في كلِّ غارة تكون بنجد أو بأرض التهائم

فقال ﷺ : لثابت بن قيس بن شماس: أجبهم، فأجاب، ثمَّ قال أيضًا لحسَّان: أجبه، فقال:

بُنو دارم لا تفخروا إنَّ فخركم يصير وبالاً عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم لنا خولٌ من بين ظئر وخادم

فقال ﷺ : «**لقد كنت يا أخا دارم غنيًّا أن يُذكر منك ما ظننت أنَّ الناس قد نسوه**» فكان قوله ﷺ هذا أشدَّ عليهم مِمَّا قال حسَّان، لأنَّه مصدِّق مثبِّتٌ لما قال حسان، فقال حسان:

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم وأموالكم أن تقسموا في المقاسم
فلا تجعلوا للهِ ندًّا وأسلموا ولا تفخروا عند النبيء بدارم

وإلاّ وربِّ البيت قد مالت القَـنَا على هامِكم بالمرهَفَاتِ الصوارم

فقال الأقرع: والله ما أدري ما هذا؟ خطيبهم وشاعرهم أحسن من خطيبنا وشاعرنا، ودنا إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله، فقال ﷺ : «**ما يضرُّك ما كان قبل هذا**» فيومئذ أسلم الأقرع.

(سيرة) ومعلوم أَنّ سنة الوفود سنة تسع، والطائف وحنين قبلها، وقد ذكر أنّه شهدهما، وشُهر أنّه وعيينة من المؤلّفة قلوبهم إذْ قسِّمت أموال حنين، وعن ابن عبّاس: أصاب النبيء ﷺ بسريّة أمَّر عليها عيينة بن حصن نساءً وذراري من بني العنبر هربوا وتركوهم، فجاءوا للفداء، ودخلوا المسجد، فعجَّلُوا قول: «يا محمَّد اخرج إلينا»، فخرج. ويروى أنّهم قالوا: «فادنا عيالنا»، فنزل جبريل الطَّيْكِلاَ فقال: «إنّ الله يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلا» فقال ﷺ : «أترضون أن يكون بيني وبينكم سبرة بن عمرو، وهو علىدينكم؟» قالوا: نعم، قال سبرة: أنا لا أحكم وعمِّي شاهد، وهو الأعور بن شامة، فرضوا بعمِّه، فقال: أرى أن تفادي نصفهم وتعتق نصفهم، فقال ﷺ : «رضيت»، ففعل ذلك، فأطلق النصف وفادى النصف.

وعن زيد بن أرقم: جاء ناس من العرب إلى رسول الله ﷺ وقال بعض لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، إن كان نبيًا كُـنَّا أسعد الناس به، وإن كان مَلكًا نعش في جنابه، فجاءوا ونادوه من وراء الحجرات: يا محمَّد يا محمَّد، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هؤلاء الآيات، **فنقول: هم المذكورون قبل.**

وبنو العنبر من بني تميم، وعيينة هو عيينة بن حصن بن بدر، تارة ينسب إلى جدِّه وتارة إلى أبيه، والمنادي واحد وهو الأقرع، وإسناده إلى الكلّ حكم على

المجموع، وكأنَّه ناداه كلٌّ واحد، لرضاهم أو أمْرهم به.

﴿مِنْ وَرَآءِ الْحُجُرَٰتِ﴾ خلفها أو قدَّامها، لأنَّ وراء من المواراة، فما استتر عنك فهو وراءك، خلفًا أو قُدَّامًا إذا لم تره، وإذا رأيته لم يكن وراءك فهو مشترك معنويٌّ.

(لغة) وقيل: هو من الأضداد، فهو مشترك لفظيٌّ، والمفرد حُجْرة (بضمٍّ فإسكان) من الحجر بمعنى المنع، والقطعة من الأرض حجرة إذا أحيط عليها ببناء أو حطب أو حجارة، أو نحو ذلك مِمَّا يمنعها، كحظيرة الإبل المحاط عليها بحطب، بمعنى ممنوعة.

(سيرة) وكانت حجرات نسائه تسعًا ﷺ لكلِّ واحدة حجرة من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود، قال داود بن قيس: رأيتهنَّ وأظنُّ عرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت ستّ أذرع، أو سبع، وأحرز البيت الداخل عشرة أذرع، وأظنُّ السمك بين الثمان والسبع، رواه البخاريُّ وابن أبي الدنيا والبيهقيُّ.

وعن الحسن: كنت أدخل بيوت أزواج النبيء ﷺ في خلافة عثمان، فأتناول سقوفهنَّ بيدي، قال: سعيد بن المسيب: والله لوددت أنَّهم تركوهنَّ على حالهنَّ ليراها من يأتي، فيزهد كما زهد رسول الله ﷺ ونساؤه رضي الله عنهنَّ.

ولم يقل: «من وراء حجرات نسائك» أو «من وراء حجراتك» توقيرًا له عَمَّا يوحشه من ذكره بما عدَّ للستر لنحو الوطء. ثمَّ إنَّه قيل: وقع النداء في كلِّ حجرة، وقيل: النداء من وراء واحدة نداء من ورائهنَّ لتتابعهنَّ، بحيث ينفذها نداء واحد. و«ال» للاستغراق والعهد، أو عوض عن الإضافة.

وقيل: الحجرات الحجرة التي فيها النبيء ﷺ جمعت تعظيمًا، ولأنَّها أمُّ

الحجرات وأشرفها، كما جمع المسجد الحرام في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ (سورة البقرة: ١١٤) ، في أحد أوجه، لأنّه إمام المساجد. و«مِنْ» للابتداء، والمراد وقع النداء إليك من وراء الحجرات، وهو معنى غير معنى «ينادونك وراء الحجرات»، وهو أولى من الثاني، لأنّ «مِنْ» تشعر بالانتهاء والغاية من حيث إنّها للابتداء، ويحتمل أن تفيد «مِنْ» تلويحًا إلى الطرف الْمُـــتَّصِلِ بالحجرات من الوراء، أو الأبعدِ، وإسقاطها يقبل أنّه ﷺ في الوراء مع أنّه ليس في الوراء.

﴿أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ من نادى بلا أدب ولم يصبر، ومنه من أمر بذلك أو رضي، والقليل لم يناد ولم يرض ولم يأمر، ولولا تفويت النداء لنادى نداءً حسنًا، أو صبر حتّى يخرج ﷺ .

﴿وَلَوَ اَنَّهُمْ صَبَرُواْ﴾ عن النداء، لو ثبت تحقّق صبرهم.

(نحو) قدَّرتُ الفعل لأنّ أدوات الشرط لا بدَّ من فعل يليها، وقدَّرت تحقُّق صبرهم لمكان «أَنَّ» من التأكيد، وهكذا قل في مثل ذلك، ولا تقدِّر المصدر وحده بلا تقدير لما يدلُّ على معنى التأكيد، وسيبويه يقدِّر المبتدأ تاليًا لأداةِ الشرط، فقيل: يقدَّر له خبر، وقيل: لا يقدَّر، وما ذكرت أوْلَى.

﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ بلا نداء تأدُّبًا، لأنّه ﷺ عالم بحضورهم من الله، أو بخبر إنسان، أو بسماع أصواتهم قبل النداء، ولأنّهم قد سمعوا نداء بلال رضي الله عنه للصلاة فهو يخرج لها، أو صبروا عن تكرير النداء وعن ترك الأدب.

واختار «حَتَّى» عن «إلى» للاختصار، لأنّ «إلى» قبل المضارع المنصوب لا بدَّ من ذكر «أنْ» الناصبة للفعل بعدها، وقيل: لأنّ «إلى» يجوز أن تكون

غاية لِمُعيَّنٍ عند المتكلِّم وغير المعيَّن، مثل: لا تُكرم عمرًا إلى أن يجيء، ومدَّة المجيء لم يعرف المتكلِّم قدرها وعينها، و«حتَّى» لا تكون إلاَّ في المعيَّن، ومدَّة المكث عن الخروج معلومة عند الله لو يمكث.

قلت: لا أسلِّم هذا الشرط، وإنَّما امتنع: ''سهرت الليلة حتَّى ثلثها''، لعدم ظهور المراد، والمعنى ولو قيل ذلك على تقدير: ''حتَّى آخر ثلثيها''، أو ''حتَّى انقضاء ثلثيها'' لَجَازَ. وقوله:

عيَّنت ليلةً فما زلتُ حتَّى نصفها راجيًا فعدت يؤوسًا[1]

فمعناه عيَّنت الزيارة ليلة، فمازلت راجيًا حتَّى تمَّ الوقت المعيَّن للزيارة عندها، أو في العادة وهو النصف الأوَّل من الليل، واختار «حتَّى» لأنَّها أظهر دلالة على الغاية المناسبة للحكم، وتخالف ما بعدها وما قبلها.

﴿**لكَانَ**﴾ ثبوت تحقُّق صبرهم ﴿**خَيْرًا لَّهُمْ**﴾ نفعًا زائدًا عمَّا حصل لهم بخروجه مع استعجالهم، وسوء أدبهم.

فـ«خَيْرًا» على بابه من التفضيل، لأنَّ خروجه إليهم وملاقاتهم به أمر يرْغبُ فيه، ولا سيما أنَّه قد حصل به لهم الإيمان، والمراد: خيرًا لهم في الدين وأدب الدين، وقيل: ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ بأن يعتقهم كلَّهم لا نصفًا فقط، وإذا سلَّمنا هذا قلنا: ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ بالدِّين وإعتاق الكلِّ.

﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ فلم يهلكهم أو يعذِّبهم بذلك النداء، أو ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن أسلم، وذلك لسعة غفرانه ورحمته، كما قال للأقْرع لَمَّا أسْلم: لا يضرُّك ما مَضَى، أي: من إشراك ومعصية ونداءٍ جاف.

١-البيت من شواهد المغني وهو بلا نسبة. انظر: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة العَرَبِيَّة: ج٤، ص٣٥.

قال أبو عبيدة: ما دققت بابًا على عالم حتَّى يخرج في وقت خروجه، وكذا قال قاسم بن سلاَّم الكوفي[1]، وكان ابن عبَّاس يذهب إلى أبي لأخذ القرآن والعلم، فيمكث عند بابه حتَّى يخرج، وقال له يومًا: هلاَّ دققت الباب؟ فقال: العالم في قومه كالنبيء في أمَّته، وقد قال الله تعالى في حقِّ نبيه عليه السلام: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾

الآداب العامَّة

-١-

وجوب التثبُّت من الأخبار

﴿يَآ أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ﴾ شامل للنبيء ﷺ وكاملي الإيمان، والنداء لتأكيد التبيُّن ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ بخبر ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ اطلبوا البيان بالشهادة العادلة، ولو بثقة واحد عدل، وذلك نهي عن العجلة، كما قرأ ابن مسعود: «فتثبَّتوا» (بتاء مثنَّاة بعدها ثاء)، ولا تقلِّدوا من هو فاسق تحقيقًا أو يخاف فسقه، فإذا لم يكن عدلاً ثقة خيف أن يكون فاسقًا فيجتنب حتَّى يعلم أنَّه عدل ثقة، فإذا نهينا عن اتِّبَاع الفاسق وجب علينا أن ننظر العدالة.

١- تقدَّمت ترجمته في ج٩، ص١٨٨.

(سبب النزول) قال الحارث بن أبي ضرار الخزاعي: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فأسلمت، وإلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: أدعوا إليها قومي، فمن استجاب جمعت زكاته، فأرسل إليّ وقت كذا من يأتيك بها، ففعلت، وانتظرت رسوله ولم يأت، فقلت لرؤساء قومي: لم يأتني الرسول ونبيء الله ﷺ لا يخلف الوعد، وأخاف أن الله تعالى سخط علينا، فسرنا إلى رسول الله ﷺ بزكاتنا، وقد بعث ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي معيط أخا عثمان لأمِّه ليقبضها عنَّا، ولَمَّا بلغ بعض الطريق خاف فرجع، فقال لرسول الله ﷺ : إنَّ الحارث منعني الزكاة، وأراد قتلي، فأرسل إلينا من يقاتلنا، فالتقينا معهم خارج المدينة، فقلنا: إلى من؟ قالوا: إلَيْكَ إذْ منعت الزكاة وأردت قتل الرسول إليكَ، فقلنا: لا والله، فدخلنا على رسول الله ﷺ فقال: «منعتم الزكاة وأردتم قتل رسولي؟» قلنا: لا والله ما رأيناه، وقد خفت سخط الله تعالى إذ لم يأتني رسولك، فنزل: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ رواه الطبراني وأحمد قبله.

وقيل: أرسل إليهم خالدًا بعد قول الوليد، وأعطوه الزكاة ولم يجيئوا إلى رسول الله ﷺ ، ولَمَّا نزلت الآية قال ﷺ : «**التثبُّت من الله تعالى، والعجلة من الشيطان**».

(سبب النزول) وروى عبد بن حميد[1] عن الحسن أنّ الوليد بن عقبة أتى النبيء ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ بني فلان ــ وكان بينه وبينهم شيء ــ ارْتدُّوا فبعث إليهم خالدًا ينظر هلْ يصلُّون؟ فإن تركوها فاقتلهم، وإلاّ فلا تعجل، فوافاهم عند الغروب وكمن وراءهم، أذَّنوا وصلّوا المغرب، ثمَّ أذَّنوا للعشاء عند غيوب الشفق وصلّوها، ورجع إليهم في جوف الليل فرآهم

١- تقدَّمت ترجمته في ج١٠، ص١٩٨.

يتهجَّدون بشيء من القرآن تعلَّموه، وطلع الفجر فأذَّنوا وصلُّوا فإذا بطوالع الخيل، فقيل: هذا خالد في خيله، قالوا: ياخالد ماشأنك؟ قال: أنتم شأني، بلغ رسول الله ﷺ أنَّكم ارتددتم، فجثوا يبكون، ويقولون: لا والله، فردَّ الخيل حتَّى أتى إليه ﷺ وأنزل الله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ...﴾.

(فقه) إن قلنا: الخطاب لرسول الله ﷺ وكاملي الإيمان فلأنَّ القضاء وإنفاذ الأحكام والإفتاء يكون بهم، فذلك تجزئة، وقد يراد الكلُّ لوجود الكاملين فيهم، فذلك كلٌّ مثل الحكم على المجموع، وما هنا أمر لا حكم.

وإن أريد المؤمنون مطلقًا فكلِّية، ووجهه أنَّ عامَّتهم قد يشهدون، وقد يسعون في أن يُفْتى أو يُقضى أو يُحكم بشيء، ويتولَّون ويبرأون، فلزمهم التثبُّت.

(بلاغة) والنكرةُ كـ«فاسق» و«نبأ» في سياق الشرط تُظهر العموم ولا تنصُّه، والمراد هنا العموم البدليُّ، لا خصوص الوليد بن عقبة بن أبي معيط، بناءً على أنَّه لا يظنُّ بالوليد الجزم بأنَّهم منعوا الزكاة، وأرادوا قتله، كما قيل بهذا الجزم منه، وإنَّما ظنَّ وتوهَّم فأخطأ، وقيل: المراد الوليد، وأنَّه جيء بـ«إِنْ» والتنكير سترًا عليه.

(لغة) والفسق لغة: الخروج، وشرعًا: الخروج عن أمر الدين بكبيرة، ويطلق على المشرك أيضًا كما ورد في القرآن، والنبأ: الخبر مطلقًا، أو إن كانت فيه فائدة عظيمة، وقال: ﴿إِن جَآءَكُمْ﴾ ولم يقل: إذا جاءكم لقلَّة الفسق والإخبار به في حيِّزه ﷺ، حتَّى إنَّه يشكُّ هل يتصوَّر أن يكون.

(أصول الدين) والنداء بالإيمان يخرج عنهم الفاسق إذ ليس منهم، إذ المراد الإيمان الكامل، أو العموم، إلاَّ أنَّ إيمانه كلاَ إيمان كقوله ﷺ: **«لا يزني**

الزاني حين يزني وهو مؤمن»[1]، أي: موحِّد، والمراد أنَّه شبيهٌ بالمشرك، أو المراد: لا يزني وهو موفٍّ، وليس ذلك نصًّا، لجواز أن يراد: إن جاءكم فاسقٌ منكم، والذين جيء إليهم هم الباقون بعدَ هذاَ الْجَائِي.

(فقه) والآية دليل على أنَّه لا تقبل شهادة الفاسق لا على أنَّه يجوز أن يجعل شاهدًا كيف نجعله شاهدًا ولا نكتفي بشهادته، بل نحتاج إلى التبيين، بل إذا جاء بخبر وقد علمناه فاسقا لم نعمل شهادته بل بغيرها كشهادة غيره، وكالإقرار، وكذا إذا أشهدْناهُ ثمَّ علمنا بفسقه، والمطلوب انتفاء الفسق، فنبحث عن العدالة. والأصل الفسق أو العدالة ؟ قولان.

وجه الأوَّل أنَّ العدالة طارئة، ووجه الثاني أنَّه بتوحيده يتأصَّل فيها، والطارئ الفسق، ثالثهما: الوقف عن الحكم في ذلك حتَّى يرى ما يقوِّي أحدهما، كادِّعاء الإسلام في قوله وفعله مع عدم العلم بكبيرة منه.

[قلت:] والصحابة عدول، لا يبحث عن عدالتهم في شهادة ولا رواية، لما ورد فيهم من المدح، ولا يخلون من كبائر، إلاَّ أنَّهم يموتون تائبين ولا بُدَّ، وعليه جمهور قومنا. أو كغيرهم فيبحث عنها فيهم، إلاَّ من يقطع له بها، كأبي بكر وعمر، ومن ترجَّح له. أو عدول إلى أن وقعت فتنة عثمان. أو إلى أن وقعت فتنة عليٍّ، فمن قاتله منهم فسق، أقوال، خامسها: أنَّ من خاض منهم في الفتن ولم يظهر معه الحقُّ، أو علم الحقَّ وتمسَّك بمجرد ما ورد فيهم من المدح، ومن أمسك لقصوره عن إدراك المُحقِّ، فهو على عدالته.

وأمَّا الفاسق المتأوَّلُ كالمجبرة والقدريَّة والمعتزلة فهل تقبل شهادته وروايته إن تورَّع في الفروع؟ قولان، وغير متأوِّل فلا تقبل عنه، ولا تقبل عمَّن أحلَّ وضع

١- رواه **البخاري** في كتاب المظالم، باب النهب بغير إذن صاحبه، رقم٢٣٤٣. ورواه **مسلم** في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان... رقم٥٧. من حديث أبي هريرة.

الأحاديث ترغيبًا أو ترهيبًا كالكرامية، لا تقبل عنه، وقيل: تقبل في غير الحديث إن تورّع في غير ذلك، وعليه الْحَنَفِيَّة.

﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ كراهة أن تصيبوا أو لئلاّ تصيبوا ﴿قَوْمًا﴾ برآء ممَّا نسب إليهم ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ منكم لحالهم، متعلّقٌ بـ«تُصِيبُوا» والباء لوصل الفعل، أو متعلّقٌ بمحذوف حال من الواو، فالباء للملابسة ﴿فَتُصْبِحُواْ﴾ تصيروا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ على ما فعلتموه، أو على فعلكم. و«عَلَى» للتعليل أو السَّببيَّة، متعلّقٌ بقوله: ﴿نَادِمِينَ﴾ مغتمِّين غمًّا لازمًا متمنِّين أنَّه لم يقع ما فعلتم، ولزوم الندم لقوَّته في أوَّل الأمر، ولعدم خلوِّ القلب عن تذكُّر موجبه، ولكثرة تذكُّره وغير ذلك.

[قلت:] ولا يلزم تجديد التوبة والندم كلّما ذكر الذنب على الصحيح.

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾ قد علموا أنَّ الخطاب للصحابة عمومًا، لأنَّه قد يصدر منهم أنَّه لو كان كذا فعد عليهم أنَّهم كمن ليس فيهم رسول الله، وقيل: لمن زلَّ لكن أمرهُم بالعلم على معنى العمل بمقتضى علمهم بأنَّه فيهم، وهو أنَّه لا يرغبوا في تقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقصان، بل ينتظرون الوحي، ويعملون بما وجد منه في الحال، ويرجع إلى هذا قول بعض المحقِّقين: إنَّه أمرهم بالعلم مراعاةً لتقييده بالحال، وهو قوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الاَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ وصاحب الحال الكاف أو المستتر في «فِيكُمْ».

وأولى من ذلك أنَّ: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ...﴾ مستأنف لا حال، كأنَّه قيل: ما فعلوا حتَّى عدَّ عليهم أنَّهم كمن ليس فيهم رسول الله؟، فقيل: إنَّهم أفرطوا في حبِّ أن يكون تابعًا لهم لا متبوعًا لهم، وهذا موقع لهم في العنت ضدَّ ما طلبوا ممَّا يظهر لهم أنَّ فيه راحة، وهذا على أنَّ الخطاب لمن زلَّ منهم بالإفراط لا للكمال. ولا مانع أن يكون للكلِّ تثبيتًا لهم لوقوع ذلك في بعضهم.

وقدَّم خبر «أَنَّ» للحصر، وهو أشدُّ عتابا على فعل ما لا يصلح لمن فيهم رسول الله ﷺ ، أي: ليس إلاَّ فيكم. و«يُطِيعُ» للاستمرار، و«لَوْ» لامتناع استمرار طاعته لهم في كثير من الأمور، فهو لا يطيعهم في ذلك الكثير، لأنَّ إطاعته في ذلك موقع في العنت.

وقيل: المراد استمرار الامتناع، كما قيل في: ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] استمرار نفي الحزن.

[قلت:] والآية تدلُّ على أنَّهم طلبوا منه ﷺ أن ينتقم من الوليد الفاسق الجائي بنبأ كاذب. و«العنت»: الهلاك أو المشقة، وأصله قيل: الكسر بعد الجبر، وهو أشدُّ محذور.

﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الاِيمَانَ وَزَيَّنَهُ, فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ الخطاب للمجموع، باعتبار المؤمنين الكمَّال فيهم كما فيما قبل من الخطاب، أو يقدَّر: ولكن الله حبب إلى بعضكم. وإن جعلنا الخطاب قبل هذا لغير الكمال كان المعنى: لكنَّ الله حبَّب إليكم أيُّها الكمَّال الإيمان، ولم يجعلكم كهؤلاء الناقصين، بل نجَّاكم ممَّا هم فيه من الزلل، وعُدِّي «حَبَّبَ» و«كَرَّهَ» بـ«إلى» مراعاة لمعنى أَوْصَل إليكم حبَّ الإيمان، وكراهة الكفر. ولا تقل: عدِّي «كَرَّهَ» بـ«إلى» لتضمُّن معنى التبعيض، لأَنــَّا نقول: لو قيل: بغَّض إليكم الكفر لاحتاج إلى التأويل بمعنى أوصل إليكم البغض.

(أصول الدين) والكفر الشرك، والفسوق الكبائر دونه، والعصيان ما دون الكبائر من الذنوب، أو عامٌّ بعد تخصيص.

١- في ١٣ موضعا منها في البقرة آية ٣٨.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المحبَّب إليهم الإيمان المزيَّن هو في قلوبهم، المكرَّه إليهم الكفر...إلخ ﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ هم الكمَّال، النبيء ﷺ ومن معه من الموفَّين، ولو قال: أنتم بدل لفظ «أُوْلَئِكَ» لفات ذكرهم بالتحبيب والتكريه المذكورين الموجبين للرشاد.

(نحو) ﴿فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾ اسما مصدرين، هما التفضُّل والإنعام، والنصب على التعليل لـ«كَرَّهَ» أو «حَبَّبَ»، ويقدَّر مثل ذلك للآخر ولـ«زَيَّنَ»، أو على التنازع ويقدَّر للأوَّل، والثاني ضمير مع لام التعليل، أي: حبَّب لهما، وهاء لهما للفضل والنعمة، أو يقدَّر ناصب واحد، وهو أولى، أي: فعل ذلك فضلاً ونعمةً. و«مِنْ» للابتداء، ويقدَّر مثلها لـ«نِعْمَةً»، أو تعليل لـ«رَاشِدُونَ» ولو لم يتَّحد الفاعل، وليس كقوله تعالى: ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ...﴾ (سورة الرعد: ١٢) ، لأنَّ التقدير يصيِّركم رائين البرق خوفًا وطمعًا، فهو في معنى: رأوا خوفًا، ولا يوجد مثل هذا التقدير في الآية، وقيل: مفعول لمحذوف مستأنف، أو خبر ثانٍ، أي: يبتغون فضلاً من الله ونعمةً.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيء، فهو عالم بأحوال من آمنوا وبتفاضلهم ﴿حَكِيمٌ﴾ يوفِّق من يشاء ويخذل من يشاء لحكمته.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُواْ الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُواْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾

-٢-

طرق الفصل في المنازعات الدّاخليّة

حكم البغاة

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾ أي وإن اقتتلت طائفتان ﴿مِنَ الْمُومنينَ﴾ نصٌّ في جواز تسمية الموحِّد الفاسق مؤمنًا، ولا يختصُّ بالموفِّي ﴿اقْتَتَلُواْ﴾ تقاتلوا، فهو من الافتعال الذي بمعنى التفاعل، ولم يقل اقتَتَلَتَا كما قرأ به ابن أبي عبلة مراعاةً للفظ طائفتين، ولا اقتتلا كما قرأ به زيد بن عليٍّ مراعاة لمعنى الفريقين، وكما قال: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ بل قال: ﴿اقْتَتَلُواْ﴾ مراعاةً لِمَا في كلِّ طائفة من تعدُّد الأفراد.

﴿فَأَصْلِحُواْ﴾ بالوعظ والنصح وإزالة شبهة إن كانت ﴿بَيْنَهُمَا﴾ خطاب للباقين الذين لم يقتتلوا، وضمير التثنية مراعاة للفظ «طَائِفَتَانِ» مراعاةً للّفظ بعد مراعاة المعنى، والكثير العكس، ونكتة ذلك هنا أنّهم حين الاقتتال يختلط بعض الطائفة بالأخرى، وفي حال الصلح تمتاز كلُّ طائفة على حدة.

﴿فَإِنم بَغَت احْدَايهُمَا عَلَى الأُخْرَىا﴾ بعد المطالبة بالصلح، والفاء لمجرَّد الترتيب، إذ لم يتقدَّم ما يتفرَّع ويتسبَّب به ﴿فَقَاتِلُواْ التِي تَبْغِي حَتَّىا تَفِيءَ﴾ ترجع ﴿إِلَىا أَمْرِ اللهِ﴾ واحد الأُمُور، والمراد حكم الله، أو هو ضدُّ النهي، أي: إلى ما أمر الله به، ويجوز أن يكون المراد بالفاء الأولى الترتيب الذكري، فيرجع الكلام إلى غير الصلح، أي: إن رأيتم بغيًا فأعينوا المبغي عليه، إلاَّ أنّه ينبغي المطالبة أوّلاً بالكفِّ عن البغي.

﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ رجعت الباغية إلى أمر الله ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ بالأمر بردِّ ما أخذ من الأموال، وبديات القتلى والجرحى، والفساد في البدن. وعبَّر بالإصلاح لأنّه ربّما لا يتوصَّل إلى إيصال كلِّ ذي حقٍّ إلى كلِّ حقِّه إلاَّ به، أو

الإصلاح هنا إزالة الفساد، ويجوز الصلح ولو تميَّز كلُّ حقٍّ وصاحبه إذا خيف دوام الفتنة بالاستقصاء، ولا تتركوهم بلا إصلاح لئلاَّ يرجعوا إلى القتال.

﴿بِالْعَدْلِ﴾ قَيْدٌ للإصلاح، لأنَّ المقام مظنَّة الحيف ﴿وَأَقْسِطُواْ﴾ اعدلوا، فهو تأكيد للعدل، أي: أقسطوا في كلِّ شيء فيدخل هذا الإصلاح، وهذا تأكيد، وأكَّد مطلق الإقساط بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يجازيهم على إقساطهم أحسن الجزاء.

(فقه) وَكَيفِيَّة الإصلاح أن يقول لإحداهما: اعطوا الأخرى كذا، واتركوا لها ما عليها، أو اتركوا لها كذا باختياركم، أو ائذنوا لي أن أقدِّر ما تعطون، أو يعطون، ومن ذلك أن تترك كلُّ واحدة ما لها على الأخرى، وعليه جمهور قومنا، فإنَّ أبوْا لم يجبرهم.

وقال قومنا: يجبرهم على أن تعطي الفئة الباغية قليلة العدد، بحيث لا منعة لها ما أفسدت، وإن كانت كثيرة العدد ذات شوكة ضمنت عند محمَّد بن الحسين لا عند غيره، وذلك إذا فاءت، وأمَّا قبل التجمُّع والتجنُّد وعند التفرُّق ووضع الحرب أوزارها فما جَنَــتْهُ ضمنته.

وقيل: إنَّ مراد الآية إماتة الضغن والحقد دون ضمان الجنايات، وهو ضعيف، لأنَّه لا يطابقه ذكر العدل والإقساط، وإنَّما يناسب ذكرهما تدارك الفرطات، وأمَّا بدونه فكأنَّه لا عمل للمصلح.

والخطاب في الإصلاح للعموم، والمراد بالذات أولو الأمر، أو أعظمهم، وفي ذكر المجموع تلويح بأنَّه إن لم يصلح بينهم أولو الأمر أو كبيرهم فليصلح العَامَّة أو أحدهم. وقد قيل: الخطاب لأولي الأمر الذين يتأتَّى لهم الإصلاح، ومقاتلة الباغي، مثل أن تمتنعا من الصلح، وَاستَمَرَّتا على القتال، قاتلهما معًا أولوا الأمر وكبيرهم لعدم الإذعان إلى الصلح المأمور به.

والمذهب: حمل ذلك على أن تقاتل الباغية فقط، وبه قال جماعة من قومنا، حتَّى إن أعانة المبغي عليه كجهاد المشركين.

وصرَّح بعض الحنابلة بأنَّه أفضل من جهاد المشركين، لأنَّ عليَّ بن أبي طالب ترك جهاد المشركين واشتغل بقتال معاوية. [قلت:] وليس كذلك بل اشتغل بقتاله لَمَّا ظهر بغيه وبغي من معه من بني أميَّة، فلو تركه لأدَّى الأمر إلى فساد أقوى مِمَّا وقع، ولولا أنَّه يؤدِّي إلى ذلك لم يكن أفضل من جهاد المشركين.

(تاريخ) وقد ندم على اشتغاله بقتال الخوارج عنه، وقال: ليتني لم أقاتلهم لأنَّهم أسد النهار ورهبان الليل، شفيت نفسي وقطعت يدي، وعاتبه ابنه الحسن. وروي أنَّه تاب و لم يعتن الناس بتوبته لأنَّه لم يشهرها، و لم تتيقَّن عنه، ولَمَّا قالت الصُّفْرِيَّة والنجديَّة والأزارقة بتحليل الدماء والأموال بالذنب خرج عنهم الإِبَاضِيَّة الوهبيَّة، ومن أوَّل الأمر امتنع عن قتال الخوارج عنه، وما زال به الأشعث بن قيس عامله الله ﷻ بما أجرم حتَّى قاتلهم.

قال ابن عمر: «ندمت جدًّا إذ لم أقاتل مع عليٍّ معاويةَ ومن معه، إنَّهم فئة باغية كما أمرني الله تعالى بقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَان...﴾» رواه البيهقيُّ والحاكم، وذلك أنَّ الإمام هو عليٌّ، ولا يجوز لمعاوية منازعته في الإمامة، ولا لعليٍّ تركها، قال ﷺ لابن مسعود: «**يا ابن أمِّ عبد هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأُمَّة؟**» قال: الله ورسوله أعلم، قال:«**لا يجهز على جريحهم، ولا يقتل أسيرهم، ولا يطلب هاربهم، ولا يقسَّم فيئهم**» و لم يذكر انتفاء المأوى، واستخرج بعض أصحابنا اشتراطه قطعًا لرجوعهم.

ويروى أنَّه سئل عليٌّ عن أهل الجمل وصفِّين: أهم مشركون؟ قال: لا ! عنِ الشرك فرُّوا، فقيل: أمنافقون؟ قال: لا ! إنَّ المنافقين لا يذكرون الله إلاَّ قليلاً، فقيل: وما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا، ونادى منادي عليٍّ يوم الجمل:

«ألا لا يتبع مدبر، ولا يقتل أسير، ولا يجهز على جريح». فيؤخذ من ذلك أنَّه لا يقتل الأسير الموحِّد. وأتي عليٌّ بأسير يوم صفّين فقال: لا أقتلك صبرًا إِنِّي أخاف الله ربَّ العالمين.

(فقه) [قيل:] ولا يحكم على ما في بعض الكتب على إحدى الطائفتين بما أتلفت من مال أو نفس، وعبارة بعض قومنا: من كانوا جماعة قليلين، أو لم يكن لهم تأويل، أو لم ينصِّبوا إمامًا فلا يتعرَّض لهم إن لم ينصبوا قتالاً، ولم يتعرَّضوا للمسلمين، وإن فعلوا فهم كقطَّاع الطريق.

(سبب النزول) وروي أنَّ رسول الله ﷺ توجَّه إلى سعد بن عبادة ليزوره، ــ والذي في الصحيحين: «ليعوده»، أي: من مرض قبل بدر ــ فمرَّ على عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، فقال لعنه الله: إليك عَنـــِّي، والله لقد آذاني ريح حمارك، فقال له رجل من الخزرج مِمَّن جاء معه هو عبد الله بن رواحة: والله لحمارُ رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك، فغضب لعبد الله رجال من قومه من الأوس، وغضب للخزرجيِّ رحمه الله رجال من قومه من الخزرج، وتقاتلوا بالجرائد والنعال والأيدي، فنزلت الآية.

(سيرة) وقيل: إنَّ القصة وقعت لذهابه إلى عبد الله بن أُبيٍّ إذ قيل له: لو أتيته لتُصلح بين الأوس والخزرج لقتال متقدِّم بينهم، فالطائفتان الأوس والخزرج.

وقيل: أتاه إذ قيل له: لو أتيته لتدعُوه إلى الإسلام، وفي الصحيحين رواية عن أسامة: إنَّه انطلق إلى سعد ليعوده، فمرَّ على أُبيٍّ في مجلس فيه المسلمون والمشركون عبدة الأصنام واليهود والمنافقون، وإنَّه قرأ عليهم القرآن فقال أُبي: لاَ أَحْسَنَ مِمَّا قلت، لكن لا تؤذونا في مجالسنا، ارجع إلى رحلك، وقصَّ على من جاءك. وفي الصحيحين أيضًا رواية عن أنس: إنَّه قيل له ﷺ : انطلق إلى أُبي إذ قيل له، أي: إيته، أي: لتدعوه إلى الإسلام.

وذكر ابن جرير عن السُّدِّيِّ أنَّ الآية في عمران الأنصاريِّ وزوجه أمِّ زيد إذ منعها أن تزور أهلها، وقفل عليها في عليَّة، فبعثت إليهم، فجاءوا وهو غائب، فأخرجوها ليمضوا بها، فقاتلهم بنو عمِّه بالجرائد وما ذكر.

وقال قتادة: الآية في رجلين قال أحدهما لكثرة قومه: والله لآخذنَّ حقِّي عنوة، ودعاه الآخر إليه ﷺ وتضاربا هما وقوماهما.

وأكَّد الإصلاح العامَّ أيضًا بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ عظام أشقَّاء، استعارة تصريحيَّة لجامع التعاون، كما يتعاون الإخوة، يتعاون أهل الإسلام على الإسلام، ولجامع الانتساب إلى أصل واحد، وهو الإيمان الموجب للحياة الأبديَّة، ولجامع المشاركة، فإنَّهم اشتركوا في الإيمان الذي هو منشأ البقاء الأبدي، والتوالد الذي هو منشأ الحياة، وذلك على مختار السعد في قولهم: "زيد أسد".

(بلاغة) والمشهور أنَّه تشبيه بليغ إذ ذكر المشبَّه والمشبَّه به معًا وأكثر ما يستعمل لفظ "إخوان" في الصداقة، ولفظ الأخوَّة في النسب، والعكس قليل، ومن الكثير الآية على التشبيه بأخوَّة النسب، لأنَّها أقوى وأشدُّ اتِّصالاً وتعاضدًا، وأكثر في الوجود، فالأخوَّة النسَبيَّة أكثر من أخوَّة الصداقة، ولأنَّ إخوان الصداقة مجاز عن أخوَّة النسب.

وزاد تأكيدًا بقوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إذ وضع الظاهر موضع المضمر تحضيضا لهم على الإصلاح بذكر الأخوَّة، والأصل: فأصلحوا بينهم، والإضافة للجنس، فعمَّت الطائفتين، كما قرأ ابن سيرين: «بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ» (بالتاء)، وكما قرأ زيد بن ثابت وابن مسعود: «بَيْنَ إِخْوَانِكُمْ» (بالنون).

(بلاغة) وحكمة صورة التثنية الإشارة إلى وجوب الصلح بين شخصين، فكيف جماعتان؟ وإلى أنَّ الطائفتين ولو كثر أفراد كلٍّ واحدة في

الاتِّصال، وقد قيل : المراد بالأخوين: الأوس والخزرج لاجتماعهما في الجدِّ الأعلى، وكَأَنَّ كُلَّ واحد أخٌ. وفي البخاري ومسلم عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ : «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يشتمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربةً فرَّج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**»[1].

﴿**وَاتَّقُواْ اللهَ**﴾ في اعتقادكم وأقوالكم وأفعالكم، ومنها الإصلاح، فلا تتهاونوا به ﴿**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ لترحموا أو قائلين: لَعَلَّنا نرحم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

-٣-

آداب المؤمن مع المؤمن ومع الناس كافَّة

﴿**يَآ أَيُّهَا الذينَ ءامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ**﴾ منكم ﴿**مِّن قَوْمٍ**﴾ منكم آخرين، والسخر: الاحتقار لِعيْبٍ حقيقٍ، أو مدَّعًى وليس بعيب، في حضرة المسخور منه

١-رواه **البخاري** في كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم ولا يسلمه، رقم٢٣١٠. ورواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم٢٥٨٠. من حديث أبي هريرة.

أو غيبته، أريد الإضحاك أو لم يرد، بفعل أو إشارة أو كناية أو إيماء أو ضحك، مثل أن تعيب أحدًا بقصره أو رقّته أو نحو ذلك مما ليس فعلاً للمسخور منه، أو ما هوفعل منه.

(سبب النزول) سخر قوم من بني تميم من بلال، وسلمان، وعمّار وخبّاب وصهيب وسالم مولى أبي حذيفة، وابن نهبرة، لرثّة حالهم ﷺ، فنزلت الآية.

والقوم: الذكور، بدليل مقابلته بالنساء بعدُ، ومع ذلك فحكم الذكور شامل للإناث، ومع ذلك ذكرت النساء بعد أيضًا لتأكيد النهي وتعميمه، قال زهير:

وما أدري وسوف أخال أدري أقوم آل حصـــــن أم نساء[1]

(لغة) وأصله مصدر قام، قال بعض العرب: «إذا أكلت طعامًا أحببت نومًا وأبغضت قومًا»، أي: قيامًا، وسمُّوا [قَوْمًا] لأنَّهم يقومون بالأمور العظام دنيًا ودينًا، ويقومون على النساء، وَأَمَّا نحوُ «قوم نوح» فدخلن فيه بالتبع.

(سبب النزول) وقيل : نزلت الآية في شأن بنت أبي لهب أسلمت، فكان يقال لها: هذه بنت حمّالة الحطب، وفي شأن عكرمة بن أبي جهل أسلم وكان يمشي في المدينة، فقال له قومٌ: هذا ابن فرعون هذه الأمّة، وشكت وشكا إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت.

﴿عَسَىٰٓ أَنْ يَّكُونُواْ﴾ أي: القوم الساخرين منهم ﴿خَيْرًا﴾ عند الله ﷻ ﴿مِّنْهُمْ﴾ من القوم الساخرين. روى أحمد ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله

١- كذا في الشواهد، وقد أثبت الشيخ البيت بكلمة «وكيف» بدل «وسوف». انظر الشواهد في اللغة، ج١، ص٣٦.

ﷺ أنَّه قال: «**ربَّ أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه**»[١].
وروى أبو نعيم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**ربَّ ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لبرَّه**»[٢] وروى البزار عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «**ربَّ ذي طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لبرَّه**»[٣]. أو عسى أن يكون المسخور منهم أعزاء بعد والساخرون أذِلاَّء فينتقمون منهم، أو لا ينتقمون قال:

لا تهين الفقير علَّكَ أن تركع يومًا والدهر قد رفعه[٤]

والأوَّل أولى لتبادره من أنَّ أحكام القرآن مبنيَّة على شأن الآخرة.

﴿**وَلاَ نِسَآءٌ**﴾ منكم ﴿**مِّن نِّسَآءٍ**﴾ أخر منكم ﴿**عَسَىٰٓ أَنْ يَّكُنَّ**﴾ أي: النساء المسخور منهنَّ ﴿**خَيْرًا مِّنْهُنَّ**﴾ من النساء الساخرات عند الله، أو يصرن في الدنيا خيرًا منهنَّ على حدِّ ما مرَّ.

(سبب النزول) روي أنَّ عائشة وحفصة رأتا أمَّ سلمة ربطت حقويها بثوب أبيض سدلت طرفه خلفها، فقالت عائشة لحفصة: كأن يسدلها لسان كلب، فنزلت الآية وتابت. وروي أنَّ عائشة كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية، وكانت قصيرة، فنزلت الآية وتابت. وعن أنس: نزلت في نساء النبيء ﷺ إذ عيَّرن أمَّ سليم بالقصر.

١-رواه بهذا اللفظ **مسلم** في كِتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الضعفاء، رقم ٢٦٢٢، عن أبي هريرة.

٢-رواه **أبو نعيم** في الحلية، ج١، ص٧. عن أبي هريرة.

٣-رواه **أبو نعيم** في الحلية: ج١ ص٣٥٠ من حديث أنس. وأورده **الهندي** في الكتر: ج٣، ص١٥٣. رقم٥٩٢٦. من حديث ابن مسعود.

٤-أورده صاحب اللسان، انظر: ج١٥، ص١٦٤، بلا نسبة. مادة «هون».

وفي الترمذيِّ عن أنس أنَّ النبيء ﷺ دخل على صفيَّة تبكي، فقال: «ما يبكيك؟» فقالت: إنَّ حفصة قالت لي: بنت يهوديٍّ، فقال النبيء ﷺ : «إنَّك لابنة نبيء وَإِنَّ عمَّك لَنبيءٌ وإنَّك لتحت نبيء، ففيم تفتخر عليك؟» ثمَّ قال: «اتّقي الله يا حفصة». وعن ابن عبَّاس: نزلت في صفيَّة إذ قال لها بعض نساء النبيء ﷺ : «يهوديَّة بنت يهوديَّين». وفي أبي داود والترمذي عن عائشة: قلت للنبيء ﷺ : حَسْبُكَ من صفيَّة كذا وكذا، قال بعض الرواة: المراد قصرها، فقال: «**لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته**». قالت: وحكيت له إنسانًا، فقال: «**ما أحبُّ أنِّي حكيت إنسانًا وأنَّ لي كذا وكذا**». ولعلَّها نزلت في جميع ذلك إذ وقع قبل نزولها.

وذكر جماعات دون أن يقول: «رجل من رجل» ولا «امرأة من امرأة»، أو يقول: «أحد من أحد»، لأنَّ الغالب وقوع السخر في الجماعة يتفكَّهون به، ويتألَّم به المسخور منه، ولأنَّ الجماعة واقعة حال، فنزلت الآية على حكم الجماعة، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُواْ الرِّبَآ أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ (سورة آل عمران: ١٣٠)، فالربا حرام ولو لم يكن أضعافًا مضاعفةً، لكن نزلت في قوم ضاعفوه أضعافًا.

(**نحو**) وجملة «أنْ» والفعل وما عمل فيه يستغنى بها عن خبر «عَسَى»، لاشتمالها على المسند والمسند إليه، فيقدَّر المصدر مرفوعًا، لأنَّ أصل ما بعدها هو المبتدأ والخبر، وهما مرفوعان، ولا تقل: مرفوع ومنصوب، لأنَّ التأويل بالمصدر لا يقبل إلاَّ واحدا، وقيل: لا خبر لها والمصدر فاعل، أو بمعنى قارب والمصدر مفعول، أو بمعنى قرب ويقدَّر الجارُّ، أي: من أن يكونوا، أو من أن يكنَّ.

﴿**وَلَا تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ**﴾ عبارة عن قوله: كلُّ واحد منكم لا يلمز الآخر، ليفيد أنَّ المسلمين كنفس واحدة، فمن لمز واحدًا كمن لمز نَفْسَهُ، وفي هذا كفاية.

وقيل: يقدَّر مضاف، والواو بمعنى بعض، مجازًا استعاريًّا، أي: لا يلمز بعضكم أنفسكم، أي: بعضَكم، فخذف "بعض" وناب عنه الواو. والجملة مقرِّرة لمعنى الأولى قبلها لا نفسها، فإنَّ اللَّمز العيب، أي: لا تعيبوا أنفسكم، وهو أعمُّ من السخر.

وقيل: اللَّمز التنبيه على المعائب أو تتبُّعها، واشترط بعضهم قصدَ الإضحاك وحضور المسخور منه في السخر، وقيل: اللَّمز ما كان يخفيه، وقيل: المعنى لا تلمزوا أنفسكم، والمزوا المشركين ومن ينافق، كما قال ﷺ : «**أترعون أن تذكروا الفاسق بما فيه؟ متى يعرفه الناس؟**»[1].

[قلت:] وهو غير متبادر، بل كأنَّه كالعمل بمفهوم اللقب، وهو ضعيف، وليس «أَنفُسَ» وصفًا تعلَّق به الحكم، فيوذن بالعِلِّـيَّة، وإنَّما هو كذلك في نفس الأمر لا في العبارة، وقيل: المعنى: لا تفعلوا ما تلمزون به، فعبَّر بالمسبَّب واللازم عن السبب والملزوم، وفيه بُعدٌ.

﴿وَلاَ تَنَابَزُواْ بِالاَلْقَابِ﴾ لا يخطف[2] بعضكم بعضًا باللقب، كأنَّه عضَّه بإصبعيه، أو بأسْنانه، وأصل اللقب في الذمِّ، وكان يستعمل في المدح، والنبز مختصٌّ بالذمِّ، وأن يذكر الرجل بما يكره مِمَّا هو في نفسه أو أبيه أو أمِّه، أو غير ذلك، وسواء اللقب النحويُّ والكنية النحويَّة والاسم، وغير ذلك مما هو ذمٌّ، كلٌّ ذلك داخل في اللقب.

١-رواه **البيهقي** (الكبرى) في كتاب الشهادات (٥١) باب الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث، رقم٢٠٩١٤. **والطبراني** في الكبير: ج١٩، ص٤١٥، رقم١٠١٠. من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جدِّه. مع اختلاف في اللفظ.

٢-الخطف الأخذ بسرعة والاستلاب، ومنه الخطفة، وهي ما اختطف الذئب من أعضاء الشاة وهي حيَّة.

(سبب النزول) كانوا يفسحون لثابت بن قيس عند رسول الله ﷺ لثقل في سمعه، فلم يفسح له رجل، وقال له: اجلس فقد أصبت مجلسًا، فجلس مغضبًا، ولَمَّا سكن بعض غضبه قال: من هذا ؟ فقال: أنا فلان بن فلان، قال: لا، بل ابن فلانة، لامرأة يعيَّر بها في الجَاهليَّة، فخجل، فنزلت، فقال ثابت: والله لا أفخر أبدًا على أحد في النسب.

وقيل: نزل فيه قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَىٰ...﴾. وقال ﷺ له: «**إنَّك لا تفضل أحدًا إلاَّ بالدين والتقوى**».

(سبب النزول) وفي البخاري وغيره: نزلت في بني سلمة، حيٌّ من الأنصار، قدم رسول الله ﷺ المدينة وما فيهم رجل إلاَّ له اسمان أو ثلاثة، فإذا دعا أحدًا باسم قالوا: يا رسول الله إنَّه يكره هذا الاسم، فنزلت.

ومن ذلك أن يسلم الرجل وينادى بما فيه من قبلُ كـ: "يا يهودي" و"يا نصراني" و"يا مجوسي"، وقد كان كذلك قبلُ، أو "يا فاعل كذا من معصية". أسلمت صفيَّة بنت حيي، فكانت النساء يقلن لها: يا يهوديَّة بنت يهوديَّين، فقال لها النبيء ﷺ : «**هلاَّ قلت: أنا بنت هارون وعمِّي موسى، وزوجي محمَّد ﷺ** »[1].

﴿**بِيسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الاِيمَانِ**﴾ ساء اسمٌ لهم هو الفسوق يتَّصفون به بعد إيمانهم، وهو ذكرهم غيرهم بما يكره، والاسم هنا الذكر يقال طار اسمه في الناس، أي: ذكره بالكرم، أو السوء فإنَّ الإيمان لا يخلط بالفسق، كقولك: «بئس الزنى بعد قراءة القرآن»، وكقولك لتاجر صار فلاَّحًا: «بئست الفلاحة بعد التجر».

١- أورده **الحاكم** في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر أمِّ المؤمنين صفيَّة، رقم٦٧٩٠. من حديث صفيَّة.

(أصول الدين) والآية تدلُّ على أنَّ مرتكب الكبيرة فاسق، ولا تختصُّ المعتزلة بهذا، وهذا العموم في تفسير الآية أولى من قول بعض: إنَّ معناها النهي عن ذكر أحد بمعصية قد تاب عنها، فهي الفسوق بعد الإيمان، أي: بعد التوبة.

ولا بأس بما دعت إليه الضرورة للبيان، كقولك: رواه الأعمش، ولقب الخير مسنون لمن هو له أهل، كتلقيب حمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله، وعمر بالفاروق، لظهور الإسلام به، والصدِّيق والعتيق لأبي بكر، لأنَّه عظيم الصدق، ومعتق من النار، وصفاء بدنه، وذي النورين لعثمان إذ تَزَوَّجَ بنتيْ رسول الله ﷺ ، وأبي تراب لعليٍّ إذ وجده ﷺ نائمًا على تراب.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ من ذنوبه، ومنها التنابز بالألقاب واللمز والسخرية ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم بتعريض أنفسهم للنار وللناس بالإخلال بحقِّهم، ولدين الله تعالى.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ دعاء إلى الاحتياط وتحضيض عليه، وإذا اتَّسع المباح وخيف فيه قليل محرَّم اجتُنبَ كلُّه لئَلاَّ يوقع في ذلك القليل، ويجوز أن يكون المراد اجتنبوا اجتنابًا كثيرًا، فتكون «مِنْ» بمعنى عن، لتضمُّن «اجْتَنِبُوا» معنى أعرضوا، وقيل: قال: ﴿كَثِيرًا﴾ **لأنَّ الظنَّ واجبٌ، وهو ظنُّ الخير بالله تعالى، ومندوب إليه، وهو الظنُّ الحسن بالمسلم، ومحرَّم وهو ظنُّ السوء بالله ﷻ وبالمسلم في فعله أو قوله أو اعتقاده.**

(لغة) والاجتناب: الحذر والترك والتباعد، وأصله: جعل الشيء جانبًا، ولا بأس بملاحظة هذا المعنى، أي: لا تدخل فيه بل تتجاوزه ويتجاوزك حتَّى يَتَّضِحَ لك الأمر، قال ﷺ : **«حرم من المسلم دمه**

وعرضه وأن يظنَّ به ظنَّ السوء»[١]. قالت عائشة رضي الله عنها: عن رسول الله ﷺ : «**من أساء بأخيه الظنَّ فقد أساء بربِّه الظنَّ، إنَّ الله يقول: ﴿اجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾**»[٢].

قلت: ويجوز الظنُّ بأمارة، كما إذا رأيت إنسانًا يدخل دار فسق أو بيت خمر، أو يصحب الغواني، أو يديم النظر إلى المرد، وجاء الخبر الأمر بسوء الظنِّ في الناس مطلقًا بمعنى أخذ الحذر منهم. روى الطبرانيُّ وابن عديٍّ عن أنس عنه ﷺ : «**احترسوا من الناس بسوء الظنِّ**»[٣]. وعنه ﷺ : «**إنَّ من الحزم سوء الظنِّ**»[٤].

(وصية) كتب صحابيٌّ إلى سعيد بن المسيب: «**ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنَّ بكلمة أخرجت منه سوءا ما وجدت لها محملاً، ومن عرَّض نفسه للتهم فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه، ومن كتم سرَّه كانت الخيرة في يده، وما كافيت من عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تعالى فيه، واكتسب إخوان الصدق فإنَّهم زينة في الرخاء عدَّة في البلاء، ولا**

١- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ. إلاَّ أنَّ صاحب الموسوعة قال: رواه الطبراني في الكبير: ج١١، ص٣٧. بلفظ «المؤمن» بدل «المسلم». وقد أورده بنفس لفظ الشيخ القرطبيُّ في تفسيره للآية، ج١٦، ص٣٣٢.

٢-أورده **السيوطي** في الدر: ج٦، ج١٠٢. من حديث عائشة. وقال: أخرجه ابن مردويه والنجَّار في تاريخه. وأورده **الفتني** في الموضوعات، ص٢٠٣. **والزبيدي** في الإتحاف: ج٧، ص٢٨٣. من حديث عائشة أيضا.

٣-رواه **الطبراني** في الأوسط: ج١، ص٣٥٥، رقم٦٠٢. **والهيثمي** في المجمع: ج٨، ص١٦٩، رقم١٣١١٠. **وابن عدي** في الكامل: ج٦، ص٢٣٩٨. من حديث أنس.

٤- لم يثبت هذا حديثا عن رسول الله ﷺ بل هو خبر فقط كما أشار إلى ذلك الألوسي في تفسيره: مج٩، ص١٥٦.

تتهاون بالحلف فيهينك الله تعالى، ولا تسأل عَمَّا لم يكن حتَّى يكون، ولا تضع حديثك إلاَّ عند من تشتهيه، وعليك بالصدق وإن قتلك، واعتزل عدوَّك، واحذر صديقك إلاَّ الأمين، ولا أمين إلاَّ من خشي الله تعالى، وشاور في أمرك الذين يخشون ربَّهم بالغيب».

قال حارثة بن النعمان عن رسول الله ﷺ : «**ثلاث لازمات أمَّتي: الطيرة، والحسد، وسوء الظنِّ**» فقال رجل: ما يذهبهنَّ يا رسول الله؟ قال: «**إذا حسدت فاستغفر الله** ــ وروي: «**فلا تبغ**» ــ **وإذا ظننت فلا تحقِّق، وإذا تطيَّرت فامض**»[1] رواه الطبراني.

وروى الحسن مرسلاً عنه ﷺ : «**ثلاث لم تسلم منهنَّ هذه الأمَّة: الحسد والظنُّ والطيرة، ألاَ أنبِّئكم بالمخرج منها؟ إذا ظننت فلا تحقِّق، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا تطيَّرت فامض**»[2].

والظنُّ والحسد ضروريَّان، فلا يؤاخذ بهما إلاَّ إن بغى أو حقَّق، وليحذر أن يوصلاه إلى الإثم.

﴿**إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ ذنب إذا عمل به، بأن تحقَّق أو بنى عليه أمر سوء، فهو كسُمٍّ في بعض الطعام، لا يدري في أيِّه هو، فيَجتنبُ كلَّ ما يمكن أن يكون فيه، ما لم يخلص عن ذلك، وهذا البعض قيل: هو الكثير المذكور.

١-رواه **الربيع** في كتاب الأيمان والنذور (٥١) باب في جامع الآداب، رقم٧٠١. وأَوَّله هو «من حسد فلا يبغ...». ورواه **الطبراني** في الكبير، ج٣، ص٢٢٨، رقم٣٢٢٧. من حديث حارثة بن النعمان.

٢-أورده **الزبيدي** في الاتحاف: ج٧ ص٥٥٢، **والهندي** في الكتر: ج١٦ ص٢٧ رقم٤٣٧٨٩. من حديث الحس.

﴿**وَلَا تَجَسَّسُواْ**﴾ لا تبحثوا عن عورات الناس، وتطلبوا أن تحسُّوها (بالحاء المهملة) أي: تدركوها بحاسَّة كالأذن، كما قرأ الحسن وغيره بها، وهما بمعنىً، قيل: بالجيم تتبُّع الظواهر، وبالحاء تتبُّع البواطن، وقيل: بالجيم أن تبحث بغيرك، وبالمهملة بنفسك، وكلٌّ ذلك جائز هنا لغويًّا، والصحيح ما مرَّ.

ولا يصحُّ هنا ما قيل: بالجيم في الشرِّ وبالمهملة في الخير، والظاهر جوازه.

وفي مسلم عن أبي هريرة أنَّ النبيء ﷺ قال: «**لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلاَّ ستره الله يوم القيامة**»[1] وفي أبي داود عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ : «**من رأى عورة وسترها كمن أحيى موؤودة**»[2]. قال نافع: نظر ابن عمر إلى الكعبة فقال: «ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك» رواه الترمذي.

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**إيَّاكم والظنَّ فأنَّ الظنَّ أكذب الحديث، ولا تجسَّسُواْ ولا تحسَّسوا، ولا تناجشوا ولا وتحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا**»[3] كما أمركم،

١-رواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة (٢١) باب بشارة من ستر الله عيبته في الدنيا... رقم٢٥٩٠. **والحاكم** (المستدرك) في كتاب الحدود: ج٤، ص٤٢٥، رقم٨١٦٠. من حديث أبي هريرة.

٢-رواه **أبو داود** في كتاب الأدب، باب في الستر عن المسلم، رقم ٤٨٩١ **والبيهقي** (الكبرى) في كتاب الأشربة (٢٨) باب ما جاء في الستر على أهل الحدود، رقم ١٧٦٠٩. من حديث عقبة بن عامر.

٣-رواه **البخاري** في كتاب الأدب (٥٨) باب {يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ...}، رقم٦٠٦٦. **ومسلم** في كتاب البرِّ والصلة والآداب (٩) باب تحريم الظنِّ والتجسُّس... رقم٢٥٦٣. من حديث أبي هريرة.

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا» يشيرُ إلى صدره **«بحسب أمرئ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم، كلُّ المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله، إنَّ الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم وأعمالكم، لكن ينظر إلى قلوبكم»**[1].

قال رسول الله ﷺ في خطبة: **«يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تتَّبعوا عورات المسلمين، فإنَّ من تتبَّع عوراتهم فضحه الله تعالى في قعر بيته»**[2]، ورفع صوته حتَّى أسمع العواتق في الخدور، رواه البيهقي عن البراء بن عازب، ومثله عن ابن عمر. قال زيد بن وهب : قلت لابن مسعود: هل لك في الوليد بن عقبة بن أبي معيط تقطر لحيته خمرًا ؟ فقال: «نهينا عن التجسُّس، فإن ظهر لنا شيء أخذنا به».

قلت: لعلَّ زيد بن وهب أراد أنَّ الوليد في وقت مضى، أو أراد أنَّه يعتاد ذلك، و لم يرد أنَّ ذلك عليه شهادة، ولا أنَّه شاهد ومعه آخر.

وكان عمر رضي الله عنه يعس، فسمع غناء، فتسوَّر البيت فوجد امرأة ورجلاً وخمرا، فقال: يا عدوَّ الله أظننت أنَّ الله يستر عصيانك، فقال: لا تعجل فقد عصيت الله بتجسُّسك وإتيانك من غير الباب وبلا استئذان ولا سلام، فقال: هل عندك خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم، والخير ترك ما هو عليه.

وقال له رجل: فلان لا يصحو، فقال له: «إذا تهَيَّأ للشرب فأتِني» فأتياه

١-رواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة (١٠) باب تحريم ظلم المسلم وخذله، رقم٢٥٦٤. وأوَّل الحديث عنده: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا...». **والترمذي** في كتاب البرِّ والصلة (١٨) باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم، رقم١٩٢٧. من حديث أبي هريرة.

٢-رواه **البيهقي** في كتاب الشهادات (٨٠) باب من عضه غيره بحد أو نفي... رقم٢١١٦٤. من حديث أبي برزة.

وقد هيَّأه فاستأذنا فأزال الخمر فأذن لهما فقال له عمر: أجد رائحة الخمر، فقال له: قد تجسَّست، فخرج فتركه.

وحرس معه عبد الرحمن بن عوف، فرأيا ضوءً في بيت ربيعة بن أميَّة، فرجع وقال: أرى أنَّا تجسَّسنا.

[قلت:] واستدلَّ بعض على جواز التسوُّر على المنكر بقصَّتي عمر قبل هذه، قلنا: لا دليل عليه، لأنَّه قد أذعن إلى أنَّ ذلك تجسيس، وترك ذلك، ولا سيما في القصَّة الأخيرة، وكذا قيل له فقال: يكفي عمر ما رفع إليه فقبل.

﴿**وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا**﴾ لا يذكره في غيبته بما يكره، في بدنه أو كلامه أو فعله أو ماله، أو ولده أو زوجه أو مملوكه، أو نسبه أو طبيعته أو لباسه، أو غير ذلك، ممَّا هو دينيٌّ أو دنيويٌّ، سواء ذكره باللسان أو بالإشارة بالتصريح أو بالكناية، وكذا في محضره.

وخصَّ ذكر الغيب لأنَّه الغالب **وإن لم يكن فيه فبهتان،** وسواء كان في الولاية أو في الوقوف، قلت: وكذا في البراءة فإنَّه يبرأ منه وينهاه.

(**فقه**) ولا يجعله شغلاً إلاَّ لغرض صحيح، فيشتغل به بقدر الحاجة، مثل أن يرى الناس يريدون أن يجعلوه أمينًا لقضاء وفتوى، وإمامة الصلاة، أو يعلن بفجوره ونحو ذلك، فإنَّه يذكره بالسوء، كما قال ﷺ : «**أترعون أن تذكروا الفاسق بما فيه متى يعرفه الناس**»[1]، وقوله ﷺ : «**اذكروا الفاسق بما فيه يعرفه الناس**»، ويروى: «**ليحذره الناس**» وهذان الحديثان ولو ادُّعي وضْعُهما لهما شواهد.

﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَّاكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيِّتًا**﴾ بمعنى أنَّكم في الاغتياب

١-تَقَدَّمَ تخريجه في معرض تفسير قوله تعالى: {وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ} الآية ١١ من هَذِهِ السورة.

كمن في أكل لحم أخيه ميِّتا، لقبحه طبعًا وعقلا وشرعًا، فكذا الغيبة، ولا عاقل يقبل ذلك الأكل، ولذا قال: ﴿**فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ عطف على محذوف، أي: لا يليق ذلك، أو لا يحسن ذلك، أو قبح ذلك فكرهتموه. والهاء للأكل، قيل: أو للَّحم أو للميِّت أو للاغتياب. ووجه شبه الاغتياب بأكل ذلك اللحم أنَّ تمزيق الأعراض كتمزيق اللحم نفسه، ثمَّ تمزيقه بالأكل، وأنَّ المغتاب كالميِّت لا علم له بالغيبة، لأنَّه غير حاضر.

وذكر الحبَّ لأنَّ النفس مائلة إليها، واللحم ساتر على العظم، والشاتم كأنَّه يقشره ويكشف عن العظم. والمضيُّ للمبالغة في مسارعة الكراهة، أو المراد تبيُّن الكراهة، أي: فتبيَّنت كراهتُكم لذلك، قيل أو المعنى فاكرهوه، أي: الاغتياب كما كرهتم ذلك الأكل.

﴿**وَاتَّقُواْ اللَّهَ**﴾ عطف على «كَرِهْتُمُوهُ» إذا كان بمعنى: اكرهوه، أو على محذوف، أي: فقد كرهتموه فلا تفعلوا واتَّقوا الله، أو امتثلوا ذلك النهي فاتَّقوا الله.

ومن الجهالة القبيحة ما تفعله مالكيَّة ورجلان في الأذان من كلام يُوهم لعن الصحابة، يلعنون من يبغض عليًّا ويقاتله، ويلعنون من يبغض معاوية ويقاتله، ويلعنون من يبغض عثمان ويقاتله، وفي ذلك لعن عليٍّ ومعاوية، لأنَّ كلاًّ يبغض الآخر ويقاتله، ولعن الصحابة المفاتنين لعثمان، وأيُّ داع لهم إلى استمرارهم على ما يوهم لعن الصحابة والجهر به في الأذان ؟ ولا يوجد ذلك في بلد من بلاد الإسلام ولا في بلاد الشرك[1].

وفي أبي داود عن أنس عن رسول الله ﷺ : «**لمَّا عرج بي مررت بقوم لهم**

١- لقد تركوا هذه الجهالة، والجهالة إنَّما كانت في عهد الشيخ، ومن قبله.

أظافير من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[1]. قال ميمون بن سيَّار: «بينما أنا نائم إذا بجيفة زنجيٍّ وقائل يقول: كل يا عبد الله، قلت: وما آكل؟ قال: كل بما اغتبت عبد فلان، قلت: والله ما ذكرت فيه خيرًا ولا شرًّا، قال: ولكنَّك استمعت ورضيت»، فكان ميمون لا يغتاب أحدًا ولا يدع أحدًا يغتاب أحدًا عنده.

﴿**إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**﴾ لمن تاب مِمَّا اقترف من المناهي، وَمِمَّا تفيده صيغة المبالغة في اللفظين تكرُّرَ توبته ورحمته على من عصى بعد التوبة وتاب، وهكذا... وَمِمَّا تفيده كثرتهما لكثرة الذنوب، وعظم كيفيَّتهما، مثل أن تمحى سَيِّئَاته من صحيفته، وينساها الملائكة، ويجعله كمن لم يذنب.

روي أنَّ سلمان رضي الله عنه يخدم رجلين في سفرهما، وينال من طعامهما ـــ على عادته ﷺ في أنَّه يضمُّ في أسفاره معسرًا إلى موسرين يخدمهما ويطعمانه ـــ ونام يومًا فلم يجداه، وضربا الخباء، وقالا: ما أراد إلاَّ أن يجيء إلى طعام معدود، وخباء مضروب، فأرسلاه إلى رسول الله ﷺ في إدام، فأخبره سلمان، فقال ﷺ : «**قل لهما قد ائْتدَمْتُما**»، فأتياه فقالا له ﷺ : والله ما رأينا إدامًا من حين نزلنا، فقال: «**ائـــتدمتما بسلمان**».

وفي رواية: أرسله ﷺ إلى أسامة، وكان أسامة خارن رسول الله ﷺ وعلى رحله، فقال: ما عندي شيء، فجاءهما فأخبرهما فقالا: إنَّ عند أسامة إدامًا لكن بخل به، فأرسلا سلمان إلى ناس من الصحابة فلم يجد عندهم، فأخبرهما، فقالا: لو

١- رواه **أبو داود** في كتاب الأدب باب في الغيبة رقم٤٨٧٨. ورواه **أحمد** في مسنده ج٤ ص٩٧ رقم١٢٩٢٧. من حديث أنس.

أرسلناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها، فذلك ظنُّ سوء بأسامة، واغتياب لسلمان، ولا سيما أنّهما ذهبا إلى أسامة يتجسَّسان، وذهبا إليه ﷺ في طلب الإدام، فقال: «**قد ائــتدمتما بلحم سلمان، وإنّي لأرى حرَّة اللحم على أفواهكما**».

(سبب النزول) وأخرج الطبريُّ أنَّ سلمان أكل ورقد فنفخ فذكر رجلان أكله ورقاده، فنزلت.

وفي البخاري ومسلم أنّه كان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمهما في سفر، واستيقظا ولم يهيئ لهما طعامًا، فقالا له: إنّه لنؤومٌ، فأرسلاه في إدامٍ إليه ﷺ، فقال: «**قد ائتدمتما**»، فأتياه فقالا: يا رسول الله بم ائــتدمنا؟ فقال: «**بلحم أخيكما، والله لأرى لحمه بين ثناياكما**»، فقالا: يا رسول الله استغفر لنا، فقال: «**مُراهُ يستغفر لكما**». وهذا إمَّا قبل نزول الآية فتكون الغيبة محرَّمة قبل نزولها، وإمَّا بعد نزولها ولم يدركا أنَّ قولهما ذلك غيبة محرَّمة. والحديث يفيد أنَّ توبة الغيبة تكون بعفو المغتاب مِمَّا صدر.

[قلت:] والغيبة كبيرة، وأخطأ الغزالي في قوله: إنّها صغيرة، ولا حجَّة له في فشوِّها في الناس الموجب للحرج، فإنّه لو فشت في الناس كلِّهم لزمتهم التوبة كلَّهم، ولزمه أن لا تكون كبيرة ولو أصرَّ عليها، فإنَّ فشوَّها يقتضي هذا، وأن يَصِحَّ الإصرار عليها.

ودلائل كون الغيبة كبيرة لا تحصى، ومنها الآية، ومنها أنّه مرَّ ﷺ بقبرين يعذَّب صاحباهما في الغيبة والبول، ومعنى قوله ﷺ: «**ما يعذَّبان في كبيرة**»[1] أنّهما يظنَّان أو يظنُّ الناس أنَّ ذلك حقير، أو أنَّ ذلك شيء تسْهُل مجانبته، ولا

١-رواه **البيهقي** في كتاب الصلاة (٥٠٦) باب نجاسة الأبوال والأرواث... رقم٤١٤٠. من حديث ابن عبَّاس.

تشقُّ ولا عذاب على صغيرة، وإن قيل: لعلّهما أصرًّا فكانت كبيرة، قلنا له: أيُّ حجَّة لك في أنَّها صغيرة حتَّى بنيت على ذلك أنَّها كبرت بالإصرار؟.

[قلت:] ومن لم ينه عنها فعليه مثل وزر فاعلها إن قدر، وعلى الفاعل أن يتوب إلى الله ويطلب العفو من المغتاب، ويستغفر له إن تولاّه، ويوصل توبته إلى من سمعه، ويضمن ما ترتَّب على ذلك من مال أو مضرَّة بدن، وإن لم تصل المغتاب فلا يخبره، وإن مات اقتصر على الضمان المذكور والإيصال إلى من سمع، ويستغفر له إن تولاّه. وتوبة الطفل والمجنون كتوبة البالغ العاقل، ولا عفو لهما حتَّى يبلغ أو يعقل.

وإن أبى المغتاب من العفو لم يتوقّف قبول التوبة على عفوه، وليفعل ما ذكر من اغتابه.

وذكر قومنا أنَّ الغيبة لا تحلُّ في حقِّ الذمِّيِّ، لقوله ﷺ : «**من سمَّع يهوديًا أو نصرانيا** ــ أي ما لا يجوز، أو ما لا يحتاج إلى ذكره ــ **فَلَهُ النار**» قلت: لا بأس بما يذمُّ الشرك وما هو عاقبة الشرك ولو كرها، وإنَّما الممنوع أن تقول له: يا أعور أو يا فقير، وقال بعض: لا غيبة لمشرك، لقوله ﷺ : «**الغيبة ذكرك أخاك بما يكره**»[1]، ولا لمبتدع أخرجته بدعته إلى ما يقرب من الشرك.

﴿**يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ**﴾ آدم وحوَّاء، فأنتم سواء، فكيف يغتاب بعضكم بعضًا، والمغتاب يريد باغتيابه الترفُّع على المغتاب، وكيف يترفَّع عليه وهما أخوان في الدين؟ وكيف يظنُّ السوء فيه ولا يأخذ حذره عن الظنِّ؟ وكيف يلمزه وكيف يسخر منه؟

١-أورده **السيوطي** في الدر، مج٦، ص١٠٤. وقال: أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وصحَّحه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه. من حديث أبي هريرة.

الناس من قبل التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأمُّ حــــوَّاء

ومعظم تعلُّق الآية هو قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ فما مرَّ أولى من قول بعضٍ: الذكر والأنثى، أو كلٌّ إنسان وأُمُّه، ووجه هذا القول: إنَّكم كلَّكم قد ولدتكم رجال ونساء، فما وجه الفخر وقد استويتم؟ وإنَّما يعتبر التقوى.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا﴾ الشعب (بفتح فإسكان): الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد جامع للقبائل، سُمِّيت كأنَّ القبائل تشعَّبت منها، فهم رؤوس القبائل، كربيعة ومضر، والأوس والخزرج، أسماء لآباء القبائل، وقيل: سمُّوا لتجمُّعهم، وهو من الأضداد.

(لغة) ﴿وَقَبَآئِلَ﴾ القبيلة تجمع العمائر، والعمَارة (بفتح وكسرٍ): البطون، والبطن الأفخاذ، والفخذ الفصائل، فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصيٌّ بطن، وهاشم فخذ، والعبَّاس فصيلة، وذلك قول الجمهور.

وعبارة بعضهم: القبائل دون الشعوب، كبكر من ربيعة، وتميم من مضر. ودون القبائل العمائر، كشيبان من بكر، ودارم من تميم. ودون العمائر البطون، كبني غالب ولؤي من قريش. ودون البطون الأفخاذ، كبني هاشم وبني أميَّة من لؤي. ودون الأفخاذ الفصائل، كبني العبَّاس من بني هاشم، وبعد ذلك العشائر، وليس بعد العشيرة شيء يوصف.

وعن الكلبي: الشعب فالقبيلة فالفصيلة فالعمارة فالفخذ. وقيل: الشعوب في العجم والقبائل في العرب، والأسباط في بني إسرائيل. قال مسروق: أسلم رجل من الشعب فكانت تؤخذ منه الجزية. وقيل: الشعوب: عرب اليمن من قحطان، والقبائل: ربيعة ومضر، وسائر عدنان.

وقال قتادة ومجاهد والضحَّاك: الشعب النسب الأبعد، والقبيلة الأقرب.

وقيل: الشعوب الموالي، والقبائل العرب، وقيل: الشعوب المنتسبون إلى المدائن والقرى، والقبائل العرب الذين ينتسبون إلى آبائهم.

﴿لِتَعَارَفُواْ﴾ ليعرف بعضكم بعضًا، فتصلوا الأرحام والتوارث والنفقة، لا لتتفاخروا بالآباء والقبائل. والأصل: «لتتعارفوا» فحذفت إحدى التاءين، كما قرأ الأعمش بالتاءين، وكما قرأ ابن كثير بشدِّ التاء لإدغام إحداهما في الأخرى.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ تعليل جُمْليٌّ، كما قرأ ابن عبَّاس: «لِتعْرِفُوا أنَّ أَكْرَمَكُمْ» (بتاء واحدة، وإسقاط الألف، وكسر الراء، وفتح همزة «إنَّ»). وصحَّ تعليل «جَعَلْنَاكُمْ» بالتعارف لأنَّ المراد: جعلناكم شعوبًا وقبائل ليعرف بعضكم بعضًا لا للتفاخر، لأنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، لا أفضلكم نسبًا، وكأنَّه قيل: لم لا نتفاخر بالأنساب ؟ فقيل: لأنَّ أكرمكم.

ولو جاز التفاخر لجاز بالتقوى، وقد يجوز ترفُّعًا على المشركين وعلى طريق الشكر لغرض صحيح شرعيٍّ، وتبييـنًا لكون المعتبر التقوى. ويقال: **المتَّقي العالم بالله تعالى، المواظب على الوقوف ببابه، المتقرِّب إلى جنابه.** وقيل: المتَّقي مجتنب المناهي، الآتي بالأوامر والفضائل، السريع التوبة عَمَّا صدر منه إذا صدر.

وعلى قراءة ابن عبَّاس «لِتعْرِفُوا إِنَّ» (بكسر الهمزة) يكون المعنى: لتعرفوا ما تحتاجون من الصلة والإرث، وغير ذلك، أو لتعرفوا الحقَّ، وهو شرف التقوى، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وعلى قراءة «لِتعْرِفُوا أنَّ» (بالفتح) يكون المعنى على التعليل أو الأمر أن يعرفوا أنَّ الأكرم عند الله الأتقى، فتكون اللام للأمر، والمفعول هو المصدر مِمَّا بعد.

(سبب النزول) تقدَّمت قِصَّة ثابت بن قيس بن شماس وقوله لمن لم يتزحزح له: إنَّك ابن فلانة، وَلَمَّا قال له ذلك قال رسول الله ﷺ : من القائل

فلانة ؟ فقال: أنا يا رسول الله، قال: انظر في وجوه القوم، فنظر فقال: ما رأيت يا ثابت، قال: رأيت أبيض وأحمر وأسود، قال: فإنَّك لا تفضلهم إلاَّ بالتقوى، ونزل فيه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾. ونزل في الذي لم يفسح: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ...﴾ (سورة المجادلة: ١١) .

وعن ابن عمر: طاف رسول الله ﷺ يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه (أي: بعصا معوجَّة الرأس)، ولَمَّا فرغ لم يجد مناخًا، فنزل على أيدي الرجال، ثمَّ قام فخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «**الحمد لله الذي أذهب عنكم عُبِّيَّة**[1] **الجاهليَّة** ـ يعني فخرها ـ **وأذهب تكبرُّها، يا أيُّها الناس إنَّ الناس رجلان: برٌّ تقيٌّ كريم على الله، وفاجر شقيٌّ هيِّن على الله** عَزَّ وَجَلَّ » ثمَّ تلا: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ ثمَّ قال: **أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم**»[2].

(سبب النزول) وعن يزيد بن شجرة: مَرَّ رسول الله ﷺ في سوق المدينة فرأى غلامًا أسود يقول: من اشتراني فعلى شرط أن لا يمنعني من الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ . فاشتراه بعض، فمرض فعاده رسول الله ﷺ ، ومات وحضر دفنه، فقيل في ذلك نزلت. قلت: لعلَّها نزلت في جميع ما ذكروا أو نزلت في بعضها ثمَّ يقال نزلت في كذا، بمعنى أنَّها شاملة له بالمعنى.

﴿**إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ**﴾ بكم وبأعمالكم ﴿**خَبِيرٌ**﴾ ببواطن أحوالكم وباعتقادكم.

١-العُبِّيَّة بضمِّ العين أو كسرها وشدِّ الباء: الفخر والكبر. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٥٧٤، مَادَّة «عبب».

٢-رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (٥٠) باب ومن سورة الحجرات، رقم٣٢٧٠. من حديث ابن عمر.

(سبب النزول) أذّن بلال رحمه الله ﷻ على الكعبة فغضب الحارث بن هشام وعتاب بن أسيد، وقالا: أهذا العبد يؤذّن على الكعبة ؟ فنزلت: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾. وَلَمَّا أذّن بلال على الكعبة قال عتاب بن أسيد بن المعيط: الحمد لله الذي قبض أبي ولم ير هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمَّد غير هذا الغراب الأسود مؤذّنًا ؟. وقال سهل بن عمرو: إن كره الله نبيًا يغيِّره. وقال أبو سفيان: إنِّي لا أقول شيئًا، أخاف أن يخبره ربُّ السماء، فنزل جبريل فأخبر رسول الله ﷺ بما قالوا، فسألهم فأقرُّوا ونزلت الآية.

ويروى أنَّه ﷺ أمر بني بياضة أن يزوِّجوا أبا هند، وكان مولى حجَّامًا، وكان يحجم للنبيء ﷺ ، فقالوا: يارسول الله، أنزوِّج بناتنا موالينا ؟ فنزلت الآية، وقال: أنكحوه وأنكحوا إليه.

وقال في خطبته في حجة الوداع وغيرها: «**الحمد لله الذي أذهب تكبُّر الجَاهليَّة وافتخارها بآبائها، الناس برٌّ وفاجر، أبوهم آدم، وآدم من تراب، لا فضلَ لأحد علىآخر إلاّ بالتقوى، قال الله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ...﴾** إِلَى قَوله تَعَالَى: ﴿**...خَبِيرٌ**﴾ **وربُّكم واحد، إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوِّجوه، ولينتهينَّ أقوام يفتخرون بآبائهم أو ليكوننَّ أهون على الله من الجُعلان**». وقال في آخر الخطبة: ألا هل بلّغت ؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «**فليُبَلِّغ الشاهد الغائب**»[1].

وقال ﷺ : يقول الله تعالى يوم القيامة: «**يا أيُّها الناس إنِّي جعلت نسبًا**

١-رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (٥٠) باب ومن سورة الحجرات، رقم ٣٢٧٠. وأورده **السيوطي** كاملا في الدر: مج٦، ص١٠٦. من حديث ابن عمر.

وجعلتم نسبًا، فجعلت أكرمكم عند الله أتقاكم، فأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان، وفلان أكرم من فلان، وَإِنِّي اليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم، ألاَ إنَّ أوْلِيائي المتَّقون»[١].

ولا يخفى أنَّ النسب الحسن حسنٌ وشرفٌ ومعتبرٌ إن قارنته التقوى، قال ﷺ إذ سئل عن أشرف العرب : «**خياركم في الجَاهليَّة خياركم في الإسلام إذا فقهوا، وأكرم الكرم التقوى، وألأم اللؤم الفخور**»[٢].

وعن ابن عبَّاس: «كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى»[٣]. وفي الترمذيِّ عن سمرة بن جندب عن رسول الله ﷺ : «**الحسب المال، والكرم التقوى**»[٤]. وسئل رسول الله ﷺ عن أكرم الناس؟ قال: «**أكرمكم أتقاكم**» فقالوا: لم نسألك عن هذا، قال: «**فأكرم الناس يوسف نبيء الله ابن نبيء الله، ابن نبيء الله، ابن خليل الله**» قالوا: لم نسألك عن هذا، قال: «**فعن معادن العرب تسألون**»؟ قالوا: نعم، قال :«**فخيارهم في الجَاهليَّة خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[٥]، أي: عملوا بالشرع. رواه البخاري ومسلم.

١- أورده **السيوطي** في الدر: مج٦، ص١٠٦. وقال: أخرجه الحاكم وصحَّحه، وابن مردويه والبيهقي. و**الألوسي** في تفسيره، مج٩، ص١٦٤. من حديث أبي هريرة.

٢- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ.

٣- أورده **الهندي** في الكنز: ج٣، ص٩٢، رقم٥٦٤٩. مع زيادة: «وخلقتم من ذكر وأنثى» في آخره. وقال: «رواه الديلمي». من حديث ابن عبَّاس.

٤- رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (٥٠) باب: ومن سورة الحجرات، رقم٣٢٧١، من حديث سمرة بن جندب.

٥- رواه **البخاري** في كتاب التفسير (٢) باب: {لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّآئِـلِينَ}، رقم ٤٦٨٩، بلفظ «خياركم» وليس «خيارهم». ورواه **مسلم** في كتاب الفضائل (٤٤) باب من فضائل يوسف عليه السلام، رقم١٦٨. من حديث أبي هريرة.

والتخيير في الجَاهليَّة إنَّما هو بالنسب مع خصال الخير، كالجود والسماح، والشجاعة والصبر، ولا عبرة بشرف نسب بلا تقوى، ولو كان قد يعتبر في شأن كخصلة، كما ذكروا أنَّ الفرس أشرف من النبط، أي: في خصال، ونسب، وبني إسرائيل أشرف من القبط، أي: في النسب والدين، وعنه ﷺ : «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، وقريشًا من كنانة، وبني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم**»[١].

وليس العرب مطلقًا أفضل من العجم، بل المراد المجموع، وأشرف العرب نسبًا أولاد فاطمة رضي الله عنها للنبيء ﷺ ، قال ﷺ : «**كلُّ الأنساب يوم القيامة تنقطع إلاَّ نسبي وسببي وصهري**»[٢]. وقال: «**لا ينفع نسبي من لم يعمل بما جئت به**». ومن يفتخر بالنسب إليه ﷺ وفَسق فقد دنَّس انتسابه بفسقه، وافتخار الفاسق بنسبه كافتخار الكوسج بلحية أخيه.

قلت: ويجب على ذي الانتساب إليه ﷺ من التحرُّج عن المعاصي أكثر مِمَّا يجب على غيره، فيكون كمن زاد على الزبد شهدًا، والحسنة في نفسها حسنة، وهي من بيت النبوءة أحسن، وَالسَّـيِّـئَة في نفسها سَـيِّـئَة، وهي من أهل بيت النبوءة أسوأ. [قلت:] ولا يجب أن يكون الإمام من كنانة، أو أقرب، نعم هم أولى إن وجدت الكفاية.

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٦، ص١٧٩.

٢- رواه **البيهقي** (الكبرى)، بلفظ: «ينقطع كُلُّ نسب إلاَّ نسبي...»، باب الأنساب كلها منقطعة يوم القيامة إلا نسبه، رقم ١٣١٧٤، عن المسور بن مخرمة. **والبزار** في مسنده، رقم ٢٧٤، ج١، ص٣٩٧. عن عمر بن الخطاب.

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

الإيمان المعتبر عند الله والرد على الأعراب في امتنانهم

﴿قَالَتِ الاَعْرَابُ﴾ الجنس المعهود له ﷺ ذهنًا لا كلُّهم، وهم عرب البدْوِ، والمراد بنو أسد بن خزيمة قرب المدينة، أظهروا الإيمان، وأفسدوا طرقها بالعذرات، وأغلوا أسعارها، وغرضهم المغانم، قدموا في سنة جَدْبة وقالوا: جئناك بالأثقال والعيال والذراري، و لم نقاتلك كالناس كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنَ اَسْلَمُواْ﴾، ويقولون: أعطنا يا رسول الله.

أو مزينة وأشجع وغفار وأسلم وجهينة قالوا: آمنا فاستحققنا الكرامة، يقولون: آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، وتَخَلَّفُوا عن الحديبية، وهم المذكورون في سورة الفتح [آية١١]. ﴿ءامَنَّا﴾ أي: صدَّقنا بألسنتنا وقلوبنا.

﴿قُل﴾ يامحمَّد لهم ﴿لَّمْ تُومِنُواْ﴾ لم تُوحِّدوا الله تعالى توحيدًا محقَّقًا في قلوبكم، ولم تؤمنوا كذلك برسالتي، ﴿وَلَكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا﴾ أذعـنَّا لأحْكامك أن تنفذ فينا.

ومقتضى الظاهر أن يقال: ولكن أسلمتم، أو: لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا، ليتجاوب الكلام، و لم يقل ذلك ـــ والله أعلم ـــ لأنّ الكلام لتوبيخهم على منِّهم بالإيمان مع خلوِّهم عنه، فجمعوا الكذب والمنَّة بما هو كذبٌ، والأصل في الإرشاد إلى جوابهم: كذبتم، ولكن ما أراد مُواجهتهم بالكذب، ليَستَنَّ مَن بعدهُ بِعدَمِها، فذلك تعليم له ﷺ ولأمَّته الأدب.

وتعرَّض لكذبهم في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ وأيضا ﴿لَمْ تُومِنُواْ﴾ أظْهر في التكذيب من أن يقال: لا تقولوا آمنا، ولو قيل: ولكن أسلمتم، لم يفد ما يفيد قوله: ﴿قُولُواْ أَسْلَمْنَا﴾ من أنّه كأنَّه قيل: قل لم تومنوا فلا تكذبوا ولكن قولوا أسلمنا، ليحصل لكم الصدق، ولو فاتكم التصديق.

(بلاغة) ولو قيل: ولكن أسلمتم لأوْهَمَ أنَّ قولهم معتدٌّ به، وهذا في البلاغة أدخل من دعوى الاحتباك هكذا: لم تومنوا فلا تقولوا آمنَّا، ولكن أسلمتم فقولوا أسلمنا.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الاِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ حال من واو «قُولُوا»، أو عطف على «لَمْ تُومِنُوا»، لم يدخل الإيمان في قلوبكم إلى الآن، وسيدخل إن شاء الله.

﴿وَإِن تُطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ,﴾ بالإخلاص ﴿لاَ يَلِتْكُم﴾ لا ينقُصكم ﴿مِّنَ اَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ مفعول مطلق، أي: ليْتًا، أو مفعول به، أي: أجرًا من أجوركم. قالت أمُّ هشام السلوليَّة: «الحمد لله الذي لا يفاتُ ولا يُلاتُ ولا تُصِمُّه الأصوات». ﴿اِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن تاب مِمَّا يصدر منه ﴿رَّحِيمٌ﴾ له بالجنَّة.

﴿اِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ لم يعترهم شكٌّ كما يعتري من ضعف إيمانه، وذلك مقابل لمن آمن ثمَّ ارتاب، ولمن ارتاب في إيمانه من أوَّل، وذلك تعريض بالأعراب. و«ثُمَّ» للتراخي في الزمان، أي: طالت مدَّتهم

في الإيمان، ولم يعقبه ارتياب، أو لتراخي الرتبة، فإنَّ رتبة انتفاء الارتياب أعظم من مطلق الإيمان، لأنَّ الأعمال بخواتمها، وعلى ما يصلحها، فيكون كعطف جبريل على الملائكة، فقديم إيمانهم وحديثه كلاهما طَرِيٌّ جديدٌ.

﴿وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في طاعته عَزَّوَجَلَّ ، على كثرة أنواعها ومشاقِّها، كالحجِّ والجهاد والزكاة والصدقة والصلاة الفريضة والنفل.

وقدَّم الأموال لحرص أكثر الناس عليها، حتَّى إنَّهم يهلكون أنفسهم في شأنها، كأنَّه تهون أنفسهم بالنظر إلى المال، فذلك تدلٌّ لا ترقٍّ، ولأنَّ الآية تعريض بالأعراب المذكورين الذين همَّتهم المال. ويجوز أن يكون قدَّم الأموال على سبيل الترقِّي من حيث إنَّ النفس لا بدَّ أعزُّ من المال عند الشدَّة أو عند تناهي الأمر.

ومعنى «جَاهَدُوا» بلغوا جهدهم، أي: طاقتهم، فلا مفعول له، أو معناه: دافعوا، فمفعوله محذوف، أي: جاهدوا العدوَّ والشيطانَ والنفس والهَوَى. ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في دعوى الإيمان، لا هؤلاء الأعراب ونحوُهم، وحلف هؤلاء الأعراب أنَّهم صادقون في دعوى الإيمان وهم كاذبون في حلفهم، فقال الله تعالى فيهم:

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الأعراب ﴿أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أتُخبرونه بدينكم؟، وهو أنَّكم مؤمنون مخلصون في زعمكم، يقال: عَلمتُ بكذا (بالتخفيف وكسر اللام وباء الإلصاق)، وهو لازمٌ، أي: اتَّصَلَ إِدْراكِي به، فإذا شُدِّد كان له لفظٌ آخر منصوبٌ كلفظ الجلالة في الآية.

وقيل: الباء لتضمُّن معنى الإحاطة، أو الشعور بالإحساس، فيفيد مبالغة بإجراء ذلك مجرى المحسوس، وفيه أنَّ هذه المبالغة معتبرة بهم لا به تعالى، بمعنى أنَّهم جعلوا الله محيطًا بهم وحاسًّا بهم.

[قلت:] ولا كبير فائدة في ذلك، ومن أين لنا أن نعلم أنَّهم قصدوا هذه الإحاطة أو الإحساس؟ حاشا الله أن يصيِّره أحد على شيء كالإحاطة، وحاشاه أن يوصف بالإحساس، وكيف يخبرونه بشيء مع أنَّه لا يجهل شيئًا؟ كما قال:

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ﴾ عبارة عن علم كلِّ شيء ولو في غيرهما، وحكمة التعبير بهما أنَّهم في الأرض وهو تعالى يعلم ما فيها، وذكر السماء لمناسبة ذكر الأرض. والجملة الكبرى حال من لفظ الجلالة في قوله: ﴿أَتُعَلِّمُونَ اللهَ﴾ وصرَّح بعموم علمه على الإطلاق في قوله تعالى: **﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** فهو علم بما أخفيتم من الكفر.

﴿يَمُنُّونَ﴾ يتلفَّظون أو يتفضَّلون **﴿عَلَيْكَ أَنَ اَسْلَمُواْ﴾** بإسلامهم، أو يعتدُّون عليك به، من الاعتداد، أو يعدُّون إسلامهم منَّةً عَلَيْك، أي: إنعامًا، وهو من المنِّ بمعنى القطع، كقوله تعالى: ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (سورة الانشقاق: ٢٥) ، أي: غير مقطوع، في أحد الأوجه، وهو النعمة التي لا يرجى عليها مكافأة، لأنَّ معطيها قَطَعَ بها حاجة معطاها، فلا يكلِّفه ثوابًا يحتاج إلى تحصيله، ولأنَّه قطع عن نفسه رجاء ثوابها، وهم يدَّعون ذلك مع أنَّهم طامعون في المكافأة بالغنائم وغيرها، أو هو النعمة الثقيلة من "المنِّ" الذي يوزن به، ولَكِنَّ ثقلها هضم شأنها، وهو عقليٌّ، وثقل ذلك الميزان حسِّيٌّ، وكذا إن قلنا: ثقلها مشقَّتها في التحمُّل بها.

﴿قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم﴾ مثل ما مرَّ، معنًى وإعرابًا، ولا يقال في القرآن بالنصب على نزع الجارِّ ما وُجدَ غيرُه بلا تكلُّف، وأجيز أن يكون مفعولاً من أجله، أي: يتفضَّلون عليك لإسلامهم.

﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُم, أَنْ هَدَاٰيكُمْ لِلاِيمَانِ﴾ مثل ما مرَّ، أي: هداكم هداية بيانٍ وإرشاد، فإنَّها نعمة عظيمة ضيَّعوهَا ولم يعملوا بها **﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** تريدون الصِّدق، والجواب محذوف، أي: فاعْمَلُوا بالهداية والإرشاد ولا

تخالفوها.

ويجوز أن يراد بالهداية هداية التوفيق، فيكون ما قبل «إنْ» مغنيًا عن جوابها، أي: إن كنتم صادقين في دعوى الإخلاص، فذلك بهداية الله عز وجل، أي: توفيقه، فالمنَّة له عليكم لكنَّكم غير صادقين.

وأكَّد تكذيبهم بقوله عز وجل: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾**، أي: غائبهما، أو ذا غيبهما، وهو ما غاب فيهما عنكم، وذكر نتيجة عموم علمه بقوله عز وجل: **﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** بقلوبكم وجوارحكم.

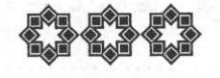
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

[تـــمَّ بحمد الله وحسن عونه الجزء الثالث عشر من تيسير التفسير، ويليه بحول الله الجزء الرابع عشر، وأوَّله تفسير سورة ق]

الفهارس



الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية



الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية

فهرس لبعض مختارات الشيخ



فهارس عامة للموضوعات الفرعية

الموضوع	الصفحة



فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

تفسير سورة الدخان

تفسير سورة الجاثية

تفسير سورة الأحقاف

تفسير سورة محمَّد ﷺ

تفسير سورة الفتح

تفسير سورة الحجرات

التعريف بالمفسِّر*

• في سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨١٨م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

• في سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن ــ بلده الأصلي ــ واشتغل بحفظ المتون الدينية واللغوية على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلامية نبوغا كبيراً.

• في سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولَّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

• منذ سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولَّى إحباط خططه وتصرفاته، وله زيارات ميدانية للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

• في سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م زار البقاع المقدَّسة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واستمع لعلمائها، وألقى دروسا في الحرم المدني، تشريفا وتقديرا له من علمائه.

---

* انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.

- له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفا أو أكثر يشهد له بالتفوق والإتقان.

- تخرَّج من معهده عدد كبير من الدعاة والقضاة والعلماء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثِّ الوعي الديني، ونشر الروح العلمية في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.

- في سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.

ص.ب : ٦٦٨ - الرمز البريدي : ١٠٠ - مسقط - سلطنة عُمان

رقم الإيـداع : ٢٩٣ / ٢٠١١

طبع بشركة مطبعة عُمان ومكتبتها المحدودة ش.م.م
هاتف : ٢٤٧٨٨٨٣٩ - فاكس : ٢٤٧٨٩٣٩٨